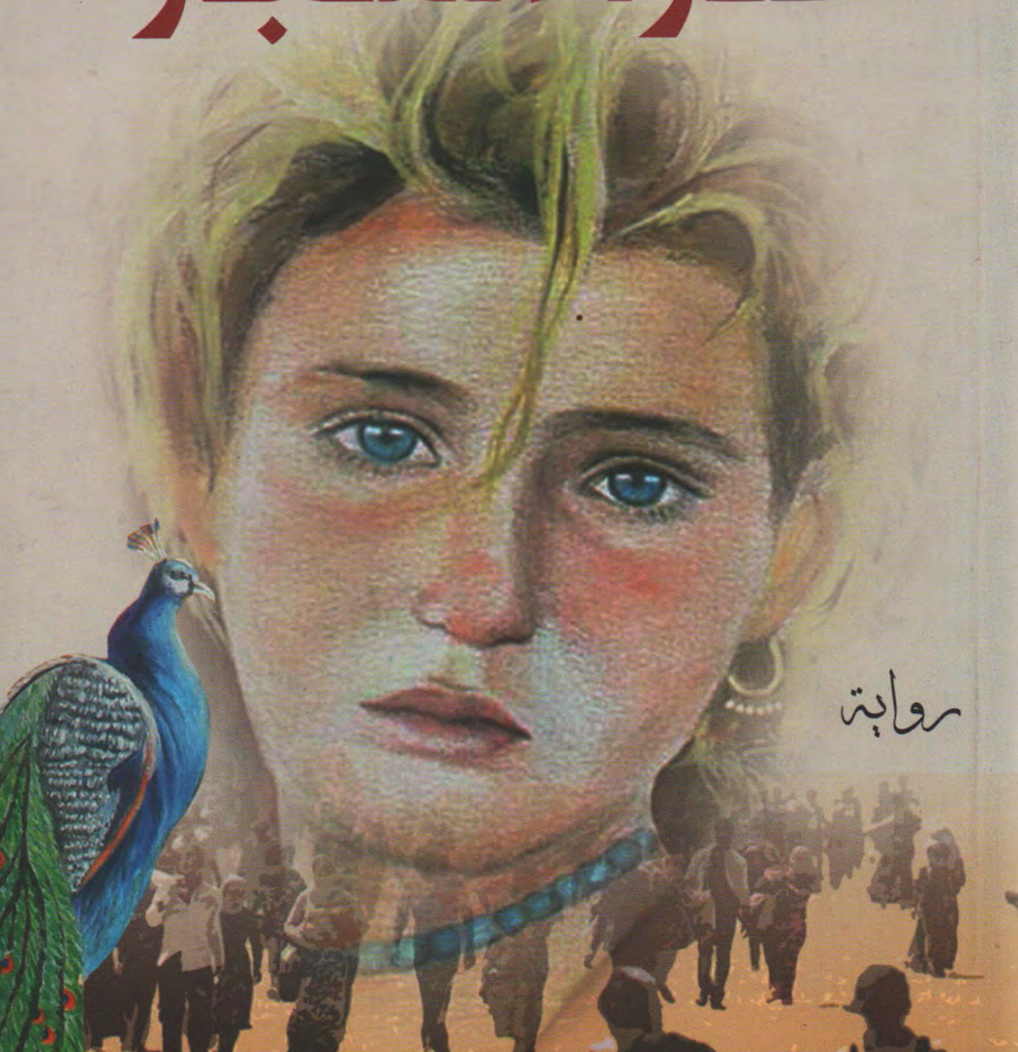
منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

وارد بدر السالم

عذراء سنجار



رواية

عذراء سنجار

Sinjar's Virgin

رواية

وارد بدر السالم

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

الطبعة الأولى

1437 هـ - 2016 م

ردمك 978-614-02-1417-0

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
هاتف بيروت: 9613223227+
editions.difaf@gmail.com

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

آمين.. آمين
تباركَ الدين
اللهُ أحسنُ الخالقين
إنّ الدنيا تفيضُ من نور الله

(دعاء أيزيدي)

رحلنا إلى مدينة سنجار، وهي مدينة كبيرة كثيرة الفواكه والأشجار والعيون المطردة والأنهار. مبنية في سفح جبل، تشبه بدمشق في كثرة أنهارها وبساتينها. ومسجدها الجامع مشهور البَركة، يذكر ان الدعاء به مستجاب، ويدور به نهر ماء ويشقه. وأهل سنجار أكراد ولهم شجاعة وكرم".

ابن بطوطة

".. والأيزيديون كُرد، ويُطلق الناس عليهم صفة عبدة الشيطان، مما يضعهم في الحال في بؤرة الاهتمام... أعترف بأن جميع مَن التقيتهم كانوا جذابين، ودودين، إن لم يكونوا بالتأكيد قديسينَ صغاراً.."

توماس بوا

الى: نادية مراد

أسيرة داعش.. المرشحة إلى جائزة نوبل للسلام

ولاية سنجار

أرامل الرواية

عندما تتساقط الأوراق
، تبدو جميع الأشجار متشابهة

نواف خلف السنجاري- كاتب ايزيدي

انغلقت السماء بغيومٍ داكنة ونزل المطر خفيفاً ومتقطعاً تخالطه أغصانٌ من بروق ضوئية سريعة، فانتشر ظل رمادي سميك على السطح جعل من المرأة الحاملَ أن تُسارع بتجميع الثياب القليلة المنشورة على حبل الغسيل، ومن حولها الكلب الأبيض يدور على أرضية السطح.

الغراب مضموم الجناحين على السياج المثلوم ينظر إلى السماء ثم إلى الكلب، فيما ظل الصقر ينظر إلى المرأة بعينين فاحصتين متضايقاً من الوقت القصير الذي سينتهي ما أن يهطل المطر بغزارة.

تساءل الغراب:

- أراك قلقاً سيدي الصقر!

قبل أن يحط؛ كما رآه الغراب؛ خطف برشاقة على رأس الحامل وخفقت أطراف ريشه على شعرها المنسرح على كتفيها ومسّ وجهها هواءٌ بارد فتبسّمت وهي ترفع يدها بقُبلة صغيرة طارت اليه مكوّرة من أصابعها الطويلة.

كان الصقر يقف على شجرة عالية في بيت مهجور ويشرف على أسلاك عمود الكهرباء التي طار اليها الغراب وترك سياج السطح متحاشياً الكلب الأبيض الذي لا يكف عن القفز عليه في لعبة مزعجة كلما كان هنا والحامل تنشر أو تجمع ثياب الغسيل أو تتشمس أو تحيك بلوزة ملونة لجنينها الذي تأخر عن الولادة.

تنهّد الصقر:

- قلق لأن قلبي لا يطاوعني أن أترك شنكال[1]. لا أغادرها الا نادراً. أدور في أرجائها وقراها كل يوم.. انها مهجورة كما ترى الا من بعضهم وأنتَ تعرفهم.. كل يوم اجوبها طولاً وعرضاً..

عبّر الغراب عن لحظة الصقر الكئيبة قائلاً:

- أصابتني الكآبة والمدينة متروكة.. خائف كل الوقت.

تكوم تل صغير من الثياب على ساعد المرأة الحامل.

رفعت رأسها إلى الشجرة العالية وعلى وجهها طيف شفاف من الفرح:

- ماذا يحدث خارج سنجار يا صقر...!

هبط لأكثر من غصن واقترب كثيرا ينظر إلى الحامل بعينين براقتين فيهما لمعة تعرفها الحامل وتأنس اليها بفرحٍ طفولي.

- كل شيء يحدث.. معارك مقبلة على ما يبدو.. وكثير من الشنكاليين في المخيمات وراء الجبل يعانون من البرد والمطر والأمراض.

- أهناك شنكاليون أبعد من الجبل!

- مخيمات كثيرة في دهوك والسليمانية وكثيرون سكنوا هياكل بيوت فارغة في أربيل..

- ألا يوجد أمل يا صديقي..؟

نظر اليها بعينين نافذتين:

- يوجد..

تأففت الحامل:

- ضقنا ذرعاً من هذا السجن..

- حتى السماء ضاقت علينا.. أي رصاصة عابرة تؤدي إلى الموت...

ثم أضاف بصوت منخفض:

- كما حدث مع زوجتي الصيف الماضي..!

---

(1) شنكال هي سنجار- باللغة الكردية التي يتكلمها الأيزيديون وشنكاليون هم سنجاريون وسيرد هذا كثيرا في الرواية وهما بنفس المعنى.

تأسفت الحامل:

- يرحمها الرب.. انت صقر جميل وشجاع.

لوى رأسه وأمعن النظر اليها بعينين متوهجتين وفتح جناحيه كذراعين مُشرعين.

تدخل الكلب الأبيض وهو يقف على ساقيه الخلفيتين:

- كلما أمضي إلى السوق يطاردوني ويرمون علي الرصاص..

قال الغراب كما لو يقول حكمة:

- لا تدخل السوق وحدك يا كلب.

التفتت الحامل إلى الغراب:

- وانت صديقي الغراب احذرك من الاقتراب من المعارك فقد ينتف الرصاص ريشك وتصبح زوجتك أرملة مثلي ومثل الصقر ومثل الكلب.. ثلاثتنا أرامل..

ضحك الغراب هههههه وهو يقول:

- حياتنا أصبحت بين رصاصة ورصاصة..

أضافت الحامل:

- لا تنسوا سالار أرمل وسَرْبَست أرمل والعجوز أرملة والخال عفدال كان أرملاً.. وحتى عيدو أرمل.. كلنا أرامل.. أرامل على الهواء الطلق..

هههه ضحك الجميع لهذه الانتباهة من الحامل، فيما بدأ المطر خفيفاً ثم اشتد بزخات سريعة، فطار الصقر مقترباً من حائط السطح يلوذ تحت سقيفة معدنية متروكة على شكل مظلة في البيت المجاور.

رأت الحامل وجهه الصغير وعينيه الواسعتين وظهره الأبيض المزيّن بخط أزرق ضارب إلى الرمادي.

كان يرفع جناحيه قليلاً كما لو يريد أن يحتضنها فيبدو إبطهُ ابيضَ ناصعاً.

تحرك الغراب مغيّراً مكانه في الجهة الأخرى منه تاركاً الأسلاك الباردة.

وحاول الكلب أن يتسلق الحائط لكن الهدّت طابوقة فأسقطته وبقي يهرهر وهو يجوب السطح.

انهمر المطر واشتدّ الرعد وتخاطفت بروق كثيرة في السماء كأغصانٍ مشتبكة من الضوء.

زرعت عينيها بعينيه وبثّت فيه لحظات تعرف إنها مُسكرة مثلما تستقبل من عينيه الواسعتين إشعاعات فريدة تغمرها بالنشوة والفرح والطفولة، فارتعش جناحاه وخفقا قليلاً قبل أن يطير وهي تلاحقه يشق المطر مثل السهم الصاعد داخلاً بين الغيوم وقتاً قصيراً، ثم يعود بزاوية حادة مضموم الجناحين مندفعاً برشاقة حتى مسافة قصيرة من السطح حيث انفتح إبطاه الأبيضان ورفرف جناحاه قريبا من وجهها وهو يحيطها بعطرٍ تعرفه فتتألق عيناه حين يعود مخترقاً شلالات المطر، ملتفتاً بين لحظة وأخرى إلى الحامل المسحورة بحضوره، فتبعته بقُبلة بأصابعها المضمومة حتى اختفى بين الغيوم. ما بعد المطر.

اكتظت بطنها المنتفخة برفسات الجنين فمسكتها برفق ومررت يدها المتحررة من الثياب عليها بطريقة المسح.

تركت السطح وعلى ساعدها تل صغير من الثياب بعد إن سبقها الكلب بنزول السلّم.

لوّحت بالتحية إلى الغراب الذي كان يراقب نظراتها الساهمة إلى الصقر المندفع ما بعد الغيوم.

سَرْبَست

ليس من الضروري ان تحفظوا اناشيد الوطن
تقول امي لأطفال المخيم

ازاد خضر- شاعر ايزيدي

لم يقلق سَرْبَستْ كثيراً حينما دقّق الملتحي بأوراقه الشخصية وقرأ (غير كافر) في وثيقة العبور التي تسمح له بالتجول بين ولايات دولة الخلافة. كان الملتحي يرتدي قمصلة عسكرية سوداء يرفع رأسها الوَبَري على رأسه واقفاً تحت مطرٍ غزير يهطل كشبكة صيد تحيط بالشاحنة كما كشفته أضواء مصابيحها الأمامية.

الشاحنة الصغيرة القادمة من ولاية الموصل مجازة من دولة الخلافة وهي معروفة للسيطرة بتنقلها بين الولايات محملة بالبضائع المنزلية الصغيرة والمواد الغذائية المسموح بها، وسائقها اللبق، الذي يمسّد لحيته الصغيرة كما لو يوحي للآخر بأنه ذو لحية أيضاً، معروف أيضاً لتردده المستمر على هذا الخط بإجازته الرسمية من ديوان ولاية الموصل.

أعاد اليه أوراق الدخول المطلوبة وتأشيرة المرور اللازمة من ولاية الموصل ونظر اليه نظرة خاصة معيداً ورقة مروره السماوية المرفقة بورقة الإستتابة الصريحة الصادرة عن والي الموصل، والتي تشهد بتحوله من دينٍ إلى دين ومن اسمٍ إلى اسم، فيما بقي الفتى نائماً على مقعده وهو يغطي وجهه بملحف صوفي صغير.

لم تستغرق عملية المرور غير وقت امتلأ بالمطر المتدفق وتخاطفت فيه سيوف البرق، عندها شخرت الشاحنة الصغيرة دافعة وراءها الكثير من البخار عابرة آخر سيطرة إلى سنجار في ولاية الجزيرة وفي طيفِ غروبٍ بارد ملفّع بالغيوم ومكتنز

بالمطر، مثلما عبرت سيطرات كثيرة بصحبة ذي اللحية المحلية النامية الـذي يحـاول طيلة الطريق أن يتحدث بأكثر من لهجة محلية وعربية وأكثر من موضوع، لكنه فشل بالتحدث بلغة شيشانية وأفغانية وبدا كأنه يُضحّك نفسه.. **هكذا يخلـص الوقـت يا صديقي.. انا مأمور بإيصالك إلى حيث تريد.. وهؤلاء لغات ولهجات..**

كان في غمرة إحساس غامض إنه يعود لغارٍ آخر غامض عليه، لكن هـذه المرة عودة من احساس آخر وحدس فيه جرأة ومجهولٌ، كما عـبر سـيطرات الموصل وتلعفر باسمه الزاجلي الجديد، بالإحساس ذاته مطمئنا من أنـه يحمـل تعويذة مرور تقيه البلاء وتدفع عنه الشرور.

يفكّر إن الرب ساعده كثيراً لعبور محنة السيطرات المتكررة برجالها الملتحين وعيونهم الفاحصة وأرواحهم الشريرة. بينما أخذ السائق ذو اللحيـة الصـغيرة يدندن بأغنية عربية كما لو انعتقت روحه من شيء ما.

- **أن تغني بينهم هذا شيء جميل مع إنّ عقوبتهم قطع اللسان أو ملص الحنجرة هههههه**

ابتسم سربست مضطراً وعاد السائق يؤكد:

- **سأتركك في مكان قريب وانت تتصرف.. هذه سنجارك صـديقي وأنتَ أعْرفُ مني بها..**

كان يرى مع آخر الغروب مساحات عارية في الكثير من القرى المتاخمـة للقضاء في الكروني والرمبوسي وتل قصب. مساحات مهجورة ومتروكة وعراء مبعثر بهياكل بيوت طينية في فوضى المكان الذي يطالعه الآن وهو يتحسس قلبه المضطرب في هذا الدخول غير الآمن كما يبدو.

استرقّ مع طيف الغروب الأخير زوايا المكان بشكل سريع كما لو يريد أن يتذكر الطرق القديمة التي يعرفها، لكنّ احساساً سريعاً غمره بأن كل شيء تغير.. **كانت هنا قرى وبيوت طين وقرويون وفلاحون وزرع ونبات وتين... يبـدو جرفوها.**

قطع السائق شروده فهزّ رأسه موافِقاً وفي داخله شرود آخر ووجهٌ مغمور بالحزن وصور تتراكم انبثقت في لحظة العودة المستحيلة وهو يشم رائحة مدينتـه

ويكتسح روحه عطر **نشتُمان** الوحيدة التي أسكرت قلبه المريض بالبقاء المترنح بين المخيم والعودة الغامضة إلى عرين يفهم الكثير من وحوشه الضارية.

لم يكن الأمس بعيداً عنه. يحمله بكل تفاصيله التي حوّلته إلى ما هو عليه اليوم. دخله برضا وعناد ومصيرٍ غامض ليس مهماً كيف سينتهي إلا بما يفكر به وخطط له حينما أحياه الربُّ في احتضاره الأخيرة وعقله مشلول عن التفكير.

في منتصف الشارع الذي ينتصف المدينة ومع انسدال الغروب توقفت الشاحنة وهدأ محركها.

بدت المدينة كتلة شبحية من البيوت الصامتة والمحال المغلقة والعتمة التي زادتها شبحيةً وعزلةً.

ثبّت نظارته على عينيه وأيقظ الفتى وترجل من الشاحنة تسبقه عصاه السوداء الرفيعة وهي تتحسس اسفلت الشارع.

تبعه الفتى وهو يتحرر من النوم الطويل، حاملاً حقيبة قماشية وضعها على ظهره وعلى رأسه رفع قبعة المعطف التي كانت تتدلى وراءه.

تمنى لهما السائق بقاء طيباً في سنجار وهو يلوّح لهما بيده.

- .. تجدني في الكراج بين فترة واخرى.. في أمان الله..

ثم أضاف:

- .. اسمي **أبو يقين**... يمكن أن تحتاج للتنقل من مكان لمكان في وقت آخر فأنا حر بين ولايات الجماعة هههههه..

وقف يتأمل شبح الظلام المثقل بالغيوم الداكنة فاحتمى بمعطفه الطويل وهو يتلقى رشقات متتالية من المطر، تكتنفه حيرة الغريب الذي يطأ المكان لأول مرة كما لو إن المخطط تشتت في داخله وإن المدينة ابتلعها طوفان النار لكنه؛ مع لحظات التأمل السريعة أخذ يتشمم رائحة الشتاء التي يعرفها حينما تكتظ الأرض بالماء وتبث رحيقاً ما يزال يعرّش في روحه وتتدلى عناقيد وروده في قلبه الضعيف، فبدأ يستجيب تدريجياً للمكان الغارب الموشّح بأطياف الظلام كما لو صار يراه بأضوية كاشفة لكنها ربما مغشوشة.

خطا أولى خطواته بعصاه الرفيعة، متجنباً الشارع الرئيسي الذي تخرقه بين لحظة وأخرى سيارات تقاوم المطر، محاذيا البيوت الواطئة في زقاق صامت وبخطوات بطيئة وروح مشحونة وقلب يرتجف.

دخل المدينة وهي تغطس بعتمة على غير عادتها القديمة. ترك المخيم بعد إن وجد لحيته قد طالت كثيراً وغيّرت من شكله وروحه وحبه للحياة. انسدلت يخالطها شيبٌ مبكّر تركت فيه حكّة اكتسبها بالعادة وهي تنمو كشجيرة شوك صغيرة. وحينما اتخذ القرار الأخير أن يتحول إلى كائن آخر. انسان أو ما شاكل ذلك من أجل الحب الذي يغمر قلبه ويحول حياته الأربعينية إلى خَيار جديد ربما، يفكّر دائماً، أن يخلّصه مما هو فيه من ارتباك وأسى وتهميش وفقدان للحياة بأقل شروطها.

لمست وجهه نسائم غروب سنجار الباردة، فاستيقظ قلبه المصدوم للحظاتٍ كما لو كان وليداً يخرج من رحمٍ معتم إلى الحياة الجديدة. لكنّ شعوراً بأنه غريب على المكان لم يزل يفتح فيه جرحاً عريضاً لا يقوى كثيراً على تحمله ونسيان أثره.

حاول أن يبعد إحساس إنه غريب في هذه الخاصرة التي يحفظها أربعين سنة، لذلك كانت قدماه تطرقان أرض المدينة بثبات يخالطه عزم أن يصل ويمكث ويبحث ويجد في هذه الغربة العابرة التي غيّرت شروط الإقامة على نحو صارخ وغير معقول.. **كلهم تخلّوا عنّا.. كلاب السياسة وكلاب الأديان وكلاب السلطة. واجه مصيرك منفرداً يا سَرْبَست فلا عدل ولا دين ولا شفيع. لا غيرك يا رب.. العنهم في الدنيا والآخِرة... أنا ابن شجرة التين المباركة لكنني ابن الذّل التاريخي أيضاً.. أنا ابن شنگال الأسيرة.**

شم رائحة المدينة بقوة واستنشق رائحة الطين والمطر والبيوت الواطئة وهو يتداخل بين الأزقة مع الغروب الأخير.

يعود من جديد متخفيا وفي قلبه أسى مرير محاولاً أن يكون ابن مدينته من جديد.

تساءل الفتى:

- **أين نمضي..!**

فاجأه السؤال فانتبه لفوره إنه في مكان ما من مدينته الصغيرة لكنه لا مكان أيضاً. شعر إنه يطفو على مكان مترجرج وهو ينقره بعصاه السوداء. استدار لأكثر من جهة يطرق بخطاه متوجساً كأنه غريب فعلاً وضاعت منه قدماه في طريق غريب.

أين نمضي!

سؤال الفتى الذي فتح جرحه ولامس رفيف قلبه المضطرب وكل هذه البيوت مرابطة على أرضها ترى عودته.. بيته القديم في **روش هلات** الذي لا يدري مَن يسكنه وكيف حاله بعد هذه الشهور.. بيت شيرين الملاصق لبيته.. بيوت الجيران.. بيت اهل الفتى الذي لا يشعر حتى الآن بفداحة خساراته الرهيبة.

بيوتٌ كثيرة يمكن الآن أن يحصيها بذاكرته؛ لكن حينما استدارت بهم الأزقة الموحلة والصامتة إلا من مطر يتدفق توقفا أمام بيوت متلاصقة لا يكشف الظلام شيئاً منها وكأنها بيوت أشباح.

- **أنا مُسيّر يا ابني. الرب معنا.. اطرق أي باب وسنكون في ضيافة أهل الدار. لابد من وجود شنكاليين أسرى في بيوتهم..**

ارتجل الكلام كأنه صوت آخر يبعث فيه الرغبة ويديم الحياة في نبضه البطيء ويقنعه بأن الرب يدفعه إلى آخر الشوط.

من فم زقاق دخلاه خبطت أقدام كلب أبيض كشفه البرق. كان خارجاً من زقاق آخر غير انه توقف قليلاً يقابل الرجل والفتى، مبللاً كإنه مغسول تحت دوش باردٍ. نظر اليهما وهو يهز ذيله بشكل حميم.

عاد الكلب أدراجه إلى الزقاق يخبُّ في المستنقعات الصغيرة. يقف بين لحظة واخرى كما لو يتأكد من أنّ الرجل وفتاه يتعقبان أثره، ثم يواصل سيره ببطء لكن يستفزه الرعد الصاخب فيلوذ إلى الحيطان القريبة.

- **اتبع هذا الكلب..**

دائرة الذئب

مثل الأرنب هذا.. دخلتُ دائرة الذئبِ
بقدمي مضطراً

سربست

تنكشف خريطة زقاق لبيوت واطئة منحنية متداخلة كلما برقت السماء ونشرت أسلاك الضوء الخاطفة. بينها مساحات عارية لم تكن موجودة سابقاً غيرت من خارطة رأسه القديمة إلى حد ما..

تكرر البرق الخاطف ليكشف أمامهما بيتاً واطئاً ينحسر بين البيوت المظلمة. كشفه البرق اكثر من مرة بباب صفيح مقشّر الصبغ وحائط مثلوم. تيقن ان نصفه من طين ونصف من بلوك.

وقف الكلب أمام الباب المقشر وتسمر الرجل مكانه وشعر إن خطواته لا تحمله أكثر من هذا المكان.

نبح الكلب مرتين، بينما انتظر الرجل البرقَ من جديد أن يكشف له المزيد من البيوت التي يعرفها؛ لكنه وجد إنه ثبت أمام الحائط المثلوم والباب مقشر الصبغ، وصوت داخلي يحثه على أن لا يطرق غير هذا الباب.

- اطرق الباب.

تقدم الفتى خطوتين وطرق الباب وهو صامت لا يفكر بشيء لكن يده تمسك العصا الرفيعة بتشنج لا يُظهرهُ الظلام الذي بدأ يوشّح المدينة، بينما كان الكلب يهز ذيله والماء يتقاطر على جسده.

- بيتُ مَن هذا!

تساءل الفتى وفي داخله شعور صبياني من ان العم ليس على ما يرام وكأنه

هو أيضاً نسي المكان بعد شهور الغياب الطويلة والعسيرة.

قبل أن يطرقه ثانية صرّ باب الصفيح وتحركت قبضته ثم انفتح نصفه.

قالت امرأة في عتمة الغروب:

- اهلا بالضيوف.. تفضلوا...

انفتح الباب كلياً ودلف الفتى مرتجفاً قبل العم سربست الذي رأى شبحاً لامرأة وهي توسع جناح الباب ليدخلا ثم تغلقه وراءهما بعد إن دخل الكلب هازّاً ذيله.

انفتح البيت من الداخل على ضوء شموع إصبعية قليلة بالكاد تضيء المكان لكنه كان دافئاً إلى حد شعر فيه الفتى إنه تحرر من الإرتجاف والتعب الذي رافقه طيلة الرحلة.

اشارت المرأة للرجل بالجلوس على بساط صوفي ممدود ورحبت به من جديد وهي ترفع بعض الحاجيات المبعثرة وتنظّم المكان بشكل سريع. فأمكن للرجل أن يرى بطنها المدورة.

قرّبت شمعة متآكلة فامتدت بعض الظلال وانكشفت امرأة عجوز نائمة متدثر نصفها ببطانية ملونة. وكانت بطن المرأة تتقدمها وتحجب بعض النور الضئيل من الشموع القليلة فتظهر تلّة من ظل يتحرك إذا تحركت.

هدأ المكان كثيرا من الداخل خلال لحظات وفي الخارج برقٌ يتخاطف بين لحظة وأخرى ومطرٍ يهطل بغزارة ورعدٍ يصطفق فيهز البيت الصغير نصف الطيني.

وجد الفتى غطاء فدسّ نفسه بعد إن أخرج موبايله ونزع حزام بنطلونه وتركه قريباً من رأسه وغفا بسرعة نادرة فمدت المرأة ذيل البطانية المنحسر الذي يكشف قدميه المبللتين فغطتهما.

- حدثني الجنين بمجيء ضيوف لهذا لم أطفئ الشمعات.

وأضافت بيقين:

- شمّه الكلب فهرع خارجاً إلى الزقاق..!

قال وصوته مختلج بالبرد والتعب:

- الرحلة كانت متعبة فعلاً والجو كله مطر من هناك إلى هنا..

حملت المرأة بطنها المنتفخة ونهضت.

- عليك أن ترتاح يا اخ.. أنت متعب.

دخلت الغرفة وجلبت بطانية ومخدة.. تركتهما امامه.

أطفأت شمعة واحدة فتوفرت عتمة متحركة تحاول الانقضاض على البصيص الأخير لآخر الشموع المثبتة في زوايا الصالة الصغيرة.

مدد جسده وخلع نظارته الطبية وأركن عصاه إلى جانبه. كان المطر يشتد ويهز أضلاع البيت.

تمتم الرجل:

- كأنه بيتي..

قالت المرأة:

- إنه بيتك يا أخ. كل شنكالي هذا بيته.. كثيرون مروا من هنا..!

جلبت المرأة شيئا من الخبز والشاي والزيتون على صينية صغيرة.

- انتما جائعان.. لكن الولد نام..

- يرتاح المرء حينما يجد مكاناً يأويه ولا يفكر بشيء غير هذا.

- رحلة متعبة.. المهم سلامتكم؟

- نعم.. طريق طويل وسيطرات كثيرة وتدقيق مزعج.. انهم دولة بحالها.

- انهم دولة فعلاً.

اعتذرت المرأة الحامل عن عدم وجود مدفأة لكن الرجل طمأنها ان كل شيء على ما يرام وان البيت دافئ.

تحركت العجوز وطلبت ماء. نهضت الحامل تتقدمها بطنها المنتفخة وجلبت لها قدحاً. أنهضت نصفها الأعلى وأمالت حافة القدح ودسّته بين شفتيها كما لو ترضعها.

يشعر سربست بطنين الساعات الثقيلة ما يزال يعصف برأسه وهو يعيد شريط النهار مع السائق الثرثار الذي لا يكف لحظة عن الحديث بأي شيء والسيطرات التي تدقق بكل شيء فتخلع قلبه حينما يسأله البعض بمزاح ثقيل إن كانت توبته حقيقية..

تحسس جيبه أكثر من مرة ليطمئن على ورقته السماوية التي جاءت به من مخيم **إيسيان** إلى سنجار من دون صعوبات ولا شكوك مثلما يتحسس صُرّة صغيرة مدفونة في خاصرته تحت القميص.

عاد يتساءل:

- كيف هي الحال هنا يا أخت..!

كانت تمسّد بطنها المتورمة وتسحب أذيال ثوبها إلى قدميها.

- سترى كل شيء.
- هل هناك شنكاليون في المدينة..!

كانت عيناها الواسعتان بضوء الشمعة المتهالكة تلمعان كلما تنظر اليه:

- هربت الأغلبية التي استطاعت أن تهرب. وبقينا نحن أسرى..
- ومن بقي..؟
- ستعرفهم.. الخلايا النائمة التي غدرت بسنجار..
- العشائر العربية التي عاشت معنا أعماراً طويلة.. لماذا غدرتنا!
- بعد الغزو جمعوهم في **القابوسية** ليكونوا بمأمن بعد إن استولوا على بيوت الشنكاليين الهاربين ومزارعهم...

همهمت العجوز المتكورة تحت البطانية بشيء فهرعت المرأة اليها. كلمتها قليلا ثم أنهضتها برفق ودبّت معها إلى غرفة جانبية مظلمة كانت المرأة الحامل تستدل على ما فيها على آخر شعاع من الشمعة.

عادت وهي تلف جسدها بذراعيها واضعة أصابع يديها تحت إبطيها.

- إن شئت أن تنام يا اخ فهذا بيتك ولا تتحرج من شيء.
- لم أصدّق اني أعود..

لمستْ فرحاً مدفوناً في صوته وهو يتحدث فقالت الحامل:

- مع ان عودتك تعني انك تعود أسيراً مثلنا.. لكن الحمد لله على السلامة.

قال وهو يطلق حسرة طويلة:

- تعذبتُ كثيراً و لم يجد لي أحدٌ حلاً.. بقيتُ وحدي.. خسرت شنكال ونشتُمان والمخيم.. فكان لابد من العودة.. الها آخر الحلول.

ناداها العجوز من الغرفة المظلمة بصوت جاف أشبه بالخرخشة، فهبّت اليها حاملة الشمعة الوحيدة فانفتح ظل هائل مكور على حائط الصالة ودلف قبلها إلى الغرفة.

قضم الرجل شيئا من حبّات الزيتون واحتسى الشاي الذي برد وهو يحاول أن يتآلف في عزلة ثانية قاده فيها حدس وصوت داخلي محتبس يظهر ويختفي كلما أوجعه قلبه وزادِ في تأمله باحثاً عن نهاية أو حتى خيط يوصِل إلى أية نهاية.

عاد الجبل اليه بكل عزلته ووحشته الصاعدة إلى السماء. لم يتصور انه سيتركه ذات يوم، لكنه كان على يقين ان حلاً ممكناً سيعيد اليه **نشتُمان**، فتخاطرت الرؤى والأحلام والكوابيس تحت راية الحب العجائبي الذي يغمر روحه ويفيض عليه كلما تمر لحظة وتمضي ساعة وينتهي يوم وينطوي أسبوع بشعور ندم لا يفارقه ويقتص منه كل تلك الأوقات التي طوت أشهراً ثقيلة بكل فصولها المتعاقبة وألوانها التي مرت عليه في تلك العزلة.

عادت الحامل تسبقها بطنها التي تشبه التنور.

تقرفصت أمامه وغطت أصابع قدميها بثوبها الطويل وضمت أصابع يديها تحت إبطيها.

أوضح لها:

- الذين هربوا ليسوا أفضل حالاً من هنا.. حياقم بائسة جداً..
- في الأقل لن يطاردهم الموت ولا اعتناق ديانة أخرى بالإكراه..
- تركوا أنصافهم هنا بين من اعتنق الدين الجديد مكرهاً وبين من وقع في الأسر وبين من قُتل.. كل شيء مؤلم هناك.. العوائل ليست كاملة.. الهرب كان فوضوياً.. نعم.. كان.. فوضوياً..

لاحظت الحامل تقاطيع وجهه المجهد ولحيته التي لا تلائم وجهه الأبيض المدوّر وشروده حتى وهو يتكلم.. ولاحظ هو دوران وجهها على عينين مكحولتين مفتوحتين برموش طويلة.

- لابد أن يكون الهرب فوضوياً.. هل سمعتِ بجماعات كثيرة تهرب فجأة وهي منظّمة؟

هزت الحامل رأسها وواصل كما لو إنه يبرر:

- عندما يهرب الأرنب فجأة من ذئب لا يفكر بصغاره في الجحر بل يقف على رابية وينتظر ذهاب الذئب.. فإن لم يذهب...

ثم تمتم: أنا مثل الأرنب هذا دخلت دائرة الذئب بقدمي مضطراً..

وحتى لا يفتح دائرة جرحه تساءل وهو يطقطق بأصابعه:

- هل توجد حياة هنا.. ناس تلتقي وتمضي أوقاتها مع بعضها؟

ردّت الحامل:

- أصبحوا بِدِينٍ جديد وحياة أخرى وهناك تعقيدات ستفهمها بالتدريج.

- لم أفهم..

اهتمت الحامل وهي تشرح باقتضاب:

- تغيرت شنكال في هذه الشهور التي فارقتَها. الذين بقوا ولم يستطيعوا الهرب فقدوا أيزيديتهم مضطرين وصاروا مسلمين ومن رفض قطعوا رقبته بشكل سهل ومَن هرب نجا لكنه ترك بيته وماله وربما بعضاً من عياله..

أكملت:

- فجروا معابد شيخ مند باشا وشيخ حسن وأمادين ومرقد السيدة زينب وكنيسة العذراء ومرقد ذاكر الدين ومعظم الجوامع والمساجد وأحرقوا أعلام الوطن ورفعوا راياتهم السوداء في كل مكان.. تغيرت الحال معهم.

كان سربست ينظر اليها بعينين ثابتتين وهي تضيف:

- قتلوا كثيراً من الخلق من دون سبب. اغتصبوا البنات والصبايا والمتزوجات معاً.

تأففت الحامل:

- جاءوا بتجارة الرقيق بطريقة كنا نقرأها في كتب التاريخ القديم..

تابعت وعيناها تلوذان بالشمعة المتبقية:

- يعتبرون الأيزيديات كافرات لذا يتوجب سبيهنّ ونكاحهنّ وبيعهنّ في سوق النخاسة..

سألته:

- أظنك تعرف هذا...!
- أعرف هذا للأسف..

وجد نفسه محاصَراً بما قالته وما لم تقله. كان يريد أن يعرف كل شيء وفي الوقت ذاته لا يريد أن يعرف كل هذا الانهيار الشامل وكل هذا الوجع. كل شيء ممكن الحدوث في جو غريب. الغرباء دائماً يحاصرون الحياة ويُغرقونها بالألم والمجهول. يسرقون الهواء أيضاً ويستبدلونه بشهقات تحتضر على مدار اليوم.

قالت وهي تزيح عينيها من لهب الشمعة المتخافت:

- أعتقد لن تتعرف على أحدٍ في المدينة.. ربما قلة ستصادفهم ممن لم يستطيعوا الهرب..

أوضحت له:

- ربما بعض البقّالين. سالار صار بقالاً لأنه لا توجد دوائر ولا وظائف.. ستجد عيدو المجنون وهو يتحرش ويناكد جنود الحسبة في السوق مثلما اسمع.. دلشاد شرطي في ديوان الحسبة.. الشنكاليات العجائز وقد تحولن إلى أفغانيات والبقية في السجون أو مختطفات.

أكملت بعدما وجدته مصغياً:

- ستجد عناصر الخلايا العربية التي كانت نائمة واستيقظت مع الغزو.. مثلما ستجد الشيشاني والمصري والصيني والفلسطيني والأفغاني والسعودي والتونسي واليمني والليبي والكويتي والعراقي أيضاً.. سترى أشياء لا تُصدّق وتتمنى لو لم تعُدْ..!

تفرقعت السماء برعد قاصف وتناوبت شبكاتٌ من البروق تتقاطع وينعكس وميضها على الصالة وكان الكلب ينبح على الظلام والبرق والرعد في الطارمة.

ساد صمت بينهما فتضخم صوت المطر كصلصلة أجراس تدقُّ مرة واحدة في الوقت ذاته فأصغيا للصوت المتدفق وهو ينهمر وينقر البيت من كل جانب.

انغلق رأسه وانفصل كله عن كل شيء وهو يغمض عينيه مخدراً. استرخى في غارهِ الجديد من دون أن يشعر وشخر بشكل خفيف منقاداً إلى سحر المطـــر الذي تركه في الجبل. وعلى نحو ما خطفت في رأسه **الراهبة نالين** وهي تتعـــرى تحت المطر وترقص رقصة غريبة كما لمحها من الغار..

تثاءبت الحامل ثم أطفأت الشمعة الوحيدة قبل أن تدخل إلى غرفتها الصغيرة التي تنام فيها العجوز..

التائب

عندما ترى دين داعش
ستكفر بكل دين على الأرض
- الحامل-

استنشق الصباح المبكر بروح أكثر استعداداً لرؤية المدينة من جديد لكـن بقلب خافق امتزجت فيه الرهبة والقلق والغموض. فأخذ يطيل التحديق بالحامل كما لو يرى أول كائن أسير من مواطنيه الذين تخلفوا عن الهـرب في الصـيف الماضي، وفي الخارج كان زعيق سيارات إسعاف يأتيهما بوضوح.

ارتشف شايه الساخن على بساط في المطبخ الصغير:

- .. أنا الآن آزاد.. آزاد المسلم الذي يحمل ورقة التوبة في جيبه..

ابتسمت وهي تقول:

- كل أسماء السنجاريين تغيرت فلا أستغرب.. فقط **عيدو** ظل على اسمه القديم و لم يدخل الإسلام.. لأنه مجنون كما تعرف..!
- لكني الآن مسلم ولستُ أيزيدياً.. ولهذا اسمي آزاد وتركتُ سَرْبَسْـت في الجبل.. أنا الآن تائب يا أخت هههه
- تبقى روحك أيزيدية مع أي دين تكون..
- أما يزال عيدو حياً في هذه المعمعة!
- ما يزال.. بعصاه التي أصبحت عجوزاً مثله..

ابتلع لقمته وقال:

- أي دين هو فكرة قد لا تعجبنا مع تقدم العمر والتجربة والأحداث..

قالت الحامل بإصرار:

- **عندما ترى دين داعش ستكفر بكل دين على الأرض..**

أجبر نفسه على السكوت هازاً رأسه وهو ينصت إلى صوت المطر الذي لم يكف منذ ليلة البارحة والى بقبقة المستنقعات الصغيرة المتكومة في طارمة البيت وفي رأسه تدور طاحونة طويلة من الأسئلة والرؤى والاحتمالات وعذابات المجهول والغياب القسري الذي طال على **نشتُمان**.

سمع أكثر من مرة لمسة موسيقية لوتر واحد كأنما منبثقة من كمان، أو هكذا خُيِّل اليه، خارج نافذة المطبخ، وانتبه إلى أن الحامل ذهبت لأكثر من مرة إلى النافذة المغلقة وكانت اللمسة الوترية تتكرر سريعة وخاطفة والحامل تومئ بيدها بإشارات سريعة غير مفهومة.

جلس الفتى وهو يجفف وجهه بملحفته الصغيرة. رأته الحامل نحيف الطول بلون حنطي خفيف وعلى جسده بلوزة رياضية ليست نظيفة تماماً وبنطلون رصاصي من الكتان.

قدمت له صحناً عليه بيضة مسلوقة ودفعت اليه استكان شاي.

قال الرجل للحامل:

- إنه فتى سبع. رافقني شهوراً طويلة في الجبل والغار..

أكدت الحامل:

- وشجاع لأنه أيضا عاد إلى مدينته و.. أصحابه..

فلقتْ زيتونة مدببة بين أظافرها وهي تحدّث الفتى:

- ربما لا تجد الكثير من أصحابك.. الذين هربوا لن يعودوا في حال كهذه.. لكنك عدتَ فكنْ حذراً من كل شيء.. جنود الخلافة كلابٌ وذئاب. لا يشفع لك أن تكون مسلماً اصلياً.. دينهم يختلف عن دينك ووجوههم تختلف ولباسهم يختلف وحتى كلامهم يختلف..

كانت ترى في عينيه الصغيرتين ذكاء وفطنة. نظر اليها وملامحه يكتنفها بعض الإرتباك والخجل.

عصرت ذاكرتها كثيراً لتسترجع صورة أهله لكنها لم تنجح سوى انها وعلى نحوٍ ليس تفصيلياً تذكرت أمه التي التقتها في أحد الأعراس الأيزيدية.

- الآن انت رجل واللعنة على الظالمين.. كلنا فقدنا أحبتنا وأهلنا..

خفّ وقع المطر. قال آزاد:

- سيساعدك الفتى في جرف المياه.

خرخش صوت العجوز من داخل الغرفة فهرعت اليها الحامل تسحبها بطنها المنتفخة..

- انتبه إلى ما تقوله لك. عُدنا ولكن لكي لا نقع بأيديهم.. وأنت تعرف البقية.. لا تتحدث مع الآخرين عن أي شيء..

أوصاه آزاد وهو يرتشف ما تبقى في استكانة الشاي ويتهيأ للنهوض في اول صباح عائد من الجبل والغار والكمب والتهجير.

حجلت الحامل ببطنها المنفوخة كثيراً:

- سيكون هذا بيتك يا أخ.. آزاد.. هنا إقامتك إلى ما شاء الرب وأنا أختك والعجوز أمك..

- اختار الرب الرحيم هذا البيت ليلة أمس. كشفه البرق مراتٍ كثيرة فأحسستُ في روحي دفئاً وأنا أقف أمامه. تسمرت كأنه بيتي حينما قادنا الكلب اليه في آخر لحظة.. والحمد لله انت فيه.

خرج الفتى يجرف المياه الفائضة في الطارمة. ظل الكلب الأبيض يتقافز بين مجرفة الفتى والبلاط المتآكل؛ لكن المرأة نادته أن يعود فالمطر لم يتوقف بعد.

استهواه هذا التدفق الذي أعاد اليه مطر الجبل الذي لا ينقطع كثيراً وهو يتلذذ بنقرهِ على البلاطات القديمة في الطارمة ويجرف أعواداً وأوراقَ شجر مثلما استهواه الكلب الذي وجد فيه ودية خالصة وهو يتشممه ويدور حوله ويطبطب في المياه السائحة على الطارمة وخسفاها الكثيرة.

شغلته في منتصف البلاطات بقعة داكنة كأنها صبغ مسكوب. ينسرح المطر عليها من دون أن تنجرف فخاله صبغاً قديماً لاصقاً في المكان وكان الكلب قد تشممه أكثر من مرة وظل يدور حوله.

عاد يتبعه الكلب وجلس بين الرجل والحامل التي أكملت حديثها:

- القتل عندهم عادة وطبيعي جداً.. لهم لهجات ولغات مؤكد لا تعرفوها.. قتلُ البشر لديهم شريعة وواجب.. لا أبالغ وسترون هذا لتعرفوا أي دين يستبيح سنجار.

ظل سربست ينظر إلى عينيها الواسعتين وهما تنفتحان كأنما تتكلمان وتسردان المخفي من حياة المدينة على نحو واضح.

أوصتِ الفتى:

- تجنبهم قدر المستطاع. ابحث عن أصدقائك فلعلك تجد أحداً وحاول أن تشتغل بأية شغلة لتكون بعيداً عنهم..

هز الفتى رأسه المشغول ببقعة الصبغ اليابسة على البلاطات القديمة التي لا يجرفها المطر والذي كان يخفُّ قليلاً ويتحول نَقْرُهُ إلى بقبقات ظريفة؛ فيما بدت الصالة الصغيرة دافئة والحامل تزيدها دفئاً بالملاحظات وبعض المشاهد السريعة التي تخطر على بالها؛ والمدينة عبر زجاج النافذة، بيوت صامتة نصفها محترق ونصفها مهجور ونصفها ميت.. تلك هي رؤوس الأشجار المقطوعة والمحترقة كما كان سربست يفكر وهو يستغرق في عيني المرأة في أول صباح له بعد العودة التي لابد منها.

اضافت الحامل للفت النظر:

- واحد أفغاني اسمه حجي خان هو المسؤول عن أمن شنكال.. احذروا منه فهو سفاح مجرم وقاتل لا يرف له جفن..

ثم أضافت موجهة كلامها إلى الرجل:

- كثيرون مروا في بيتي هاربين من القرى أيزيديين ومسلمين وأكراداً ليسلكوا أي طريق يوصلهم إلى الجبل بعدما دخلت داعش المدينة والقرى والأقضية.. الا أنتَ.. الوحيد الذي يعود إلى سنجار في محنتها العصيبة في رحلة عكسية..!

وصايا حجي خان الأفغاني

يفترق الشرطي دلشاد عن البقال سالار حاملاً كيساً من الفاكهة وهو يخرج إلى المطر الناعم تاركاً السقيفة التي يتبضع تحتها قلة من المتسوقات العجائز ومسلمات الأحياء الإسلامية القليلة وغرباء المدينة الذين يتغيرون كل يوم بخليط لهجاتهم ولغاتهم وأشكالهم ولحاهم وأعمارهم.

يعطي عيدو بعض حبّات التين ويمضي: **كُلْ يا عيدو.. اليوم تين وغداً طين هههههاااي**

موقد عيدو على الرصيف الذي يستهلك الكثير من الحطب لا ينطفئ. يأكل الأخشاب وأغصان الأشجار وأقفاص الفاكهة والسلال المتفسخة وزبالة المكان.

يمر به السنجاريون ولا يمر بأحد منذ أكثر من ثلاثين سنة بعد حادثة يعرفها الجميع والتي أخرجته بنصف عقل أو لا عقل أو بقايا عقل، غير إنه بقي كما هو: عيدو علامة المدينة ورجلها العسكري السابق الذي يجيد ثلاث لغات محلية. ينفعل بواحدة ويكفر بواحدة ويشتم بواحدة. لكنه يجيد اللغة الأكثر دهاءً وغموضاً وهي الصمت، فيمزج كل اللغات التي تعلمها بهذه اللغة التي جنبته الكثير من المشاكل بعد حادثة معركة **نهر جاسم** في البصرة(1).

دلشاد يمر على بيته القريب مسرعاً ويعطي **بروشي** كيس فاكهة من الباب ويطمئن على الولدين ويعود إلى السوق بوجه مختلط لا يفصح عن شيء وفي رأسه وصايا حجي خان الأفغاني التي يكررها عليه دائماً:

---

(1) اشهر المعارك في ثمانينيات القرن الماضي التي دارت في محافظة البصرة جنوبي العراق بين الجيش الإيراني والجيش العراقي واستمرت أسابيع طويلة خسر فيها الطرفان أعداداً كبيرة من الجنود.

لا تحدث سرقة أو مشكلة أو تعدٍ أو سوء سلوك أو تحرش أو تطاول أو كفر أو شرك بالله أو سخرية من دولة الخلافة أو تنظيم سري أو تعتيم على جريمة أو التشنيع بالخليفة ابو بكر البغدادي.

سيكون الضبط والربط من مهماتي حجي خان المجاهد في سبيل الله. لا تقلق من هذا فشن.. سنجار مدينة مهجورة وآمنة ومن بقي من الناس هم تحت اليد والعين.

أبلغْ عن الغرباء. راقب الحريم جيداً. لا نسمح بأن تخرج الحرمة بلا زيها الإسلامي الكامل. النقاب والجبّة الطويلة والكفوف والجواريب. المُحرم ضروري. تطبيق الشريعة من مهماتك يا عبدالحافظ.

لا توجد حريم كثيرات حجي خان كما تعلم سوى العجائز والبقية في السجن أو تزوجهنّ المجاهدون وكل شيء تمام.. السنجاريات سبايا دولة الخلافة وهنّ غنائم في سبيل الله.

عبدالحافظ أنت مسؤول عن السوق التحتاني والسوق الفوقاني وسوق المنارة. كنْ دقيقاً. لا تجامل. انت الآن مسلم وعليك واجب الجهاد معنا لكن ستبقى في ديوان الحسبة لضبط السوق ومراقبة السنجاريين... أنسَ اسمك القديم دلشاد.. دلشاد الأيزيدي الكافر... واضح؟

واضح يا حجي خان المجاهد. سأكون الشرطي عبد الحافظ الذي يطبّق الشريعة السمحاء. والله تعالى يحفظنا جميعاً من كل بلاء.. دلشاد الأيزيدي مات منذ 3 – 8 – 2014[1]

كثير من الأيزيديين الكفرة أسلموا لكنهم لم يسلموا من كل قلوبهم فأودعناهم السجون ومنهم مَن قتلناه ومنهم مَن ينتظر. التعليمات واضحة. وأنت سنجاري تأخذ راتباً من دولتنا الإسلامية، وغيرك مات أو هرب ومن بقي أكل الخراء.. واضح؟

واضح يا حجي خان.. جنبنا الله أكل الخراء وطيّب طعامنا بأنفاسكم المباركة.. سأكون على العهد ما دمت أتنفس طِيبَ هواء دولة الخلافة العظيمة..

---

(1) يوم احتلال قضاء سنجار من قبل عناصر دولة الخلافة الإسلامية (داعش)

تذكّر إن لك زوجة وولدين ينتظرونك كل مساء.. وإنّك تجاهـد بعـرق جبينك في دولتنا المنصورة بإذن الله مثلما عليك أن تكون رجلاً سرياً يخرس فيك السر حتى لو قطّعوك ثلاثة أنصاف أو أربعة.. واضح؟

أعزّ الله قائدنا أبو بكر البغدادي وحفظه من كل مكروه وأمدّ بعمركم حجي خان المجاهد في سبيل الله تعالى.. كل شيء واضح منكم وفيكم فعسى الله أن يتمم نعمته المباركة علينا ونحن في ثرى هذه الدولة التي نصرها الله نصراً عظيماً..

يدور في الأسواق نهاراً كاملاً يضبط إيقاع الأمكنة التي يكون فيهـا ويرافقـه ثلاثة جنود أحدهم قوقازي اختفت عينه اليمنى في حلب بعد إصابته بشظية مباشـرة وآخر سوري يعاني من ضيق التنفس يوم كان في سجن بادوش في الموصل والثالـث من الرمادي في ساقه اليمنى عرج واضح. لكن في كثير من الأحيان يكـون حجـي خان الأفغاني معهم يراقب بنفسه حركة الناس اليومية مع حمايته المختلفين وخدمـه السنجاريين ويكون الشرطي عبدالحافظ دليله إلى الأسواق والمحال والبيوت.

أنا في خدمة دولة الخلافة. والحمد لله الذي أصبحتُ فيه مسـلماً أرى الحق مثل الشمس ومثل وجوهكم المنيرة حجي خان.

اعتبر السنجاريين أعداءك حتى وإنْ أسلموا فأنت شرطي في دولة الخلافـة المنصورة ولك درجة أعلى منهم واقطع رقبة كل مخالف لا ينضـبط بضـوابط دولتنا ودعهم يهابونك ولا تجامل.. وتذكر انّ لك زوجة وولدين فحافظ علـى رقبتك يا عبدالحافظ.

رقبتي تحت سيف الإسلام العظيم وتحت سيفكم مباشرة حجي خـان. وسأكون عند حسن ظنكم أنا الشرطي المسلم عبدالحافظ ودلشاد الأيزيـدي سابقاً..

انسَ أن تكون قد درستَ يوماً في التاريخ وأخذتَ شهادة جامعيـة بـه. فالتاريخ عندكم مجلدات من الأكاذيب والخرافات والسخافات. زائف وتافه كل تاريخكم يا عبدالحافظ. انت الآن بدرجة مجاهد في سبيل الله.

نعم حجي خان. كس أم التاريخ. الآن بدأ التاريخ العظيم مع خليفتنـا المجاهد أبو بكر البغدادي.

عاريات في صباح الولاية

لشنكال التي تخاف من الظلام
شمس آذار،
وصلوات أبي وشرفدين[1]،
لشنكال، تلك البلاد الجائعة
خبز أمي وقلبي ونهدا حبيبتي،
لتلك الأرض العطشى
يفتح الله أزرار عينيه
ويبكي بغزارة

سرمد سليم - شاعر ايزيدي

كان نهاراً يفيض بشمس طرية كشفت المدينة المبللة بأمطار الليل؛ حينما دخلت سيارة بيك آب إلى السوق الكبيرة وهي تدرج ببطء قادمة من الشارع الذي يربط المدينة ببعض القرى المتقاربة وراية سوداء ترفرف بمقدمتها مخطوطٌ عليها شعار بالأبيض يهابه الجميع.

وقتها كانت طائرة واحدة بعيدة في السماء تسحب وراءها خيطاً أبيضَ غليظاً من الدخان فبدت كمذنّب يولد وينتفخ ببطء، وهو ما لفت أنظار الناس في المدينة التي ظلت اياماً غير قليلة متلفعة بالغيوم الداكنة والأمطار الثقيلة، غير إن

---

(1) يعد مزار شرفدين من أبرز مزارات أبناء الديانة الأيزيدية في العراق بعد معبد لالش النوراني.
في المزار بئر ماء عذب يقدسه الأيزيديون ويرشون من مائه على أجساد موتاهم لتبرئتهم من خطاياهم قبل الآخرة.

دخول البيك آب الحديثة بموديل 2014 التي يتراكض وراءها حشدٌ من الصبية متخبطينَ في البُرك والأوحال للمرأى الغريب الصادم، سحب الأنظار من السماء إلى الأرض بمغناطيسية سريعة لاسيما ونداء البيك آب المروّع عبر الميكرفون الطالع من قمرتها؛ يتضخم في سكون المدينة فيضفي هيبة لا مفر من الإقرار بسطوتها ومهابتها.

ومع مكبّر الصوت الذي يحث الأهالي على الخروج بلازمة "الله أكبر" باعثة الرعب والتي يكررها صوت بطريقة مستفزّة تتوخى العقاب وتتوعد به حتى لو من دون أسباب؛ تنجذب مجموعات جديدة من السكان ممن اعتادوا هذا الرعب المفاجئ. تدبّ بخوفٍ وحذر، منقادة لبشاعة الصوت ورؤية المنظر العاري ورهبته وجرأته في هذا النهار التي توفر على شمس بيضاء تكشف كل شيء بوضوح مُذل.

توقفت السيارة في منتصف السوق وهبط منها أربعة رجال يتنكبون البنادق فيما بدا حوضها الخلفي يحمل ست صبايا عاريات، متقاربات الأعمار، كأنهنّ توائم أُخرِجنَ من رحمٍ واحد. يقفن صفين مرتعشات ومجلّلات بالخزي والخجل والعار، وفي عيونهنّ ذعرٌ يمكن للجميع رؤيته شاخصاً في مشهد العرض الخارق.

تربطهنّ سلسلة واحدة تمر بين أقدامهنّ على التوالي، فيما رُبطَت أيديهنّ إلى الوراء بسلسلة أخرى على التعاقب فبرزت أثداؤهنّ الصغيرة وانكشف عريهنّ الخجول وبَدَوْنَ كمانيكانات معروضات للفرجة في الحوض المكشوف. وفيما كانت فتيات الصف الثاني يلُذنَ بفتيات الصف الأول ويخفين عوراتهن المشعرة بأجساد رفيقاتهنّ من الخلف كانت فتيات الصف الأول يعصرنَ أفخاذهن بصعوبة لإخفاء مناطق الحياء المكشوفة ويحاولن وهن متشنجات أن يخفينَ شعر عاناتهن الخفيف أمام سكان المدينة المتوافدين تحت نداء الميكرفون الصارم.

الرجال الأربعة المتشابهون في الزي الأسود توزعوا حول السيارة وأبعدوا الصّبية بأسواط طويلة، فيما صعد أحدهم بلحية حمراء ووجهٍ أسود مجدور إلى الحوض، حيث فتيات الصّفّين العاريات، وبيده عصا طويلة والأخرى تمسك رأس ميكرفون، بينما تقسم ظهره بندقية كلاشنكوف نصف أخمص إلى قسمين

متساويين بوضعها العمودي، وفي خاصرته دفن مسدسا برز كعبةُ الأسود وعلى كتفه يتدلى سوط مجدول من حبال بطريقة رجال الشقاوات.

عرفه أهل المدينة وهمهموا بخفوت ممتعضين. تباعد بعضهم عن بعض بحذر كما لو مسّهم تيار صاعق، ودمدمت بعض العجائز.. أبو عائشة.. الذّبّاح السعودي. مجدور الوجه، فاقع السمرة كإنه قهوة فاسدة؛ قاسي الملامح بشفتيه الغليظتين الممطوطتين.

رانَ صمتٌ على الجموع الغفيرة التي ظلت شاخصة العيون على الفتيات العاريات محنيّات الرؤوس كما لو إنهن مشنوقات.

قرّب المجدور رأس الميكرفون من فمه كما لو إنّه رأس بصل يهمُّ بأكله. **أمّا بعد.. أمَا وقد دخلتم الإسلامَ مُكرهينَ أو راضينَ فقدْ وَجَبَ عليكمُ الطاعة والسّير بِهُدى الرّسالةِ المُحَمّديّةِ العَظِيمةِ تَحْتَ رايَةِ لا إلهَ إلا الله محمدٌ رسولُ الله..**

.. صمتٌ جماعي متوتر يتحرر بخبرة الشهور العصيبة من لغته الكردية المغلقة ويصل إلى اللغة التي ينطقها ذو اللحية الحمراء والوجه المجدور كالبسكويتة المحروقة، حامل السوط والبندقية والعصا والمسدس والميكرفون، ومن ورائه ست صبايا عاريات متدليات الرؤوس بصفّين لحميّين تلمع الشمس على سُررهنّ وتسطع على أجسادهن الملساء المتخاذلة.

مرة صاح "عيدو" في فوضى تكسير ساقي شاب متلبس بالتدخين وهو يلوّح بعصاه القديمة: **تعلموها فإنها لغة موتكم الجديدة..** لكن الكثيرين ألجموه وأبعدوه عن ساحة العقاب خائفين ومرتبكين من سلاطة لسان هذا الرجل الذي فقد نصف عقله في مديرية استخبارات البصرة بحكاية معروفة.. لكنه ظل يصيح كالملسوع: **تعلموها.. انها.. لغة.. موتكم.. الجديدة..**

صمتٌ شامل منضغط قهراً بالخوف والقرف والاستسلام يترقب تحت هاجس انّ شيئاً جسيما أكثر من هذا سيحدث.

توقفت الأنفاسُ فيه حد الاختناق والمجدور بلحيته المتسافلة كثيراً يمارس دوراً بوليسياً على الوجوه المحدقة بالعاريات كما في كل مرة يتوجه فيها إلى مركز المدينة بِعقوبة مبتكرة.

.. أمّا بَعْدُ.. اسْمَعوا يا أهلَ سِنجارَ.. بالأمْسِ القَريب كُنتمُ في ضَلالٍ مُبينْ تعبُدونَ الشّيْطانَ والطاووسَ والحَجَر وقدْ أخزاكُمَ الله تعالى وفضحكم..

عيدو الذي يستمع كالآخرين يثير حفيظة القريبين منه فالرجل غير منضبط فإن لم يتكلم الآن فهو يضغط على مؤخرته كلما وجد فرصة ليقاطع "ابو عائشة" ويضرط كلما أوغل السعودي بتهديده، فيجعل من المكان ساحة ضحك مكتوم ويشتت انتباه الحاضرين دائما كلما حضر إلى نفس النغمة المخيفة التي تتكرر ولأي سبب، تلك التي تحمل معها لغتها المُحَرّكة ونبرتها الفقهية الصحراوية المنقرضة في أسطوانة مشروخة توحي بأسوأ مما كان في مناسباتٍ ترسخت في أذهان السنجاريين الذين تخلفوا عن الهرب في يوم الغزو..

يا أهالي سِنْجارَ الأيزيديّينَ المُشْرِكينَ بالله.. اسْمَعُوا وَعُوا أيها الملحدون المشركون بالله ورسوله المصطفى..

اعتادوا هذه الكليشة وحفظوها طوال أشهر تعاقبت بالذل والخوف وصدّعت رؤوسهم بالخلافة الجديدة التي كرهوا حتى اسمها، ولم يحفل كبار السن ممن لا تعنيهم لغة الصحراء البدوية الفجّة بترجمة ما يقوله ذبّاح، فقد نشطت حاسّة الفهم تدريجياً مع هذا الوجه المحروق والمحفور واللحية المصبوغة بخراء الضفادع كما وصفه رجلٌ أمي مُسن لا يفقه كثيراً ما يقول لكنه يتحدث بردّات الفعل المباشرة، كما في مناسبة يتذكرها السنجاريون حينما زاد على الوصف بأن لحاهم تشوّه لحية نبيهم الذي يتحدثون عنه لكنّ رصاصة واحدة أسكتته والى الأبد وتم حرقه وهو ميت قرب مبنى البلدية.

اعتادوا مثل هذه المناسبات الفظيعة فتحرروا من لغة ودخلوا إلى لغة أخرى بفهمٍ إجباري لكن في مواقف مثل هذه التي أمامهم.

لم يفارقوا النظر إلى الفتيات العاريات الملتاعات في الحوض وهو ما أثار الكثير من النساء والرجال، فكانت شتائمهم تتقاطر باللغة الكردية همساً فتتلقفها الأكف القريبة لتمنع إكمالها بخوف. فيما كان المجدور يواصل الوعيد بطريقة متوحشة يذكّر فيها بالإنصياع إلى ضوابط الخلافة ونهجها النبوي الحنيف بلغة

قرآنية يعوج فيها لسانه كثيراً، معيداً للجمع المسكون بالرهبة علامات السبي والقتل والبتر والحرق والشنق وتكسير الأيدي والأرجل والرؤوس.

. تَدبّروا أمْرَكُمُو مَعَ خِلافَتِنا الرّاشِدَةِ وَشَرِيعَتها السَمْحاء أَيُّها الكَفَرَة.. يا عَبَدَةَ الشّيطانِ وَعَبَدَةَ الشَمْسِ فَمَن قتلناه منكمو فإلى جِهَنَمَ وبِئْسَ المَصير وقادرونَ أنْ لا يبْقى لكُمو أثر..

همسهس عجوز في احد الصفوف المتراصة باللغة الكردية (**كس ام دينكم يا كلاب..**) غير ان أكثر من يد تلجم فمها وتسحبها إلى الخلف، فيما يواصل المجدور خطابه اللاذع بطريقة هستيرية ويده تمسك العصا وبين تارة وأخرى ينظر إلى العاريات المخذولات مشيرا اليهنّ باستخفاف.

غرز عينيه بالجموع التي شكلت قوساً ذا خطوط متداخلة حول العجلة وعيناه تنضحان بالقسوة والشر؛ وهو يضرب بعصاه على الهواء كأنه يضرب شبحاً لا يراه غيره، وقد قرّب رأس البصل اكثر إلى فمه مستديراً إلى العاريات المنكفآت على عارهنّ الشخصي وسط الجموع، ومع الوقت الثقيل الذي يتلاعب به المجدور كما لو يقوم بدور سينمائي ممل في واحد من أفلام السبي التاريخية، كانت الوجوه المحيطة بالعجلة بلهاء غائبة عن صورها الحقيقية، ممسوخة إلى الحد الذي كان المجدور يراها متشابهة وغبية.

هاتِهِ السّافلاتُ بناتُ الشّيطانِ الأيزيدياتُ رفضْنَ الطّاعةَ والدّخولَ في شَريعةِ اللهِ بِخلافتِنا الإسْلاميّةِ... وعليهِ..

تركَ الميكرفون عند أسفل قدميه. تناول العصا وأعطى ظهره لجمهرة الناس وهو يعيد النظر إلى الصبايا المسحوقات واحدة واحدة ويرفع رؤوسهنّ بالعصا باصقاً عليهنّ بكراهية متمتماً.. مُلْحِدات.. مُشْرِكات..

فتح فمه العريض وصاح بلا ميكرفون فبانَ مثل وحش يريد أن يفترس الهواء:

يا شَياطينَ سِنْجارَ نساءً وَرِجالاً سَأقرأ عَليكُمُ الحُكمَ الشّرْعِيَّ الخاص بهاتِهِ المُشْرِكاتِ باللهِ وَرَسُولِهِ الّذي أفْتَى بِهِ القاضِي الشَرْعِي في سنجار.

فرش ورقة أمام وجهه وقرأ بعصبية:

"بسم الله الرحمن الرحيم

ولاية الجزيرة – قضاء سنجار

حُكْمٌ شرعيٌّ

بالنظرِ لامتناعِ الكافراتِ المدرجة أسماؤهنّ في أدناهُ بالدخولِ إلى الدينِ الإسلاميّ الحنيفِ، ونظراً لصغر أعمارهن وبعضهنّ غير بالغات، فقد حكمْنا شرعا بحقهنّ الحكمُ التالي:

أولاً: حلقُ رؤوسِهنّ في مكان عام ويشهد على ذلك العامّة.

ثانياً: جلدهنّ ثلاثين جلدة في مكان عام ويشهد على ذلك العامّة.

ثالثاً: تُعد هذه العقوبةُ أوليةً وتأديبيةً وتودَعُ الكافراتُ في سجنِ الولايةِ بعد الجّلدِ لحينِ توبَتهنّ، وبخلافهِ تُقطعُ رؤوسِهنّ في ساحةِ الإعدام بعد صلاةِ الجُمُعَةِ المُقبلة.

الأسماء:

1– الأيزيدية الكافرة : هَفين شمسو

2– الأيزيدية الكافرة : كولي خُدُر

3– الأيزيدية الكافرة : خَناف بيزار

4– الأيزيدية الكافرة : روهات أوميد

5– الأيزيدية الكافرة : بهار خورشيد

6– الأيزيدية الكافرة : بوري آزو

القاضي الشرعي

ضرط عيدو ضرطة جبارة كإنها انفجار عبوة لفتت المجدور المستثار فبصق عليه من مسافة بعيدة ووجهه ينذر بالخطر فحمل عيدو جسده المتهالك سانداً عصاه على كتفه وهو يحشر نفسه في الخط الأخير من الحشد وجعل يده مظلة لعينيه ناظراً اليه والى العجلة وفتياتها وهو يهمهم كمرجل يغلي.

سَرتْ همهمة بين الجموع المتراصفة وفلتت كلمات سباب باللغة الكردية، ونادت امرأة من مؤخرة الحشد: **حرام عليكم يا جحوش**.. وبرز صوت عربي لرجل وسط الحشد.. **أي اسلام هذا**..!

رصاصة واحدة في الهواء من بندقية حجي خان الأفغاني كانت كافية لأن يصمت الجميع وتعود الوجوه لتتشابه من جديد في صمتها المقهور وفي ضغط اللحظة المتوترة كأنها تماثيل لوجوه متحفية تُعرض تحت شمس المدينة.

تقدم الرجال الأربعة مشرعين أسواطهم الطويلة وانضموا إلى رجل الخطاب ووقفوا أمام الخط الأول للصبايا الثلاث العاريات..

أنزلَ رجل الجدري عارضة الحوض الخلفي للسيارة فانكشفت السيقان العارية لصبايا الصف الأول وبدت قاماتهن الملساء تثير الشفقة والأسى والخوف بين الجموع، فيما بدت مناطق الحياء المكشوفة أكثر إثارة للاستياء بين الحاضرين، ففلت سباب وشتائم باللغة الكردية والتركمانية لنساء فقدنَ أعصابهنّ، وصرخات مكتومة كانت كلها تُجهَض من رجال مترددين لمراقبة المشهد المفاجئ، غير إن المجدور، وقبل تنفيذ أحكام القاضي الشرعي الصريحة اقترب اكثر من صبايا الحوض الخلفيٍ ودنا من أقدامهنّ وفتح السلسلة المتعاقبة بين الأقدام، بما يتيح لهنّ التحرك قليلاً.

صعد يهمهم بعصبية ورأس سوطه يدير أجساد النساء إلى الخلف واحدة واحدة فأصبحن بمواجهة الخط الخلفي للفتيات الثلاث الأخريات المنزويات بعريهنّ.

بدت مؤخراتهنّ البيضاء ترتعش فأضيف لحلقة السكان المذعورين مشهد خلفي آخر أثار الرعب والخجل والشعور بالعار، لاسيما الرجال الذين أخذت اوصالهم ترتعش ويمور فيهم خوف مخلوط بحقد، بينما صاحت أكثر من امرأة باللغة الكردية.. **هذا عيب وحرام يا كلب.. هذه بنات شريفات يا بومة..**

أعاد البسكويتة المحروقة ربط أقدام الفتيات بالسلسلة المتعاقبة بينهن من الأسفل وأحكم ضبط وقوفهنّ معكوسا وحينما نزل من حوض العجلة اتضح المشهد الأخير: اجساد خلفية بخصور بضّة ومؤخرات ملساء محدّبة.

صعد أحدهم إلى حوض العجلة وأخرج من جعبته مقصاً طويلاً وحربة ملساء. جرّ جديلة الفتاة الأولى من الخلف وبترها بلمح البصر ورماها خارج العجلة وبدأ يحك بالحربة قبعة الشعر الأشقر بحلاقة فوضوية تركت الفتاة تتململ، لكنه بمهارة انتزع كل الشعر فبدا قحف الفتاة صغيراً مشطّباً بخطوط شعر خفيفة غير مهلوسة. فبدا رأسها صغيراً مثل كرة فاكتمل عريها تماماَ من أعلى إلى أسفل، ولم تنج الباقيات من هذا الدور الذي لا يَعَيْنه كلياً في وضع العري المذل والكاسح حتى عبر الحلاق إلى الثلاث الباقيات اللواتي كنّ مستسلمات لمقصّه وحربته التي حفرت في رؤوسهنّ وأزالت الضفائر الذهبية والسوداء والتسريحات المسترسلة فأمكن للقريبين من العجلة أن يروا تبدل سحناهِنّ بطريقة مخزية. لاسيما بعد إن سمح الرجال الأربعة بتصوير هذا المشهد فاقترب صبيان يحملون الموبايلات ورفع آخرون أيديهم يلتقطون هذا المشهد الغريب النادر وهو يحفر في أرواحهم ويشعرهم بالضعف كثيراً.

كما لو إن العري الآن أصبح أكثر وضوحاً لصبايا العجلة بخطيها العاريين بعد حلقهنّ السريع بالمقص والحربة، لكن أمكن مشاهدة بعض الحزوز والشروخ الصغيرة في رؤوسهن جميعاً والتي أخرجت خطوطاً من الدماء وتركت ندباتٍ مثلما تركت بقعاً صغيرة لبتلات شعر غير مجزوزة بحجوم متفاوتة، وهو أمر رآه المتجمهرون بسبب سرعة الجز لحلاقٍ موتور وعصبي يمارس دوراً هامشياً كما بدا.

تجمعت الضفائر والتسريحات المتساقطة تحت أقدام الفتيات العاريات. تغيرت أشكالهنّ بلحظات فبَدوْنَ كجنّيّاتٍ صغيراتٍ محاصرات بالسلاسل. ولم يبدر منهنّ غير النشيج والأنين المكظوم.

ستة رؤوس صلعاء تحت شمس وفيرة الضوء تتلامع مبقعة بأفلاس الشعر الخفيفة كجزرٍ تباعدها شطحات دم تنز وتنسدل كخيوطٍ حمرٍ لزجة.

تشاور الرجال الأربعة سريعا وتوزعوا بخفّة. كل رجل منهم يقابل ظهر ومؤخرة صبية من الصف الأول.

تقدم المجدور ماسكاً مؤخراهِن بالتناوب كمن يزنها بطريقة وقحة وعلى وجهه ابتسامة منتصرة بل أدخل طرف عصاه في مؤخرة إحداهنّ فصرخت

للحظة وهو يضحك ببلاهة. ثم عاد فأوعز لجماعته البدء بتطبيق الحكم الشرعي..

بدأ الأسود المجدور بجلد الفتاة الأولى ومعه باشر الثلاثة بجلد الأخريات بلحظة مماثلة وهم الكويتي الأثرم كما يسمونه ووعد مال الله المنقلب مع داعش وصُهيب مسؤول التجنيد الذي يتنقل بين البعّاج وسنجار.

كان وقع السياط لاسعاً أثار الصراخ والعويل للصبايا اللواتي كنّ صامتاتٍ حتى قبل لحظة. ومع اول سوط للمجدور انفتحت الأجساد عن صراخٍ مكبوت وتوسلات طفولية غير مفهومة في فوضى اللغط الذي أثاره السكان وهم يتحركون في أماكنهم متقاطعين في الألم والذعر. لكن على الأكثر ترددت.. **تو تكي دري بابو**[1] كاستغاثة ميتة في لحظة القسوة الفريدة؛ فيما كانت السياط ترسم تقاطعاتها على الأجساد الناعمة وتترك آثارها بخطوط حمر نزف معظمها، ومع اشتداد الجلد نفر رذاذ من الدم، بل إن الفتاة الثالثة من الصف الأول هطل رأسها وكفت عن الصراخ وجلدها يتمزق وصار خريطة من الدم وانسفح بولها بين فخذيها غزيراً..

شهقت امرأة من المجموع بلغة كردية.. **كافي الله يخليكم**.. وصاحت أخرى يا **همج يا كلاب يا أنذال**.. فلم تجد اليد التي تمنعها وتسحبها إلى خارج الحلقة المكتظة فواصلت شتائمها بحرقة.

تشجع بعض الصبية والشباب ورموا المجدور وجماعته بالحصى واندسوا بين الناس، فيما تراخت الفتاة الأولى وهي تنادي أباً غير موجود؛ **تو تكي دري بابو** و لم تتمكن الثانية من الصمود فصرخت صرخة مفجوعة ثم همدت كما لو ماتت منهارةً في قيدها وخرير بول يبلل فخذيها وساقيها. وبقيت الأخريان تصرخان ملتاعتين والسياط تتناوب على بضاضة أجسادهن التي تحولت إلى خطوط حمراء؛ فصارت الساحة مكتظة بالأصوات وهوّمت الأيدي بالشتائم والسباب وتساقطت حصوات متفرقة على الرجال الأربعة وتموّج الناس كما لو يريدون

(1) وينك بابا.. باللغة الكردية – البادينية التي يتكلمها السنجاريون.

محاصرة البيك آب موتورين وملسوعين لهذا المشهد المفزع، وربما أدركوا ما هم فيه من حصار لم يحسبوا حسابه؛ فصعد الحلاق لقيادة البيك آب التي شـخرت بقوة ونفثت دخاناً كغيوم بيضاء ساخنة. عندها حمل عيدو جسـده المتـهالك واعترض العجلة كاشفا عضوه المنكمش بطريقة تحدٍ غريبة ومفاجئة ورشّ المسافة بينه وبين العجلة بشريط بول متدفق، لكن البعض سحبه وأدخله بين الجمـوع المتداخلة وهي في لحظة فوضى قد بدأت.

تحركت البيك آب قليلاً وسارت ببطء لتفرّق الناس الغاضبين نسبياً فيمـا بقي الثلاثة يواصلون جلد الفتيات وظهورهنّ غارقة في خيوط الدم، تُظهـر في نزيزها شحوماً بيضاء تصطبغ بخيوط أخرى نازفة تنزلق عليها فتغطيهـا، لكـن السياط كانت تزيح الدماء النازفة وتطشّرها على القريبين من العجلة التي أخذت تدرج ببطء لتعرض المشهد مع الفتيات اللواتي لُذنَ بالصمت والخرس، قبـل أن تفجّر السياط أجسادهنَ في مكان آخر جذب بشراً آخرين وسكاناً هرعوا لرؤية هذا الكابوس البشري الحي. يقابل ذلك انزواء البعض الآخر وتسربه من الحلقات الضاغطة بهمهات دامعة وقلوب مختلجة بالخوف.

لم يكن صراخ الثلاث الأخريات ولا توسلاتهنّ كافياً لمنع الجلد الموتور وهـنّ يُعْرَضْن في المشهد الأمامي بدلا من فتيات الصف الأول المنهارات على سلاسلهن في أنّاتٍ محتضرة بعدما غطّت الدماء ظهورهنّ ومؤخراتهنّ واصطبغنَ بلون اسود قـاتم. فضاعت اللغات الكردية والعربية والتركمانية في انفجار السياط الملتهبة على أجسـاد الصبايا التي كان الدم يسطع منها كالبرق مع كل سوط جديد.

حثّت البيك آب عجلاتها مبتعدة نسبياً عن حلقة السوق المتزاحمة، بينمـا توقف الجلادون الآخرون وأشهروا بنادقهم ورموا بعض الإطلاقات في الهـواء، لكن الجموع تشجعت أكثر وهي تشتم المسلحين وتقذفهم بالحجارة، وتجـرأت النساء بقذفهم بالنعل مع صياح تنامى كثيراً وأصوات غاضبة كان الكثير منـها يكفر بالسموات والارض.. فيما عادت طائرة المذنب البعيدة في السماء تسحب خرطوماً طويلاً من الدخان الأبيض وراءها وهي تمرق بلا صوت وتتوارى لكنّ أحداً لم ينتبه لها.

شخصٌ ما صرف الوقتَ على أعصابه المتوترة، محاولاً أن لا يحتك بـــالجموع المهزوزة. وضع على عينيه نظارة طبية عريضة تشوبها عتمة خفيفة من سواد، فامتصت ارتعاشات وتقلصات عصبية في وجهه الملتحي. واتكأ على عكـــازة رفيعة سوداء تتسرب خلالها اهتزازات جسده.

كان قد ابتعد عن الآخرين نسبيا ووقف على دكّة محل مغلق، مستفيداً مـــن تقاطع عوارض خشبية يستند عليها بقامته الطويلة النحيفة التي ساعدته على أن يصور المشهد بموبايله الجالكسي مثلما حصل حتى ابتعاد عجلة الـــ بيك آب وتواريها عن السوق.

كان مطمئناً إلى أن شحن الجالكسي لم ينتهِ وقد أسعفه حتى آخر لحظة مـــن تصوير هذا المشهد الصادم.. لكنه كان يسمع سيارات إسعاف تصـــوّت في أكثر من مكان.

ما تبقّى من أرض التين

إحفظوا أكثر الأشياء غيباً

لئلا تتغير عليكم

الفصل الخامس/ 4
من كتاب الجلوة الأيزيدي المقدس

انسحب الرجل ذو النظارة الطبية الموشومة بعتمة خفيفة موجوعاً خافق القلب ومرتعش الجسد في هذا النهار السنجاري الذي فاجأه بصدمة قاسية لم يتوقعها أن تكون بهذه السادية المفرطة.

رمى بثقله على عكازته الرفيعة السوداء محتبس الأنفاس إلى حد كبير كما لو يريد أن يختنق فتشبث بهدوء ظاهري حينما اطمأنّ إنّها ليست في مجموعة الأسيرات العاريات بالطريقة المريرة التي رآها وصوّرها، غير إنّه إزداد امتعاضاً مع الدقائق التي تلت الواقعة المخيفة وهو يغادر المكان محشوراً بين الناس وفي فمه تتحلّب سوائل مُرّة وقلبه يخفق بقوة كما لو انه يريد أن يطير من صدره.

هذه بواكير الرؤية المباشرة التي خلخلت وجوده في عودة مقلقة إلى المدينة وقلّصت من احتمالات أمله أن يكون الأبَ غير المنهزم بعد حمامة الزاجل التي كتبتْ له وجوداً جديداً في ورقة سماوية يندر أن تحدث في ظرفٍ كهذا الظرف المتداخل في مدينته الأسيرة..

وأخيراً بينهم...

همهم سَرْبَست بريقٍ جاف وهو يسير بخطىً متعثرة وعكازته تنزلق من أصابعه المرتعشة، لكنه يقبض عليها بعناد، فيما واتاه إحساس كمن تبعثر وجهه وتفككت عناصره مثلما تبعثرت لحيته التي طالت في شهور الغار والعزلة الجبلية المثيرة.

ومع إنه وجد في لحيته زمناً من عزلة رافقته فيه فصارت دليله الشكلي وهو يخطو في شوارع وأزقة المدينة من جديد متجاوزاً وسامته الأربعينية التي كانت فيه يوم كانت الحياة حرة كحمامة بيضاء طليقة في حقول القرى المحيطة بالمدينة قبل أن تتحول إلى لحية مشعثة تثير فيه الحكّة والقرف.

شعر إنه لا يقوى على ضبط رأسه المفكك؛ لكنه يدرك إنه يسير على شَعرة لا يريد أن يقطعها ويدخل في مجهول يفتك به ثانية. انها شعرة الله في وثيقة حمامة الزاجل التي ألقتها على الجبل ذات صباح قريب فأعادته إلى سنجار في ليل كثير المطر.

بشكل أكثر ألماً أعاد له منظر الصبايا المجلودات قضية الصبايا الحوامل اللواتي أطلقت داعش سراحهنّ من دون فدية في شهر الولادة الأخير حينما كان في الغار وحيداً مع فتاه المسلم ذي المصير المجهول.

يومها اعتصر قلبه ألم لم يعرفه من قبل حينما كاد يواجه الحقيقة المريرة لولا عناية مجهولة أفلتته ذلك اليوم ليعود قريباً من دائرة نشتُمان في غيابها الطويل.

طرد نفسه من مخيم النازحين بإرادته ليتأمل كل شيء بروح مكسورة وأمل لا يأتي طيلة شهور عصيبة اختلطت فيها الرؤى والروايات والشائعات، حتى الشهر الذي حسم فيه أمره بنزوحٍ معاكس في مغامرة مجهولة تحت ستار آخر ومنقلَب آخر حينما لم يجد اسمها بين الأسماء الحبلى، فقادته غريزة الحب العاصفة أن يخطوٍ باتجاه المدينة المنكوبة في أسرها الطويل، وهي الخطوة التي كان يخطط لها بعد إن فقد كل احتمال بعودها أو معرفة مصيرها بين عشرات المئات من نساء وصبايا شنكال.

ساعده الرب في لحظة اليأس الأخيرة وارسل له حمامة زاجل أسقطت عليه وثيقة جديدة تسمح له بعبور الحدود بين ولايات دولة الخلافة الإسلامية من دون مساءلات وشكوك، بغطاء روحي تقتسمه حكمةُ إن الخسارة تبقى فردية مهما كانت جماعية وإن المصيبة شخصية حتى لو اشتركت فيها المدينة كلها، والدين مجرد تسمية تفرز ألوان البشر وأصواهم في جامعٍ أو كنيسة أو معبد أو حتى في الهواء الطلق لا أكثر ولا أقل.

تحسس الورقة السماوية فشعر باطمئنان مَن يشعر إنّ رفيقاً لابد منه في سفر خطر وطويل، لكنه اطمئنان حذر يغلي في روحه التي لا تستقر علـــى حـــال. فالورقة التي سمحت له بعبور ولايات الخلافة وقواطعها وأعادته إلى سنجار هـــي نداء الرب السري أن يكون في أزمة المدينة يوم تركها وقد حال الرصاص بينـــها وبينه ففقد نشتُمان في لحظة غريبة هي أكبر من الضعف وأكبر مـــن الخســـارة اللاحقة..

يتذكر تحذيرات الحامل قبل أيام فلا يريد أن يصدق (**عندما ترى دينـــهم ستكفر بكل دين على الأرض**) فينغمر بإحساس من الفجيعة الداخلية وهو يخطو مرتعشاً ومشهد الجلد العاري لا يفارق رأسه فتحاصره دموع لم يـــذرفها بعـــد وتخنق عينيه تحت نظارته الطبية.

عدتُ اليك يا شنكال بورقة براءة من حمامة غريبة. أرسلها لي خـــودا. اسمي آزاد. تركتُ الاسم القديم سَرْبَست ووهبني الرب اسمه. الـــرب هـــو الحرية.. انا آزاد[1]. أنا حر. تخلصتُ من كل شيء كان يربطني بالماضي.. من العدل أن نلفظ الماضي حينما يكون تعيساً إلى هذا الحد ونستعين بما يوحيـــه الرب لنا.. لنكن أنبياء بطريقة ما.. آزاد اسمي الان. سألني أحدهم في إحدى السيطرات وهو يقرأ كتاب التوبة الثمين. ماذا يعني اسمك؟ قلت له يعـــني الحرية.. قال: حسناً فعلت وتحررت من أيزيديتك..!

انا ابن سنجار الأسيرة. معي فتى مسلم فقد الحياة مبكـــرا بضـــياع أهلـــه وإعدامهم سيساعدني في البحث عن نشتُمان[2] ذات الشعر الذهبـــي المنســـرح والعينين الفيروزيتين.. شبيهة أمها الراحلة في الطول والحلاوة والرقة والعذوبة.

وجدتُ فتايَ اليتيم أكثر من مرة يكلمها بطفولـــة ويـــذكّرها بأشـــياء صبيانية ومدرسية طريفة. يناغي جارته الحلوة التي لم يرهـــا حلـــوة ســـابقاً لأيزيديتها المغلقة.. نقل كلّ صورها إلى موبايله بعد إن كان ينـــزل للمخـــيم بدعوى شحن الهاتف..

---

(1) آزاد- تعني الحرية باللغة الكردية.

(2) نشتُمان - تعني الوطن باللغة الكردية.

قالت لي ذات طيف وكانت سعيدة ان الفتى نسخ صورها: بابو لما تجي جيبه معاك..

أغلق هاتفه الجالكسي بنفْسٍ قلقة كأنه يحبس أرواحاً شائطة فيمنحها الراحة الأخيرة في صندوقه الصغير، مثلما انسحب الآخرون متثاقلين كما لو يسحبون أرجلهم من طين لزج وبدوا في تخاذلهم كمجموعة حشرات ممغنطة برائحة سامّة.

لم تنقطع ثرثرات العجائز القليلات وشتائمهنّ وبكاؤهنّ وصدمتهنّ، بينما كان بعض الشباب والصبية يعيدون ما صوروه في هواتفهم النقالة من حفلة العري وحلق الرؤوس والجلد القاسي ليتذكروا أسماءهنّ المجلودة بقسوة لم يروا مثلها إلا في أفلام ومسلسلات تاريخية معينة، فيما كانت أنظاره القلقة تتخاطف على وجوه الصبيان اللاهين باحثاً عن فتاه.

وكعادته، ومنذ دخوله المدينة من جديد متلبساً بحكمةٍ أخرى ومصير غامض؛ يتحاشى إلى حد معين العم عيدو الرجل السبعيني الذي عاد ذات يوم بنصف عقل من الاستخبارات العسكرية في البصرة وبيده عصا غليظة ذات رأس مكوّر. مجنون المدينة الوحيد أو عاقلها الأكثر طراوة وخفّةً وانفلاتاً حينما يريد أن يفلسف الأحداث بطريقته البدائية التي تُضحِك الآخرين وتقول عنهم ما لم يستطيعوا قوله. لكنه يعود ليكون مجنونَ المكان بطريقة الهذر ورصف الكلمات في جمل كردية وعربية وتركمانية معاً فهو يجيد هذه اللغات.

لحية المجنون

لا تعوّل على جماهير احترفت التصفيق والطاعة العمياء
فإن في اعماقها وحشية نائمة

سربست- آزاد

لم تتغير هيئة عيدو كثيراً لكنه ازداد شيخوخة كما بدا لي وانسدلت لحيته بيضاء كاملة واختفى سوادها القديم وتهدّل شارباه الطويلان الأبيضان.. **حتى عيدو شابت لحيته يا سنجار**.. لكن بقيت عصاه لا يفارقها في الظروف كلها.. تلك العصا التي لا لون لها الآن وريثة سنواته الطويلة..

عندما يبقى مجنون واحد في المدينة ستُصبح لها ذاكرة لا تُنسى..!

جلس أمام محل على تنكة بنفس منقبضة وصراخ الفتيات العاريات يملأ رأسه وهو يلاحظ غمامة واحدة استشرت على الوجوه التي عادت من موقعة الحلاقة والجلد. غير ان عيدو ظل وحده يشتم بعربيته التي تعلمها في البصرة يوم كان نائب ضابط في الشعيبة.....

تفووو عليكم وعلى خلافتكم.. شنو هذا اللي يصير يا خودا الكردي والعربي.. كم خودا عندنا.. لازم خودا صار داعشي هعهعهعهع..

يرفع عصاه للسماء ويشتمها بقسوة وتطفر أكثر من دمعة من عينيه وتتسرب بين لحيته البيضاء الغزيرة.

يتحسس من سيل الشتائم التي يكيلها عيدو غير المنضبط؛ فيما يحدق بالنساء غير مصدّق إن السنجاريات القليلات تحولن إلى أفغانيات بين ليلة وضحاها. ضاعت الالوان الزاهية والعمائم البيض المزينة بورود الجوري وبدت السوق أمامه كبالونات نسائية موحدة، فتخيل الوجوه المختفية كأنها وجوه

مغلوطة لحيوات هي غيرها التي كان يعرفها في سنجاريات الأنوثة المبهجة والألوان السعيدة.

تمادى عيدو بشتائمه وكفره بحرقة قلب أكثر مما يجب وخلط الشتائم الكردية بالعربية والتركمانية بشكل وضع الجالسين في حرج فظلوا يتلفتون إلى كل اتجاه تحسباً من جماعة الحسبة ثم تسربوا واحداً بعد الآخر.

لم يكن مستعداً لسماع هذيانات عيدو في أيام عودته الأولى وجماعة ديوان الحسبة يجوبون المكان دائماً ويسرقون أنفاس الناس بطريقتهم، ومواطنوه المتويتيّون والخاتونيون والكجيلّيون[1] خرجوا من الخلايا النائمة إلى خلايا التعصب والطائفية وإشاعة الفوضى وتطويق أنفاس المدينة بشعارات جديدة.

طالعته بعض وجوه عناصر ديوان الحسبة المليئة بالكراهية من مواطنيه المسلمين الذين يراقبون الشهيق والزفير. عرف بعضهم. صُهيب بائع الموبايلات المسلم الذي تحول إلى قرد يخطف الأيزيديات ويسلمهنّ إلى جنود الخلافة، وأحمد الذي يقال إنه يرمي الأطفال الأيزيديين من فوق البنايات والمساجد وخورشيد الكردي الذي خرج من أعماقه سفاح خطِير.. ههههه.. إيهاب ووعد وفاروق وعمار كلهم تحولوا إلى علم أسود وأبيض وغيّروا من صلاتهم وأضافوا لها قِبلة جديدة وركعة ثالثة..

البعض الآخر تنكر لدينه وصار مع جماعة الخلافة بسراويل سود ومشدّات رأس مطوية بعناية وبنادق مستقرة على الأكتاف ووجوه كاذبة ينطلي مكرها بسهولة على الآخرين المحبوسين بين جدران المدينة.. كل شيء تغير فيكِ يا شنكال. ظهرت حقيقتك المخفية يا مدينتي الصغيرة. ظهرت دونيتهم كما يبدو.

سبحانك يا رب يا مغير العقول والقلوب واللغات.. أين كانت هذه الكراهية مدفونة؟ في أية قلوب حجرية؟ كيف حدث هذا؟

الجماهير خائنة دائماً. لا تعوّل على جماهير احترفت التصفيق والطاعة العمياء فإن في اعماقها وحشية نائمة.

---

(1) اسماء قبائل عربية تقطن سنجار.

العجوز السبعيني عيدو يشير دائما اليهم بجرأة.. **هذا الصرصور صار داعشي وتنكر لدينه.. وهذا المنافق العربي زوّج بناته لأمراء شنكال الأجانب ليكونوا أنسباءه. وهذا الحمار صار معاهم ونسي انه كرمانجي لا صلة له بهؤلاء الجرابيع. وهذا الأغبر سار معهم تقيةً كما يقول في الخفاء ويصلي صلاة داعش هعهعهعهعهع**

آلمه أن يكون عرف بعضهم من المدينة وقد تحولوا إلى عناصر مخيفة "من أين لهم هذه القسوة يا ربي.." لذلك آثر أنْ يترك الرجل السبعيني ويمضي في زحمة السوق يتسقط المكان ويشمّه من جديد ويدور في الأزقة المجاورة، محاذِراً أن لا يصل إلى حَيِّهِ وأن لا يصل بيته القديم الذي سكنه غرباء بسراويل سود.. لا شك إنّ غرفة نشتُمان مدنسة. غرفة الراحلة فيها روائحهم.. البيت صار عفناً.. صور نشتُمان ممزقة ومكسورة الإطارات. ثيابها صارت خرقاً لمباولهم وعفونتهم..

ترك الفتى يتحين الفرص ليجد مقابر الشنكاليين وأهل المدينة الآخرين ويوثقها برأسه وهو يدور في أحياء وقرى بربروش والقادسية والرمبوسي والحي الزراعي وآزادي وروش هلات..

عيدو الذي نظر اليه ذات مرة من تحت عينين ماكرتين بالرغم من ذبولهما قال له: **في شنكال قبور لا تُحصى ومقابر قادمة وقتل لا يتوقف. ما زلتَ صبياً وستنسى. الزمن سينسيك كل شيء يا ابني.. لماذا عدت!**

وكما لو بدا حكيما ويعرف ما يقول احتضن الفتى وهمس اشياء كثيرة في أذنه، وسحنة وجهه تتبدل كلما أوغل في الهمس. ثم مسح دموعا انسدلت من عينيه كما لو كان يتمثل حدثا ما مرّ بذاكرته الآن. ضم الفتى اليه ثم حرره ودفعه برفق..

عيدو صاحب الحكاية المشهورة في ثمانينات القرن الماضي يوم كان عسكرياً برتبة نائب ضابط في الحرب الإيرانية، حينما "هرب" منه أحد شهداء معركة نهر جاسم بطريقة غامضة، فأودع السجن شهوراً قاسية في الاستخبارات العسكرية في البصرة وذاق الأمرّين فيها حتى كتب الله له النجاة بطريق المصادفة، حينما وجد أحد مزارعي الباذنجان في إحدى مزارع الصويرة جنوبي بغداد تابوت

الشهيد بعد تلك الشهور وقد رقد في تابوته كما استلمه نائب الضابط عيدو و لم يتعفن، وتناسلت حوله نباتات كثيرة غريبة الألوان والعطر والرائحة كانت قد غطته كل تلك الأشهر كما أشيع وقتها، مثلما شهد المزارع الذي قال إن رائحة طيبة وعطرة لم يشمها من قبل هي التي جذبته إلى المكان السري. يومها أوفدت جريدة الثورة محرراً يجيد صناعة مثل هذا الخبر إلى مزرعة الباذنجان في الصويرة، وأكد الواقعة، ومع إنه لم ينشر سوى صورة واحدة لمزرعة الباذنجان، لكنه كتب في الصفحة الأخيرة إن شهداء الوطن في الجنة، وحادثة هذا الشهيد المسروق من نائب الضابط عيدو في هذه الحرب إلا امتحان لصبر العراقيين على البلوى وهذا التابوت المختفي من أشهر دليل على إن الله سبحانه وتعالى يؤيد العراقيين في حربهم ضد زمرة الخميني الدجال.. كما ورد في نص الخبر وقتها وتناقله الناس على إنه معجزة إلهية حدثت اثناء الحرب.

غير ان عيدو الذي خرج من الاستخبارات بنصف عقل روى بلا تحفظ ان شيئاً مثل هذا لم يحدث ولن تكون الجنة بتلك الفوضى. فالذي حصل إنه كان مأموراً بإيصال جثة شهيد إلى الموصل لكونه يعرف المنطقة وعاش فيها سنوات طويلة، والساعات الطويلة التي قضاها مع السائق تخللتها اكثر من استراحة أولها في منطقة **شيخ سعد** التي تكثر فيها المطاعم الخارجية، غير انه والسائق فوجئا بعد وجبة غداء سريعة ان السيارة اختفت من المكان هي وتابوت الشهيد. وكان من الثابت إن أحدهم سرقها ثم تخلص من التابوت والجثة في مزرعة من مزارع الباذنجان المنتشرة في المنطقة المهجورة. لكن الناس المحيطين؛ وهو يعيد الرواية كل يوم؛ نصحوه أن يصدّق رواية جريدة الثورة ولا يعيد سيرة السرقة فسرقة الشهادة هو سرقة لمنظومة حزبية قائمة على الكثير من التفاصيل التي لا يفهمها لاسيما والدولة في حالة حرب.. حافظْ على النصف الآخر من عقلك يا عيدو.. افهم يا رجل..

ربما فهمها في ذلك الحين وربما لم يفهمها لكنه كان يعيدها دائما ببلاهة، فسنجار صغيرة وآمنة والأهالي يعرفون بعضهم وعيدو الذي صار بنصف عقل ما يزال كما هو يثرد الكثير من القصص والحكايات امام الداعشيين الجدد من أبناء

المدينة والوافدين اليها من الرقة والموصل والشيشان وتونس والسعودية والكويت وتركيا وليبيا وباكستان. ولا يتحرج من ردود الفعل امام القسوة التي تبدر منهم والتي يفهمها بطريقته..

انه عيدو السارد الصامت الذي أهمل قيمة الشهادة ذات يوم لمنظومة حزبية كبيرة تاجرت بها طويلاً بعد حادثة شهيد معركة نهر جاسم منذ ثلاثة عقود.

أجمل السبايا

يوما ما قلنا لن نفترق الا بالموت
تأخر الموت،
وافترقنا....

هيثم شنكالي - شاعر ايزيدي

يتقاطعِ مع العم آزاد في شارع يؤدي إلى سوق المنارة. عـــرف إنّ أهـــالي منطقته إما قُتلوا في مقابر جماعية أو هجروا المدينة ومن بقي منهم صار مع داعش أو تحايل بشكل ما وصار نصفين. نصف في الخفاء يتضرع إلى طاووس ملك ليلاً ونصف مشوّه يحاول أن لا يكون مفضوحاً في كثير من الأحيان.

امرأة مسنّة عرفته في السوق فاستوقفته وكلمته من وراء نقاب أسود تفوح منه رائحة ما: أنت...؟

- أنا...
- يا عيني عليك يا ابني.. انا شرمين جارتكم..
- أهلا خالة..
- الرحمة لأهلك يا ابني.. لم يسلم منّا لا شيعي ولا سني ولا أيزيدي ولا مسيحي ولا كردي ولا عربـــي. قتلوا أولادي وأسروا زوجـــي.. لم أتصور انك حي.. ضاعت شنكال وضِعنا يا ابني.. خودا على الظالم..

مثل البرق تلقف هذه الشذرات وهو ينظر بخوف إلى الوجه الملفوف بالنقـــاب للخالة شرمين مولدة نساء المدينة. احس إنّ صوتها يخرج من قعر بئر مظلم جـــاف. ودّ لو يسألها عن أشياء كثيرة لكنها اختفت فتشابهت عليـــه البالونـــات المتحركـــة وعمّت روحه الصغيرة الرائحة التي شمّها في النقاب أو امرأة النقاب.

يشعر بالذهول وهو يتلفت بوجل. الخالة شرمين عرفته. مولدة الأجيال في المدينة الصغيرة.. تصور المدينة كلها مذبوحة لا نساء فيها وحتى عيدو كأنه خرج من مقبرة مع رأسه المجنون وينبغي ان لا يموت لحكمة غير قادر على أن يفهمها.

يعرف محنة العم سربست فيمشي معه صامتاً.

يعرف ان العم يتكلم مع شيء في داخله لذا يصمت فقد اعتاد هذا في الجبل.. **أنا آزاد. الرب اختار اسمي.. وحمامة زاجل جاءت بورقة براءتي من كل شيء.. مات سربست في أول يوم هربه**.. يضرب الرصيف بعصاه ويمشي ناظراً إلى كل شيء لكنه لا يرى شيئاً بقسمات واضحة ومفهومة.

في دورة السوق وقرب مدرسة أمية المختلطة يتشمم الفواكه بحاسة مزارع قديم كمن يشم رائحة أرض افتقدها طويلاً.. التين والرمان والتفاح. رائحة حقول وتراب ومطر. يشمّ أكثر من قطعة تين ذابلة من سلّة يحوم فوقها الذباب أمام بائع فيشم رائحة عفن. **تعفّن تينكِ يا شنكال**..

يمضي إلى مقهى المدينة من دون هدف. تغير كل ما فيها. الوجوه جديدة وملتبسة واللحى مسترسلة والبنادق شاخصة على الأكتاف وبدل الصخب القديم المعتاد حل سكون بين الجالسين في وجوه خائفة ومخيفة، كأنما يطاردها خوف سيحل بين لحظة وأخرى، فيما يستبد به القلق بعد لحظات وهو يستعيد مشاهد العري والجلد وحلاقة الرؤوس وصيحات الصبايا التي تأكل في روحه..

تحسس الجالكسي في جيبه كما لو يطمئن على سلامة تلك الأرواح المجلودة بقسوة.. **تو تكي دري بابو**.. تحز في قلبه وتقتله وتشعره بأنه ضعيف أكثر مما يجب فيعيد في رأسه، وهو مغمض العينين مصدوعاً، مشاهد السياط ووجوه القتلة وأجساد الصبيات فيصطدم بأكثر من جسد وتخذله عصاه السوداء الرفيعة. تعتريه موجة كآبة وتعاسة تفتُّ من أمله..

لكن انت يا آزاد بحكاية حب تقتسمها مدينة صغيرة وبنت صغيرة. تعاسة مدينة وتعاسة حب لا يتكوّن بعد الفقدان. إنما حب تكتشفه بعد الغياب والضياع. هذا هو الحب الذي فقدته يا سربست القديم. فقدته مرتين يا أخي. لذا ستبدو التعاسة حكمة لا معنى لها. هي قصة بسيطة لكن متداخلة يا أنا.

معقدة أيضاً. هل قصص الحب هكذا؟

أعيدوا لي نشتُمان وخذوا المدينة بما فيها..

يفتح عينيه من وراء نظارته الطبية فيرى الناس كأنها آلات ثقيلة تدبُّ من أمامه بلا جدوى، يجتاحه خوفٌ غريزي ويحتاط لنفسه من أي طارئ، غير مطمئن لكثير من وجوه بلدته المتحولة التي ضاعفت في خذلانه، وصورة واحدة لا تفارق رأسه مستقرة تحفر فيه ألماً أكثر مما يجب.. يا خودا إرحمني.. و لم يمنع دموعاً تتسلل على خديه من تحت نظارته الطبية، وهو أمر لا يستطيع كبحه كلما فاضت صورها أمامه..

أنت احلى بابو في الدنيا..

انتِ وين.!

ما أعرف وين..

تشوفيني الآن!

أي..

تعالي

ما اقدر

عمتك شيرين وين؟

ما ادري.

يستفيق مع دمعتين تسابقتا وانفرطتا على لحيته المتطاولة، وبنداء "الله أكبر" مع منتصف النهار ينكمش داخل سترته كسلحفاة يهددها صياد قريب يتمادى في الوصول اليه كلما تعاظم صوت المؤذن في هذه الظهيرة.. تقتلني هذه الأصوات التي استباحت نشتُمان.

وجده الفتى منقبض النفس منذ إن وطأ المدينة بورقة إلهية لا شك فيها. هبّ بلا أمل تقريباً وهو يرى الفتى يضع على رأسه قبعة صوف.. قرأ في عينيه ما يمكن أن يقرأه كل يوم.. لا أمل في النجاة يا خودي. يا لتعاستك يا آزاد.

قبل الدخول إلى المسجد نطقت عينا الفتى كما في كل يوم منذ إنْ حلّ في المدينة أن لا شيء يوحي بوجودها.

- كل الأيزيديات سبايا يا عم. اغلبهن باعوههنّ بالموصل والرّقة وحلب والفلوجة.. وهنا بيع شخصي كما عرفت..

وضع يده على كتف الصبـــي وتساءل باهتمام:

- كيف يعني..!

همس الفتى:

- كل داعشي له حصة من السبايا الأيزيديات وهو حر أن يبقيهن معـــه أو يبيعهنّ لمن يشاء ليزيد من رصيده المالي..

- وما عرفت اين هؤلاء!

- هؤلاء هم القادة والولاة والدرجات الخاصة والمقربون من الوالي..

ثم استدرك:

- كل بيت فيه سبايا صرن خادمات أو زوجات.

ثم استدرك ايضاً:

- سأحاول أن أحصل على معلومات.. ثق بـــي يا عم.

شعر آزاد إن الفتى لديه ما يكتمه فعيناه ترمشان كثيرا:

- قل ما عندك ابني..

كما لو يريد أن يقرّ حقيقة مهمة رد الفتى:

- سمعت مِن الناس مَن يقول إن الأسيرات غير الجمـــيلات لا خـــوف عليهنّ..

- شنو يعني...!

- يعني الموحلوات بأمان.. خادمات وليس زوجات للأمراء والمجاهدين..!

ثم أضاف بخفوت:

- بس الجميلات يا عم..!

ضرب الأرض بعصاه وتغيرت سحنته المُرهقة واختلجت عيناه الذابلتان....

يا ابن العذاب الطويل.. يا ويلك يا ذا الاسمين والمكانين والزمنين.. ماذا فعلوا ببنات التين والزيتون.. لعن الله كل شيء هنا.. انت ملعون يا سربست. أنت ملعون يا آزاد. كنتَ ابن الدين واليوم صرتَ ابنَ الخنازير..

نحن البطن الفاسد

ليس مفاجئاً عليها شروده هذا المساء، فما يزال الرجل غريباً على الحالة التي يراها. كانت تهمس لنفسها وهي منشغلة بحياكة بلوزة صوفية سوداء.

أخطأت مرتين بدس سنّارة الحياكة في غير موضعها ففلّت الخيوط وأعادت نظمها من جديد ورأسها يهرب قليلاً ثم يعود ينتظم إلى المكان وأجوائه الصامتة.

مَن هذا الرجل وفتاه..!

ضيوف من مخيمات دهوك.

يبدو الرجل وسيماً..!

ههههه بدأت تغار يا صقر..؟

كان هذا في آخر لحظة من المساء قبل أن يطير إلى الفضاء وقبل أن يدخل آزاد وفتاه.. **إنه يطير في روحي..!**

تناغِم الحامل اهتزازات بطنها بوضع يدها ومسح تلتّها صعوداً ونــــزولاً ثم تعاود الحياكة بأصابع تتشابك مع الخيوط بآلية سريعة جعلت الفتى يديم النظــــر اليها وهو يدثر جسده ببطانية ويتثاءب، وكان آزاد يفتح عينيه ويغمضهما ممسكاً بالجالكسي كما لو يقبض على جرذٍ ميت.

يحاول الكلب الأبيض أن يجد له مكاناً بين قدمي الفتى الذي يناديه كـــل لحظة، لكنه يقفز ويتشمم بطن المرأة المنتفخ وقتاً طويلاً وهي تمسّد فروة رأسه ثم يعود إلى الفتى ويبرك أمامه.

قالت المرأة للفتى:

- خلال يومين سأنهي لك هذه البلوزة. جسدك ضـــعيف لا يتحمـــل البرد.

التفتت إلى آزاد:

- ما رأيتَه يجري مثله كل يوم في شنكال وقراها القريبة والبعيدة.

فتح عينيه وأكملت الحامل:

- لديهم قدرة عجيبة على ابتكار الذل والجريمة..

- هؤلاء الحثالات فاقوا حتى فكرة الشر..

كانت الشمعة الوحيدة ترتعش وتعكس ظلالا سميكة على حيطان الصالة الصغيرة فيتحرك آزاد وتتحرك المرأة ويتحرك الفتى.

- ستعتاد كل شيء هنا.

- كنتُ أبحث بينهنّ على نشتُمان فوجدتهنّ كلهنّ نشتُمان.. كلهنّ يصرخن **تو تكي دري بابو**.. كانت نشتُمان هنّ بحلاوتهنّ وضعفهنّ وخزيهنّ وعارهنّ..

- عليك أن تتعايش مع الحالة يا أخ. شنكال كلها أسيرة. حتى جنيني أسير.

- تركونا وحدنا كلاب الحكومة والسلطة والأحزاب.. لقد باعونا..

قالت الحامل وهي تمطّ شفتيها:

- عندما تتصارع الكلاب تتسلل الذئاب..

شخر الفتى وهو يغط بنوم عميق والكلب الذي تآلف معه سريعاً يغمض عينيه ويفتحهما إلى جواره.

همست الحامل:

- مسكين..

قال الرجل:

- استوعب الحالة تقريباً. جرب معي الهروب والمخيم والجبل والعزلة ومن ثم العودة..

- هذا جيل المأساة والفجيعة. عاشها بدمويتها..

وافقها الرجل:

- هذا جيل نشتُمان. اصيب بلوثة مبكرة وحمل وسيحمل عارهُ وقتاً

طويلاً.. لكن عليه أن يقلب المفاهيم من الآن ويعيد النظر بمنظومته الفكرية والدينية.

- امممم

- اعني أن يستوعب درس داعش في الغزو رقم 74

وضعت هيكل البلوزة إلى جانبها. ومطّت رقبتها:

- صرنا أرقاماً في التاريخ..

- إن لم نسارع إلى تنظيم أنفسنا دينياً واجتماعياً ستبقى الأرقام تتصاعد مع كل عقد وسنبقى البطن الفاسد في الوطن..

دلف الهواء البارد من أكثر من مكان وارتعشت الستارة الغامقة.

قالت الحامل:

- نحن شريحة سائبة يا أخ. وما حصل بنا قد يحصل لاحقاً.

اصطفق في الخارج رعد وانتشر برقٌ من الوميض سريع الضوء كشف بلمحات عاجلة شكل المرأة المتكور وصبي الصالة الغارق في النوم.

- لا تتردد في النوم. هذا بيتك.

خلع نظارته ووضعها مع الجالكسي إلى جانبه.

- المشهد صعب لا اقدر نسيانه يا اخت. صبايا بعمر الزهور عاريات وسط المدينة..

- حدث أكثر من هذا.. اغتصبوا صبايا أمام آبائهن وأخواهنّ بدعوى زواج المجاهدين.. حدث هذا في أول الغزو.. حمير هائجة بإسلام متوحش لا نعرف من اية صحراء جاء.

نهضت إلى المطبخ ببطنها الثقيلة فمدّ آزاد جسده وانصت لوقع المطر الذي أخذ ينقر النافذة القريبة من رأسه.

قالت من المطبخ:

- ستذهلك شنكال بحالتها الجديدة. سترى مدينة ثانية لم تشاهدها الا في افلام السبي والخطف والنذالة الصحراوية القديمة..

كان قد أغمض عينيه وفي رأسه صراخ الصبايا العاريات: **تو تكي دري بابو..**

عادت المرأة وهي تتأفف. جلست قبل بطنها. لمحت على بصـــيص النـــور خيطاً من الدموع ينزل من عيني الرجل ويتفتت بين شعيرات لحيته الشعثاء.

جمهورية الطين

أترُكُ التاريخَ لئلا يقتلني بغفلةٍ مني

دلشاد

سرنا بموكب صغير وكانت زخات المطر كافية أن تجعل كل شيء طيناً. لهذا بقي الموكب يدور في الشارع العام والأزقة الفرعية التي يمكن للهَمَر أن تجتازها بعيداً عن الحُفر والمطبات العميقة.

من مركز المدينة حتى قراها ومجمعاتها في نهار بدا لا يريد أن ينتهي.

هذه احدى جولاته المستمرة التي قطعت المدينة باتجاهين مختلفين في بيوت الطين والبلوك المهجورة إلى حد كبير في بربروش وروش هلات وتل عزيز وتل البنات وتل قصب والشهداء والنصر ومناطق حردان وبورك ودهولا وخانصور وزورافا وسنوني.

كنتُ أشعر بحرجٍ ما مثل كل مرة أتعرض فيها إلى عيون القلة من السنجاريين المتخلفين عن الهرب والذين عادة ما يتوارون خلف الحيطان الطينية والستائر الممزقة أو المحال القليلة والسطوح الواطئة حينما يمر أحد مواكبهم. لكن تربكني نظرات المسلمين الشامتين الذين أقرأ في وجوههم البلهاء شماتة لا نظير لها.

الأفغاني هو الذي رأى عيدو يمشي في الوحل بعصاه التي يسندها على كتفه. كان خارجاً من حي بربروش إلى الشارع الوحيد؛ فبصق عليه من خلف نافذة الهمر بطريقة ليس لها سبب:

هذا المجنون كافر أيزيدي

انه مسكين. لا يؤذي أحداً..

ينزعج حجي خان من هذا.

ألا يكفي إنه غير مسلم حتى أكرهه؟

يسألني فأرد ببرود:

ما حاجة الإسلام إلى مجانين يا حجي خان!

يتمتم بحنق ويختفي عيدو بعصاه فأعيد عليه أسماء المناطق والقرى بشروح موجزة وهو صامت يمسد بلحيته الطويلة وبندقيته لا تفارق يده وكل لحظة يتحسس مسدسه في خاصرته كأنه سيصول على مكان ما وعليّ أن أكون متهيئاً.

يحدث كثيراً أن يجتاحني دلشاد خريج قسم التاريخ في جامعة الموصل حينما نمر بأثرٍ مسحوق أو مكان يقود إلى آثار معينة. أريد أن أقول له ان سنجار من المدن المشهورة في اقليم الجزيرة وعمرها أكثر من ستة آلاف سنة وهي ثاني اقدم مدينة في الشرق الاوسط بعد مدينة دمشق، ومنذ القدم كانت محطة استراحة الملوك والامراء على مدى التاريخ، لكني لا اضمن عدم سخريته كما في كل مرة يراني فيها صغيراً من مدينة لا يهمه أمرها كثيراً.

أحياناً أنجح بكبح دلشاد التاريخ وأحياناً ينفلت كما حصل في هذه الجولة حينما طالعتنا أطلال منارة سنجار الأثرية[1] التي فجروها سابقاً فكنت أهمس له بأن المنارة التي كانت هنا عمرها أكثر من 700 سنة بناها قطب الدين الزنكي الأتابكي، وكان قلبي يتفتت وأنا ارى الفراغ الذي تركته مع البيوت الطينية التي انجرفت بفعل التفجير. قلت له انها مئذنة لأكبر جامع في سنجار واستخدمت آنذاك منبرا للخطيب اضافة إلى مرصد لترصد الغزوات من الاعداء.

لكنه ضحك وأمسك يدي: **أنت عندك حنين للماضي يا دلشاد الأيزيدي** ههه فأتجرأ وأقول له كل المدن لها ماضٍ يا حجي خان المجاهد ومن أجل الماضي تكبر المدن في عيوننا، لكنه يقول بصلافة إنسَ الماضي يا أيزيدي وعليك بحاضر دولة الخلافة وأصبحتَ مسلماً ولا عليك بكتب التاريخ وأكاذيبها؛ فكنت أوضح

---

(1) يوم 22-3-2015 فجرت داعش المنارة الاثرية التاريخية في مدينة سنجار والتي يعود تاريخ بنائها لعام 1302 ميلادي 598 هجرية.

له بصرامة إني عبدالحافظ المسلم ولي الفخر بأني أسلمتُ على يديه.. وفي سري أقول كانت كابُل زرادشتية وبوذية لكن تيار الحياة جرفها إلى هؤلاء.. انها دورة زمن عجيبة..

كنت أخاف سوء أخلاقه وأدفع الشك عني بكل وسيلة متاحة، فأترك التاريخ في جامعة الموصل لئلا يقتلني بغفلة مني.

دخلنا بين الأزقة وعبرنا الساحات الصغيرة والمحال المغلقة والبيوت الطينية الباقية على صمتها. لم يتكلم كثيراً وبدا لي كأنه يريد أن يكتشف هذه الأحياء المهجورة تقريباً حتى إنه قلل من المجموعة التي تسير وراءه وبقي صُهيب بائع الموبايلات السابق، والقوقازي الذي فقد عينه في حلب وآخر خاتوني بشوارب متدلية كذيل عصفور ميت أراه لأول مرة.

ترجل من الهَمر وهي إحدى غنائمهم الكثيرة من جيش الموصل الهارب يتطلع إلى المكان الممسوحِ أكثر من نصفه بالشفلات حيث كانت بيوت الطين قبل اشهر هنا تؤسس حياً يمور بالحياة على بساطته.

قال حجي خان:

- كل بيوتكم طين..!

أجبته على الفور:

- السنجاريون فقراء على مر العصور يا حجي خان.. لهذا فبيوتنا طين..
- تعرِف نحن في كابُل عندنا بيوت طين..
- اعرف يا حجي خان.. لدي فكرة بسيطة.

ثم قال كأنما يؤكد حقيقة:

- أتعرف ان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كان بيته من طين..!
- أعرف يا حجي خان هذا.. فالرسول صلى الله عليه وسلم قدوة المسلمين في البساطة والتواضع..
- تعرف ان بيوت الطين صحية ونظيفة ولا تنقل الأمراض..!
- هذا أكيد يا حجي خان..

- سنجاركم بيئتها نظيفة بلا أمراض لكن قلوبكم ليست كذلك في كل تاريخكم لأنكم لم تكونوا مسلمين..

قلت بتسليم:

- كنا حمير يا حجي خان المجاهد.. والحمد لله الذي هدانا إلى نعمة الإسلام وأزال من قلوبنا تلك الحَمْرنة..!

قال كما لو إنه يؤكد حقيقة أخرى:

- الطين فيه رائحة الأرض والزرع والنبات عكس الطابوق والإسمنت؟
- لا والله ما كنت أعرف هذا يا حجي خان لكن الآن عرفته..!
- الطين دافئ في الشتاء وبارد في الصيف وما يسوي أي أمراض..!
- الآن عرفت هذا منك يا حجي خان.. ما شاء الله صحتك عال العال. ربي يحفظك ويطيل من عمر الطين في بيوتنا!

يتقدم في داخلي دلشاد فأزيحه إلى علبة السردين الليلية، وأُظهِر عبدالحافظ المسلم الذي عليه أن يكون جاهزاً للموافقة وهز الرأس لهذا الكائن الكابُلي البليد، لكن يبقى دلشاد يراقب بألم ويبكي في كل خطوة وهو يعيد اكتشاف المكان على نحو واضح وفرته هذه الجولة الميدانية التي رأى فيه خراب المدينة وتغيير هيكلها ومسح بيوت الطين التي كانت تشكل مستعمرات من الحياة متضامنة ومتكافلة عقوداً طويلة.

أردت أن أقول له لماذا جرفتم بيوت الطين لكني أخشى من ردة فعله الحمقاء. أردت أن اقول له لماذا فجرتم التاريخ الجميل لكني كنت أخشى على عبدالحافظ الذي له زوجة وولدان وبيت بحجم علبة صفيح ورثه من أب رحل بهدوء وأم تبعته بالهدوء ذاته في زمن ليس قديماً.

نحن جمهورية من طين يا حجي خان المجاهد. كل التاريخ البشري كان طيناً وسنجار هي الطين الذي بقى حتى هذا اليوم لكنكم أزلتموه بالجرافات والمتفجرات وتركتموه عارياً.

ايها الشرطي المرتبك دلشاد لا تترك التاريخ الشخصي للمدينة حتى لا يضيّعها جلاوزة الدين في فتاوى وفرمانات جاهلية. انت ابن التاريخ البعيد

والقرية البعيدة مثلما هو عيدو ابن هذا وسربست والسيدة التي طال حملها وكل شنكالي حاصرته الشظايا وقتلته وكل شنكالية ماتت بعطش الهجرة ذات آب حار مشتعل بالنار وهي ابنة الينابيع والعيون والجبال.

العجوز الأفغاني الذي فقد التاريخ البشري كله وبقي معلقاً على أستار الدين ومفسري الفتنة يضحك عندما أفسّر له معنى أن تكون سنجار (لا يجب أن اقول شنكال) مدينة عريقة في التاريخ وفيها ما في المدن القديمة من تاريخ وتراث وآثار وشواهد وطبيعة مثل أفغانستان وإن سفينة نوح اصطدمت بجبلها العتيد.. فيهزأ ويرد ببلادة: لولا دولة الخلافة المنصورة من يعرف سنجاركم هذي!

يسألني ببلاهة فيفتح كتاب المدينة في داخلي ثم يضحك كأني أتحدث عن مكانٍ حلم أو لوثة أو سراب لأتأكد مع التجربة المضنية مع هذا الحيوان الأفغاني ان الرجل كان قرداً ذات زمن وانه من سلالة قرود وليس فرداً خرج من سقف العالم من آريانا أرض الأفغان وطريق الحرير التي تشكل نسيجاً دسماً من البشتون والطاجيك والبلوش والبامير والأوزبك والهزارة والفورستان وانه وريث حضارة الإسكندر المقدوني والهندوكوش العملاقة.

يمتليء فمه بالضحك حينما أخبره بأني وريث بابل وآشور وسومر وإني من ضلع تلك الحضارة العظيمة ومن قبل الميلاد بعشرات المئات من السنين.

نحن أبناء الطوفان وأحفاد الحية التي أنقذت سفينة نوح من الغرق. نحن أبناء ينابيع سنجار التي تناوب على حكمها الأتابكة والأيوبيون والمماليك والعثمانيون وما زلت احتفظ بشواخص وشواهد في كهكمد وكيرال شيكاشي وخاز وخرنوف وكهوف عاوز وسموقي ومحمد وسميركي وشانك وقزلنكن وتلول أبطح وشويرة والمحار وكوهبل والقحراغ وخرائج العامور والسلجة والسور الروماني ومرقد السيدة زينب وخربة الشيخ عبد القادر وتلول عين الحصان وخربة عين الشبابيط وعين فتحي وخرائب قبر هاجر وبازار ومقام ذاكر الدين ومزارات الشيخ ابو القاسم وجل ميرا والشيخ شرف وأمادين وباب الخان ومقام مام هارون والسور الروماني الذي بناه الامبراطور الروماني اوريانوس.

اقول له نحن سنجار الواحد وأربعين عيناً من المياه العذبة الـــتي تحرســـها الملائكة السبعة وعيون كولاميرا وصولاغ والتبة والشهابية كهنيا عيدي وكانيـــا عبدو والكرهات وبيرخاي وعين جدالة والسكينية وسينو وماميس الكلدانية التي نسميها الآن منطقة كرسي.

أردتُ أن أقول له إني حفيد الأميرة ميان خاتون زوجة الأمير علي بك[1] لكني أعرف إنه لا يحترم النساء، مثلما أنا حفيد نمر آغا بن سيمو[2] وحمو شـــرو لكنـــه سيعفط علي فهؤلاء كفرة برأيه وتاريخهم مزيف كتبه كفرة ومشركون بالله.

مرة قلت له ان ابن بطوطة مر بكابل وسنجار أيضاً. ساحَ وطافَ ببلـــدينا يا حجي خان.. **فقال هذا زنديق ولو كنت وقتها هناك لقتلته.. وأنا أعرف إنه** لم يسمع بهذا الرحالة المغربـــي العظيم.. لكنه لا يفكر إلا بالقتل. مخلوق مـــن بارود ودم وأعصاب ميتة وروح انتقامية. إلغاء الآخر هو شغله الشاغل.

يضحك كثيراً وهو يقول لي إنه يصطحبني دائماً ليسمع مثل هذه الخرافات الظريفة ليبدد الوقت ويقتل النهار ويرى كيف نفكر وكيـــف نشـــغل أنفســـنا بالترهات فابتعدنا عن الدين الحنيف ونسينا الله تعالى..

يتجول في الأسواق كفاتح ويرى الآخرين بعينين قذرتين لا رحمة فيهمـــا. أحياناً أتخيل إني عيناه أسير بهما متقمصاً رؤية روحه. استبدلت الأدوار بلحظات أردت فيها أن أكونه فأخذني الرعب. كيف لهذا المخلوق أن يرانا هكذا؟ وكيف له أن يفهم الحياة منحصرة في خط ثابت لا يحيد عنه وكل شيء خطأ عداه!

---

(1) ميان خاتون شخصية تاريخية أيزيدية معروفة شغلت مكان زوجها المير الســـابق علي بك الذي توفي في ظروف غامضة عام 1913وكانت ميان خاتون وصـــية على ابنها سعيد بك وحاكمة فعلية للجماعة.
قيل إنها كانت حكيمة وذكية وتتسم ببعد النظر ومهابة الجانب وتتمثل سطوتها عليهم أن لا أحد يتجرأ أن يعترض عليها.

(2) نمر بن سيمو – رئيس عشيرة الدنادية الأيزيدية. له واقعة مشهورة في عام 1785 حينما قتل بسيفه والي الموصل العثماني عبدالباقي باشا وشقيقه عبدالرحمن حتى بات يثير الذعر بين الولاة العثمانيين فاضطروا أن يتقربوا اليه اتقاء لشره..كمـــا تذكر بعض المصادر.

عَرَق بعشيقة

يخرج من الجامع الكبير بلا ملامح مثلما يدخله مرتبكاً وهو يخطو وعيناه تتخاطفان كما لو هناك مَن يتتبعه، فيتحسس ورقته السماوية بحرص مثلما يتحسس الصرّة المدفونة في خاصرته..

انا رجلٌ تائب بشهادة الرب، وحمامة زاجل هي الرسول بيننا. تائب عن ماذا؟ ههههه.. كنتُ أختلي بنفسي وأصلي واقفاً ولا يوجد بيني وبين خودا الا ستارٌ شفاف حتى أكاد أراه[1]. والآن أصلي معهم ولا أرى الله، نصفهم خونة باعونا إلى داعش ونصفهم قتلة. أصبحتْ بيني وبين الله سموات وحُجُب سميكة وحيطان عالية ودماء غزيرة.

عندما تغيّر دينك لسبب ما تصبح كائناً آخر. تنغمر بشعور لا تعرفه على وجه اليقين وأنت تمارسه كما لو إنك في حفلة ختان وانت الراقص الوحيد فيها وربما يحدث العكس إذ تكون أنت المختون الوحيد في حفلة يرقص فيها الجميع..

---

(1) الصلاة من أهم أركان الدين الأيزيدي وعلى الشخص أن يكون طاهراً وأن يقوم بغسل الوجه واليدين وأن يكون بمظهر لائق.
غطاء أبيض على رأس الذكور والاناث وأن تكون قبلة المصلي إلى الشرق (حيث شروق الشمس عدا الظهيرة حيث تكون قِبلته معبد لالش النوراني) ويقف واضعاً اليد اليمنى فوق اليسرى ويقوم بتلاوة دعاء الوقت الذي هو فيه وبعد انتهائه من الدعاء يقوم بالسجود لله عز وجل، ويقوم بتقبيل الأرض ثلاث مرات متتالية ومن ثم يقف، ومن يريد أن يتمم دعائه بأمنية يطلبها من ربه، عليه ان يتقدم بثلاث خطوات إلى الأمام رافعاً كفيه للأعلى، وبعد الانتهاء يقوم بالتراجع للخلف لثلاث خطوات ثم يستدير إلى اليمين ويكون قد انهى الصلاة..

في الأربعينات لا يمكن أن تختار ديناً جديداً. تضحك على نفسك. حتى وإن تتخلى عن دينك هو ضرب من الضحك. الدين سليقة وفطرة قبل أن يكون طقوساً ورتابة.. لكن.. من أجلها أمضي لأي دين..

همس الفتى بإذنه شيئا فارتبكت ملامحه وهو يخرج إلى ساحة الجامع في جمعة من الرعب يفترعها سوط وحبل وعصا وساطور، لكن بلا مشنقة هذه المرة.

كانت مكبرات الصوت العاملة على المولدات في الجامع توجه نداءها إلى المصلين إلى ساحة العقاب التي تشهد كل جمعة عقوبات جديدة.

جمعة أخرى يشارك في مشاهدها كأنها فيلم متقطع الأوصال بين جمعة وجمعة، يحمل فيه مفاجآت في خيالات المعذّبين، فبين خطبة الإمام وصلاة الجماعة، سيشاهد الجماعة ما هو مثير في العقوبات بينما الخطيب يتوعد الجالسين العزّل بالنار والجحيم كما في كل مرة.

السوط لشاب دخن سيجارة في مقهى حتى ينسلخ جلده، والحبل الغليظ الذي يمسكه ذو لحية مبالغ بطولها يبقى غامضاً أمام دائرة الخلق التي تحيط بساحة الحد الإسلامي الشرعي فيما العصا لشاب ستتكسر رجلاه لأنه أمسِك وهو يرتدي بنطلون الجينز.

الجمعة الماضية أعدمت امرأة شنقا لأنها لم تطاوع زوجها المجاهد ومع ان المفتي الشرعي تعثّر كثيرا بلهجته القرآنية إلا إنه أوصل الرسالة السريعة لمن يريد أن يتمرد على ثوابت ولاية الجزيرة في سنجار الجديدة، وعدّ الجميع كفرة ما لم يطبّقوا الشريعة بكل دقة ولا مجال للخطأ والتمرد عليها.

المشهد كان مفزعا. تدلّت المرأة من دون أية مقاومة وكان الحبل المفتول على عارضة خشبية يمطّ رقبتها بضع دقائق كانت عصيبة على الجميع إلا إن كل شيء انتهى بسرعة. همدت جثة المرأة وهي معلقة في الهواء في ساحة العرض الأسبوعي.

انتبه إلى العارضة الخشبية التي كانت موضوعة في ساحة الجامع. عندما دخل لم تكن موجودة غير إنها الآن كما يراها وقد أحاط بها المصلّون الغرباء ومسلمو المدينة المتعاونون وبقايا أيزيديين ممن هجروا القرى القريبة غير إنهم

أمسكوا ودخلوا الدين الجديد بدلاً من الذبح. خرج رجلان من غرفة جانبية تقع عند جدار الجامع يقودان شاباً منهار الملامح. نحيفاً وحافياً بالكاد يمشي.

افردوا ذراعيه على العارضة وربطوه مثل المسيح في لحظة صلبه كما باعدوا رجليه على مسندين يسندان العارضة.

قال الشاب أشياء لم يسمعها. كان يبكي ويتوسل ويعلن التوبة حتى إنه صاح أكثر من مرة بالشهادتين.

اصطلك رأسه برؤية فريدة وهو يرى ملتحياً بلا شارب يقف خلف جسد الشاب ويجز رأسه بسكين طويلة وبخفة جزار كما يحدث في الأضحيات الدينية؛ فأحس آزاد كما لو إن رأسه طفر من رأسه!

سقط الرأس وتدحرج من عنق الشاب.

رفست الجثة المعلقة لحظات ثم همدت وانساب دم غزير من فوهة العنق المفتوحة كأنه يخرج من نافورة.

اصطبغت ثياب الشاب بدم أسود نزولا حتى قدميه الحافيتين، بينما ظلت عينا آزاد ثابتتين على الفراغ الذي تركه الرأس المقطوف.

تهيأ ملتحون آخرون بلا شوارب كالعادة، عرف آزاد منهم واحداً من مواطنيه وهو الذي كانوا يسمونه وعد الله، كان يجرّ وراءه خشبة مستطيلة ليضعها على جذع مقصوص يبرك في زاوية من الجامع، فيما سحب اثنان شاباً آخر بدا هلعاً بوجه أصفر وبلوزة لا لون لها وبنطلون عريض يسحل وراءه.

اجلسوا الشاب أمام الخشبة المستطيلة وأفردوا يديه كجناحين ممدودين إلى اتجاهين متعاكسين، بينما قبض على رسغ يده اليمنى كلاّب حديدي ربطه مع الخشبة بشكل محكم، وظلت الأخرى طليقة ورأسه منحنٍ باتجاه الخشبة.

بدا الشاب فزعاً جداً تغمر عينيه سحابةٌ من غبار وكانت شفتاه تتمتمان بشيء غير مسموع، فيما شكل المصلّون قوساً آخر بعدما انسحبوا من الصليب الدموي.

أفرد حجي خان الأفغاني ورقة وقرأ بعدما نظر إلى الحشد:

بسم الله الرحمن الرحيم

حكم شرعي – سنجار

استناداً إلى اعترافات مدحت أمين بالسرقة التامة وهو من سكنة قرية كوهبل والبالغ من العمر 16عاماً تقرر تطبيق الشريعة الإسلامية وذلك بقطع يده اليمنى بعد صلاة الجمعة.

القاضي الشرعي

دخل عيدو بطريقة فوضوية وهو يغني بصوتٍ عالٍ باللغة التركمانية ويعفط بطريقة استفزت حجي خان لكنها أضحكت الجمهور المتفرج واشاعت فيه التوتر أيضاً، ومثلما دخل فجأة خرج بعد إن دار في المكان وعصاه مسندة على كتفه.

انحبست الوجوه وهي ترى حجي خان الأفغاني النحيف الذي يعرفونه كمسؤول عن جنود الحسبة؛ حاملاً ساطوراً عريضاً وهو يتقدم إلى الخشبة ويقيس المسافة بين وقوفه وبين الكف المضغوطة بالكلاّب الحديدي وكانت عينا آزاد منغرزتين في وجه الشاب المستسلم.

كانتا تتحركان بسرعة كما لو تلوذان بالعيون المبحلقة في تسارع اللحظات المميتة، غير ان الأفغاني هوى بسرعة بساطوره على كف الشاب التي طارت إلى مسافة قريبة نافضة معها خيوطاً من الدم كحمامة مذبوحة، مع صيحة غريبة انطلقت من الشاب تلاها صراخ مفزوع منه كأنه انتبه لتوه إلى فقدان شيء من جسده اجتاح وضعيته المذلة وأشعره بألم فظيع نبض في روحه الغريقة..

كلما أريد أخرج وأنا أشعر بالاختناق يعيدني صوت المايكرفون لعقوبة جديدة، والفتى يصور بموبايله – مرتبكاً – المشاهد التي يراها ويأتيني محاولاً أن يتشجع وهو يرى الموت سهلاً يمشي بيننا والعقوبات الكيفية تجري بطريقة تعسفية.

يقول لي انها عقوبة أخيرة لرجل ألقى عناصر الحسبة القبض عليه سكراناً ووجدوا في بيته عدداً من القناني المخزّنة من عرق بعشيقة.. سمعت من الحرس مثل هذا في الباب الخارجي..

جيء بالرجل يسحبه أحدهم من شعره فانكفأ رأسه إلى الأسفل. لا أتذكر ماذا قال أبو هريرة ولا ابن عباس ولا محمد العريفي ولا السديسي ولا الصحابة من السلف القديم ولا غيرهم ممن ذكرهم رجل طويل القامة.

أمكن مشاهدة أكثر من رجل وشرطي يحملون جَريد النخل المقصوص بينهم الشرطي دلشاد الذي حلّ عقدة الجَّريد المستعصية قبل أن يستبدلها حجي خان بعصي من شجرة أخرى، حينما أشار دلشاد إلى وجود بضع نخلات في مقام السيدة زينب على تلة في المدينة وهنّ النخلات الوحيدات في كل سنجار.. وكان يشير بطريقة ما إلى تفجير المرقد في هستيريا الغزو.

وجدوا نخلتين لم تتأثرا بالتفجير وقتها إحداهما يابسة فخلعوا سعفهما وقصّوه وعملوا الجريد ووزعوه على عناصرهم.

أدار الطويل ظهر الرجل الذي أحنى رأسه خجلاً وخوفاً ومزق الافغاني قميصه من الخلف، ثم استدار إلى الواقفين من المصلين وصاح بهم: **هذا شارب الخمر لعنه الله وأخزاه فلنتيمن برسولنا القدوة الذي أمر أن نعزّر شارب الخمرة بالضرب بالنعل والجَّريد. كلكم تشاركون بضربه بنعلكم ونحن بجَريدنا.**

كانت لحظات متداخلة بين الخوف والرهبة حينما بدأ الطويل بالضرب على ظهر الرجل بحقد كإنه يؤدي واجباً فذاً وتعاقب عليه الشرطة بالجريد بقسوة وكان ارتطام الجريد بظهر الرجل يُحدث صفعات مخنوقة لها صوت أنين لم يصمد كثيراً حتى تحول إلى صراخ وتوسل، وكان من الواضح إن دلشاد يتكلم مع المصلين الذين ينظرون باستخفاف إلى كل شيء وربما وجد سربست بحس شخصي ان دلشاد يُشغل الوقت مع الآخرين لكي لا يشترك بضرب الشاب، وهو ربما ما حدث حين انتهى الشرطة من عملية الجلد السريعة، فتحول وجهه إلى حالة أخرى وهو يصيح ويأمر الجميع بخلع نعلهم ووضع العقوبة النبوية موضع التنفيذ وكان يشرف على ترتيبهم بطابور بحماسة.

تقدمت الصفوف الأولى مرتبكة وكل رجل يحمل نعاله ليصفع به ظهر الرجل ويمضي والطويل يراقب بحدّة كالصقر الجائع تعاقب النعل على ظهر الرجل الذي غطته دماء الجريد قبل النعل الإسلامية المقدسة..

حيّة المعبد

انا امرأة الدُّ في بطني

- الحامل-

يزاحمها كلبها الأبيض وهو يتشمم الرجل والفتى الذي يحمل كيس فاكهة وشيئاً من الحطب جَمَعَهُ من السوق. أمكن لآزاد أن يرى الحجم المهول لـبطن السيدة التي رحّبت بهما وهي تفتح الباب.

مسّدت على رأس الفتى الذي كان ينظر إلى بطنها بدهشة كأنه يكتشف ذلك الآن. كان ثوبها فضفاضاً وبطنها مندفعة كثيراً كأنها تريد أن تشق الثوب.

في الصالة عجوز لا ترى الأشياء بوضوح. وهذه اول مرة يراها غير نائمة منذ إن دخل البيت، لكنها متكئة على الحائط وتسندها مخدة وقفت طولياً خلف ظهرها وقد تقرفصت حتى بانت كتلة من ثوب ابيض وعمامة بيضاء مستدقة على رأسها كأنها إطار.

دفء جديد يلم البيت والحامل تبدو أكثر نشاطاً في حركتها البالونية، والعجوز تحاول أن ترى آزاد والفتى بعينيها الكليلتين لكنها لم تتكلم وبدت كما لو إنها لا تفهم ما يجري حولها وان كل ما تقوله هو "نارين" حينما تنادي الحامل لأمرٍ ما.

قال آزاد وهو يبدد الصمت:

- اننا نتعبك يا اخت..
- أنا سعيدة بكما.. بيتي لجميع الشنكاليين.

قدمت صينية العشاء الخفيف من تينٍ وزيتون وبيض مسلوق وخبز ونعناع وشاي وجلست على مساحة عريضة من البساط واضعة على ركبتيها شرشفاً قديماً.

عزلت قدح شاي وقدمته للعجوز حريصة على أن تمسكه بيديها المتغضنتين.

- العجوز.. ألا تأكل شيئاً!
- أكلها خفيف وقليل. بمرور الوقت فهمتُ ماذا تأكل وماذا تريد..

سكت آزاد من دون أن يتحقق من شيء بشأن العجوز الصامتة.

- هذه المرأة ليست أمي.. أعتقد كنتَ تظن هذا..!
- وما زلت أظن هذا..!

يدفع الكلب الباب فيدخل ليحتمي بدفء الصالة بعض الوقت. يتشمم الجميع لاسيما بطن الحامل ثم يخرج إلى الطارمة.

- حتى هذا الكلب ليس كلبنا...!

اضافت وهي تشيع ابتسامة فتكسبها ملاحة أخرى:

- وانا لست **نارين** التي تناديني العجوز بها..!

ضحك وهو يقول:

- مجموعة ألغاز اذن..!

تغفو العجوز في مكانها تمسك قدح الشاي فتتحرك الحامل باهتمام وتسحب القدح بهدوء ثم تمدد رجليها الضعيفتين وتتأكد من وضع المخدة خلف ظهرها بشكل جيد.

- في الحروب تتساوى الناس والألم واحد عند الجميع.
- هذا صحيح.. في الحروب يكون الناس على حافّة بئر واحدة..
- وهذه البئر إما أن تبتلعنا وإما نكافح ونقلل الخسائر بأن لا نهوي كلنا مرة واحدة فيها.

دخل الكلب وأدخل معه هواء بارداً. أطعمته الحامل كسرة خبز ثم نهض الفتى إلى الطارمة ساحباً معه الكلب وأغلق الباب وراءهما.

كان آزاد ينظر إلى وجهها المتورد وعينيها الواسعتين فيجد انها ما زالت تحتفظ بطفولة بعيدة وأنوثة معقودة على غموض أو أزمة وربما فجيعة. لم يسألها ولا مرة عن أي شيء ما زال ضيفاً يحظى بالتقدير والاحترام.

كلمه الفتى صباحاً عن بقعة الدم أو بقعة الصبغ الملطوشة على بلاطات الطارمة وكيف ان مياه الأمطار لم تستطع إزالتها لكنه يعود ليقول ربما هي لطشة صبغ قديمة.. فيقول له آزاد كل بيت سنجاري فيه مصيبة وفجيعة.. لا تشغل بالك بما مضى..

تقول الحامل:

- ما تزال العجوز تعتقد إني حفيدتها **نارين** وانها في بيتهم في سيبا شيخ خدر.
- خودا يبارك فيك انت تعاملينها كما لو أنت حفيدتها أو ابنتها فعلاً..

تنظر للرجل بامتنان ويعيدها الألم إلى أيام الصيف الأولى حينما دخل جنود الخلافة المدينة بعد إن اكتسحت القرى وقوات البيشمركة وكل المصدات القتالية التي واجهتها بمساعدة بعض العشائر العربية فترى الصورة ماثلة وحية وكأنها حدثت اليوم.

- هذه العجوز بركة يا أخ.. انها من العجائز القديمات المؤمنات. أخشى أن ينقرضن في هذه المصيبة. انها كمنارة سنجار والقلعة الرومانية ومثل أي اثر قد يتعرض للانقراض بوجود هؤلاء.

فهم آزاد ان العجوز تسعينية العمر. فرت من مجمع سيبا شيخ خدر أثناء الغزو وتعرضت للإهانات من جنود الخلافة الجدد وظلت وحيدة بعدما فرّ عنها أولادها أو قُتلوا وأسِرت حفيداتها الصغيرتان إحداهما نارين التي كانت تعينها على كل حاجاتها وكانت تلازمها ليل نهار لهذا بقي اسمها عالقاً فيها.

تنقلت العجوز بين الأسيرات وكانت ثقيلة الوطأة في أي مكان يأسرونها فيه. لا تسمع. لا تتكلم. لا تدري ما يدور حولها.

تُدوّر الحامل قصة العجوز من نهاياتها:

أسكنتها في بيتي لأنها أم عاجزة لاسيما بعد إن كان جنود المرتزقة العرب الزعاطيط يركبون على ظهرها كالمطية ويصيحون هذه أيزيدية كافرة.. انتزعتها منهم متماسكة بحملي.. **إنها أمي**. **أمنا**. **ام شنكال الوحيدة**. هذه عجوز مثل أمك عيب هكذا تفعل.. **تفووو عليكم يا أيزيديين يا كفرة**. **تحملناكم سنوات**

طويلة.. تفووو عليك يا ابن العاهرة يا خائن الزاد والملح ايها العربـــي القذر.. تعالي خالتي.. لم استطع حملها.. لكني سحبتها بيدي تحت المطر.. كانت خرقـــة متطينة ترتعش هلعاً بينهم.. أحنوا ظهرها بالركوب.. تعالي يا خالة خودا يحميك ويجعلك أمه. أنتِ أم الرب. نحن نعرفه أفضل منهم. الجنّة للمظلومين وليســـت للقتلة.. يعتقدون إن الرب لهم وحدهم وهم أبعد خلقه عنه.. انهم قرود زانية.. زبالة الحياة.

تأفف آزاد وهو ينظر للعجوز المسحوقة:

- أصبحنا غرباء حتى عن أنفسنا.
- الرب له حكمة.. انها دورة حياة.

يدخل الفتى من دون الكلب ويتقرفص بجانب العم آزاد شـــاعراً بـــالبرد والنعاس؛ فيما كان الليل يتقادم بوحشة فريدة لمدينة شبه خاوية تمكن آزاد خلال الأيام الفائتة من أن يرى الكثير من البيوت المهجورة والمحترقة والمسروقة والمشرعة الأبواب والمهدمة.

رأى المساحات العارية في الأزقة لبيوت الطين التي اقتلعتها الشفلات فغيّرت من خريطة المكان كثيراً. ولم ير الا القليل من الناس ولم يعرف منهم غير عيـــدو الذي يتحاشاه لسلاطة لسانه وتصرفاته التي تثير شرطة الحسبة وتُربك وجـــوده الحائر..

مدينة من عجائز وحجر وخواء وغرباء وسجون سرية واسرى مدفونين في غرف مظلمة وحيوات مفجوعة بالألم وضيق التنفس وجُمَع مـــن تســـابيح ودم وموت وذل.

ينصت للحامل التي تفتح عينيها فيرى من خلالها سنجار مكبّلـــة بالغبـــار تلهث كغزالة أتعبها الجري السريع فتوقفت لصيادها القاتل وامتثلت رقبتها للذبح مستسلمة.

يرى الحامل تفتح جرحها العريض. امرأة من حلم ويقظة وشـــطارة هـــذه الحامل الجريئة. كأنها المدينة في عيد الـــ **سري صالي** حينما تحتفل ببهجة الحيـــاة وتكشف سر جمالها الساحر في مظلات الربيع الضاربة في القلوب وهي تســـتعيد

الماضي في أعماق التاريخ وتستقدم دفوف الأكديين ومزامير البابليين وصنوج الآشوريين في رقصة الجمال وهي ترتدي ثوب العيد النيساني بخيال باهر وروح متحررة..

كثيرون مروا واختبأوا هنا وغادروا وهاجروا... بيتي مفتوح للشنكاليين. إنها محنة تاريخية لابد أن نتواطأ مع بعضنا لتمر بأقل الخسائر.. أنا امرأة الحمل المستحيلة. لن ألد إلا في موعدي.. ستجد هذا خيالاً فذاً لكنك تراه الآن، مثلما ستسمع مني حكايات السلف العظيم وخيال السلالة النقية التي صهرت القرون بحكمتها ونقائها وخيالها الذي أطبق على سيرها.

أنا امرأة الخيال الذي يقتل الواقع لينتصر عليه ويخلقه من جديد بالرغم من قسوته.

ترقص الآن على موقد عريض. تحتها وفوقها جمر. في حنجرها جمر وفي بطنها جمر وفي خصرها رقصة مؤجلة حتى نيسان جديد يعيد للخضرة روحها وللجنين المؤجل شهقته؛ فتستعرض النهاية كما انتهت، فلا بداية تمسكها في يوم النار التي ما تزال مستمرة في أحشائها وروحها..

تروي بعينين رطبتين يلصف الكحل فيهما:

- قتلوا زوجي ببساطة وتركوني لكوني حاملاً في شهري الأخير. لكني لم ألد حتى اليوم بالرغم من مرور أربعة أشهر على حملي القديم وبذلك يكون حملي قد صار ثلاثة عشر شهراً وبطني لم تتوقف عن الانتفاخ، وهو ما جعلني في مأمن نسبي من زحف عناصر دولة الخلافة الإسلامية على جسدي.

كانت تحكي بهدوء واطمئنان وهو المثقل بالغم والحزن ينصت إلى روح أخرى فيها كما لو يرى ما وراء الجنين فيما كانت العجوز تبربر بذاكرة مفقودة وتبكي وتصمت لوحدها وتنام كما في كل ليلة وتهذي بـ نارين.

قبل أن تنطفيء بقايا الشمعة نهضت الحامل إلى المطبخ وجلبت برتقالة أكبر من قبضة يدها وسكين صغيرة وعلبة زيت صغيرة. قشّرت البرتقالة من منتصفها بمهارة وأخرجت نصف القشر المدور الذي يشبه قبعة.

كانت تقول للفتى وهي تتشاطر بمرح:

- ابتكرتُ فتيلة من لب البرتقال.. كما سترى..

نزعت لبة البرتقالة كاملة وحرصت أن يبقى حبلها السري سليما نابتاً في القعر الآخر من البرتقالة ثم صبت قليلا من الزيت في القعر المفتوح وتركته وقتاً حتى يتسرب إلى الحبل السري الطالع كفتيلة قطنية.

- هكذا اصبحت لدينا **لالة** تكفي لبضع ساعات إنارة بسيطة.

أشعلت رأسها الذي تشرّب بالزيت فانفتحت فيه نار صغيرة أضاءت المكان بشكل أدهش الفتى.

- لم تنتهِ العملية بعد..

فتحت في النصف الآخر من البرتقالة فتحة رأسية بحجم الإبهام وأدخلته على رأس الفتيلة المبتكرة فأغلق الفراغ وعادت البرتقالة مجوّفة ومضيئة بحبلها السري..

- الحرب علمتنا الكثير يا فتى.. في كل شحة نجد ما يحل المشكلة..

وأضافت:

- لدي بُطُل وفتيلة وعجينة تمر إذا شحّ كل شيء..

ظل الفتى لصيق النار الجديدة وهي تخرج من البرتقالة المجوفة من دون دخان أسود.

كان آزاد يراقب الفكرة الظريفة التي أحيتها برتقالة مجوفة الا من فتيلتها السرية.

تساءل والحامل تنظر اليه:

- إذن قتلوا زوجك يا أخت!

تأففت:

- قتلوه.

- في كل بيت أيزيدي قتيل ومهاجر ومفقود وأسير.

هزت رأسها وبرقت عيناها بطريقة غامضة:

- اقتادوه مع الأهالي الذين لم يستطيعوا الهرب ثم اعادوه في اليوم التالي مكبلاً وقتلوه في طارمة البيت أمامي.. لأنه رفض أن يكون مسلماً

كما قالوا..

صمت آزاد وهو مستعد ليسمع شهادتها:

- طوقوا يديّ بحبل الغسيل ولجموا فمي بخرقة. لم استطع الصراخ ولا الحركة. تبلّدت احاسيسي في تلك اللحظة. لكنّ جنيني كان يصرخ ويناديهم انه بابو. كانوا أربعة وخامسهم كلب يقف أمام الباب. اثنان أعرفهما فهما من مسلمي قرية روش هلات ومن الذين خانوا أخوتهم الأيزيديين واثنان غريبان لا لهجة لهما أفهمها..

تركزت عيناها على النار المتأرجحة في فوهة البرتقالة:

- ذبحوا زوجي أمامي وفصلوا رأسه عن جسده كالشاة. كنت أرى ذلك وأنا صامتة. انغلق فمي وضاع الصراخ من حنجرتي لكنّ عيني زوجي الميتتين بقيتا تنظران لي. تقولان شيئاً لم أعد أفهمه وقتها.. ولا حتى الآن.. غير إن الجنين صرخ صرخة ملأت المكان بالفزع..

كانت عينا الحامل تغرقان بغموض أكثر وتترقرقان وينعكس لهب البرتقالة عليهما فتبدو كما لو إنها تشتعل من ذلك العمق وتنتشر على الصالة.

أكملت الحامل وعيناها على بطنها الطالعة:

- تحسس أحدهم بطني بطريقة مقرفة يا أخ.. انزل يده تحت سرّتي و. مسكني.. كان يضحك وهو يتلمسني ورأس زوجي ينظر لي والغريب يتمادى بمسكي تحت سرّتي..

وضعت يديها على بطنها المتقدمة إلى الأمام كثيرا. تحسست جنينها الذي شعر به آزاد يتحرك ولا يهدأ:

- وقتها تحرك جنيني بطريقة غير معقولة كنتُ أسمعه يصرخ فتشبثتُ به كي لا يسقط. ضغطتُ على فخذيّ. رجوته أن يهدأ ولا يلفت الانتباه اليه. لكن أحد القتلة أصرّ على أن يلمسني من تحت.. لا اعرف لَم يفعل ذلك وأنا امرأة حبلى في شهرها الأخير. لا تغوي وزوجها مذبوح أمامها..

هز آزاد رأسه وهو يتخيل المشهد كما ترسمه الحامل بدقة:

- كنت جامدة لا اعرف ماذا أفعل.. لكن الداعشي صرخ فجأة وهو يوغل اصبعه بي من وراء ثوبي.. سحب يده كالملدوغ.. ثم صرخ صرخة رهيبة وسقط كإنه تمثال هش. تفتت الرجل كالرمل وسال دم كثير منه وانا مصعوقة أنظر لجثة زوجي وجثته المفتتة.. فهرب رفاقه الآخرون بطريقة مرتبكة. لا اعرف ماذا حصل.. لكن.. هذا ما حصل يا أخ.. وانا هنا وحدي الا من هذه العجوز والكلب الذي آويته ولا أعرف من أين جاء..

وجد نفسه يتساءل:

- لكن ماذا حصل والداعشي يمد...
- مممم.. خرجت من أسفلي حية لالش السوداء ولدغته لدغة مميتة.. قتلته في الحال..

وأضافت بالثقة ذاتها:

- **شيخادي**[1] لا يتخلى عن الأيزيديات المؤمنات..

همهم آزاد وهو يشعر بالاضطراب والقلق؛ محاولاً أن يبعد المشهد العالق برأسه برواية الحامل التي ما تزال مفتوحة العينين..

سألها مضطرب البال ومن دون هدف:

- متى تلدي يا أخت؟

أغمضت عينيها بعض الوقت كما لو تمتص الكثير من الضوء المتشبث بأهدابها. ثم أطلقت زفرة طويلة:

- لا أنوي أن ألد.. سيبقى حملي إلى وقت طويل..

---

(1) شيخادي أو شيخ آدي: هو الشيخ عدي بن مسافر مطوّر الديانة الأيزيدية والرجل المقدس الأول فيها.
ولد (467 هـ 1075 مـ - 557 هـ 1162 مـ) يعتبره الأيزيديون تجلياً للملاك طاووس.
توفي ودفن في لالش في الخلوة التي بناها بنفسه وأصبحت محجة لأتباع الطائفة الأيزيدية.

- الجنين يكبر في بطنك.
- حتى يأذن الرب. لا ألد. فاتَ موعد ولادتي. الآن أنا امرأة ألد في بطني..!
- ألا يؤذيك هذا الحمل الطويل؟

قالت بحماسة:

- رأيتُ أذىً أكبر منه.. رأيت زوجي كيف ذبحوه لأنه أيزيدي لكن الرب انتقم منهم بنفس اللحظة بواسطة حية لالش(1).

تأففت وهي تنظر إلى النافذة القريبة:

- ما تزال بقعة دم زوجي في الطارمة.. لن يغسلها المطر ولا حتى طوفان نوح..

نهضت إلى المطبخ وهي تتحسر فألقى ظلها المنتفخ سحابة من الظلام غطت الغرفة كلها.

كان الفتى يتثاءب وهو يقلّب بموبايله صور نشتمان متحاشياً أن يراه العم آزاد فيما كانت المرأة شبه العمياء تئن وتهذي بلغة كردية ثم تصمت وتشخر.

بقيت حية لالش التي يعرفها آزاد تلوح أمامه بطولها الرفيع الذي يشبه عصاه المركونة إلى جانبه. تلك الحية التي يراها ملطوشة كلما يذهب لزيارة ضريح شيخادي كما لو تسد ثقباً لا يراه أحد وتمنع غرق الأيزيديين في سفينة حملت معها بذرة المخلوقات الحية في طوفان نوح الذي اصطدمت سفينته بجبل سنجار فأحدثت ثقباً تدفق الماء من خلاله، ولولا الحية السوداء التي كوّرت نفسها في الثقب لغرقت البشرية فمضت سفينة النبي تتهادى وسط موج كالجبال بحملها المتعدد.

اجتاح موج الطوفان عقل الرجل وهو يتفحص الحكاية فوجد الحية ما تزال تسد الثقب الذي تدفق منه ماء الطوفان.

---

(1) حية سوداء رمزية على جدار معبد لابش يقدسها الأيزيديون لإعتقادهم إنها أنقذت سفينة نوح من الغرق بعد حدوث ثقب فيها أثناء الطوفان فدسّت نفسها في الثقب كي لا تغرق السفينة..

عادت الحامل بشهرها الثالث عشر وهي تحمل صينية صغيرة توزعت عليها حبّات تين وأنصاف خبز وريحان وأكواب شاي ثلاثة تتقدمها بطنها المنتفخة.

- بقعة دم زوجي في الطارمة تطرد كل داعشي يأتي إلى البيت بدعوى التفتيش أو أي شيء آخر..

فتح سربست عينيه..

- فيها رائحة غريبة طاردة. يشمها القتلة فقط.. رائحة لا نعرفها نحن لكنهم يعرفون قوة نفاذها في أنوفهم وأرواحهم النجسة..
- مات زوجك مغدوراً ورائحة المغدورين لا يشمها الا الذين غدروهم.. أظنها حكمة مناسبة لحالة مثل هذا..

قالت الحامل وهي تنظر إلى بطنها:

- هذا شاهد ولا اريده أن يكون شهيداً. لهذا ولدته في بطني ولن يرى نور شنكال حتى يجف دمها وتنبت أرضها من جديد بالتين والزيتون.

شهادة غير كافر

ظلنا لن يرحل..
سيقف أمام باب المعبد
ينتظر الراحلين اقتلاعا..
سيقدم تراب (البَراة المقدس)
للقادمين من المنفى.

سفيان شنكالي - شاعر ايزيدي

- وأنت يا أخ.. أراك متعباً..

نظر للمرأة وهو يتذكر كلام الفتى عن بقعة الدم أو الصبغ الملطوشة على الطارمة والتي لا يزيلها المطر الغزير..

رفع عينيه عن عينيها وقال:

- الرب أرسل لي ورقة إذن بواسطة حمامة زاجل.. الآن أنا حر. لستُ كافراً مثل قبل. عندي شهادة عدم كفر ههههه

ظلت صامتة تنتظر ما يقوله. رأت لحيته غير المناسبة وشعره الأشعث ووجهه المحبط.

- كنت في الجبل والغار شهوراً طويلة. مرت عليّ الفصول وحدي الا من الفتى الذي التحق بي برغبته بعدما وجد نفسه في المخيم شبه ضائع ووحيد. بقيت طويلاً أتأمل كل شيء مثل النبي الذي ينتظر وحيه..

على الضوء الخافت يمكن للحامل أن ترى ترقرق عينيه التين بدا وكأنهما مغمستان بينبوعٍ من الدموع:

- كنت أحلّق في الجبل كطائر لكن بلا جناحين. لم أكن بحاجة إلى أن أطير لكن كانت روحي تحلق إلى هنا إلى شنكال وبقي هيكلي وشبحي على الجبل وفي الغار الصغير الذي يسمع ندائي وبكائي.
- ولماذا هجرت المخيم.. لو بقيتَ مع الجماعة لكان الحال أفضل..!
- كرهت كل شيء بغياب نشتُمان. كنت ارى الجميع في دوامة مصائبهم الشخصية.. كل المخيم يبكي وينوح ويلطم ويتأسى..

تأفف وهو ينظر إلى عيني المرأة المنفتحتين على رموشهما الطويلة:

- كنتُ سربست.. الحساس.. العاشق.. المخدوع.. المغدور.. مهندس الجمال..

دخل الكلب وأخذ يتشمم بطن الحامل وهي تمسّد رأسه المبلل ثم أقعى إلى جانبها قريباً من بطنها المتدلي كثيراً.. ناداه الفتى لكنه بقي إلى جانب المرأة.

- الآن غادرتُ سربست وصرت آزاد.. تحولت إلى غيري.
- تبقى سربست. آزاد اسم الاضطرار الذي يمارسه الشنكاليون خوفاً وتقيّةً.

قال:

- الاضطرار والطوارئ والخوف والتقية كلها من صنعنا!

واضاف بلوعة:

- انا آزاد الآن.. سربست مات منذ أول يوم هرب إلى الجبل..

تأفف وهو يمد يده في جيب قمصلته الداخلي وأخرج ورقة مستطيلة. فتحها وقرأ للمرأة:

شهادة غير كافر

لمن يهمه الأمر في ولاياتنا

نعلمكم ان المدعو آزاد خورشيد السنجاري من أهالي قضاء سنجار- المركز قد حضر دورة استتابة وأتمها بتقدير جيد.

وبناءً على ما تقدم فقد منحناه هذه الشهادة التي تثبت انه غير كافر ويمنع جلده أو صلبه أو حتى نكحه إن لم يكن هناك عذر شرعي يجيز ذلك لجنود الخلافة أو ثبت إنه ارتدّ وعاد للزندقة وطالب بالحرية.

والله من وراء القصد

توقيع الوالي

•هذه الوثيقة صالحة لمدة ثلاثة أشهر


شهادة
غير كافر

نظرت اليه ويدها على بطنها تحد من حركة الطفل ذي الثلاثة عشر شهراً والكلب يتشمم بطنها عن قرب وأصغت باهتمام.

قال الرجل بثقة:

- ثمانية أشهر استنجد بالسماء والأرض من أجل ابنتي حتى مَنّ الله عليّ بهذه الوثيقة الهوية.. ألقتها حمامة زاجل في يوم كان كثير المطر.

تدخل الفتى:

- أنا جلبت الورقة. ركضت وراءها حتى لا تنقع بالمطر..

تنظر للرجل بغموض من بين الضوء الخافت، لكن في سريرتها اقتنعت إنّ هذه الورقة الإلهية تدل على كرامة صاحبها.

قال الرجل بصوت مخنوق:

- ابنتي خطفوها وقتلوا عمتها فعدت أبحث عنها. ابنتي يتيمة لكنها سبيّة الان. ماتت امها أثناء الولادة.. هذا أنا.. يقتلني غياب ابنتي.. أسلمتُ في الجبل. كلمت الله بشكل مباشر فمنحني هذه الشهادة المؤقتة.

تتوزع بين لحظات متباعدة إطلاقات نارية متفرقة تثقب صمت الليل. يصغي الرجل وتصغي المرأة لكن الهدوء يعود إلى الصالة الصغيرة.

تقول الحامل بيقين:

- يشعرون انهم ملائكة الله ونحن زباله..

تصمت الحامل ويتكئ الرجل على حائط الغرفة الرطب. يتثاءب الفتى وصورة نشتمان مفتوحة على شاشة موبايله كإنه ينصت لها وهي تهمس له. طارداً من رأسه صوراً كثيرة لا يريد أن يتذكرها ممتثلاً لحكمة الجبل الذي علّمه أن يتقن النسيان في حضرة العم سربست وشهور العزلة الطويلة، ليكتسب مهارة شخصية بأن يكون ابن لحظته وينسلخ من ماضٍ مهما يكن ذلك الماضي مثلما يسمع من العم المتفرد في المكان. لكنّه كلّمَ أمه الغائبة بشيء ثم قبّل فوطتها البيضاء فاستغرق في بكاء صامت غير إنه تمكن من ان ينام.

سحب الرجل الموبايل من على صدر الفتى. تأمل ابنته. نظر إلى الحامل وقدّم لها الشاشة: هذه نشتُمان..

تطلعت المرأة إلى الصبية. جذبها شعرها الذهبي المسرّح وراء ظهرها وعينيها الزرقاوين المنفتحتين على طفولة مثيرة.. يا عيني عليكِ. خودا يحميك وطاووسي ملك[1].

---

(1) يؤمن الأيزيديون بالله وبالملائكة السبعة الذين خلقهم الله من نوره وأوكل لكل منهم مهمة خاصة، ويعتقدون أن ابليس (وهو طاووس ملك عندهم) جدير بذلك لحبه الشديد لله إذ رفض أن يسجد لغير الله حتى حينما عصى أمره بالسجود لآدم أول الخلق.

أعادت الحامل الموبايل للرجل وهي تتثاءب.

في الخارج هناك مطر ينقر الشوارع الفارغة ويطرق الزجاج.

أيقظت الحامل العجوز وسحبتها برفق إلى غرفتها المظلمة.

- خذ وقتك وراحتك.. الجنين يحتاج إلى خلوة.. لم يكلمني اليوم كثيراً..!

خرج الكلب إلى الطارمة يدور حول بقة الدم كما لو يحرسها.

فتح آزاد نافذة واحدة تطل على الخارج. كانت العتمة تحيط بكل شيء والمدينة تغرق في صمت معتاد والهواء البارد يصفر في الأزقة الموحشة ورائحة غامضة تفتح ذاكرة مهندس الجمال القديم في حقول ومزارع وبساتين ليست بعيدة عنه.

يرى الأيزيديون ان الله أمر الملائكة بأن يسجدوا لآدم (وكان القصد من وراء ذلك هو اختبار للملائكة في تنفيذ أوامر الخالق) فسجدوا كلهم إلا طاووس ملك أبى ولم يسجد وعندما سأله الله لماذا لم تكن من الساجدين؟ قال: عندما خلقتنا أمرتنا أن لا نسجد إلا لك وأنا لم ولن أسجد لغير وجهك الكريم يا رب ففاز طاووس ملك بالامتحان، ومكافأةً له، جعله الله رئيساً للملائكة.

نجمة شنگال

أنا ابن الخطأ والخطيئة والتاريخ الملعون

سربست

تحسس طريقه إلى السلّم وصعد درجاته ببطء إلى السطح منقاداً بأرق يعصف في روحه الملبدة بالرماد والغبار.

سمع الحامل تكلّم جنينها في الغرفة فانفرجت روحه قليلاً وهو يُكمل صعود السلّم إلى السطح العاري.

تشمم الليل الساكن من على سطح الدار في ظلمة عميقة تبدأ من السطح ولا تنتهي حتى في ظلمات روحه التعيسة.

كانت المدينة طافية على ظلام ساحق كأن لها جهةً واحدة تدور في دورة معتمة لا تقف عند زاوية معينة، حتى جبل سنجار المفروش حول المدينة غاب في العتمة لهذا ظل يدير بوجهه وجسده فلم يرَ غير هذه الكتل المطبقة على المدينة وروحها ولم ينعشه الهواء البارد المقبل من الجبل ولا روائح الحقول المتسللة وعبير الزهور المتخفية عند مدارجه العشبية.

خانته بوصلة الرؤيا إلى حد بعيد فمشى على السطح متحسساً جداره المتآكل من كل مكان فيأكل الظلام عينيه وبصيرته وروحه القلقة.

نشتُمان.. في أي سرداب أنت!

يتماهى مع روحه السائبة وصوت في داخله يتدفق بلا انقطاع.. الرب أرسلني اليكِ ورزقني بشجاعة جديدة شجاعة.. قال لا تخف هذه المرة.. هذه بطاقة مرورك إلى ولايات سنجار والموصل وبعشيقة وبحزاني وحلب والرقة.. لكنّ قلبي مزروع هنا في سنجار أشم رائحة طفولتك وحليب ثغركِ وعطر

أثواب العيد فيكِ. اتذكر شعركِ الذهبي وعينيك الفيروزيتين و.. بابو التي لا تفارق شفتيك..

بابو وينك..

وين انتِ..

انا هنا..

وين يعني..

ما اعرف..

مثل كل مرة يختفي الخيال والسراب والأمل والحلم. لكن الصوت يبقى يطرق قلبه ووجوده الجديد الخطر في هذه الحاضنة السنجارية التي تغيرت كثيراً وسكنها أشرار الأرض كلها.

اقترب منه صوت بشكل خاطف وباغته بتحية فاختلطت عليه لحظته المظلمة. شعر انّ شيئاً يخرج من روحه المعذبة. التفت وراءه فخطف أمام عينيه ضوء فضي سريع واستقرّ قريباً منه منيراً مساحة السطح الواطئ.

وجد نفسه مكشوفاً فارتبك كما لو بدا عارياً أمام نفسه.

دار أكثر من مرة حول الضوء الساطع الذي اخترق الليل والسطح الصغير كما لو هناك وحي يختلي به في هدأة الليل البارد.

نجمة فضية هبطت ودارت حوله قليلا مشعة كمصباحٍ من الثلج.

- **تبحث عن نشتُمان..!**

أنار ضوؤها حيّز السطح الذي هو فيه فشعّ المكان بوميض فضي يميل إلى الزرقة فأنار المكان بأطياف لامعة.

- صحيح.. أين أجدها يا نجمة؟

رفرفت النجمة الصغيرة بأجنحة فضية شفافة رشقت وجهه هواء بارد واستقرت على مسافة ليست بعيدة عنه:

- نشتُمان في كل مكان يا عم..

- **ضاعت مني الاتجاهات كلها.. أين أمضي!**

تأففت النجمة وقالت:

- شنگال كانت صغيرة.. لكنها اليوم توسعت.. وضعوا لها متاريس وخنادق وبنادق وسواتر.. اتسعت كثيراً يا عم..

قال بتوسل:

- وأين أجدها يا نجمة!
- لا اعرف يا عم.. لكن لا تيأس.

تلعثم صوته وخالطه حزن:

- لا أريد أن أموت قبل أن أجدها.. أريد أن أعتذر لها.. كنتُ ضعيفاً وقتها وخائفاً ومرتبكاً..

تأسفت النجمة وارتعشت قليلاً.. لكنه استطرد:

- ما حسبت الأمر جيداً.. كنت اعتقد ان كل شيء سيتوقف بعد لحظات.. كنت اقرأ عن الغزو والغزاة لكن لم أره سابقاً حتى رأيته بعيني فهربت مثل الجرذ.. تركت نشتمان تواجه مصيرها...

قالت النجمة وهي تشعر بأسى..

- لا عليك.. كلنا نضعف في لحظة لا نتوقعها.

غمره النور البارق على السطح فطاف لحظات في متعة الضوء لكنه لم يدخل أعماقه بعد. سألها:

- مَن أنتِ يا نجمة!
- ابنة الله الصغيرة.. مكاني السماء الواسعة.
- نيالك.. فأنا ابن الأرض الملعون. ابن الخطأ والخطيئة والتاريخ الملعون.

هبّت نسمة باردة رفعت النجمة قليلاً كأنها تطفو لكنها عادت وسطعت من جديد فبدا الرجل أمامها أكثر انكماشاً وهو يقف في زاوية من السطح:

- هل أنت أيزيدية يا نجمة؟
- أنا ابنة الرب العظيم. لا دين لي سوى دين السماء الوحيد..

ثم أوضحت:

- وُلدت في هذه السماء منذ زمنٍ طويل قبل أن تولدوا كلكم. و لم أهاجر منذ ذلك الوقت.. لكنني حزينة من أجل سنجار التي تغرق في

الظلام.. نحاول أنا وأخيّاتي النجيمات الباقيات أن نضيء ليلكم قـــدر الإمكان.

تلفتت إلى أكثر من اتجاه:

- الظلام كثير هنا واكثر ما يخيفني هو أصوات الطائرات الأمريكية التي تجوب السماء في هذا المكان.

تطلع إلى السماء المفروشة:

- هل تخافين من الطائرات؟
- لا.. لكن لدي ابنة صغيرة تركتها الآن نائمـــة.. تفزعهـــا أصـــوات القاصفات وطائرات الاستطلاع.. وجدتك وحيـــداً علـــى الســـطح وأحببت أن أكلمك.
- الا ترين ابنتي يا نجمة؟
- هناك مَن أراهم وهناك مَن لا اراهم يا عـــم.. شـــنكال غريبـــة الآن ومهجورة.

سألها بشكل مباشر:

- هل أنتِ قريبة من الله!
- إنه في قلبـــي وأنا في قلبه.
- وهل ابنتك سعيدة..
- احاول أن لا تعرف ماذا يجري في شنكال لكن الطـــائرات تفزعهـــا وتجعلها تتساءل..

رفعت النجمة رأسها إلى السماء وأنصتت:

- قد تعود الطائرات في أي وقت.
- هل سيطول سبيُنا يا نجمة!

كانت النجمة تنظر إلى السماء العميقة. ترهف السمع إلى صـــوت غـــير مسموع يتقدم إلى رأسها الفضي.

- لن يطول يا عم. كانت المشكلة في من خان شنكال ومن باعها.
- كلهم خانوننا يا نجمة.

- ليس كلهم يا عم.. وانت تعرف ان خيانة الداخل أوجع من أية خيانة.

صمتت لحظة وهي ترفع رأسها إلى السماء ثم استدركت بتهذيب:

- استأذن منك يا عم. الطائرات تعود وابنتي نائمة.. سعدت بك.. عليك أن تتمسك بشنكال فهي ابنتك الأخيرة..

رفرفت النجمة وسطع ضياؤها وهي تحلق وتبتعد بالتدريج ناشرة طيفاً فضياً في روحه..

أولادي يغنون تحت الأرض

أنا مسمارٌ مدقوقٌ في شنگال

- سالار-

داهمته روائح الحقول والخضار والفاكهة في دورة السوق وهو يبدد وقت ما بعد الظهيرة أو ينتظر الفتى الذي يقضي النهار باحثا عن أمكنة السبايا الأسيرات.

هذه رائحة تشده كلما فاض الوقت فيه فيميل إلى السوق كالنحلة يتشمم الرحيق بحاسة مزارع قديم في أعماقه.

اختلفت أصوات الباعة وأشكالهم ومناداهم على بضائعهم من التين والزيتون والبرتقال والرمان والتفاح والخضروات. طينٌ كثير يغمر السوق وذباب يتكاثر على الأقفاص والسلال ومعروضات الفاكهة على مناشرها العشبية والخشبية وضجيج مولدات صغيرة تنير أجزاء من السوق بمصابيح ثلجية تحت كل بائع تقريباً..

كما في كل مرة لم ينتبه إلى مناداة بائع التين ولا ينتبه لغيره أيضا بشعور انه لا يريد أن يفتح خطاً مع الآخرين من مواطنيه القليلين المتبقين تحسباً من أي احتمال يعرضه للخطر في المدينة التي اصبحت موبوءة ومثاراً للشكوك، غير ان البائع ظل يذكّره بالبادينية[1].. **ئه فه هزيير وزيتونا شنكالانا.. ئه وان خراب نابن**[2].

ولكي تمر اللحظة عابرة من دون توجس أخذ يقلب بضع قطعات من التين المعروض وهو يتلمس ليونتها بين أصابعه فيطير الذباب ويحط على صندوق الرمان القريب.

---

(1) البادينية احدى اللهجات الكردية التي يتكلمها السنجاريون

(2) هذا تين شنكال وزيتونها.. التين الذي لا يفسد.

انخفض صوت البائع وهو يقرّب رأسه منه كمن يهمس له: **ئه فه هزيراكا عه صليا.. نه ي بوجة ئيسلاميا هههههه**[1]

نظر اليه بدقة.. وجه متغير بفعل لحية طويلة سوداء لم يمسسها بياض وعيون مثقلة بالشك. وجه ضاحك.. ورأسه مغطى بيشماغ مرقط بالأسود والأبيض. يلف جسده بقمصلة خاكية قديمة وصوت يعلو وينخفض بطريقة أربكته.. **كاكه هذا تين شنكال.. هناك حقول لم يعرفها هؤلاء وبقيت تحت رعاية خودا.. هذا تيننا وزيتوننا الذي لا يفسد.. مطر وفير ونعمة لم ينجسوها بعد..**

أوصل بائع التين له رسالة جريئة ووقحة ولاحظ ارتباك آزاد وعيناه تتخاطفان بسرعة يمينا وشمالاً..

- بين فترة وأخرى أرسل لك شيئا من التين والزيتون والتفاح بيد الفتى كلما أراه في السوق..

نظر اليه بقلق وقال:

- اه. شكراً

شعر كما أو إنه وقع في فخ. انتابه مثل هذا الشك قليلاً، غير إنّ سرعة الرجل في الحديث وملامحه، وإنْ كانت غامضة، لكنها لا تشي بالعدوانية كما كان يفكر. لديه حدس يشعره بلحظته التي هو فيها..

مرة قالت له الحامل: قد تعرف بعض البقالين..

دقق بملامحه بشكل مباشر لكن عصف رأسه لم يلتقط شفرة الرجل الضاحك. ونفس الشعور يخامره حينما يرى مواطنيه ملتحين بوجوههم البيضاء وكأنها لحى مركّبة تركيباً اصطناعياً لا يليق بهم..

- كم أصبح عليّ من أثمان؟

مدّ آزاد يده في جيبه غير انّ بائع التين سارع وأمسك بيده..

- عيب يا رجل. نحن أخوة.
- هذا حقك..

---

(1) هذا تين شنكالي أصلي وليس تيناً اسلامياً مغشوشاً هههههه

- إنسَ.. هذا واجبـــي..

قال مستدركاً:

- دائما يشحن الفتى موبايله هنا. لا توجد اتصالات لكن الفتيان مولعون به. أكثر من مرة جاء بموبايلك لشحنه هههه.. نشترك بمولدة صغيرة للإنارة الموضعية كما ترى.. البنزين شحيح جداً وغالي الثمن لو نحصل عليه.

فتح كيساً واغرقه بمغرفة صغيرة من الزيتون وربط عنقه.. ثم انتقى حبـــات تين ووضعها في كيسٍ آخر.. ارجوك.. هذا تين وزيتون لعشائكم. نحن أخوة ولا فرق بيننا في هذه المصيبة..

شعر انه يتسمر بمكانه وقد خانه شعور المجاملة في لحظته المفاجئة، وهو أمر استوعبه البائع على الفور:

- لن تضيق علينا الأرض يا أخ.

سلمه كيسي التين والزيتون بابتسامة حسبها آزاد ماكرة إلى حد معين.

- أتعرفني!

- اعرفك.. لحيتك ونظارتك وعصاك غيرتك كثيراً.. مثلما انا تغـــيرت بنظرك..!

- أتعرف الفتى..!

- اعرفه وأعرف أهله المسلمين الذين ذُبحوا قبل أن يهربوا.

أعاد السؤال وشفتاه جافتان:

- أتعرفني بشكل حقيقي!؟

قال بائع الزيتون وهو يقترب منه كثيراً فلاحظ آزاد ان عرجاً خفيفـــاً في واحدة من ساقيه:

- أعرفك يا سَرْبَسْت حق المعرفة. انت ابن شنكال ومهندسها الوحيد.. صح؟

وجد باسمه القديم رنيناً أشعره بوخز في قلبه:

- كنتُ.. كنتُ سَرْبَسْت..

- لا يهم.. انا غيري الآن. لستُ أنا القديم.. الظروف غيرتنا.. لم أكن بائع فاكهة وخضروات بل كنت موظفاً بسيطاً مستوراً مع زوجتي وأولادي.. لكن..

انتبه البائع إلى انه ثرثر طويلاً فسحب تنكة ووضعها امام آزاد وهو يقول: - أتعرف.. عرفتك على الفور!

جر آزاد التنكة وثبّتها على الأرض الموحلة تحت سقيفة البائع:

- وسامتك تفضحك يا رجل...!

جلس آزاد على التنكة وعصاه السوداء أمامه على دكة خشبية مصطفة عليها صناديق الفاكهة:

- صح.. لم نتحدث سابقا لكن أعرفك سابقا يوم لم يكن التعارف مهماً كما الآن..

اختلف المشهد أمام آزاد وهو يرى الباعة القريبين والمتبضعات من النساء والصبيان والرجال وما تزال رائحة الحقول تقتحم روحه.

ثمة صبي يبيع الورد حاملاً باقة ملفوفة السيقان تنفتح في أعلاها ورود متجانسة الحجوم حمراء وبيضاء وصفراء كأنها مزهرية يطوف بها في السوق.

قال بائع الزيتون وهو ينهي بيع كيسين من التفاح والرمان لامرأة متلفعة بنقاب لا يُظهر منها شيئاً:

- غبتَ طويلا يا رجل..

تململ في مكانه وهو يمسك بلحيته:

- ما عرّفتني بك يا أخ..

- أنا؟ أنا سالار.. لكن الآن ينادوني عبدالله.. ههه صار اسمي هكذا.. فقدتُ وظيفتي لأن شنكال خالية من الناس إلى حد كبير كما ترى عدا من خانوها. هرب الكثيرون لكني لم أستطع الهرب. أنا مسمار مدقوق في شنكال يا سيد سربست.. لكني حافظتُ على أولادي بطريقة خيالية..

قاطعه الرجل وهو يتلفت:

- اسمي آزاد.. انس سربست..
- آزاد.. نعم سيد آزاد.. كلنا تغيرنا... وأصبحنا نصلي أيضاً.. هههه

التقت عيونهما على صمت. لم يكن آزاد ليقول شيئاً آخر غير أن هذا الرجل يضفي عليه الكثير من الغموض والوضوح ايضاً في لعبة سريعة لم يكن يتوقعها.

- أما عثرت على ابنتك!

وخزه السؤال في صميمه. رأى في وجه الرجل اهتماماً وجدية.

- لا..
- سأساعدك قدر ما أستطيع.. يمر بنا فلاحون مسلمون بقوا في **القابوسية** ولابد لديهم بعض الأخبار.. أيزيديون قليلون يمكن أن يعرفوا شيئاً أحياناً.. نحن لم ننقطع عن بعضنا في هذه الظروف الصعبة.

ثم أوضح:

- كانت العلاقة بيننا وبين دولة الخلافة ماشية على قدر ما نتجنبه منهم من أذىً لكن حدث حادث غيرهم علينا كثيرا وفقدوا الثقة بنا بل كادوا يقطعون رقابنا واحداً واحداً..

انتبه آزاد وهو يصغي:

- كنا نوزع الفاكهة والخضار على بيوتهم متوزعين على قطّاعات وأحياء. لكل بائع حصته منهم. غير إننا فوجئنا ذات يوم بأن عدداً قد مات منهم مسموماً بالفاكهة فكانت كبسة لنا جميعا. فرّ مَن فرّ والى اليوم ومن بقي تعرض للمساءلات والتحقيق والضرب، لكنّ الله رحمنا بأعجوبة حينما تم التعرف على بائع اندسّ بيننا وكان مقاتلاً من قوة حماية شنكال نزل بزي فلاح وأدخل معه صناديق من التفاح والتين والزيتون وكلها محقونة بسموم مميتة....
- الحمد لله على سلامتكم..
- تريد الصدق.. كلنا فرحنا بموت أولئك الكلاب.. لكن خسرنا الكثير.. لا يهم.. خودا يعوضنا.. المهم سلامتنا وسلامة أبنائنا..

لمّ آزاد جسده تحت القمصلة السميكة شاعراً ببرد العصر الذي هبط مـــع هبوط الشمس ولاحظ قلّة المتواجدين من المتبضعين.

قال بائع التين والزيتون:

- ستكون في ضيافتي يا أخ آزاد انت والفتى.. ابقوا معنا بضعة أيام عسى أن تتوصل إلى رأس الخيط في قضية ابنتك.

- شكرا فأنت أخ كريم..

قال بإصرار:

- ستكون في بيت أخيك. لا تتثاقل من شيء..

ثم أضاف بغموض وهو يضحك:

- سترى أولادي الذين يغنون.. تحت الأرض..!

انفتحت عينا آزاد وهو يهم بالوقوف ماسكاً بكيسي التين الزيتون..

- سترى كيف حميتهم من هؤلاء.. اولادي الذين يغنون تحت الأرض.

وقف آزاد وسحابة قلق تنتابه وهو يحدق بالرجل:

- أعدكَ بزيارة قريبة.

تصافحا بمودة. كان سالار يبتسم وهو يشد على يد آزاد:

- ستكون في بيت سالار أخي آزاد.. سأسعد ببقائك معي..

قال آزاد:

- هذا من لطفك.. احاول أن ازورك وأقضي بعض الوقت معك.

عيدو

يلحق الفتى بالعم سالار قبل أن يغلق بسطة الفواكه ويدثرها بالشراشف القديمة وقبل أن يطفئ مصباحه الثلجي. يضع سلك الشاحن في ثقوب مُقسّم الكهرباء ويدحس موبايله تحت غطاء قريب..

- كنتُ في الأطراف. أحصيت بعض المقابر الجماعية..

ساعد الفتى العم سالار بترتيب بسطته وهو يحسب الوقت لشحن موبايله. نشّ اسراب الذباب المتطايرة في الفسحة المسقوفة لمساحة العم سالار، وكان بين فترة وأخرى ينظر إلى مؤشر الشحن المتصاعد ببطء.

وعلى غير وقته يدخل عيدو المختفي منذ بضعة أيام بأسماله الكثيرة التي يضعها على جسده ايام فيرحّب به سالار ويمازحه بخفّة:

- **جماعة الحسبة يبحثون عنك.. يريدون أن يقصّوا... هههههه**

بدا جائعاً وهو يمد يديه تحت الأغطية ويلتهم حبات التين والتفاح. لم يتكلم. كانت الأغطية التي عليه نفسها غير انه زاد عليها بقطعة جنفاص محفورة من وسطها وارتداها كثوب مفتوح فبدا مثل كاهن أسطوري قذفه قرن قديم إلى هذا المكان.

مصمص يديه وهو ينظر إلى سالار الذي توجس منه حينما يرى نظراته الحمراء بهذا الوصف الذي يراه الآن:

- اسمع يا سالار.. شنكال هاجرت وعليكم أن تعيدوها..
- أنا عبدالله يا عمي عيدو.
- ما زلتَ تخاف من اسمك يا بيّاع الخراء..
- هذا اسمي يا عم وانت تعرف.. استر علينا. هههههه

وغمز للفتى أن يوضّب ما تبقى من البسطة فعيدو غير منضبط ولا يأبه لجواسيس الحسبة وشرطتهم.

كان العصر يتوارى بالتدريج وكان عيدو يردد: خراء.. كل شيء في هذا البلد خراء.. ثم ثرثر بالتركمانية كثيرا وهو يلقي خطبة سريعة على الرجل الذي ظلت عيناه تتخاطفان في كل الاتجاهات وكان الفتى يفحص موبايله كل لحظة ويجمع بعض كِسَر الخشب الموزعة هنا وهناك.

ربت على كتفه وحمّله كيس فواكه وخضروات جمعه له بسرعة من تين وخوخ وتفاح.. هذا لعشائك.. سيأتي جماعة الحسبة ويلقون القبض عليك يا عيدو..

- هؤلاء زبالة اسلاميو تظنني اخافهم..!

سحب التنكة وجلس عليها. رأى عينيه الذابلتين وجسده المنفوخ بكتلة الجنفاص. كان شاربه متدلياً وغليظاً كذيل صقر ولحيته اطول مما كان يتصور. مفتولة بضفائر ناعمة منفوشة النهايات كضفائر البنات الصغيرات. بدا مجهداً وشيخاً. لمح فيه ما لم يستطع فهمه أو هكذا تخيل للحظة وهو مستَفز نسبياً من وجوده المفاجئ قبل إغلاق البسطة.

رآه بوضوح أكثر وهو يديم النظر إلى نقطة ثابتة كمن يفكر بشيء عميق. حاجباه غليظان مثل اصبعين قديمين مشققين وعيناه ذابلتان الا من بصيص حينما يحركهما ويرمش بهما. وجهه متغضن كإنه طين يابس حفرت فيه فأس الحياة كثيراً. يداه ترتعشان لكنه يقبض عليهما بإصرار.

أنهى الفتى توضيب المكان بشكل سريع ودفن الفواكه والخضروات تحت أغطية معدة لهذا الغرض.

- هذا كيسك فاكهتك.. يمكنك أن تقضي ليلتك تحت البسطة. ادحس نفسك تحتها. المكان دافئ إلى حد جيد.

انطفأت مولدة السوق. عمّ ظلام سريع كما لو إنه كان مختبئاً في مكانِ ما..

رفسات الجنين

عرفت إنّ برودة جسدها تركت الجنين يزيد من رفساته على خاصرتها وبطنها.. البيت رطب ونافذة واحدة لا تجلب الشمس كثيراً.. تحدّث نفسها لكنها تترك الأخشاب القليلة التي كان يأتي بها الفتى كحطب لمساءاتٍ أكثر برودة.

سبقها الكلب إلى السطح مسرعاً وصعدت وراءه متثاقلة ببطن يريد أن يفتق بيجامتها البيضاء العريضة الصاعدة حتى سرّتها.

رأت المدينة ساكنة كما في كل مرة وأصوات قليلة تتقادم إلى مسمعها وسيارات خافقة في الطين تسمع محركاتها بوضوح بينها سيارة اسعاف واحدة مرقت مصوّتة من شارع بعيد إلى المستشفى الوحيد وربما سمعت صوت طائرة تمرق في عمق السماء.

كانت السطوح حولها خالية ومهجورة والأفق مغطى بالغيوم. وأشجار البيوت المغسولة بأمطار كل يوم تبدو أكثر خضرةً، فيما بدا جبل سنجار البعيد كإنه غيمة ساقطة على الأرض. يبرك في أفقه منذ سنة في ضبابٍ متعكر تراه بين يوم وآخر كلما وجدت السطح مشمساً.

قال لها الجنين إنه يريد أن يرى الحَمام والصقور والعصافير والغربان، وكان الكلب يدور حول بطنها ويشمها بإلحاح.

جلست على خرقة متروكة ومددت ساقيها وبيدها مسمار الحياكة وقطعة صوفية لم تتضح معالم فصالها بعد.

رفس خاصرتها وبطنها من جديد بعصبية فهدّأته وهي تقول إنها تفعل ما بوسعها لتساعد الآخرين بوصفها شنكالية أصيلة في هذه المحنة الطويلة.

اهدأ يا صبـــي. مَن لي غيرك في هذا الحطام.. ستبقى في دفء روحي ولا ترى ما رأيناه من ذل وعذاب..

قال لها انه يريد أن يرى الطيور ويلعب في الهواء ويركض تحت المطر وانه لا يهاب رصاص جنود الخلافة.. ابتسمت وعيناها تبحثان في السـماء. كانـت الشمس وفيرة إلى حد جيد أشعرها بالدفء المناسب وأصابعها تشتبك بسـنارة الحياكة، والكلب يدور في السطح ويمد رأسه من اكثر مـن ثلمـة في السـياج الواطئ للسطح ثم يعود إلى بطنها يشمها ويقعي متشمساً.

أخبرها الجنين بأن عدداً كبيراً من البلوزات والبيجامات خاطتها له فأجابته بأنها تحيك بلوزة صغيرة للغراب الفقير وأخرى لصديقها الصقر الـذي يزورهـا دائماً ويأتي لها بالأخبار كلما تراه وابتسامة مشعة على وجهه الجميل..!

رفسها اكثر من مرة وكانت تبتسم... **تشعر بالغيرة يا صبـي؟ اني اعشق الصقر الحر. احب شجاعته ووسامته وحريته المفتوحة في السماء والأرض. انه صقر جميل يا جنيني..**

اصطخبت بطنها بالرفس والبكاء والأصوات الغريبة.. هههههه يا لك مـن صبـي غيور...

تركت سنارة الحياكة وقطعة الصوف إلى جانبها وفتحت زيقها كما لـو تراه: اهدأ يا ولد.. لو تعرف كم احبك.. انت صقري الوحيد.. ألدك في بطني ولن أجعلك لقمة بين أسنانهم الوحشية.. انا أمك التي حافظت عليك كل هـذه السنة السوداء، ومن أجل أبٍ ذبحوه أمامك وما تزال بقعة دمه تبث رائحة كريهة عليهم لا نشمها نحن..

هدأ الجنين وكانت ترى دموعه تنسفح في بطنها فتمسحها برفق من كـل مكان حتى تيقنت بأن جنينها استكان وغفا تحت أصابعها الدافئة.

غيوم متفرقة تحجب الشمس بظلال متحركة تمر عليها وتمضي، لتكشـف الشمسُ جلوسها في المكان الدافئ، غير إن ظلا صغيراً خطف مرتين نبـهها إلى تقاطع الغيوم في السماء وهي تمضي بريح خفيفة.

رفعت رأسها.

كان الصقر أدنى من الغيوم هابطاً بشكل دائري ساكن الجناحين بطريقة جعلتها تديم النظر اليه وقلبها يخفق حتى بات قريبا من الشجرة المهجورة التي يقف عليها مثل كل مرة.

قفز الكلب ونبح مرفوع الرأس يهز ذيله. وقفت بفرح بعد إن تركت السنّارة وخيوطها حتى استكان الصقر على الشجرة..

صباح النور يا صقري الحبيب.

صباح الجوري.. دائماً اشتاق اليك.

أنت صقري الذي أنتظره كل يوم.

ما عدت أطيق مغادرة شنكال.

.. لماذا..؟

لأنك فيها وعطرك يملأ المدينة كلها.

واو.. أهكذا تراني يا صقر؟

اكثر من هذا..

هبط أكثر حتى كاد يلامس سياج السطح فاتح الجناحين. تلفتت الحامل بغريزة أن لا أحداً يراها ثم سحبت دكة خشبية متروكة وطاولت قامتها حتى اقتربت منه كثيراً.

- كم أنت جميلة..

شهقت امامه بعينين ترتعشان وشفتين تختلجان. مدت أصابعها فضمها تحت جناحه. شعرت بالدفء الحميم وهي ترتعش قليلاً.

- أحبكِ..

أحست ببرودة لسانه الناعم على أصابعها. سمعت همسه وتسربت حرارة شوقه في جسدها.

تقدمت اليه خافقة النبض ومدت شفتيها اليه وهي تغمض عينيها لتشعر بطيفٍ صغير يجتاح شفتيها الرقيقتين ولسان ناعم يمسهما بلهفة ويحفر فيها رعشة لذيذة أولى؛ فاقشعرّ جسدها وارتبكت لحظتها العاشقة وتحولت إلى قطعة عطر بين جناحيه وهو يضم وجهها ويُطبق على شفتيها بلسان كله خمر لم تتذوق مثله منذ وقتٍ طويل.

جني يهودي

الحرب هي سيارات إسعاف

عيدو

اخترقت أكثر من سيارة إسعاف مطر الصباح الغزير متوجهة إلى مستشفى المدينة الوحيد. كانت أصواها المتصلة تبعث في المدينة الميتة فرحاً غير منظور فتطل الرؤوس من السطوح والنوافذ وهي تتقصى سراً أخبار قوة حماية شنكال.

وحده عيدو يستطيع أن يعفط على سيارات الإسعاف المتوالية والمسرعة التي اكتظ ها صباح المدينة الغارق بالمطر. بل يستطيع وحده أن يقذف عليها الحصى والحجارة؛ ولولا خوف الآخرين من ردة فعل عمياء يمارسها جنود الخلافة مثلما حدث أكثر من مرة لتركوا عيدو يفعل كل شيء. لكن المارّة المثقلين بكل الخوف والقلق يعيدونه قسراً إلى المدينة والسوق ويضيّعونه بين المتسوقين، فيوبخه البعض وربما يضحك عليه حتى جماعة الحسبة ويلدغه سبابهم الوقح، فتخرج لغته التركمانية التي لا يفهمها الا القلّة وتعقبها عربيته التي أتقنها في ثكنة الشعيبة مع جنود البصرة، ويترك كرديته إلى أوقاها المناسبة التي يقررها في نوباته الغاضبة المسترسلة.

يقولون عنه سرا وعلنا: عيدو شيطان.. عقل مركّب.. جنون مصحصح.. ثلاث لغات يستخدمها متى ما يريد.

يصنع الشباب موقداً من خشب وكارتون وأغصان فيتجمعون حول النار. بينهم عيدو وهو يرفع اصابعه بعلامة النصر حينما يتعالى زعيق سيارات الإسعاف ثم يقول كأنه خبير: الحرب يا أولاد هي سيارات إسعاف.. كلما زادت سيارات

الإسعاف في المدينة يعني زادت نيران الحرب في الجبهة.. وزاد عدد القتلى.. وزاد البكاء.. وزاد الغضب.. وزادت الهزيمة.

- وماذا بعد كل هذا يا عيدو..
- بعد كل هذا يزيد الأمل بتحرير شنكال من داعش وماعش وجاحش.

لكن الأولاد يغيرون الحديث وسيارات الإسعاف لا تكف وعيدو يواصل:

- في الحرب أول من يموت هم خونة شنكال وخودا لا يحميهم..

يتسرب بعض الشباب ثم يطمئنوا ويعودوا ليجدوا آخرين ينضمون إلى موقد النار في حديث آخر. فيوم سيارات الإسعاف يوم يعرفون فيه رجال الحسبة الذين يندسون بين الناس ويطوقون فيه الأنفاس منعاً لكل إشاعة وكلام يبعث على الفرح مهما صغر والذي يهدد دولة الخلافة ويقوّي من أمل الناس.

يجلس الفتى وعلى رأسه قبعة رياضية حول الموقد بعد إن ترك آزاد في السوق.

يتجول جماعات من الحسبة؛ بينهم وعد وصهيب وفاروق وأحمد؛ فتأتي بهم النار التي يغذيها الجالسون بالحطب. فيطير الشرار حولهم وتنفتح فتائل الدخان وألْسنة اللهب، وتبدو الحلقة المحيطة بالموقد العشوائي متجهة العيون إلى عيدو الذي ضرط وضحك وقال هذه تحية لجنود الحسبة الجواسيس؛ فيضحك الجميع وتتوسع الحلقة تلقائياً وتنفرط كلما زادت المقادير الكلامية التي يقذفها عيدو أو يقلل منها ويكتم الشرطي دلشاد ضحكته وهو يمضغ ما يقوله عيدو، لكنه يقول له وعيناه فيهما بريق ما: - - انت مخبل قل ما تشاء.. الحمد لله أعطانا نعمة العقل..

الأفغاني حجي خان النحيف العجوز بلحيته الطويلة جدا وعينيه الصغيرتين جداً يقرفص بشعور البرد الذي يغمره وبندقيته واقفة أمامه يتساءل بلغة فصحى:

- ما قصتكَ يا هذا كإنكّ جنّي وشيطانٌ رجيمْ هههههه فيرد عيدو بسرعته المعهودة:
- صح. أنا جني ولكن من تورا بورا هعهعهعهع

وقبل أن يتفادى الأفغاني لطمة الجواب يسارع عيدو:

- شوف حالك الوسخ يا أفغاني لحيتك مكناسة وشكلك من الجن اليهودي هعهعهعهع

يحاول الأفغاني أن يضحك مع الضاحكين وهو يشعر بالإحراج غير إنه يعود ليقول:

- تعرفْ يا مَعتوهْ انا الآنَ قادرٌ على أنْ أجْعلكَ شَذرْ مَذرْ..

فيجيبه عيدو بضرطة عظيمة تفتح الضحك على آخره ويوجه كلامه للأفغاني:

- هذه تحية النصر يا تورا بورا هعهعهعهع

يهمس الشرطي دلشاد بأذن حجي خان:

- هذا معتوه يا حجي ولا يعرف ماذا يقول.. مجنون من ثلاثين سنة لهذا لا أحد يخالطه..

في الوقت الذي تتكاثر فيه سيارات الإسعاف الناحبة على مدار الوقت وطول الشارع الرئيسي القادم من تقاطعات المدينة ينسلُّ الفتى ويسحب قامته النحيفة ويدثّر نفسه مبتعداً عن حلقة عيدو النارية ورجال الحسبة المختلطين متجها إلى الشارع العام حيث سيارات الإسعاف تتخاطف عاوية تحت وابل من المطر الغزير. فيما ينهض حجي خان موتوراً بعض الشيء وهو يلمح عيني عيدو المحدقتين به كعيني صقر فيميل إلى الشرطي عبدالحافظ ويقول بوضوح:

- في عينيه شر هذا الأيزيدي الشيطان!

غناء مخنوق

عندما يغني أحدنا فالبقية فراغ

سالار

نواحٌ مخنوقٌ أو هكذا خُيِّل اليه خطف سمعه وهو يذرع أحد أزقة المدينة ككل مساء بعد نهار طويل مع فتاه. أرجعه الصوت المخنوق إلى الوراء بضع خطوات. توقف الفتى منصتاً كالرجل.

كفّ المطر عن الهطول منذ أول المساء. فجرجر آزاد خطواته بين الأزقة يتبعه الفتى من دون أن يتكلم خائضا ازقة خلف جامع المدينة. لم تستوقفهما الدورية الراجلة التي مرّا بها قبل قليل.

تقدم آزاد إلى بيت الصوت المخنوق وتوقف يرهف السمع وقال للفتى:

- دق هذا الباب دقتين خفيفتين.

كان البيت غارقاً بعتمة لكن يمكن سماع حركة وصوت متعثر كإنه غناء أو بكاء مخنوق مثلما تبادر للفتى وكان آزاد يتأمل الظلام الذي طال المدينة وأزقتها.

لم تفلح أضواء السيارات القليلة الخاطفة أن تنير الأمكنة المتفرقة سوى بضع لحظات هي ما كان آزاد يقتنصها ليرى البيوت الساكنة كالمقابر فيخفق قلبه وهو يتلاشى مع الظلام يرهف السمع ويسير من دون هدف.. **روحكِ ميتة يا سنجار لكني أتنفسك.**

طرق الفتى الباب طرقتين وانتظر.

بعد صرير سلسلةٍ وقفلٍ انفتح الباب عن رجل بدا كشبح. رحّب بهما من دون أن يقول شيئاً كما لو كان ينتظرهما وأفسح المجال ليدخلا؛ ثم أغلق الباب وربطه بالسلسلة وأحكم القفل.

في الصالة شبه المعتمة قال الرجل:

- قبل يومين سمعت خطواتك تمر من هنا لكنك لم تقف.

تحرر آزاد من قمصلته وسار الفتى إلى المراحيض.

- أوقفني الليلة صوت خرج من بيتك يا أخ. سحبني من ياقتي وأرجعني اليك.

أحكم الرجل ستارة النافذة ثم أنار لمبة صغيرة فتبددت العتمة إلى حد أمكنهُ من مشاهدة سالار ببجامته المخططة وبلوزته السوداء وانتبه إلى إنه يعرج قليلاً.. كما انتبه إلى مائدة صغيرة عليها قنينة عرق إلى جانبها قدح يمتليء نصفه بلـــون حليبـــي غامق ثم صحون صغيرة يتوزع عليها زيتون ولبلبـــي ولبن.

- عدنا إلى اللمبات يا رجل.

قال آزاد وهو يسترخي ويمط ظهره. ثم تمتم بخفوت:

- قتلوا الحياة فينا فعلاً.

وافقه الرجل وهو يتحرك ويصفف المكان.

- هذه حكاية شنكال في كل جيل.

دخل سالار إلى المطبخ وعاد بصينية عليها جبن وتين وزيتـــون وجـــبس محمص وقدح فارغ، فتيقن آزاد إن في الرجل عرجاً واضحاً كانت تخفيه بسطة الفواكه التي يقف وراءها.

قال معتذراً:

- هذا بيتك لا تتحرج من شيء.

صبَ في القدح الفارغ شيئاً من العرق وخالطه بدفقة ماء حولته إلى بياض ساطع معتذراً عن عدم وجود ثلج في هذه الظروف.

مازحه آزاد:

- أظنك تعرف عقوبة شارب الخمر.. هههههههه

- ههههههه اعرفها. لكن لن يستطيعوا أن يمنعوني من خمرتي اللذيـــذة.. لدي انواع من الويسكي والعرق اللبناني والبعشـــيقي وكـــل أنـــواع السجائر أيضاً..

ومن باب الفضول سأله:

- وكيف تحصلون عليها..؟

- سر المهنة هههههه لكن متى ما تحتاج ابعث لي خبراً مع فتاك..

- احتاج أحياناً لأسكت الصراخ في رأسي يا اخي سالار.. احتاج أن أفرّغ رأسي من الألم وأنام نومة طويلة..

- بصحتك..

اصطدم القدحان بشكل خفيف. عبّ آزاد في جوفه كل العرق مرة واحدة.

عاد الصبي وهو يتمتم بشيء متسائلاً:

- وين اولادك عمو...!

- يغنّون..!

أجاب بسرعة كما لو يتوقع من الفتى أن يسأله في أية لحظة وعيناه محمرّتان شاعراً بنشوة اللقاء ونشوة الليل البارد.

نظر الفتى إلى العم آزاد مستفهماً، غير ان الرجل تدارك:

- يا ابني ممكن أن تكون الحياة أغنية طويلة وممكن أن تكون بكاء لا ينتهي..

- الأفضل أغنية طويلة عمو..

قال الفتى وهو يعرف إن ما قاله مناسب لكنه كان ينتظر الرجل الذي يمضغ بعض الزيتونات المُرّة:

- حينما نريدها أغنية نغني إذن طول اليوم.

استرجع الفتى الصوت المخنوق الذي استوقف العم آزاد في الزقاق بشكل سريع وأنصت قليلاً كأنما ليستذكر نَغَمَه.

قال آزاد للفتى وهو يمرّر لقمة صغيرة في فمه:

- انت وأنا والأخ عبارة عن فراغ.. يعني عندما يغني أحدنا فالبقية فراغ..

فتح الفتى عينيه وتساءل:

- فراغ شنو عمو..!

تدخل بائع التين:

- كُلْ يا ابني فأنت جائع.. ستعرف بعدين كل هذا الفراغ الذي تمر منه الأغاني..

تساءل الفتى من جديد:

- وهل اولادك يغنون!
- يغنون. ما بقي غير لهم الغناء في هذا السجن الكبير..

سكت ثم أضاف:

- الغناء روح ثانية يا ولد.. أن تغني يعني أن تنتصر لروحك الميتة. الروح الميتة تستفيق بالغناء وتطرب وترقص وتتسامر وتضحك وتنسى ألمها.. الغناء يا ولدي رقصة الروح الميتة..

عبّ سالار ما تبقى من كأسه ومضغ وراءه ثلاث زيتونات ثم صبّ قبضة من العرق وخلطها بالماء وهو يحث آزاد لكرع كاس آخــر.. طــز بـــداعش وجاحش.. الحياة كأس عرق نظيف وزيتونة مُرّة و.. غنااااااء هههههههه

عبّ نصف كأسه ووقف بطوله وعلى وجهه فرح مخلوط بالكثير مما يُشكل على آزاد المستكين لدفء البيت ودبيب العرق في جسده.

فتح حنجرته قليلاً كأنه يريد أن يتأكد من صفائها..

تمتم بصوت منخفض وكان وجهه يكتسي بحمرة خفيفة، لكنه يحمرّ أكثر كلما يتصاعد صوته الملبّد بالشجن فيترنح فارداً يديه كجناحين يريدان أن يحلقا.

نهض ودبك بقدميه على الأرض ثم طوّح جسده قليلاً فبدا كأن قوة مـــا تهزه. ثم انفتح صوته بشجنٍ عذب بطبقةٍ أعلى وتكافلت حنجرته المعذّبة بإخراج أطوار الحزن التي وثقت لحظتهم جميعاً.

ترنحت الصالة به وكان صوته كلما يعلو يختنق.

مالَ ورقص ودار في الصالة واستوت ساقاه الدوارتان مع جسده.

كان صوته يختنق مع الكلمات التي لم يسمعها سربست من قبل، كلمات بدت كأنها تُرتجَل للحظتها بالكردية. تفيض بالأسى غير إن ايقاعهـــا الســـريع الراقص يخفي ملامح الحزن فيها.

تلك هي الساحرة الصغيرة التي قتلتني
شجرة التين الخضراء
كانت مكتظة بالعصافير
يقف عليها اليوم بومة وغراب
ينسجان من دمها ليلاً سيطول
آه ايتها الساحرة
يا شجرة التين شنكال

بدا الفتى سعيداً وهو يرى الرجل الطويل يتحرك بخفة بطريقة فيها طرافة. فأشاع جواً من المرح وهو يتراقص على ايقاع صنعه بفرحة طفل. وكانت ساقه العرجاء تستقيم وهي تضرب في الأرض حينما تنفعل فيختنق الصوت كإنه يخرج من قعر عميق. تلك هي ضربة الساق العرجاء وهي تجد ثباتها مع الجسد الراقص بكامل انسجامه كما يفكر آزاد.

رقصت الصالة الصغيرة بمناغاة أصوات أخرى وصدى طفولي يتردد من مكانٍ ما، مما جعل الفتى يديم السمع إلى مصدر الصدى والأصوات الطفولية التي بدت متقاطعة لكنها تماسكت وتجانست مع الرجل الذي استقامت ساقه العرجاء وبدا أكثر حيوية وهو يتناغم مع الأصوات المقبلة من البئر المهجور حتى خفف من ايقاعات الحالة التي طار فيها وحلّق وطفا مشحوناً بفيض روحي يخرج منه كل ليلة لكن في البئر المظلم مع أولاده الراقدين في ظلام اليوم الكامل..

تنفس الرجل طويلاً وهو يجلس وعلى وجهه خليط من الفرح والحزن وأمكن لآزاد مشاهدة دموع مخلوطة بعرق يندس في فتائل لحيته.

هطلت دموعه بشكل واضح. لكنه كان يبتسم ويضحك فيما بقي صدى البئر يتردد في مسامع الفتى الفضولي..

- وأين اولادك يا عم..!

تساءل الفتى من جديد وهو يشعر بالسعادة في الجو الليلي الذي صنعه بائع التين.

قال الرجل وهو يجلس فاتحاً ابتسامة جدّية للفتى:

- اولادي في البئر يغنون هههههه

حدس آزاد إن شيئاً ما في قرارة الرجل منذ إن سمع الصوت المخنوق وهو في الزقاق يسير بلا هدف:

- الغناء في البئر أكثر صفاءً وطراوة وعذوبة..

- لم أسمعك تغني في السوق يا عم..

- في السوق غربان وبنادق وحِبال إعدام لا يُطربها الغناء.

كان آزاد يرى في وجهه خيباتٍ كثيرة كما لو كان يخفيها تحت لحيته الطويلة غير انه يراها الآن بوضوح.. كلنا هكذا. طالت لحانا لتستر فضائحنا.. لكنك تصنع السعادة لنفسك يا سالار ولا تركن إلى الحزن.. أحيي فيك هذه الروح التي تكافح في الغناء والطرب لا لتنتصر لكن لكي لا تنهزم في أقل تقدير..

أنّ بائع التين والزيتون بخفوت ثم علا أنينه قليلاً وهو يغمض عينيه مسترسلاً. عصر رأسه وأخذت أصابعه تنقر على فخذيه، فخرج شجنٌ قروي من بين ركام الأنين المحشور في صدره أشبه بالبُحّة المتحشرجة التي تريد أن تنطلق وتصرخ وتبكي..

لون طربي قروي فيه بكاء ونشيج. لغة تتسارع بأسى وتنادي المجهول تذكرهما بالمطرب قرپال وهو يلهج تحت سترته ويشماغه العربي في نداء الألم.

يصغي الفتى مشدوداً لهذا الأنين الذي يجرفه إلى حنين راحل مثلما يجرف سربست الذي يقاوم حسرة واسعة تريد أن تنطلق من صدره المشحون بالغيظ، ومع تساوق النقر على فخذيه يتصادى الأنين القروي من حنجرة بائع التين، فيُرجع أولاد البئر الصدى بحناجر طفولية مدرّبة على هذا اللون الشاحن للأسى..

شنكال يا سرّي الذي لا يعرفه أحد،

يا بيتي العتيق،

يا وحيَ الكون،

ونبوءةَ الأسلاف،

ما يزال ماءُ زمزمكِ يجري في عروقي،
وتوت لالش يظلل روحي،
ونایاتك تدور في دواليب عشقي،
وغناؤك يصير قرية في أعماقي،
.. آه.. أيتها الشنكال الأسيرة،
قتلوكِ وقتلونا يا أمنا الذهبية..

يأتي صدى أولاد البئر ويعيد الشجن من جديد فيتحول البيت إلى كتلة ألم في دموع بائع التين والعم آزاد الذي أخذ ينقر بعصاه مع نقر فخذي سالار والفتى الذي وجد نفسه وحيداً في طابور الموت والغياب والدم. يحلق كثيراً مغمض العينين وتطوف في رأسه المدينة المقلوبة بلا نهايات مؤكدة، لكن ببدايات عاصفة بدأ يتذكرها مع صدى الأصوات القادمة من تلك الأعماق التي لم يرها بعد..

سكت الصوت في روح سالار. فتململ وهو يهز رأسه مع أولاده المدفونين الذين يتنفسون في القعر المظلم غناءً شجياً يأسر روحه وقلبه.

صمت كل شيء. ظللتهم جميعاً سحابة ساخنة وبدا الفتى مرتخي الجسد مغمض العينين لكنه يتثاءب وهو يمدد جسده على البساط الصوفي.

همس البائع:

- نم يا ابني. غدا ستسمع غناء الآبار والسراديب المعتمة. ستسمع الأرواح المقتولة وهي حيّة..

فرش على جسد الفتى بطانية ولحافاً؛ ثم التفت إلى آزاد:

- انت متعب يا رجل.. هذه افرشة كثيرة. تدفأ جيداً.. تصبح على خير.. الأولاد جائعون بلا شك..

أطفأ ضوء الفانوس الشحيح فعمّت العتمة الكلية المكان. وسمع آزاد خطوات الرجل وهي تدخل المطبخ. ثم انفتاح باب خشبي ثم خطوات بلا بلاط؛ خطوة تتبع خطوة بحذر كما كان يتخيل حتى تلاشت الخطوات.. كان متأكداً إن الرجل نزل تحت الأرض..!

قائد ومجنون

استقبلت الخبر وأنا في طريقي إلى السوق التحتاني باضــطراب وتشــويش بانتظار فلاحي القرى الذين يرفدون سالار وجماعته بالتين والرمان والزيتون فلعل خبراً ما عند أحدهم في هذا الصباح.

لم أكن قادراً على إخفاء سعادة صغيرة اجتاحت روحي المنفرطة، غير إنني كظمت ملامح وجهي التي كانت تتفتح نسبياً في هذا الصباح البارد وأنا أحاول أن أعيد الصورة المحتملة كيف وقعت وتحت أي ظرف.

أعيد ترتيب سماع الخبر من الصبيان والرجال الخائفين بطريقة أكثر هدوءاً، فأجد إنه لا يمكن حدوثه بهذه السهولة المفرطة غير إن الجميع يؤكدونه واعتبروا هذا الصباح صباح شؤم على المدينة.

قلبت الأمر من كل وجوهه فوجدته خبراً كارثياً وعجائبياً لا يحدث الا في مصادفاتٍ نادرة.

مقتل الأفغاني حجي خان قبل ساعة في السوق التحتــاني أمــر لا يمكــن تصديقه بسهولة، والقاتل هو عيدو أمر آخر فيه مبالغة لا يحتمل تصديقها في جو صغير مسجونة فيه حتى الأنفاس وعيدو آخر من يفعل ذلك لأنــه ببســاطة لا يعرف معنى القتل.

صباحاً كنا على بساط الإفطار انا والفتى وكانت الحامل تضع يدها علــى بطنها وتمسح عليها بطريقة لافتة..

- هل تشعرين بضيق؟

كنت أسألها إن كانت تحتاج لمساعدة مع شعور دائم يرافقني من ان المــرأة قد تضع حملها بشكل مفاجئ ذات يوم.

- يرفسني الجنين كثيراً يعني ان هناك شيئاً سيقع.. اعرف كل شيء من رفساته وافرّق بينها في الليل والنهار.. قد يستشعر شيئاً ما.

والشيء السيء الذي وقع هو مقتل الأفغاني حجي خان المجاهد الميداني والذي يقود جماعة الحسبة ويشرف عليهم وقاتله هو المفاجأة التي لا تخطر على بال أحد... المجنون عيدو..!

صدقت نبوءة الحامل لكنها كانت مفاجأة من العيار الثقيل فحجي خان الأفغاني ليس سهلاً وهو قيادي في ديوان الحسبة وعيدو لا يملك الا عصاه القديمة التي رافقته ثلاثين سنة حتى اصبحت هرمة مثله.

كان صباحاً عكراً أخرجني إلى أطراف المدينة بعدما سمعت بمقتل حجي خان وأنا في طريقي إلى السوق مثل كل صباح.

انقبضت روحي وتعكر مزاجي وبدأت أشعر إن كل شيء يضيق في المدينة. فأقلقني هذا كثيراً وطلبت من الفتى أن يتوارى عن السوق الذي لابد أن يكون مكتظاً برجال الحسبة والأمن، فذهب يبحث عن اسيرات شنكال في البيوت لعله يعثر على خيط يوصِل لنشتُمان، طالباً الشغل وباحثا عنه كخادم أو مراسل لاسيما وهو مسلم بحسب هوية الأحوال المدنية القديمة التي يحملها ويجيد الصلاة مثلما تعلمها من أهله المذبوحين الذين لم يعثر على جثثهم بعد.

إنه أمرٌ عظيم وخطير أن يقتل عيدو القيادي الأفغاني النحيف ذا اللحية الحمراء والأذنين الواقفتين اللتين تشبهان أذني ثعلب كما وصفه ذات مرة.. كيف تجرأ؟

الصبيان قالوا فلق رأسه بضربة واحدة من عصاه مع صيحة غريبة لم يسمع بها أحد من قبل. صيحة مدوية أفزعت مَن مع الأفغاني وتطشّر رأسه على الحائط وهمد فوراً.

قالوا كانت ضربة واحدة وصيحة واحدة وانتهى كل شيء. هرب جماعته مفزوعين يرشقون الرصاص على الهواء وهم في ذعر، لاسيما جماعة القابوسية بينما توارى عيدو في الأزقة واختفى بعصاه الملطخة برأس الأفغاني ذي اللحية الحمراء.

حجي خان ليس اللقمة التي تُبلَع بسهولة من دون تبعات قد تطال حتى الأبرياء؛ فالدرس الذي يلي مقتله لابد أن يكون عنيفاً ومدروساً بدقة سيطيح برقاب كثيرة في هستيريا العنف المجاني ما لم يعثروا على عيدو.

حتى الشرطي دلشاد بدا غير مصدق لما حدث وبدا مرتبكاً لكن عينيه تومضان بشيء غريب.. مثلما خطر ببال سالار الذي نوّه لي بطريقة ما.

قال للبقال بأنه لم يتوقع هذا أبداً وكل عنايته كانت منصبّة لضبط السوق في مدينة شبه فارغة وكان يرتعد خوفاً بوصفه سنجارياً يعرف مواطنيه ويراقبهم..

عيدو! مستحيل يفعلها.. لأنه ببساطة لا يعرف العنف وكل ردود فعله بالضراط والعفاط والسب والشتيمة ولا أكثر من هذا.. مع ان حجي خان كان يقول لي دائماً ان هذا المجنون فيه شر وكان يكرر ذلك في كل مناسبة لكنني كنت اقول له الرجل مجنون ومنفلت وليس له عقل..

البقال سالار وآخرون شهدوا موقفاً سابقاً لعيدو مع الأفغاني لابد أن يتذكرونه الآن حينما امتنع أحد الباعة عن دفع رسوم دكانه الصغير شبه الفارغ من المواد الغذائية. قال انه لا يجد سبباً لمثل هذه الإتاوات لاسيما وهو يشتري المواد من عناصر دولة الخلافة الإسلامية بأثمان عالية وهي مسروقة من الموصل وبحزاني وبعشيقة واغلبها فقد صلاحيته بسبب الخزن الطويل.

لم تجدِ معه محاولاته لعدم دفع الرسوم الشهرية فتعرض لأكثر من صفعة من قبل الأفغاني وأهين بشكل عشوائي من قبل حمايته العرب وأقتيد إلى دار المفتي الشرعي ولاحقاً سُلب محله من عناصر جاءت من دوائر أمن سنجار وجامعها الوحيد وتم إفراغه بسيارة سكانيا 5 طن ومن ثم تم إحراقه بطريقة هستيرية التهمت نيرانه أكثر من محل مجاور ولولا الأمطار الغزيرة لامتدت النار إلى محال أخرى والى السوق المسقف.

وقتها كان عيدو يقعي حول موقد من الخشب والأزبال يتدفأ على رصيف يمتد مع المحلات القليلة حينما كان حجي خان يصفع البائع ويسوقه إلى دار المفتي.

نهض عيدو من موقده ودبّ بعصاه إلى المكان بجسده المثقل بالأسمال ووقف أمام الأفغاني الذي بدا فظاً ووقحاً وخاطب عيدو بلهجة قاسية.. **يـــا شـــيطان سنجار.. كلكم كلاب وعلينا تأديبكم..**

لم يقل عيدو شيئاً لكنه زرع عينيه بعيني الأفغاني النحيل وبث اليه شفرات غير مفهومة، بدا الرجل النحيف كقصبة مختلج النظرات وهو يرى في عيني عيدو ما لم يستطع فهمه في الحال.

قال عيدو بلهجة عربية واضحة:

- قبل فترة مات واحد منكم هنا مثل الفطيسة.. يومها قلـــت لأهـــل السوق وانتم تشيّعون جنازته إن سلحفاة بحرية بحجم صخرة سقطت على رأسه من السماء.. تلك السلحفاة كان يحملها نسر لكنها أفلتت منه بسبب العواصف والأمطار فقتلت صاحبكم.. أما تذكرت رأســـه المهشم؟

ظل الأفغاني يركز هو أيضاً في عيني عيدو الذي يراه الآن كائناً آخر يضمر ما لا يفهمه في لحظته الموتورة بسبب البائع العنيد لاسيما مع استقامة لغته العربية..

وكان عيدو يُكمل وهو يلوح بعصاه الغليظة:

- ذاك النسر أنا.. وستفلت السلحفاة الأخرى على رأســـك في المـــرة القادمة..

- ههههههههههههههههه

يضحك الأفغاني ضحكة طويلة. بدت متكلفة أكثر من اللزوم لكنه دفـــع عيدو بماسورة بندقيته بشكل فيه توتر:

- اذهب انت وسلحفاتك إلى الجحيم يا نجس..

عاد عيدو إلى موقده ونفخ في جمره فعادت روح النار تستشري فيه وتعالى لهبها..

يروي سالار العداء الخفي بين مجنون وقائد فلا يجد الأسباب بين حالتين لا تتشابهان مطلقاً كما لو يريد أن يجد تبريراً، فيما بقي دلشـــاد حـــائراً وخائفـــاً ومضطرباً أمام هول المفاجأة التي شلّت رأسه كلياً.

مساء أخبرني الفتى في بيت الحامل انه تم تطويق السوق من كـــل جانـــب وبدأت مفارز الشرطة الإسلامية تبحث عن عيدو في كل مكان متوعدين مَـــن يخبئه بالقصاص والعذاب والشنق والحرق.

تمتمت الحامل:

- انه شجاع بالفعل..
- دائماً أبتعد عنه.. أخشى من لسانه الفالت.. ولا أريد أن أدخل بسين وجيم معهم..

شهد الفتى:

- مرة احتضنني وبكى وهو يتذكر والدي وقال انه شاهد على قتلـــه.. حكى لي عن أشياء كثيرة حدثت عند غزو داعش.. وكيـــف قتلـــوا الرجال والشباب والأطفال وازالوا بيوت الطين بالشفلات.. وكلمـــا يراني في السوق أو الحديقة يضع يده على رأسي ويتحسر..

اصطفقت ابواب كثيرة في البيوت المهجورة المجاورة وتضخم صداها بسبب الرياح العالية التي ترشق معها المطر..

- لم اخبرك يا عم انه في إحدى المرات قال لي ان الأفغاني هـــو مجـــرم وسفاح قتل الكثير من السنجاريين. قال انه رجل متعة وفي بيته عـــدد من الصبايا الأسيرات..

قالت الحامل:

- الى جهنم وبئس المصير.. مثله يستاهل الحرق مو بس يتطشر راسه..
- قد أتذكر اشياء كثيرة قالها لي. لكني كنت لا اعيره الاهتمام. اقـــول مخبّل ولا يدري ما يقول..

انفتح باب الهول فتدفقت رياح راكضة وباردة أطفـــأت ربـــع الشـــمعة الوحيدة التي وجدتها المرأة في مكان ما من المطبخ.

أمي لا تتكلم وأبي يبكي

علينا أن نبحث عما فقدناه خارج الحلم يا ابني

آزاد

لم يعد باستطاعته أن يتذكر الحلم الذي خطف في منامه مرتين كما وقـــع. أيقظه شعورٌ بالعطش بعد منتصف الليل لكن صوت المطر الغزير وهـــو يغمـــر الزقاق جعله ينصت لوقعه المتسارع فغمره إحساس بالإرتواء. ثم تكرر عليـــه في الفجر وكان المطر قد خفّ فاضطرته مثانته أن يذهب إلى الحمام، وبين نعاســـه وحلمه المتكرر سمع الحامل تحدث نفسها أو كأنما هناك من تحادثه لكن قدميـــه كانتا تجرّانه إلى الحمّام وعينيه شبه مغمضتين.

الآن يستطيع على نحو ما أن يستعيد وجه أمه بعمامتها البيضـــاء. كانـــت تخاطبه بلا صوت كما لو ابتلعت لسانها. وعلى نحوٍ ما تذكر إنه رأى وجه والده يبكي. وكان في كل حلم يبكي ولا يتكلم وأمه تحدّثه بلا صوت في كل حلم.

- هكذا هي أحلامي يا عم. أمي بلا صوت ووالدي يبكي ثم يتخـــربط عليّ كل شيء فأنهض ولا أجد أي شيء.

ينصت العم آزاد بشفقة وقلبه موجوع. يربت على كتفه ويقول له:

- والداك عند الرب ويتألمان لأجلك. لكنك ولد شاطر.

يتحدث الفتى بجدية:

- امي لا تتكلم وابـــي يبكي..

ينعصر قلبه ويغالب طيفاً من الدمع فيهمهم مع نفسه:

ستكون ابن جيلك المعذّب. ستكبر على هذه الفجيعة وتدرك ان الحياة لعبة ومصير لا نقوى كثيراً على حملها..

كانت عيناه تتخاطفان بين المارّة كما لو يشتت أنظاره فلا يرى أحداً. ثم قال للفتى بوضوح:

- نحن هنا نتنفس ولا نحلم. ممنوع الحلم يا ولد. علينا أن نبحث عما فقدناه خارج الحلم.. كن ولداً شجاعاً دائماً ولا تحلم.. أهلك في بيت خودا العظيم. في الجنة العظيمة.

كفّ الفتى عن الحلم من لحظتها ومسح خيطاً من دموع صغيرة تسللت وهو يتخيل أشكالاً من الحلم كثيرة؛ لكنه أخرج ورقة صغيرة من جيبه وقال للعم كمن يتعمد النسيان الفوري:

- في كوجو ثلاث مقابر وهم للأهالي الذي لم يستطيعوا الهرب. فيها أكثر من 170 رجلا.. في سنوني مقبرتان دفن فيها 88 رجلاً وطفلا.. في كَرسي مقبرة واحدة دفن فيها 15 رجلا وطفلا..

تأمل العم الورقة الصغيرة وقرأ الأرقام والأماكن؛ فطاف ذهنه في تلك المساحات القروية المأهولة بالأشجار والخضرة الدائمة في أشجار التين التي ترفرف أوراقها، مثلما طاف ذهنه بحقول الورود والأزهار التي تنبت في المواسم كلها فتجعل من أرض القرى سجاجيد ملونة تبث العطور والهواء النقي.

اتسعت الورقة الصغيرة امام عينيه وذهبت إلى كل شيء جميل فقده فجأة.. كنتُ خبير الجمال هنا وهناك فأصبحتُ خبيراً في القبح. لم تكن تلك أرضاً بل كانت اسفنجة ورود وزرع وعطور. والآن صارت مقابر للسنجاريين الفقراء. كل شيء أصبح بالمقلوب يا فتاي الصغير. لعلك لا تدرك الفجيعة التي حلّت بك الآن، لكنك ستدرك ذلك في المستقبل، فحينما تكبر وتتوهج ذاكرتك ستجد حالك وحيداً بلا أهل. سيكون الماضي كابوساً مضى، لكنك ستعيش كابوس المستقبل وحيداً وتلك هي فجيعتك يا فتاي المسلم. لن ينصرك أحد. لا دين ولا مذهب ولا حزب ولا عمامة ولا قاط ولا دشداشة قصيرة ولا طويلة.. هذه سنجارك الأسيرة التي ولدتكَ منذ ثمانية عشر عاماً. تراها الآن على غير عاداتها.. أعرف إن الغموض يستوطنك بمدينة أسيرة وأهالي تسابقوا بالهرب من الرصاص. أعرف إسراءك ومعراجك لمدينتك التي تآلفتَ معها منذ زمن بعيد وتراها الآن

لبست ثوباً جديداً فيه رائحة دم وغياب وفراق وأسى وألم. اخاف عليك من الآتي حينما تكبر وتفهم ما جرى في مسقط رأسك الذي ولدتَ فيها مسلماً لأب طيبٍ ذاب فينا ومعنا عمره كله وأم كانت تزور مراقدنا بروح قروية بريئة وتتشفّع لكَ ولأخوتك في شرفدين.. تغيرت الحال يا فتى واصبحت سنجار حزينة وأسيرة.

طوى الورقة وأرجعها إلى الفتى. ضمه اليه ومشيا معا. كان الغروب يقترب والشمس تصبح أكثر ذبولاً، فتجنبا الشارع العام ودلفا في زقاق تنطفئ على جانبيه بيوت متراصفة كإنما هي مقابر شاخصة تلقي بظلالها على الحياة التي تبددت الآن بشكل واضح.

المزار

تشبث بإسلامك فهو شجرة التين
في روحك وقلبك

الحامل

سحق ظلال البيوت الممتدة في الزقاق الفارغ بخطوات متثاقلة مـــع آخـــر إطلالات الغروب البارد وعصاه تنقر الرصيف المتكسر وتعبر معه الحفر الممتلئـــة بمياه الأمطار. وقبل أن يطرق الفتى الباب وهو يتخلص من بقايا طين عالق بحذائه أوقفه آزاد وهمهم بحشرجة:

- إنها في المزار. ستأتي بعد قليل.

أدار وجهه إلى الرجل مستفهماً في الصمت المحيط بهما فقال آزاد بثقة:

- إنها في مزار شهيد.. وهي عائدة الآن.

ولأنه لم يفهم ما قاله الرجل على نحوٍ واضح توقف بمكانه فوجد نفسه في لغز سريع اعتاده مع العم منذ أن كان معه في الجبل غير إن المرأة أطلّت بكتلتـــها السوداء ودخلت من حلق الزقاق، تتقدمها بطن هائلة التكوير حجبت آخر ضوء منسفح على الزقاق فامتدّ ظلها القاتم امامها كغيمة يسير قبلها وهي تتـــدحرج وراءه كالبطريق.

قدّمت ابتسامة اعتذار مصحوبة بـــ متأسفة.. فيما بـــدا وجههـــا اكثـــر استقراراً وهي تفتح الباب بمفتاح صغير كانت تمسكه بيدها.

على الشجرة القريبة المطلة رفرف جناحا صقرٍ وصوّت بـــوترٍ موســـيقي واحد. نظرت اليه بحب وأرسلت له قبلة هوائية سريعة وكان آزاد يتبع مســـار القبلة الهوائية.. إلى الصقر!

دلفت وراءهما وأحكمت قفل الباب من الداخل وكان ثقلها يصدر صدى في أرضية الطارمة وهي تفتح الباب الداخلي مستعينة بمقدحة ينبثُ منها ضـــوء مصباح صغير وناعم بالكاد ينير مساحة بحجم اصبع.

في الصالة أوصلها اصبع الضوء إلى شمعة البرتقالة فأشعلتها وتراقص ضـــوء أصفر كشف جثة العجوز النائمة بوضع جنيني، فيما كان الفتى يتساءل بصوت مسموع كمن يريد أن يفتح لغزاً شغله في هذا الوقت القصير:

- أي شهيد يا عم!

تدخلت الحامل وهي تغطي العجوز النائمة:

- انه الخال عفدال. ألقوه من سطح بيته إلى الطارمة فغاص فيها ونبتت شجرة تين صغيرة في موضع إلقائه...!

نقل الفتى عينيه بين الحامل والرجل، فيما كانت الحامل تســـدل الســـتارة الوحيدة وهي تقول:

- طلبوا من الخال عفدال أن يكون مسلماً فرفض..!

مسحت الحامل بطنها بشكل دائري، بينما ظل الفتى يقلّب الفكرة الجريئة برأسه عن معنى أن لا يكون المرء مسلماً في هذه الظروف القاسية التي فقد فيهـــا أهله الذين كانوا مسلمين.. أنا مسلم.. قال لنفسه.. لكن الحامل اوضحت:

- عاملوه بقسوة بالرغم من كبر سنه. أهانوه وضربوه بالعصي والأسلاك وشققوا جسده. سخروا من كونه أيزيدياً. قالوا له انت كافر ولابـــد من إسلامك أو نزهق روحك. فأمهلوه يوماً واحداً إما الإسلام وإمـــا الذبح وعليه أن يكون بينهم تائباً في اليوم التالي في الجامع الكبير وهو مكان لتوبة الأيزيديين الكفرة...!

تأففت الحامل وهي تدوّر بعينيها بين الرجل والفتى:

- لكن الخال عفدال لم يذهب إلى الجامع في اليوم التالي وظل طيلة ليلته الأخيرة يدعو خودا ويصلي في الظلام لوحده ويقرأ الدعاء بقلب ثابت حتى الفجر، ولم يكن الخال عفدال مستعداً أن يكون مســـلماً بهـــذه الطريقة ولو من باب التقية لعبور مرحلتهم بأقل الخسائر..

تابعت الحامل وهي تستحضر صورة الخال:

- كان رجلاً طيباً جدا.. الخال عفدال مؤمن بحق لأنه لم يتنازل عن دينه وهو يعرف إنهم سيعاقبونه بالموت..

اهتم الفتى ورأسه الصغير يتخيل شكل الخال في لحظاته الحرجة وفتح عينيه بفضولٍ اكثر:

- عرف الخال في اليوم التالي إن نهايته أوشكت فظل متشبثاً بخودا العظيم وطاووسي ملك بثبات ليس كمثله ثبات.. إنه رجل مؤمن بحق.

قطعت الحامل حديثها وهي تنهض وتمضي إلى المطبخ.

تساءل الفتى:

- أتعرف حكاية الخال عفدال..!

همهم العم وهو يخلع نظارته:

- اعرفها...

عادت الحامل وبيدها صينية صغيرة عليها كبة برغل طبخته منذ الظهر وحبّات تين وزيتون وانصاف خبز وهي تسرد:

- كتفوا يديه وراء ظهره وربطوا ساقيه بحبال غليظة وحملوه إلى سطح الدار بطريقة مهينة.. كانوا مجموعة مهووسين بالقتل والدم..

توقف الفتى عن مضغ تينة في فمه وهو ينصت باهتمام فيما بقيت الحامل تتحدث وكأنها تخاطب مجهولا:

- الخال عفدال المؤمن الصالح ثبت على دينه وهم يوقفونه على حافة السطح مشدوداً بالحبال من كل مكان. كانت لحظته الأخيرة مع الحياة. سيرتطم بكونكريت الطارمة. ينفجر رأسه يتهشم وهو رجل كبير بالسن لا حول ولا قوة له..

كان آزاد يغمض عينيه بعد خلع نظاراته والفتى يراقب شفتي الحامل وبالكاد بلع تينته:

- ببساطة دفعوه من اعلى السطح فسقط على كونكريت الطارمة..

مسحت الحامل بطنها وهي توقِف اختلاجات جنينها المتحرك ثم واصلت:

- لم ينفجر رأس الخال عفدال كما اعتقدوا حينما يرمون الشنكاليين الأبرياء من السطوح والبنايات الحكومية بل غاص الخال كله في الطارمة. حفر الكونكريت وغار سريعا كما لو سقط على اسفنجة كبيرة أو رغوة أو قش..

بهت الفتى وفي رأسه تتحول المشاهد سريعة على غير ما يتوقع..

- هبطوا من السطح مسرعين يبحثون عن أثر الخال عفدال فظهرت امامهم حفرة بحجم جسده. عميقة. عميقة جدا كأنها بئر.

نهضت المرأة بتثاقل إلى المطبخ كما لو تذكرت شيئاً بينما ظل الفتى يتبع ظلها المنفوخ على وسع الصالة.

كان العم آزاد مغمض العينين تظلله الكثير من قتامة الصالة بضوئها الشحيح الذي يكاد ينطفئ.

عادت الحامل حاملة شمعة أخرى. فأوقدتها من لسان الشمعة المحتضرة.

- لا شك إنهم لم يقدروا أن يفسروا ما حدث. كانت معجزة لهذا الرجل المؤمن فانتابهم الجزع فهربوا بدعوى ان هذا الأيزيدي الكافر هبط إلى حفرة في جهنم من دون حساب.. ههههه

ضحك الفتى عفوياً وتساءل:

- هل مات الخال عفدال...!

ردت الحامل:

- الخال عفدال شهيد يا ابني.. لكنه لم يمت. بل ذهب إلى خودا حزيناً.

تثاءب الفتى وهو يمدد جسده قريبا من العم آزاد متخيلاً حادثة الخال الشهيد الذي اخترق جسده الكونكريت وغاص في الأرض بمعجزة غريبة، لكنه وهو يتمادى بخياله الصغير فزّ على صوت العم آزاد وهو يخاطب الحامل بعينين مغمضتين:

- أكملي له القصة يا أخت...

قالت المرأة وهي تستلقي على قنفة لا تسع كل جسدها:

- بعد ايام حدث ما كان له أن يحدث.. شيء غريب انبثق من بيت الخال عفدال. شاهد الشنكاليون الذين بقوا في المدينة كأسرى أنواراً

خفيفة تشعُّ من بيته في أوقات الغروب خاصة وتستمر وقتاً غير معلوم ثم تذوب كإنها أطياف شموع تتوقد ثم تخفت.. الا في يوم الأربعاء فإنها تبقى وقتاً أطول..

قال الفتى مستنتجاً ما في خياله من صور زرعتها الحامل في رأسه أثناء سردها مقتل الرجل:

- لم يلتفت كثيرون إلى هذه الأنوار أول الأمر. لكن بتكرار الأمر كل يوم تقريبا لاسيما في الأربعاء حيث تبقى الأنوار وقتاً اطول انشغل الشنكاليون القلائل بهذه القصة العجيبة مما أشاع جواً من المخاوف والإشاعات والمبالغات.. كان البعض يقول ان بيت الخال عفدال سكنه الجن والشياطين والبعض يقول ان النور الطالع من الحفرة هو نور روحه التي قُتلت ظلماً تتراءى في اول الظلام تبكي لظلمها...

تثاءبت الحامل وسكتت. كان المطر في الخارج بدأ يزخ وثمة برق يومض خلف النافذة واختلج ضوء الشمعة الجديدة قليلاً.

فكّ الفتى عينيه ولكي يغالب نعاسه جعل نفسه بوضع جنيني وترك البطانية على ظهره:

- لم يصل هذا الموضوع إلى داعش طبعا. فقد حرصنا على أن يكون بيننا لأننا نتشبث بكل امل مهما كان فنحن اسرى والمدينة مغتصبة محتلة كما تعرف.

هز الفتى رأسه وظل يستمع:

- لم تمر هذه المعجزة مروراً على من تبقى في شنكال. لابد من توسيع دائرة الاهتمام بهكذا حدث، لكن داعش لو عرفت ستحرق البيت وتسوّيه مع الأرض ومع هذا تجرأ أحد شباب شنكال ذات غروب وهو منبهر بالأضواء الغريبة الطالعة من بيت الخال المؤمن، فمدّ رأسه من السياج ليفاجأ بشجيرة تين تطلع من عمق الحفرة وتمد أغصانها وأوراقها خارجها..

استدار الفتى بتلقائية إلى العم الذي ما يزال مغمض العينين غير ان الحامل أكدت:

- نعم شجيرة تين صغيرة ظلت تنمو كل يوم حتى صارت شجرة بمرور الأشهر ويمكنك أن تراها غداً وانتَ تمرّ من أمام دار الخال عفدال..
- لكن.. كيف صارت الحفرة شجرة؟ أين الخال عفدال؟ ألم يمت يا خالة!

استدركت الحامل:

- حينما يرجع الشنكاليون المهجّرون سيكون بيت الخال الشهيد مزاراً.. لقد مات شهيداً وقديساً. إذ لابد للمدينة الأسيرة أن تنتج قديسيها في هذا الظرف الصعب يا ابني.. مات الخال على دينه وهذا حسبه..

ظل الفتى بوضعه الجنيني منصتاً وخياله يطير إلى مكان ما يرى فيه حفرة ونوراً وشجرةَ تين صغيرة تنمو وتتطاول من وراء السياج وتبث نوراً غريباً، غير ان الحامل التفت اليه وكلمته مباشرة:

- لكل انسان شجرة تين يا ابني..

فتح فمه وأنصت بجدية كتلميذ:

- حتى انت لك شجرتك. لا تتخلَّ عنها حتى في احلك الظروف.

اصغى أكثر وهو يقترب من فم المرأة:

- تشبث بإسلامك فهو شجرة التين في روحك وقلبك والتي يريدون حرقها بفتاوى جاهلية.. لا عليك منهم فهؤلاء عصابات وليسوا اسلاماً. لكن احذرهم يا فتى.. لديهم قطع الرقبة أسهل من قطع جبنة طرية.

تحسس الفتى رقبته بشكل لا إرادي فخمنت الحامل أن صورة التينة المتطاولة على السياج شغلت مخيلته وان رأسه الصغير قرّب له الحالة التي وصفتها له، غير انّ سكين داعش الوهمية أرادت حزّ رقبته وهو ينظر بإعجاب إلى شجرة التين الخضراء ويشم عطراً غريبا فيها.

خفت الضوء واختلجت ظلال سميكة في الغرفة. كان العم آزاد بدأ يشخر وكان المطر في الخارج يتقاطر على رصيف الزقاق ووميض متخاطف على النافذة يترك اشباحاً سريعة الذوبان.

تجديد التوبة

بعض التائبين كانوا يشكون من قسوة الغزاوي الفلسطيني خاصة حينما يجدّدون توبتهم كل ثلاثة اشهر ويعلنون ولاءهم من جديد وبوضوح لدولة الخلافة..

يا أخي آزاد أو سربست العائد إلى شنكال والى التوبة أبلغك انّ "الغزاوي الفلسطيني" هو الآن بديل الشهيد حجي خان الأفغاني في أمر الحسبة وشؤونها وهذا أكثر من صاحبه ضبطاً وربطاً وحرصاً على شؤون دولة الخرافة الإسلامية هنا ههههه

يا أخي أصبحنا في هذه الدولة وعلينا أن نمتثل لشروطها وشروطهم.. كن تائباً يا سَرْ.. آزاد هههههه يعني انت مشكوك بدينك الإسلامي وعليك تجديده كل ثلاثة أشهر.. الفلسطيني الذي يكره حتى نفسه سيساعدك...

يقولون القصة بسيطة.. إعادة الشهادة وإعطاء البيعة للبغدادي والسير على النهج المحمدي القديم، وإذا أردتَ أن تكون مسلماً حقيقياً تنافس غيرك في قوة إيمانك بدولتهم عليك أن تذبح بضعة شنكاليين حتى لو لم يكونوا موجودين هيءهيء هيء هيء.. المهم أن تكون ذباحاً اصيلاً وأن ترى البشر كمجموعة خراف لا أكثر.. واذا رقّ قلبك انظر لهم كتيوس صغيرة واصرخ بهم **جئناكم بالذبح**..

لا تقلق يا سيدي. انا دلشاد الشرطي في ديوان الحسبة مأمور بضبط النظام في هذا القاطع وتوجيه المستضعفين إلى ما فيه صلاحهم وخيرهم تحت ظل راية قائدنا المجاهد أبو بكر البغدادي حفظه الله..

لا أعرف كيف فلتُّ من قضية حجي خان.. قصدي القبض على عيدو أمر مهم بالنسبة لهم.. ومع انهم سجنوا عشوائياً بعض الناس الا انهم زرعوا عيونهم

في كل متر.. انتبه يا سيدي المهندس الزراعي. لابد من القبض على عيدو.. عنفوني كثيراً وأرهبوني وهددوني بوصفي الشرطي عبدالحافظ مسؤول الضبط والربط هنا.

جدد توبتك على عجل. انتهت الأشهر التجريبية الثلاثة وانت في مأمن منهم حتى اللحظة. في سجلك الشخصي أنت رجل تائب لكنك ممسوخ. مواصفاتك جيدة. صامت. مريض. غير مؤذٍ. وحيد. أعزل. حزين. حالم. ليس لديك اتصالات بالمقاومة الكافرة. لا تحتسي الخمر ولا تقرب الفواحش. تصلي صلاة الجمعة مع الجماعة. تخلفت مرتين فقط. تحضر العقوبات الشرعية في الجامع. أنفاسك طبيعية. نبضات قلبك بين 60 إلى 100 نبضة وأحياناً تصل إلى أكثر من ذلك بسبب الانفعالات الزائدة. أحياناً لا ترى نفسك وأنت تسير هنا أو هناك. ورقتك السماوية لها تأثير في قبولك بينهم. انت مسلم زاجلي هههههه.. يمكن تجديد بيعتك وإسلامك ثلاثة اشهر أخرى.. وما لم تجده في سيرتك هنا فهو أمر آخر.. لكن لا تقلق.. أنا الشرطي دلشاد الأيزيدي..

ويسألونك عن الفتى قل هو الفتى المسلم الذي فقد أهله في غزوة سنجار المباركة ولا يعرف عنهم شيئاً. قل آمنتُ به مسلماً أصيلاً على سنّة الله ورسوله وآويته لأتعلم منه شؤون الدين كل يوم وأبقى على صلة برائحة الإسلام العظيم أينما أمضي.

فتاك مقبول لديهم حتى اليوم. سيرته حسنة. سأجد له شغلة مناسبة قريباً. وعدوني وهذا مؤكد وخلال يومين من الآن.

لا تذكر سيرة أحد. وانتبه لهذا.

هذا الغزاوي الفلسطيني يا سيدي.. لا يعترف بالحمام الزاجل ولا بالسماء.

حاول يا سيدي سَرْ.. آزاد أن تتجنب نظراته النارية فهو سينظر اليك كنصف كائن وينظر إلى النصف الآخر منك كنصف آخر وذلك النصف سيقسمه إلى قسمين. قسم لا يراه أبدا وقسم ينظر اليه بنصفين أحدهما يتلاشى أمامه ما إن تدخل والنصف الآخر سينقسم إلى قسمين في عينيه. قسمٌ يذوب أمامه وقسم سيراه بنصفين، أحدهما لا يراه كالعادة والنصف الآخر الضئيل

المتبقي منك سينقسم هو أيضاً إلى قسمين أمامه، أحدهما سيسقط منك خائفاً والآخر ينشطر تلقائياً إلى شطرين صغيرين؛ واحد منهما يتبخر في اللقاء والثاني بالكاد يُرى، وفي الثاني عليك أن تشهد بوحدانية الله وخاتم رسله وتبايع الخليفة الخامس الشيخ البغدادي حفظه الله أمام المجاهد الغزّاوي الذي يكره نفسه أكثر من أي شيء آخر..

فهمتني سيدي سَرْ.. آزاد..

أنا الشرطي دلشاد خريج جامعة الموصل سابقاً قسم التاريخ وحالياً شرطي مجاهد في دولة الخلافة الإسلامية منسوب على ديوان الحسبة ومسؤول عن قاطع الأسواق أوجهكم جميعاً إلى ما فيه خيركم وصلاحكم وأحذركم أيضاً من أن نفاد فترة الإستتابة يترتب عليه عقوبات صارمة ليس أقلها الردّة عن الدين الإسلامي الحنيف، وأنت تعرف عقوبة المرتد سيدي الأيزيدي التائب.. سَرْ.. آزاد. وإنْ كنتَ لا تعرفها فأقولها لك ببساطة هي قطع رأسك أو حرقك أو إلقاؤك من سابع سماء إلى أرض تنبت عليها خوازيق مدببة هههههه

لا تنسَ صورتك الشخصية بهذه اللحية الجبلية ونظاراتك الشمعية. لكن لا تُظهر عكازتك السوداء التي تشبه حيّة لالش. دعها جانباً وانظر إلى المصور بعينين ثابتتين لا ترمشان. لن يفهم المصور لماذا أنت جامد هكذا ففي قلبك أسرار وآلام وغوامض ومتاهات واحتمالات وربما مفاجآت. لا أحد يعلم بما ستأتي الأيام به من أخبار وقصص..

عندما تأخذ صورتك بأربع نسخ لا غير قدم واحدة للمجاهد الفلسطيني الكبير مكبوسة على ورقة الإستتابة. طبعاً سيقدمها النصف الأخير المتلاشي من أنصافك المتساقطة، فالغزاوي اسم على مسمى. ثائر ومجاهد وسينظر اليك كمذنب لأنك طول أربعين سنة كنت أيزيدياً كافراً. وعندما ستقف أمامه ويقرأ بياناتك سيلاحظ مواليدك وسيحسب برمشة عين سنواتك الأيزيدية الكافرة.

سينظر إلى ما تبقى منك ببصيرة لا يعرفها الا خودا (بالمناسبة لا تقل خودا بل قل الله) لأنه من المضحك أن تقول بالكردية.. أشهد أن لا خودا الا خودا.. وأشهد ان محمداً رسول خودا.. إلى هذا الحد سيعتبرك مفلساً دينياً وانك باقٍ

على أيزيديتك الملحدة، فما أسهل قطف رأسك عند هذا الثائر الفلسطيني الذي ترك تراب بلده المحتل وجاء يجاهد في سنجار.

بالمناسبة لا تقل شنكال. بل قل سنجار التابعة إلى ولاية الجزيرة..

سينظر الغزاوي إلى سنواتك الأربعين التي مضت بالكفر الأيزيدي. سيكرهك كثيراً ويثبّت عينيه بعينيك ويخترقك طولاً وعرضاً. يود لحظتها أن يأكلك حياً لأنه مجاهد صنديد شارك في جميع غزوات الرسول من تبوك وأحد وبدر واليرموك وبنو قينقاع وبني سليم والسويق حتى صلح الحديبية. بل شارك في غزوات أظنك لم تسمع بها من قبل كغزوة الأبواء وغزوة بواط وذات الرقاع والعشيرة، ويعرف الأحابيش وأهل ثقيف وكنانة من أي معدن هذا الرجل المُشظّى برؤوس النبال وأوشال السهام وحروق المشاعل؛ فما أنت إلا فسقة صغيرة يدعسك بنعاله الإسلامي ويمضي أيها الأربعيني الذي يجدد إسلامه الآن من باب التقية والاضطرار.

نشرت الصحف التركية حادثة شهيرة عنه عندما دخلها قادماً من القاهرة متوجهاً إلى حلب حينما فحصه جهاز السونار الذي رنّ رنيناً متواصلاً فأخضعه شرطة المطار إلى الإستجواب والفحص اليدوي الدقيق، غير إنه رفض أن يُنتهك جسده بهذه الطريقة الفجة، طالباً الاتصال برئيس الوزراء أردوغان الذي هرع بعد نصف ساعة بنفسه إلى المطار مع مجموعة من المشايخ الوهابيين المطّلعين على أسرار التاريخ المحمدي وغزواته التسع والعشرين؛ موبخاً المسؤولين على إهانة هذا الجسد الأثري الذي وجدوا فيه شظايا لنبال من القرن الثالث الهجري تعود لمعارك رسولية متعددة كما وجدوا كعوب سهام وشظايا دروع أثرية ما تزال باقية في جسده تشهد على شجاعته الخارقة، بل إن أحدهم شمّ في جسده رائحة خصان مندثر ما تزال عالقة في بنطلونه الجينز، وتثميناً من أبو غزة لموقف أردوغان وجماعته المعممين وهو لا يُقدر بثمن والذي دفعه إلى حلب بسلام، مع وصايا هامسة بأذنه عند باب الطائرة.. فتح الغزاوي ساقه وخلع منها رأس سهم يعود إلى معركة دومة الجندل طوته القرون منذ ذلك التاريخ وحتى لحظة المطار واهداه إلى الرئيس أردوغان كتحفة تاريخية بطولية لا نظير لها..

نعم. هذا هو الغزاوي الفلسطيني الذي ترك اليهود على شرفة منزله وجاء إلى سنجار والنبالُ تملأ جسده منذ القرن الثالث الهجري وحتى هذا اليوم الذي سيراك فيه ويجدد بيعتك وإسلامك يا سيدي الأيزيدي الكافر..

الزمن القديم قذفه إلى القرن الحادي والعشرين بألف جرح وإصابة فما تزال شظايا معركة أُحُد في صدره وخاصرته، وما يزال يستشيط غيظاً من خالد بن الوليد الذي التف على جبل أُحُد بعدما رأى المسلمين يندفعون إلى الغنائم كالمجانين فأوقع بهم قتلاً وسحلاً، مثلما تؤلمه ذكرى عبدالله بن جبير المقتول على جبل الرماة الذي أطاع رسول الله وثبت مكانه ولم تغره الغنائم المتروكة في ارض المعركة كان الغزاوي وقتها يبحث عن هذا المارق ابن الوليد قبل اسلامه ليريه الأمهات ماذا تلد.

أما شواهد غزواته المحمدية فلا تحصى ويذكرها الطبري وابن الأثير وول ديورانت والقرطبي وما تزال بشظايا الطائرات الأمريكية F-16 والأباتشي في بطنه وأفخاذه قبل أن ينسحب من الرقة وحلب ويدخل الموصل على حصان اسود قيل إنه كان يطير به كما لو إنه ولي صالح وكاد يصل بغداد فاتحاً لولا أوامر الخليفة أبو بكر البغدادي التي طلبت منه التريث فبغداد ليست سنجار ولا يثرب؛ غير إنه عاد يحمحم غيظاً وفرطاً لأنه لم يفتح بغداد. لذا فهو مخيف. أسطوري. رهيب. إن لم يجد ما يقتله طيلة اليوم يقتل نفسه في الليل وينهض صباحاً يبحث عن ضحية أيزيدية يعلّمها كيف يكون الألم وكيف يكون الإسلام الحقيقي.

سيرته تقول خرج من غزة وترك شغلة اليهود يبولون على غزة، ذاهباً إلى مصر ومن ثم إلى تركيا وبعدها إلى حلب حيث ناصر أخوته المجاهدين وجُرح عشرات المرات، لكنه كان يعض على جرحه بأسنانه ويصول على حصان أو حمار أو أية دابة يجدها أمامه ليقاتل قوات بشار الأسد والجيش الحر وجبهة النصرة كأي فارس لا يُشق له غبار.

يروون عنه إنه امتطى كلباً أجرب ذات مرة في إحدى المعارك الحامية وصالَ به صولة الفرسان الصناديد على الجيش السوري وقتل منهم مقتلةً عظيمةً

وكاد يصل دمشق لولا توجيهات ابو بكر البغدادي التي أعادتـه إلى سـريته، فالقضية وقتها لم يكن الهدف منها إسقاط دمشق، فتم تكريمه تكريماً يليق بفارس مثله وزوجوه بأربع من الحور العين الحلبيات.. جلبوهنّ من السماء السابعة قريباً من العرش بتزكية من الزرقاوي وأسامة بن لادن..

بالمناسبة أيضاً لا تكشف له أسرارك ولا تتحدث عـن ابنتـك المفقـودة نشتُمان حتى لا تدخل في سين وجيم ومن ثم تكبر عليك الشكوك والمصيبة. وإذا سألك عن ورقة التوبة الإلهية التي بحوزتك. لا تقل له الله بعثها لي بواسطة حمامة زاجل وفيها توبتي السماوية فهذه ترهات وسخافات لن يصدقها الغزّاوي المجاهد وستضعه أمام احتمالين. إما إنك نبـي أرسلك الله وضعتَ في الجبال شـهوراً طويلة وهذا أمر يعجّل بقطع رقبتك أو حرقك حياً؛ وإما إنك ملحد ومشـعوذ تشوّه الدين وتفسد جهاد الأخوة الأعداء وهذا أيضاً يعجّل بقطـع رقبتـك أو حرقك حياً؛ وكلا الأمرين تروح فيهما بستين داهية فيضـيع منـك الطـاس والقرطاس.. هههههه

إذن أنا الشرطي دلشاد من شرطة ديوان الحسبة ومسؤول الضبط والربط في السوق التحتاني والفوقاني وخريج جامعة الموصل سابقاً قسـم التـاريخ أوجـه عنايتك إلى كل هذا يا سيدي سَرْبست قبل أن تتوجه إلى محكمة الإستتابة وتجدد توبتك بالدخول إلى الدين الإسلامي الحنيف مضطراً أو راغباً لمدة ثلاثة أشـهر أخرى.. لعلك تعثر على نشتُمان وتعود إلى الجبل سالماً معافى.. يحرسك الـرب أيها المهندس السنجاري القديم..

الخادم

أخبره سالار أن الشرطي دلشاد يسأل عنه ويطلبه وشجّعه على الـــذهاب إلى مركز الشرطة القديم فجماعة الحسبة يتواجدون هناك وكانت عينا سالار تحثانه على لقاء الشرطي دلشاد، بل وتستعجلانه أيضاً.. ستعرف لماذا سأل عنك... هناك.

وقبل أن ينصرف أبلغه ان العم آزاد يعرف بهذا.. إمضِ..

يذرع الفتى المسافة من دون أن يفكر بشيء لكن رهبة المكـــان بشـــرطته الغرباء الذين يطلقون النار أحياناً للفكاهة وتبديد الوقت كما يراهم دائماً؛ يجعله أكثر حذراً وجرأة وهو يسأل عن الشرطي دلشاد.

يتذكر ان العم آزاد أخبره مرة انه اذا عبرت الساقية لا تفكر كيف ترجـــع منها، فالعبور يحمل معه طريق الرجوع حتى لو لم يعد من الساقية نفسها.. لذلك مطّ قامته امام الحرس الواقف بالباب وهو كردي سنجاري يعرفه ســـائلاً عـــن الشرطي دلشاد.

- ماذا تريد..؟
- هو يريدني..
- لماذا..؟
- لا أعرف..
- قد يسلخ جلدك إذا عملتَ شيئاً منكراً..
- لالا.. الحمد لله أنا مسلم..
- أنت مسلم صيني هههههه انتظر

أدخله حارس الباب إلى غرفة صغيرة يتوسطها شخص تجلل رأسه كوفيـــة بيضاء وتنسرح أطرافها حتى أسفل خديه وعلى مقربة منه الشرطي دلشاد.

- السلام عليكم
- عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

همس دلشاد للرجل:

- هذا الفتى الذي كلمتك عنه.. انه مسلم اصيل وشاطر ومطيع..

نظر اليه الرجل بعينين حادتين. رأى الفتى تجاعيد وجهه بارزة.

- انت بلا شغل يا ولد..!
- بلا شغل عمي المجاهد..
- كلمني عنك الشرطي عبدالحافظ..
- كلكم خير وبركة..
- ستكون ضمن خدمات أحد أمرائنا المجاهدين بصفة خادم..
- الحمد لله والشكر له.
- نعفيك من دخول دورة دينية قصيرة لأنك مسلم اصلي ولستَ أيزيدياً كافراً..
- أنا حاضر لكل شيء يا عمي المجاهد.
- عليك أن تتعلم كتم الأسرار لأنك ستكون ضمن مجموعة مجاهد كبير.
- ان شاء الله سأكون عند حسن ظنكم..
- بخلافه سنقطع رقبتك..
- سأكون أخرس وأعمى. لا أنطق. لا أرى..
- غدا تجلب أوراقك الشخصية الثبوتية وستفهم من المسؤول الإداري وضعك كله بما فيه راتبك واجازاتك.. ولكن لا تنس.. نحن في جهاد في سبيل الله. يوم هنا ويوم في مكان آخر حسب ما يقتضيه توسع دولة خلافتنا الإسلامية المنصورة بإذن الله تعالى.
- أينما تكونوا أنا معكم.. وسأكون خادماً لكل مجاهد.
- انت سنجاري اصيل؟
- نعم واسكن بربروش.
- ما هي حصيلتك الدراسية؟

- السادس إعدادي الفرع العلمي.

في المساء احتضنته الحامل فرحة بمكانه وخلاصه من البطالة؛ وأوصاه العم بالكثير من الحذر والسرّانية وعدم مخالطة الآخرين بشكل مباشر ويبقى مع مخدومه مطيعاً لأوامره، منتبهاً، يقظاً...

- كن معه أينما يذهب.. وأنت تفهم.. هذا قائد وليس شرطياً..!

وأمامه الآن ارتسمت صورة الشرطي دلشاد بشكل فيه شيء من الوضوح..!

إنه صقري الذي أحبه

الأمل يصنع الخيال والخيال يصنع الأمل

الحامل

يستفيق دائما على حديث لا يفهمه. في كل مرة تفتح الحامل زيقهـــا في المطبخ صباحاً وتكلم بطنها بعفوية وحب وحميمية. ثمة جنين تجاوز عمر الولادة ولدته في بطنها كما تقول ولا يظهر حتى تظهر سنجار القديمة بأهلها وســباياها ومختطفاتها.

عادةً يشد أسماعه اليها وهو على فراش الصباح الدافئ فلا يفهم شيئاً مع ان صوت ضحكاتها القصيرة ومناغاتها يسمعه بلا شك فيلمس فيه فرحاً أمومياً

ولا يمنع المطر النازل منذ الليل من كتم تلك المناغاة التي تبدو لـــه وكأنهـــا أحلام كل صباح يمر عليه. لكنه أيضاً يشم رائحة طيبة خفيفـــة تخطـــر علـــى انفاسه..

على بساط الفطور يراها متوردة بوجهها الجميل وعينيها الواسعتين وارفتي الرموش وفستانها الأبيض تمسّد بطنها بألفة وهي تصب له الشاي.

- ما أخبار الجنين..
- بخير..

تفتح ابتسامة صباحية فيختلج وجهها بحمرة خفيفة وتتـــراقص رموشـــها الطويلة.

- ماذا يقول لك.. اسمعك ولا أسمعه.. ههههه

تنفتح ابتسامة ثانية على وجهها وهي تنهمك بقطع بيضـــتين في صـــحنٍ صغير.

- يحب أن ألاطفه صباحاً وأرضعه.. انه يعرف كل شيء يجري حوله.. لكن أحياناً يتساءل عن غياب بعض الأشخاص..

صوت قريب من النافذة كأنه صرير وتر تكرر أكثر من مرة. عزف واحد على وترٍ واحد يعود بين لحظة وأخرى طالما سمعه آزاد في مثل هذا الوقت وأحياناً قبله مع أولى إشراقات الشمس؛ فجعل الحامل تنهض إلى النافذة المطلة من المطبخ وتمد رأسها من النافذة ووجهها يشرق مع النسائم البارد:

- صباح الورد يا صقري الحبيب.
- عرفت ان المطر سيهطل ولن تصعدي إلى السطح هذا اليوم.
- لولا المطر لجفّت الأرض.
- مشتاق. لم أرك من يومين..
- انتظرك كل صباح هنا اذا اشتد المطر..
- من أجلك باقٍ في شنكال ولن أغادرها.
- انت شنكال الحرة في السماء.. دائماً أنظر إلى هناك وأراك حراً كروحي المحلقة وهي رماد..

أنصت آزاد للمحاورة واختلطت عليه الأصوات. أرهف السمع جيداً فبدت الحامل أكثر حرية ولهفةً وهي تتحدث إلى أحدٍ ما خارج النافذة.

أعاد بشكل سريع الأصوات التي يسمعها فتشابه هذا الصرير الموسيقي الوتري مع أصوات كان يسمعها في الصباحات المبكرة.

أدار رقبته وهو يستدير بجسده قليلاً. كان الصقر يقترب من النافذة مستفيداً من بعض المتروكات خلف حائط المطبخ ليقف عليها فاتحاً جناحيه الواسعين وبدا إبطاه الأبيضان ناصعين وهما يحتضنان وجه الحامل التي احتضنته ومسدت على ريشه الناعم فاتحة شفتيها للسانه الصغير الذي مس لسانها..

كان جسده الصغير قد عبر فتحة النافذة وأصبح كله بين ذراعيها الممتلئتين وصار الوتر في صوته أكثر خفوتاً وهو يتذوق لسانها مخدّر العينين وجناحاه يرفّان على عنقها، بينما كانت تحد من رفسات الجنين في بطنها وهي في نشوة اللسان.

بهت الرجل وهو يتراجع ويستعيد جلسته على البساط غير قادر على أن يفهم ما يجري ويستوعب هذا العناق الحميم.. وأعاد صوت الوتر الذي يسمعه دائماً في الصباحات المبكرة. انه الصوت العازف الذي انتبه اليه الآن بعد النافذة في عناق الحامل مع الصقر.

همست بأذنه شيئاً فحياها بجناحين خافقين وقفز على الحائط ثم طار، بينما عادت الحامل وهي تمضغ لسانها وشفتيها ووجهها يكتسي بحمرة خفيفة وجلست على البساط بوجه أكثر توردا وعينين يبرق فيهما فرحٌ صغير كما لاحظ..

- لم تفطر بعد!
- كنت أنتظرك..
- انه الصقر...

أسدلت رموشها وهي تقضم زيتونة ملساء وظل صوت الوتر الوحيد يدور في رأسه.

- أترى الفتى سعيداً الآن..!
- سيشق طريقه في هذا الظرف العصيب ويتعلم.
- افتقده..
- لا اريده أن يكون جزءاً مني.. الحياة طويلة ومعقدة أمامه.

سعلت العجوز في الغرفة الوحيدة وهمهمت وكان صوت المطر يتخافت في الخارج.

احتسى جرعة من الشاي ودسّ لقمة في فمه وهو ينظر إلى الحامل وفي رأسه مشهد العناق الذي حدث قبل لحظات..

- انه الصقر.. سمعتك تقولين قبل قليل..!

عضت على شفتها السفلى:

- انه الصقر فعلاً.. صديقي الذي لم يتركني منذ ترملي..!

ثم اضافت:

- صقر جميل ورائع لم يفارقني كثيراً..

كان ينظر إلى عينيها المكتظتين بالجمال:

- أشعر معه بالسعادة في هذه الظروف القاسية.. كائن لطيف وحر وشجاع.

- لكن رأيتكِ..

قاطعته بلباقة:

- انه صقري الجميل وصديقي الذي أحبه..

مسكت بطنها من جديد ومسدتها بعصبية حتى أوقفت الرفس على خاصرتها اليسرى:

- انه يغار كثيراً ههههه

ضحكت كطفلة عاشقة وكان هواء الصباح بارداً يطرق فضاء المطبخ عبر النافذة التي نسيتْ أنْ تغلقها.

- ولكنه صقر..!

- انه أمل جميل وخيال أجمل..

- لم أفهمكِ..

- الأمل يصنع الخيال والخيال يصنع الأمل وانت خيرُ مَن يعرف هذا يا أخ سربست..

- لكنه صقر..

- انه أحلى كائن في هذا الوقت.. يحبني كثيرا..

ضحكت بطفولة عالية وشعّ وجهها بابتسامة عريضة فارتبكت لحظته في مفارقة لم يحسب الها ستقع حينما تتحول الحامل إلى عاشقة كما تشي عيناها الجميلتان ووجهها المتلفع بخمار وردي خجول..

- لم تعرفني بعد.. لم تعرف مَن هي عاشقة الخيال وامرأة الحمل المستحيل وعاشقة صقر جوّال في السماء وزوجة بقعة الدم في الطارمة والتي لا تجف ذات يوم ما دامت فيها الرائحة الطاردة التي لا يعرفها غير القتلة..

- اعرف بعضاً من هذا.. ربما لا أعرف أيضاً..

- تلك حكاية أخرى وتاريخ طويل من أسطورة وخيال وواقع ستسمعها مني ذات مساء نشعل فيه الموقد ونتدفأ ونسرد ما تركه لنا الأســـلاف وما ورثناه من جينات جبلية بروحٍ أيزيدية خالصة فيها نقاء كبير..

مسحوق البنفسج

لقد تكسر الزجاج في رأسي واصبح حراً

آزاد

جمعةٌ بيضاء ليس فيها عقوبات على غير العادة. خرجنا أنا وسالار نشم الهواء النقي بعدما احتبسنا اكثر من ساعة في جو أفسده خطيب الجامع الذي خنقنا بالوعيد والتهديد والجنة والنار وسوء العاقبة.

خطباء الجمعة دائماً يخيفون الناس كأنهم آلهةٌ على الأرض. قال آزاد وهو يرى قلقاً متحركاً على وجه صديقه.

قال سالار انه قلق على أحد أولاده الذي أصيبَ بالجرّب ولا يستطيع إخراجه من البئر ولا من البيت ويخشى أن يُصاب أخوته بالعدوى..

- في جسده حكّة. يتألم كثيراً حتى إنه كفّ عن الغناء منذ ليلتين..
- ليس الأمر خطيراً سنتدبر أمره.. موضوع بسيط ولا تقلق.
- تعرف ما عندي غيرهم في هذا الخراب.
- امهلني الليلة فقط.. سأرى الحامل. النساء يعرفنَ أكثر منّا بهذه الأمور..
- اولادي في البئر أظلم منذ الصيف الماضي واخشى أن يكونوا الآن عمياناً.

سالار لا يستوعب الحالة في السوق فيغلق بسطته منشغلاً بجَرَب أحد أولاده وتوقفه عن الغناء وفي رأسي الفتى الذي اشتغل خادماً عند الشيشاني ونشتُمان لا تتوارى في هذا الخليط اليومي من العذاب الذي أراه وألمسه وأعيشه فتتشكل صورة المدينة الكئيبة بالتدريج في روحي وتصعد إلى أعماقي مثلما تصعد نشتُمان برائحتها وصباها وطفولتها.

كانت وحدها في قلبي يوم كنتُ في الجبل وحيداً. لكن سنجار التي عدت اليها منذ أسابيع تشغل حيزاً بي الآن هي وناسها الفرادى الذين بالكاد أجدهم منطوين على يأس وألم أمام نهايات مغلقة.

تحولوا إلى كائنات أخرى لا علاقة لها بما مضى إلا بكون الماضي ماضياً مرّ وانتهى في بئر بيت سالار الذي صار عبدالله في موازنة إسمية استفزازية بدين عشنا مع أهله عمراً طويلاً، مثلما صار اسم الشرطي دلشاد عبدالحافظ فظل يتبختر به وداخله ممتلئ سخرية.

مثلي أنا المتحول من أيزيدي إلى مسلم ومن اسم إلى اسم فاقداً جمرة روحي نشتُمان، متنقلاً من مخيم إلى جبل إلى غار إلى مدينة متآكلة لم يبق فيها غير فتات ناس مستضعفين لا يعرفون ماذا يفعلون.

لكن عيدو فعلها. أضعف كائن في شنكال. قتل بعصاه الأفغاني المستهتر وطشّر رأسه. يبدو اننا يجب أن نتخلى عن أنصاف عقولنا لكي نفكر بشكل أكثر جدية. وأن نترك توابيت القتلى في منتصف الطريق لكي ينمو عليها الباذنجان ونجعل من الأرض كلها مزارع باذنجان يكتشفها حزبيون يجيدون تخدير الناس في صحفهم الحزبية.

يستغرقني الحال كثيراً كما يستغرق صديقي سالار الحائر بأولاد البئر في جَرَب العزلة والموت البطيء ووحشة الظلام بعدما صار النهار مخيفاً..

أتخيل بيتي بجنود الخلافة فيه ورائحة نساء مغتصبات تحت مظلة الشرع الجديد، فتأتيني نوبات تفكير مقلوبة وأنا أرى نشتُمان عارية تحتهم تئن وتبكي وتنادي تو تكي دري بابو..

ينتشلني سالار:

- مَن يرى مصائب غيره تهون عليه مصيبته يا اخي..

أقول بيأس:

- ما من حل. تبدو الأمور في النسيان. لسنا في دولة ولا كأننا من هذه الأرض وهذا البلد.

يسارع سالار إلى بيته وهو يتحدث مع نفسه ودلف آزاد إلى زقاق كل بيوته محترقة وتنبعث منها روائح مختلفة.

كان يقول لنفسه ان الغياب له رائحة لا يعرفها إلا مَن غاب له غائب، ومع إن أجواء الربيع تتفتح وتنشر عطر الأزهار الا ان الرائحة ذاتها ما تزال كما عرفها منذ إن وطأ المدينة مع فتاه.

الحدائق ميتة والأزهار ذابلة كما يشمها بحس مهندس زراعي قديم؛ والناس ضاقت عليهم الأرض ونشتُمان طفلة القلب ذابت هنا أو لا اعرف أين. ابتلعها داعشي سافل ربما في بيتي ذاته الذي ربما صار وكراً لدعارة جنود الخلافة ههه

السطح الواطئ والباب المقشّر والحائط المثلوم والكلب الذي يستقبله بذيل مهزوز، وبعده امرأة الجنين التي لا تلد. مشهد حميم بحجم شنكال الأسيرة يشعره بأن ثمة أملاً ممكن الحدوث في أية لحظة تفلت من زمنية هؤلاء وتعود الحياة تتنفس في كل مكان.

تستقبله الحامل بوجهٍ بشوش ويغمره الدفء في الصالة الصغيرة وما يزال زيت نصف البرتقالة عامراً يفتح الضوء في المكان ويتراقص.

العجوز تتكيء على الحائط مسندة بمخدتين طوليتين تحت ظهرها. هذه أول مرة يرى فيها العجوز بسحنتها المتعبة وتغضناتها الكثيرة. نظرت اليه وسلم عليها فبربرت بشيء لم يفهمه.

قالت الحامل:

- لا تسمع بشكل جيد. لكنها فهمت انك سلمت عليها.

جلبت شاياً وخبزاً وزيتوناً. همهمت لها العجوز بشيء فساعدتها على النهوض وأدخلتها غرفة النوم ثم عادت وجلست ببطن متدلية كثيراً.

- ما أخبار شنكال يا أخ..!

- سيئة.. لا توجد منافذ للحياة.

- كيف تقضي وقتك..؟

- كل يوم ادور في شنكال خمسين مرة فلا أجد شيئاً.. الفتى كان كثير البحث في اطراف شنكال لكن لا جدوى يا أخت.. وسالار يستنطق الفلاحين القليلين ولا أمل..

- ستجدها.. قلبي يحدثني دائما..

- اعترف بأن أموراً كثيرة فاجأتني وشغلتني وجعلتني أفكر بأشياء لا اقول أكثر من نشتُمان.. لكنها شغلتني وتشغلني..

قالت الحامل:

- ما مر بنا تشيب له الرؤوس. نحن طائفة مسكينة.
- لسنا مساكين إلى هذا الحد. لكن عندنا أخطاء تاريخية قاتلة..

أنصتت اليه كما لو تتهيأ أن تستمع بشكل أكثر جدية:

- عندما يكون المرء وحيداً ويراقب المشكلة من الجبل ليس كمثل الذي يعيش المشكلة على أرضها.. لذا تجدينا في لحظة ما نكفر. ثم نستغفر خودا في موقف آخر ثم نعاود الكفر..

همهم بخفوت:

- أسباب الكفر يهيئونها على طبق من ذهب..
- نعم.. في حال داعش يهيئون اسباب الكفر عن طريق الإيمان المزيف ويدافعون عنه ويقتلون من أجله.. فأي فخ هذا..!

جددت الحامل الشاي في استكانة الرجل وهي تتساءل:

- كيف تتوقع وضعية الفتى بعدما اشتغل..؟
- انه ولد شاطر جدا.. لكن روحه مخرّبة من الداخل بسبب مقتل أهله..
- حمله ثقيل وما يزال صغيراً..
- حمله ثقيل جداً.. لكنه يعيش بأمل.. ويسعى اليه..

فتحت عينيها تنتظر:

- أمله أن يجد نشتُمان قبلي..!
- يا عيني عليه... يريد أن يُفرح قلبك.

قال آزاد بوضوح:

- إنه يحبها كثيراً..

ثم أكمل:

- قبل داعش كان تلميذاً معها ويراها على مر الوقت.. لكنه الآن فهم معنى أن يفقد شيئاً جميلاً.. لاسيما وقد تعدد الفقدُ عليه.. أهله

كلهم.. ثم وجدني فرأى بي صورة نشتُمان التي يُفترض إنها حية إلى الآن لذلك تشبث بي وبذكرى الطفولة التي كانت عليها نشتُمان..

- نعم هذا ممكن.. لكنه يبقى حبا طفولياً سببه الوضع السيء..

قال آزاد بتركيز:

- انه ينافسني على حب نشتُمان. أدرك هذا جيداً.. وإذا وجدها لن يتخلى عنها.. إنها الأمل الأخير والوردة الخضراء الوحيدة التي تشتعل في قلبه..
- يريد أن يثبت رجولته المبكرة أيضاً..
- هذا جانب عاطفي.. لكن الجانب الأكثر أهمية هو الظرف الضاغط عليه وعلينا، ويعني العثور على نشتُمان بالنسبة له انتصار حقيقي عليهم، لذلك فإنه مثل المقاتل الذي ينتصر في معركة صعبة ولا يتخلى عن نصره مهما كانت خساراته وتضحياته.. يقبض على الهدف بقبضة من حديد..

ضحكت الحامل فشعّ وجهها مبتسماً:

- يا عيني عليه.. الرب ينصره ويعوّض خساراته الصعبة..

ما تزال الابتسامة تشع في وجهها وهي تتساءل بقصد:

- هل يدرك إنك أيزيدي وهو مسلم.. لو افترضنا إنه يفكر مثلك..!

ابتسم آزاد أيضاً وهو يرد:

- لا يهمني هذا.. المهم أنا أدرك إن الإنسان هو الإنسان وان المُحب مهما كان نوعه وجنسه وشكله وطوله وعرضه يستطيع أن يصل إلى أمله مهما بلغت المصدّات الاجتماعية والدينية من قوة وثبات..

ثم اضاف بجدية أكبر:

- جريمة داعش فتحت في عقلي نوافذ ورياحاً.. لقد تكسر الزجاج في رأسي واصبح حراً.. لن يلزمني دين مهما كان شكله واسمه.. لكن المهم أن نجد نشتُمان وتتحرر شنكال لعل الناس تستفيد من هذا الدرس القاسي..

تساءلت الحامل وهي تضع يدها على بطنها:

- وهل سنتعلم...؟
- 73 غزواً ولم نتعلم يا أخت. وهذا الغزو رقم 74 ونحن كائنات نخاف الآخر. منغلقون. وحدانيون. نخاف من المسلمين. نخاف من المسيحيين. نتكلم الكردية ولسنا أكراداً. ضائعون في بطن التاريخ. لا نتزوج الا من طبقاتنا. لا نعطي ولا نأخذ.
- وهل من العدل أن ننسف ديناً قديماً لمجرد تعرضه إلى غزو خارجي؟
- من العدل أن يقيم كل انسان دينه الخاص. فالرب يبقى واحداً وهذه مهمة كل دين..

حاججته الحامل:

- لولا الغزو ما كنتَ تفكر هكذا اخي آزاد..
- اعترف بهذا. الغزو عامل خارجي سينتهي حتماً. لكنه عامل أيقظ بي روح التحرر ايضاً بالرغم من سجنه لي بأفكار لا أقبلها بل وأحارها. بل أنا ضحيته ونشتُمان ضحيته وأنت ضحيته وجنينك ضحيته والفتى المسلم ضحيته.. ولهذا فـ 73 غزواً خارجيا أبقت أجيالنا في العماء ولم تفتح بصائرهم إلى ما هم فيه من وحدانية وسرّانية حينما أصبح العالَم مفتوحاً كراحة اليد حتى جاءت داعش بالرقم 74

بسط يده. نظرت اليها وقالت:

- في الحروب تحدث انتكاسات في الأخلاق والمجتمع والأمن. لكن يبقى الدين يشد من أزر الإنسان روحياً ونفسياً.. وإلا لانتهت كل الأديان في الحروب وعدنا إلى شريعة الغاب.. وأمامك تاريخ كامل ومخيف من الحروب التي طحنت الإنسان..
- كثير من الحروب حدثت بسبب الأديان.. وداعش مثال قريب لنا مع يقيني المطلق انهم عصابات عالمية ولا يمثلون ديناً قديماً أو حديثاً.. انهم مجموعات من المرضى الذين أخذوا من الدين تأويلاته وحوّروا تفاسير

كتابه مدعومين بجهات خارجية متعددة النوايا، لتكون الأيزيدية اللقمة السهلة في هذا المقص الفظيع..

قطعت العجوز في الغرفة المظلمة الحوار حينما نادت على الحامل. أخذتها إلى الحمام برفق وعادت بها إلى الغرفة من جديد..

سألها وقد تذكر صاحبه سالار:

- سالار لديه ولد مصاب بالحكة والجَرَب. هل هناك وصفة عشبية تعرفينها..؟

- مممممم لا اعرف..

سارع آزاد كأنما ليستدرك صحو العجوز:

- اسالي العجوز.. متأكد تعرف بعض الوصفات.. هذه العجائز ذخر في مثل هذه الظروف..

دلفت الحامل إلى الغرفة المظلة. سمعها تتحدث مع المرأة والأخيرة تبربر بصوت عالٍ وتطلب إعادة السؤال والحامل تصيح بأذنها، فيما راح ذهنه إلى أولاد البئر الذين يعانون من رهاب البشر كما ردد سالار اكثر من مرة. سمعهم أكثر من مرة يغنون في الليل. يصورون الحياة على إنها وحش مفترس علينا أن نتجنبه وإلا سنصبح طُعماً له. كانت أصواتهم تبكي والشجن فيها يأسر القلوب.. أخرج أولادك إلى الحياة اخي سالار.. دعهم يتنفسون.. لالا.. الحياة ليست هنا.. سيموتون من الرعب. دعهم يغنون حتى ينتهي الغناء ثم يغرقون في بئرهم.. أنت تقضي عليهم بهذا السجن المظلم.. سيصبحون عمياناً يا أخي.. لالا انه حياة أخرى تجري تحت الأرض. علينا أن نحفر آبارنا ونغني حتى تزول غيمة داعش..

عادت الحامل وهي تقدم لي وصفات كثيرة من العشب مجربة كما أخبرتها العجوز وشفاؤها تام..

- بلّغ صاحبك أن يطحن كمية من قشور الرمان اليابسة ويخلطها مع الخل ويدهن جسم ابنه بين وقت وآخر.. مدقوق الثوم مع الخل والعسل خلطة ثانية.. غلي مسحوق البنفسج أو زهور الأقحوان..

الحبة السوداء المحمّصة تُعجن بالعسل.. وضع الحنّاء ككمادات على أمكنة الحك المباشرة.. ووو نسيت البقية هههههه

- لا بأس.. هذه المواد كلها متوفرة.. إلا البنفسج الذي قتلوه.. لكن مع هذا سنبحث عن مسحوق البنفسج..

كلب نبّاح دلّ على عيدو

قال دلشاد ذات ظهيرة طلعت الشمس عليها وأشاعت الدفء في أوصال السوق الصغيرة إنه تم القبض على عيدو.

قالها بحزن أمام سالار. وحاول أن يقولها بطريقة أخرى لكن العَبْرة خنقته وهو يجاهد أن لا يراه أحد من المارّة الذين يعرفونه كشخصية شرطي حسبة مهمته مراقبة السوق وضبطه وولاؤه لدولة الخلافة.

الخبر نقله دلشاد الذي كان نصفه طاووسي ملك والنصف الآخر داعشياً. وفي النصفين كان الرجل يحاول أن يعيش الظرف وكابوسه بشقّي الليل والنهار. يصلي في المسجد صلاة الجماعة نهاراً مع المسلمين. ويصلي ليلاً وحيداً يدعو خودا وطاووسي ملك ويبكي كثيراً.

دلشاد كان رجلاً من ليلٍ ونهار. وعندما أسلم وأعلن الإستتابة حفاظاً على أسرته وزوجته الجميلة تغير اسمه إلى عبد الحافظ، لكن شنكاليي المدينة يعرفونه دلشاد وعبدالحافظ اسم طويل لا يليق به مع إن الهوية الجديدة المثبتة صورته الحديثة فيها تشير إلى ان اسمه عبدالحافظ بالفعل.. والحافظ هو من أسماء خودا الحسنى كما يردد لمواطنيه وطيف سخرية يلوح في قسماته لمن يعرفه.. **وما أنا إلا عبد صغير لخودا العظيم.. وهو الذي يحفظني من هذا البلاء** الجديد.. **هههههه**

قال انه تم إلقاء القبض على عيدو في بعشيقة متخفياً في بيتٍ مهجور. دلّ عليه كلب نبّاح فأُمسِك هناك. من صدّق صدّق؛ فعيون رجال دولة الخلافة كثيرة بين بعشيقة وسنجار على الرغم من طول المسافة، ومن لم يصدق كان يحسب الـ 200 كيلومتر المزروعة بعناصر الدولة الإسلامية والألغام وسيطرات

التفتيش وعبور تلعفر والموصل؛ وربما اندهش الناس لكيفية قطعه تلك المسافة بين المدينتين في زمنٍ قليل وهو الرجل العاجز ومختل العقل، لكن دلشاد؛ رجل الليل والنهار، مصلّي الديانتين في نفس اليوم؛ قال إن عيدو يخضع تحت التحقيق في مركز الولاية وتحت رقابة شديدة خوفاً من أن يكون ذا ارتباط بجماعات مسلحة لاسيما قوة حماية شنكال، وقد يكون عوقه العقلي ستاراً يمرر من خلاله معلومات كثيرة لمواطنيه الكفار الشنكاليين في الجبهة الأخرى.

غير أن دلشاد المشطور بين ديانتين قال لثقاة؛ بينهم سالار؛ في يوم آخر وهو يحتسي الشاي في مقهى صغيرة ان عيدو اعترف بانضمامه لخلية عسكرية يسرّب لها معلومات من الداخل الشنكالي ويضبط ايقاع تحركاتها ومواقع بيوتها وثكناتها وأعدادها وجنسيات مجاهديها، كونه رجلاً يمثل دور المجنون فلا تقع الشكوك عليه ولا يلفت الأنظار اليه.

نفسه دلشاد قال بشكل غير متوقع في توصيف عيدو بأنه رجل خطير جداً والذي اعترف بعد التعذيب بأنه يسير تحت أنفاق تصل شنكال بالجبهة الشمالية ويستقدم اسلحة خفيفة وألغاماً صغيرة يعرقل بها خطط المجاهدين في المدينة. كما نسبوا اليه حادثة السم في السوق المسقف قبل فترة غير بعيدة.

دلشاد الذي يلاقي السخرية من مواطنيه وهو يصفّط الكلام على رجل بنصف عقل أو ربعه يستطيع أن ينسف كلامه في التالي بروايات وقصص لا يربطها رابط ولا يمكن أن تصدر من عيدو الذي تعرفه شنكال كلها بحادثته الشهيرة في نهر جاسم حينما هرب أو سُرق منه شهيد بتابوت حتى العثور عليه في مزرعة الباذنجان في الصويرة، يومها خرج من سجن الاستخبارات العسكرية في البصرة مثلما هو الآن. نصف عاقل ونصف مجنون.

دلشاد شيطان شنكالي ساخر قال ان عيدو يعمل بشكل مضبوط في النصف العاقل منه أما النصف العاطل فيه فهو للاستهلاك المحلي والصدقات والعطف وما إلى ذلك.

يناكده سالار: لكن يقال خذوا الحكمة من رأس المجنون.. يعني من النصف العاطل على تعبيرك..

لا يرتبك دلشاد فيرد: يقال.. والذين يقولون هــذا يريــدون أن يعطلــوا النصف الآخر الشغّال.. هههه حتى لا تنتبه الحكومة على ألاعيب المجانين مــن ذوي النصف.. والنصف الآخر...

يغمز بعينه إلى سالار فيملأ له كيساً صغيراً من التين..

غرابٌ على حبل الغسيل

انتِ

النبيذ الأحمر

انا

القدح الفارغ

لنثمل معاً وننسى الحرب الاخيرة ثم نتسكع

حجي شلال - شاعر ايزيدي

تنشر الحامل على حبل الغسيل ثيابها مغتنمة ظهور الشمس واعتدال الجو، ومع إن سطح الدار واطئ نسبياً إلا إنها رأت المدينة ساكنة إلا من أصوات عصافير قليلة تتنقل بين الأشجار المهجورة وبدا جبل سنجار عريضاً وشاخصاً يحيط بالمدينة.

رأت السطوح الأخرى مقفرة وهي تتلفت في الاتجاهات كلها ببطنها الثقيلة المدورة.

نشرت ملابس أخرى لطفلٍ ليس حديث الولادة وحرصت أن تضعها شرق الشمس قبل ثيابها.

في السماء طائرة تسحب وراءها عموداً منبطحاً من دخان كانت تراه واضحاً وهو ينتفخ بالتدريج، وثمة الغراب يدور حول السطح كان ينخفض في طيرانه ويقترب منها دائما كلما اتجهت إلى جهة وهي تعكف على ترتيب الثياب على حبل الغسيل.

هبت رياح خفيفة فيها روائح مختلطة لكن فيها رائحة ربيع ومطر ورحيق.

حط الغراب على أحد أركان السطح وأخذ يديرِ رأسه اليها كما لو يفتش عن شيء.

سألها:

- دائما أرى ثياب طفلك وهي تكبر كلما تنشرينها هنا..

لاح طيف ابتسامة على وجهها:

- الطفل يكبر فتكبر ملابسه يا غراب.

حجل أكثر واقترب اليها. رأت عينيه السوداوين مثل حبتين ناعمتين:

- ما هي أخبار شنكال صديقي الغراب..

هز رأسه وأقعى على ذيله مثل الجرو الصغير:

- سمعت انه تم إلقاء القبض على عيدو..

شهقت الحامل وتوقفت عن نشر آخر قطعة سوداء:

- صحيح..؟
- هذا ما قاله الشرطي دلشاد في السوق..
- مسكين عيدو..

ألقت القطعة الأخيرة على الحبل بإهمال وهي تستحضر صورة عيدو في رأسها..

قال الغراب:

- تعرفي.. كان دائما يزوّدني بحبات التين والعنب والتفاح الأخضر حينما أتبعه وهو يقطع الأزقة ليجد أي بيت مهجور ينام فيه..
- انه كريم وطيب..

ثم سألته:

- ماذا تتوقع أن يحكموا عليه..؟
- هؤلاء لا دين لهم.. سيصلبونه مثلما صلبوا غيره..

نظر إلى الأعلى متتبعا أثر طائرة شاهقة في السماء ثم قال للحامل كأنه يفيدها بمعلومة:

- تعرفي يا حامل اني أشهد كل جمعة تقريبا إعداماتهم ووحشيتهم وأموت من القهر غير إني ضعيف ولا اقدر على عمل شيء.. لكني أفعل شيئاً قد لا يبدو مهما ولا يغيّر من مجرى الحال..

نظرت اليه مستفهمة فقال بثقة:

- كنت أذرق عليهم.. كل لحظة اطير بسرعة وألقي ذروقي على رؤوسهم.. لكنهم قتلة.. أنا أذرق عليهم وعيدو يضرط عليهم..

كانت الفكرة ظريفة وجديدة.. اقتربت منه أكثر وأثنت عليه:

- انت غراب شنكالي أصيل.. سيأتي يومهم بإرادة خودا..

أحنى رأسه وهو يتمتم:

- سينتقم منهم خودا[1] العظيم وطاووسي ملك..

تأكدت الحامل من نشر الثياب وتثبيتها وهمّت بالنزول إلى الدار.

قالت للغراب:

- وافِني بأخبار عيدو يا غراب.. عليّ أن أنزل الآن.
- سأوافيك بكل جديد يا حامل.. الله معاك.

وقبل أن تهبط قال لها الغراب:

- يا حامل.. بودي إبلاغك ان كولي وفرهاد سيتزوجان قريباً.
- واو.. مبروك لهما. انهما عاشقان قديمان.
- ويحتاجان إلى شاهدين في المحكمة الشرعية الإسلامية..

نظرت اليه وهي على رأس الدرج:

- أبلغي العم آزاد أن يكون شاهداً وأنا أبلغ العم سالار.. انهما شاهدان على عرس في شنكال في زمن هذه الخلافة البغدادية التعيسة هعهعهع

ضحكت الحامل وهي تهم بالنزول لكنها التفتت إلى الغراب وقبل أن تقول شيئا ركلها الجنين بقوة وبادرها الغراب بلباقة وخبث:

- صديقك الصقر لم أره منذ أيام.. ربما تزوج هعههع
- أنت خبيث يا صديقي الغراب هههههه باي

(1) خودا: الله.. باللغة الكردية

دين ثالث

لم أعتدْ غياب الفتى كما لو إني مسؤول عن ما تبقى من حياته.

يقول لي سالار انه شاطر وسيتعلم الكثير ولكن عليه أن يعرف انه يشتغل مع قاتليه ليكون أكثر حذراً.

سالار الليلي المغني الحزين وشارب الخمرة الذي يحتسي قنينة عرق بكاملها ويدخن أكثر من علبة سجائر ليس هو سالار النهاري بائع التين والزيتون والرمان اللبق المتحدث ذا الوجه الذي لا ترى فيه أية علامة من علامات الخوف والتذمر.

مرة قال لي وهو يضحك: يا أخي تعبت من أن أكون غيري.. وكنت أروّض فيه سالار المختفي وأقول له اترك سالارك في البئر مع الأولاد فالحالة كارثية كما ترى.

لم أرَ أولاده بعد لكني في كل مرة أسمع أغنياتهم بالكردية وأحياناً بالعربية حينما يشتد الشوق بهم إلى أرض المدينة وهوائها ومطرها.

يكرر سالار: صارت عندهم فوبيا من رؤية البشر بعدما شهدوا القتل العشوائي في كل مكان. تحولوا إلى كائنات خائفة ومضطربة لا حول لها ولا قوة. يخافون من كل الأصوات ويخشون النهار..

تخرج أصواتهم من بئر عميقة كلها شجن وأسى. يغنون منفردين بالتناوب كأنما يؤدون أدوارهم مقسّمة على الوقت وقد تساوى عندهم الليل والنهار في ظلمة واحدة حافظوا على وجودهم فيها تحت طقس واحد لم يتغير.

حاول الفتى أكثر من مرة أن يراهم لكن سالار كان يجد الأعذار المناسبة لئلا يراهم الفتى ويرونه، وكنت أبرر له إن البئر عميقة وقد غطسوا فيها لكنهم لم يموتوا لهذا يغنون ليكونوا في الحياة مثله.

- ولماذا لا يخرجون للسوق مثلي؟
- في البئر سوق وشوارع وبنايات وبشر ولا حاجة لهم أن يخرجوا لسوق كله أسلحة وقتل واغتصاب ورصاص وموت وغياب وهجرة..

الليلة وقبلها بضع ليالٍ لم يكن الفتى موجوداً ليسأل عن أولاد البئر كما في كل مرة. انتظم في شغل منذ اسابيع في بيت قائد شيشاني خادماً يلبـي طلباته في السوق ويقضي معاملاته الروتينية بين هذه الدائرة وتلك، ويخدمه في البيت لبعض الشؤون الصغيرة كونه يقرأ ويكتب بالعربية ووثق به كونه مسلماً أصلياً وليس أيزيديا أسلم بالرغم منه.

يستطيع دائماً أن يرى العم سالار في بسطته ويرسل لي تحياته ويخبره انه يتحرك بشكل جيد في كل مكان ويرى ما لا نراه في كثير من الأحيان وانه يبحث عن نشتُمان بين الأسيرات والمحظيات والزوجات الصغيرات والخادمات التعيسات كلما يتاح له ذلك..

في كل مرة يمرر له معلومة سريعة ويضع في فمه حبّة تين ويختفي محملاً بأكياس الفاكهة والخبز..

دائماً عنده أخبار طرية وسريعة يتوجب على العم سالار أن يحفظها ولا ينساها وينقلها لي مساء حينما يجمعنا دفء بيت سالار..

- أخبره اني أشتاق له وللعمة وجنينها الذي كلمني مرتين ليلاً من دون أن تدري ههههه!
- قل للعم آزاد إني سأعثر على نشتُمان قبله..
- أخبر عمي آزاد ان الشيشاني له أربع زوجات.. أيزيديتان ومسلمة والرابعة سورية من حلب اضافة إلى الجواري الصغيرات والكبيرات وكلهن جميلات..
- بلّغ العم ان خادمات الشيشاني كلهن أيزيديات لكنهنّ تحت رقابة صارمة ولا يُسمح لهنّ بالخروج من البيت..
- قل له انّ إحدى الخادمات عرفتني وكلمتني في المطبخ لكي هربتُ منها فلقد كانت في وضعٍ مسحوق وتريد الهرب..

- أوصل للعم آزاد ان كثيرين من الأمراء والقادة يترددون علـــى بيـــت الشيشاني ويتداولون أموراً كثيرة ومعظمهـــم ســـعوديون وليبيـــون وتونسيون وشيشانيون وعراقيون.
- قل له ان هفيدار باعها الشيشاني لواحد ليبـــي ليلة أمس..
- قل له اني عرفت زوجات الأمير المسلمة هي ليلى ابنة الصباغ ياســـر والأيزيديات جيان الشنكالية ووردة من بحزاني وكانت في زيـــارة إلى بيت عمتها في شنكال يوم وقع الغزو أما الحلبية فهي ليندا ولديها طفل وجاءت معه من حلب يوم دخلوا الموصل..
- قل له توصلت إلى بعض أماكن المقابر الجماعية في سنجار..
- قل له ان الأمير بحوزته أفلام كثيرة عن القتل الذي مارسه هو وجماعته يوم دخلوا سنجار.. ودائماً يتفرج عليها في الليل..
- قل له في بيت القائـــد كهربـــاء وموبـــايلي مشـــحون 24 ســـاعة هههههه
- أخبر العم ان أتحاشى غضب الشيشاني قدر الإمكان.

كان سالار يمرر هذه الرسائل كلما يلتقيني في السوق لكنه الآن يستضيفني في بيته الصغير على بئر يغني فيه الأولاد.

نحلل المعلومات السريعة التي يوصلها الفتى كل يوم تقريباً، فهو المتســـوق للشيشاني من الفاكهة والخضار والخبز مما يجعله يتحرك بحرية هنـــا وهنـــاك في المدينة..

- قل للعم آزاد ان الشيشاني ســـبق وأن أصـــيب في معـــارك بحلـــب والموصل.. قل له ترقى من مجاهد إلى ذبّاح إلى أمير.
- قل له أمس جلبوا عدداً من قتلى داعش إلى المستشـــفى مـــن جبهـــة شرفدين
- قل له ان الأمير الشيشاني خرج إلى ولاية الموصل اليوم ولا نعرف متى يعود لكن بيته مزروع بالحرس بينهم عراقيون من الفلوجة حدثوني عن أشياء كثيرة وكان أحدهم ذبّاحاً في الفلوجة وتكريت ويلقبونه أبـــو

رماح وهو شاب ليس كبير السن وهو أحد مجرمي مجزرة سبايكر[1] ويردد دائماً ان غزوة سبايكر كانت سبباً بترقيته إلى منصب آخر كونه قتل عدداً كبيراً من الجنود..

- قل للعم انهم يبيعون الجنس بشكل علني ولديهم جدول بالمجاهدين في المدينة الذين لم تُصبهم غنائم الحرب يأتون على مواعيدهم.

يتأكد سالار من إحكام ستائر البيت لأنه لابد أن يدخّن وعقوبة التدخين الجلد وتكسير الأصابع والفلقة وحتى القتل.. انهم مزاج.. يكرهون البشر يا أخي.. طباعهم غريبة جداً.. يكرهون كل شيء في الحياة وهمّهم النيك والمال والسلطة والفخفخة واستعراض القوة.. يحتقرون المرأة بشكل عجيب لكنهم يتسابقون على شرائها من أجل المتعة.. هنا سميني سالار.. كرهت عبدالله.. أشعر بدوخة من هذا الاسم الملصق بي.. كرهته يا اخي..

يحتسي سالار كمية كبيرة من العرق بشكلٍ متتالٍ ويعيد لي بألم مجريات شنكال كما وقعت و لم يستطع الهرب لا هو ولا أولاده المراهقون الذين تكفل برعايتهم بعد وفاة أمهم في حادثة دهس وكيف كان القتل والذبح والاغتصاب والتهجير والأسر والسجن والسبي والتعذيب، فلم يجد غير أن يدفنهم في بئر مهجور يقع في البيت بعد إن أحكم مدخله بسلالم من قماش سهلة السحب إن كانت هناك مداهمات فورية من قبل جنود الخلافة.

اسأله عن السبايا فيخلط عليّ الحكايات الكثيرة والمشاهد المؤلمة التي تحدث بين فترة وأخرى هنا في شنكال..

- كل واحد فيهم لديه عدد من السبايا السنجاريات اوالمسيحيات الحلبيات يوزعونهنّ كحصص للقادة والأمراء ومقاتلي الجبهات

---

(1) مجزرة جرت بعد أسر طلاب القوة الجوية في قاعدة سبايكر من العراقيين في يوم 12 حزيران/يونيو 2014م بعد سيطرة داعش على مدينة تكريت حيث أسروا (2000-2200) طالب من طلبة القوة الجوية وقادوهم إلى القصور الرئاسية في تكريت وقاموا بقتلهم هناك وفي مناطق أخرى رمياً بالرصاص ودفنوا بعضاً منهم وهم أحياء.. ووصل عدد القتلى العزّل إلى 1700 طالب شاب.

والانتحاريين وما دونهم كغنائم حرب ومن حق أي واحد يبيع ما عنده من سبايا إن أراد..

- حسب الأعمار كما شاهدت قبل فترة..
- نعم حسب الأعمار. والصغيرات هنّ الأغلى..

الى هذا الحد أختنق. نشتُمان غصة في حلقي. هربتُ وتركتها. لن أعفي نفسي من هذه الجريمة الأبوية. انا نذل وحقير. في اللحظة التي عليّ أن أكون فيها أباً تنكّرتُ لي ولها. طار مني عقلي وصوابي. تحولتُ إلى حيوان مطارَد لا أعرف كيف أتصرف. اعتمدت على أختي شيرين. صار الرصاص حاجزاً بيني وبين نشتُمان..

يدرك سالار ما بي فيوجه الحديث إلى أمر آخر:

- أردت أن أقول لك ان كل بيوت الشنكاليين سرقت علناً ووزعت كغنائم حرب بين مقاتلي داعش.. بيعت بالموصل وذهب منها قسم إلى حلب والرقة في سوريا.. بيعت بأفلاس وقروش.. اما نحن فقد أسلمنا وحافظنا على القليل منّا وإلا مصيرنا الذبح..

يعود ويسألني بعد إن رأى علامات الحزن في وجهي وارتعاشة وجهي:

- أين كانت توبتك.. كما يسمونها؟

أعاد لي ذكرى الجبل والعزلة والبكاء الصامت والراهبة نالين ونهايتها الغامضة وحمامة الزاجل والرب الذي لم يتخلَّ عني والفتى الذي لم يتركني وكان وسيطي بين الجبل والمخيم المكتظ بالشنكاليين والبعشيقيين والبحزانيين[1] الهاربين.

التوبة؟ ههههه

تبتُ من شيء لم يؤذني ولم يؤذِ بشراً ولم يؤذِ الله فأدخلوني ديناً آذاني وآذى الناس والرب والبشر وخطف ابنتي الحلوة التي لا أعرف تحت أي نجس منهم الآن.

---

(1) بعشيقة وبحزاني من المدن الأيزيدية التي وقعت في قبضة داعش بعد احتلال الموصل.

تبتُ في الجبل. عمّدني الله العربـــي تحت المطر؛ وكانت الرســـول حمامـــة زاجل؛ والمعجزة أن أعود إلى شنكال من دون إثارة شكوك أو أُعتَرَض ومعـــي الفتى وأستقر من جديد متنقلاً من مكان إلى مكان باحثاً عن كنز إنساني عظـــيم لأقيم العدلَ في الحياة بدينٍ ثالث اسمه دين نشتُمان..

لم تختلج روحي كثيراً وأنا أعيد سيرة الجبل المضنية التي شلّت أعصابـــي بعيداً عن هذه الروح التي اعيشها اليوم في مدينتي التي تتنفس بصـــعوبة. فـــاليوم أصبحتُ على مقربة من هذه الأنفاس التي تطلع بالكاد، وبعناد وأرى الشنكاليين القليلين يحافظون على سيرة مدينة بالحيلة والفقر والشجاعة الفردية التي لا تظهر كثيراً بسبب الغزاة القساة الذين يذبحون الحياة وما أسهل هذا عندهم.

أبو يقين

لم يجد في الكراج غير بضع سيارات صالون وبعض السائقين يحتمون من المطر تحت مظلة مائلة. ووجد المكان أجرد من كل مظاهر الزحمة التي كانت عليه في خطوط النقل العاملة إلى الموصل وتلعفر وبعشيقة وبحزاني وقرى شنكال ودهوك واربيل والسليمانية وتكريت وبغداد وديالى.

سأل عن السائق "أبو يقين" فعرف انه ذهب بالأمس إلى الموصل ويأتي في الأسبوع مرة... انه عفريت.. قال أحدهم وهو يضحك..

عرض عليه أكثر من سائق بفضول تلبية رغبته إن كان يريد السفر إلى الموصل أو دهوك اوغيرها. لكنه اكتفى بالشكر وسؤاله عن "أبو يقين" فهو أحد أقاربه لا أكثر ووعد بالرجوع بعد يومين.

تذكر "أبو يقين" الذي جاء به من الجبل إلى سنجار في رحلة طويلة، فهو الحل في مثل هذه المواقف كما يتصور ويستطيع أن يقتفي أخبار الفتى في الموصل. يمكن أن ينقده بعض المال من أجل هذا. وعده انه يجده في الكراج كلما احتاج إلى شيء.

في ظروف الحروب تخرج الهوامش إلى المتون عندما تتوفر الظروف الملائمة لها وتنحسر المتون في بطن الهوامش.. يقول لنفسه هذه حقيقة يجب أن نعرفها ونمتثل لقوتها الجانبية فهي الأكثر حضوراً في الحياة اليومية المتشابكة التي تتغير ألوانها ويتغير طعمها.

في مخيم إيسيان. مخيم شاريا. مخيم مهتي. مخيم باعذرا. مخيم خانك. مخيمات سرسنك. في أي مخيم للمهجرين الشنكاليين والبحزانيين والبعشيقيين صعد الهامش إلى الحد الذي بدا وكأنه المتن وانحسر المتن حتى صار هامشاً..

صرنا نتعامل مع الهوامش وكأنها هي الحقيقة التي يجب أن نقرّها. كهذا الـ أبو يقين الذي صار ضرورة من ضرورات الكثيرين بلباقته وعفرته وشطارته أيضاً. مثل عيدو العظيم الذي نبذه المتن كهامش سفلي سابقاً، لكن الظرف جعل منه متناً عظيماً.. هكذا هي الحروب يا نشتُمان تجعلنا نكون على صلة بهكذا تفصيلات من أجلنا ونحن نتخبط في هذه المتاهات الدموية.

ينتبه منذ أيام إلى غياب الفتى المعلّق بين ضياع وحلم. أيام طويلة بلا أخبار عنه. يقلقه هذا الغياب مع اطمئنانه النسبي من الأخبار التي يقولها الشرطي دلشاد في السوق من ان القائد الشيشاني لم يعد بعدُ من الموصل ولا حمايته ولا اخبار عنه ترد إلى سنجار.

يدرج عائداً تحت مطر خفيف بمظلة سوداء على رأسه وينحسر تفكيره في نقطة الفتى الذي بدأ يفتقده منذ أيام. كما لو لام نفسه وتركه مع الشيشاني المتحرك في أكثر من جبهة مع ما يحمله من سمعة سيئة يعرفها الشنكاليون وغير الشنكاليين لكنه يعتقد في قرارة نفسه ان الفتى ليس صغيراً وانه اكتسب شيئاً مهماً من التجربة في الهرب والمخيم المأساوي والجبل الأعزل ومن ثم العودة العكسية إلى مدينته وأخيراً مع العدو وجهاً لوجه وفي بيته ومعه إلى أماكنه السرية.

بروشي

لا كرامة مع الاحتلال.. هذه قاعدة

-بروشي-

القفل كبير والباب ضيّق

-دلشاد-

يحدث هذا قبل نصف ساعة من مجيئه اليومي المعتاد.. أن توسّع بروشي من دائرة الكحل حول عينيها في المرآة فتراهما منفتحتين على بياض جاذب، ثم ترش رشة عطر بنفسج واحدة خفيفة على عنقها وهي تحسب دقائق الغروب الأخيرة متحركة بثوبها الأبيض الدايولين الخفيف الذي وجدته مناسباً لهذه الليلة، بعدما خلعت الفيزون المطاطي الأحمر الذي وجدته متكرراً على جسدها.

اعتادت كل يوم أن يقذف دلشاد بملابس الشرطة على السرير وهو يلعن حظه كما لو يريد أن يبكي ويهمهم بسباب لا آخِرَ له يبدأ من حجي خان الأفغاني ولا ينتهي بالخليفة أبو بكر البغدادي.

بكى أكثر من مرة وهو يعود كل مساء منهاراً شاعراً بالذل وربما الخطأ الذي يرتكبه كونه شرطياً في ديوان الحسبة في دولة الخلافة الإسلامية.

ألوم نفسي كثيراً.. لكن ما العمل؟ وما الحل؟

يخفُّ شعور روحه المنفوخة طيلة النهار ويرافقه شعور بالضآلة أمام نفسه وأمام بروشي حينما يدخل البيت. يستبدل جلداً بجلد حينما يعود في كل مساء؛ وينطمر إحساس النهار الذي يلازمه بأنه ممثلٌ بارع يهابه الآخرون مع قلتهم التي لا يكاد أحدٌ يراهم غيره ويعرفهم واحداً واحداً ممن تخلفوا عن الهرب في ذلك الصيف الساخن.

كانت تتعذب في داخلها مثله لكنها تعرف ان المدينة محكمة الأقفال عليهم. توقفت عند حدود الهواء الذي تتنفسه وسجنت الولدين معها.. مضى الكثير و لم يبق الا القليل.. طوّل بالك.. لكنّ هدوءه ينفلت. يرتديه ثوبه الدلشادي الأيزيدي القديم.. أي قليل هذا.. أنا بينهم وأعرف قوقم وسلاحهم وخططهم.. أتعرفين أين هم الآن؟ أين وصلوا؟ الهم في بيجي وتكريت والفلوجة وعلى مشارف بغداد.. جيش كامل هناك وقادة ونظام صارم وانتحاريون بالمئات يتدفقون من كل العالم.. من البلاد العربية والأوربية.. الهم دولة تتمدد ولا تقف عند حد وتعرف طريقها الذي تمضي اليه..

تدفع له ولديه الصغيرين ليهدأ قليلاً وتسحب ملابس الشرطة المعفّرة برائحة النهار والسوق وتعلقها خلف الباب ليمضي الليل بالكثير من القصص والأحداث والفواجع والتوقعات وما يحمله من تفاصيل بحكم عمله وتواجده بينهم.

شنكال بالنسبة لهم قبضة صغيرة للنكاح والممر الآمن واستراحة المجاهدين القادمين من كل العالَم..

يعود نهار اليوم بأكمله على السرير أو غرفة الجلوس بعدما ينام الصغيران فيصبح دلشاد سارداً دقيقاً بلا حس الفكاهة الذي يمتلكه والذي يمرر من خلاله ما يريده بطريقته التي لا تجعله مثار ريبة.. إنهم أهلي وأخوتي وأصدقائي.. عليهم أن يفهموا لغتي الجديدة.. بالضحك تمر أشياء خطيرة.. انا ابن التاريخ في جامعة الموصل فأعرف تاريخ الضحك البشري وفوائده السريعة في قتل الكآبة وإضفاء روح الطرافة وتمرير ما يمكن تمريره لمن يريد أن يحلل فكاهاتي وقفشاتي المرتجلة.

كان المقبور حجي خان قال مرة بأن الضحك وسيلة من وسائل صفاء القلب والروح وذكر لي ان الرسول الكريم جعل الضحك سنّة وهو القائل تبسُّمك في وجهِ أخيك صدقة، لكن الرسول يحذر من هذه السنّة حينما يوصي أصحابه وعامّته بأنّ كثرةُ الضحكِ تُميت القلب هههههه

الشرير حجي خان الأفغاني الذي تُعد ابتسامته هدية سماوية تؤخّر انطلاق رصاصة من بندقيته لمدة بضع دقائق هو أكبر حيوان داعشي. كان ينظر لي بشك وكنت أعرف هذا لكني كنت امهر منه في تبديل وجهي وقناعي وضحكتي

وابتسامتي حتى طمأنته وخدّرته غير انه استبعد بعض الأيزيديين الذين أسلموا وألقاهم في السجن: أنتم لستم ثقة حتى في إسلامكم..

مخلوق من شر. كل عصب فيه جريمة، وكل شعرة في لحيته شر. وكل شيء في جسده الضامر عبارة عن لغم ينفجر في أية لحظة. مهووس بتعذيب الناس وقتلهم. مستعد أن ينفذ أي نوع من الموت إذا طُلب منه ولا يتردد بل يقبل عليه ويعدّ هذا تقرباً إلى الله..

أنت تسير على شعرة رفيعة دلشاد..
لكن بعضهم يعتبروني شنگالياً خائنا وضع يده بيد عدوه!
لا تهتم. سيعرفون انك لستَ كذلك مع الوقت..
هذا يعذبني.. لكني لا أستطيع المساعدة أكثر من هذا..
كن حذراً..
وجهي صارم لكني أحياناً أنسى وجهي فيعود دلشاد القديم..
انت الآن عبدالحافظ.. انس دلشاد القديم.
لو أنساه أكون مثل الأفغاني والفلسطيني والشيشاني القاتل.
تطبّع على اسمك الإسلامي.. وخودا هو الحافظ..
تعبت من هذا الدور.. أريد حياتي الكريمة.
لا كرامة مع الاحتلال.. هذه قاعدة..
لا أستطيع الهرب بعد.. القفل كبير والباب ضيّق..

توازن بروشي المساءات بالكثير مما تبتكره من جماليات بحس الأنثى التي تجد زوجها مشطوراً بنهارٍ إسلامي وليل أيزيدي تشعل فيه البخور والشموع لتطمئنه إنّ روحه ليست مسلوبة إلى الحد الذي يتصوره، مثلما تعرف كيف ترتدي ثياب الليل الأنيقة بعطر العنق النفاذ لتقتل سعار النهار فيه وترطّب ليله باللذة والفرح، حتى لو ظل يشرح للصباح ماذا كان في نهاره المثقل بأعباء شرطي يجوب الأسواق ويراقب المخالفين ويفعل القصاص مضطراً.

بُركة الحورية الزرقاء

أظهِرُ معجزاتي وعجائبي للذين يقبلونها
ويطلبونها في وقتها

الفصل 3/ 6 من كتاب الجلوة الأيزيدي المقدس

يستقطبني الليل البارد ويثيرني المطر الغزير، وصوت الصقر الوتري ينـاغِم روحي الوحيدة بحنينه السماوي، وجنيني يغفو على أحلامي الصـغيرة مطمئنـاً بدفئه.

آزاد يشكك إني أعشق صقراً وألد جنيني في بطني وأرضعه كـل صـباح ومساء وبقعة دم زوجي في الطارمة تُطرد الشر والأشرار ولن تختفي حتى تشرق شمس سنجار من جديد.

مرة قلت له: مَن يعشق ما في السماء تنبت له أجنحة ويطير. يصبح هـو السماء ويحلق بعيداً عن الألم.. لكنه كائن أرضي. ربطته نشتُمان بالواقع وقيدت روحه المتآكلة ففرّ من الدّين وعدّه هو السبب.

مرة قلت له: أنا سلالة ولست امرأة ذبحوا زوجها في لحظة غـدر شـارك بها سنجاريون مسلمون عاشوا بيننا طويلاً.. أنا سـلالة متوالـدة ولا تنتـهي يا آزاد.

يقول آزاد بواقعية:

- **الخيال هو أن نصرف الواقع ونطويه كالورقة.. لكن هذا لا يحدث معي.. نشتُمان ليست خيالاً..**

مسترخية بأملٍ ما لن يتأخر في هذا الشتاء. فالصقر لديه الخبر اليقين وهـو يجوب شنكال كل يوم ويطير إلى ما أبعد منها.

اكثر من مرة حلمت بزوجي يسألني عنه وعن الجنين.. كوني حرة وحلّقي فأنت من سلالة الحرية والخيال. اروي لمن لا يعرفك عن خيال السلالة التي خرجنا منها. وقولي انها سلالة البقاء والنقاء الأثير..

يحاججني سربست القديم بمنطق: الخيال هو أن نطير. ثم نسقط.

فتحاججه سلالتي: نسقط حينما لا يكون الواقع على قدر الخيال.

ثم أقدم له نفسي مخدرة بأطيافٍ كثيرة:

أنا من نسل الحوريات العاشقات. أنثى من خيالِ جدٍّ عظيمٍ قديم كان يطوي الجبال والسهول والوديان ويعبر الشلالات والينابيع والغدران والعيون في نهارٍ واحد. كان راعياً يجوب الجبال والقرى المعلقة على الصخور، بقطيعٍ من الذئاب والأغنام والدببة والتيوس والغزلان والنمور البيضاء.

أنا من سلالة ذلك الجد الذي ترك لنا إرثاً من الخيال اللانهائي الذي كرّسه بين أجيال الأسرة والقبيلة على مدار العصور حتى ورثته وعشقته وسرت عليه وكأنما الزمن القديم يمضي الآن بين شراييني وبطني وجنيني وصقري الجميل بالرغم من الكارثة التي نحن فيها.

جدي كان يقول نحن عابرون في الحياة ولكننا نبقى فيها ولن ننقرض. لذا فأنا من سلالة خيالية تستطيع أن تعيش الواقع كما هو لكنها تخلق بديله وتحلّق فيه وهكذا هي سلالات الطاهرين الذين يولدون من نسل الحوريات اللواتي يهبطن من الجنة إلى الأرض.

- **لكن الخيال المفرَط مرعب يا سيدتي.**

جدي القديم زرع الخيال في السلالة. كان راعياً يجيد العزف على الشبّابة والمزمار والدف، فإن لم يجد هذا في نهاره فإنه يحوّل شفتيه وحنجرته إلى مزمار، صافراً في وحدته ومنقاداً وراء طيف أبيض لا يعرف سره، فتتمايل الجبال والسفوح طرباً وترقص الأشجار والأزهار والأمطار نشوى وسعيدة وتتساقط الطيور وَجْداً وحباً من سابع سماء تحت قدميه.

كل ايامه في الجبال والمراعي والسفوح والشلالات والينابيع والغدران مع أغنامه وتيوسه وذئابه ونموره ودببته. ليس له مكان أو زمان. رجلٌ عابر لهما مع

قطيعه المتكاثر الذي يغطي سفحاً شاسعاً يراه منتشراً حينما تشرق شمس ما بعد المطر.

رجلٌ نادرٌ من زمن نادر، يقتفي أطيافاً تتوالد في رأسه وقلبه فيسرع اليها طاوياً جبلاً وراء جبل وسهلاً وراء سهل. تتبعه الراعيات الباهرات المكتظات بالجمال والشهوة، لكنه يطير مثل سحابة فيعبر الجبال العاليات ويعبر قطيعه القمم ويتبعه أينما حل وارتحل، ففي رأسه قصة لا يعرفها وأمل لا يدرك جوهره وحياة لا يعيرها كبير اهتمامه بقدر ما كان يغيب أياماً وليالي مع قطيعه حتى أصبح جزءاً من الجبل؛ تعرفه الورود والأشواك والينابيع والرعاة والراعيات والقرى والغيوم والأمطار.

- **أتعتقدين انه من نسل جلجامش؟**

جدي سبق جلجامش وسبق الطوفان. جدي القديم تعرفه كل الجهات في جبال وسهول وكهوف أرضروم وقارص وبيغول وكردستان وموش وباتمان وأورميه وسنقر ورأس العين ونخجوان وبوكان ويريفان والقحراغ وجلميرا وسميركي وقرا باغ وطوروس وماردين ورشكو وآغري ودهلران وسردشت ولورستان.. بينما جلجامش لا تعرفه سوى الوركاء..

جدي رجل كوني يدور في مساحة وضعها في رأسه ويرسمها بعصاه ويغني لها بمزاميره وحنجرته ويرقّص في دفّءِ السماء والأرض معاً فتطرب له الحياة وتمطرُ وتخضرُّ وتنجب، ومن حوله تتكاثر الغزلان وعصافير النعناع والعسل والتين والرور وشقائق النعمان فيطير هنا وهناك في المساحة التي وضعها في روحه مستوحياً أساطير الأولين في أزمان مضت عارفاً بشكل فطري ان الطاهرين من سلالته وضعوا أطفالهم بشكل عجائبي من دون مساعدة النساء وخارج رحم القدر، فيتأكد إنه أحد أطفال العجائب الذين وُلدوا من رحم سنبلة أو رحم هزار أو رحم قطرة مطر.

أنا الأنثى التي ورثت العجائب من ذلك السلف الطاهر الذي بقيت أرحامه نقية لم تلوثها غوائل الحياة ولا زمن القاذورات التي توالت بعد موته وموت موته حتى حافظت السلالة على هذا الخيط الذي كلما ضعف تمسكت به الأجيال

وأحيته بخيالاتها العظيمة، فالخيالات لا يملكها الا الذين ولدوا من رحم سنبلة أو رحم هزار أو قطرة مطر..

- **إذن هو الخلود..؟**

تروي الصحائف المتوارثة من جيل إلى جيل ان ولاداتنا كانت عجائبية، فنحن نسلٌ من الجنة التي سيدخلنا اليها شيخادي من دون حساب، ونحن نسل حوريات لم يلمسهن أنسٌ ولا جان سوى مرة واحدة تجرأ بها رجلٌ من لحم ودم وتزوج حورية فتأسست سلالتنا في الجنة لكنّ الرجل الأرضي بقي هنا على أرض الأجداد والسلف العجائبي المولود جيلاً بعد جيل.. ذلك هو جدي الذي اختلفت التواريخ فيه وتعارضت الوقائع المتعاقبة مع بعض الفصول المحوّرة حتى أوردت انه تزوج غزالة فتية لم تنضج بعد و لم تحِض فأنجب سلالتنا التي انتجت كل هذا الجمال والرقة، وفي زمن ما قيل انه تزوج نمرة بيضاء بلون الثلج فخلّف سلالة الجمال الأبيض والقوة والبقاء العنيد؛ لكنها تعاضدت كلها في أنه رجل الجبال الوحيد الفريد مع قطعانه الأليفة والمتوحشة وإنه مَن تزوج حورية من الجنة فأنجب سلالتنا الرقيقة البيضاء القوية الحالمة والخيالية إلى آخر المدى.

- **لا يمكن للسماء أن تنجب من الأرض. الأرض قذرة والسماء نقية يا سيدة الحمل الطويل..!**

ذات مرة أدركه التعب بعد مسيرة أيام بين الجبال والشعاب والصخور فقاده عطرٌ غريبٌ لم يشمّه من قبل هو خليط من المطر والأعشاب المبللة والزهور الريانة والغيوم والجبل المتفتح والنمور الرشيقة والغزلان العذراء؛ فتبع أثره مسحوباً بقوته وإغراءاته إلى أقرب نبع سمع خريره من بعيد في مكان ما بين الشرق والغرب وفي حوصلة جبل شامخ يحجب كثيراً من الجبال التي خلفه تاركاً قطيعه يرعى هنا وهناك في طوابير متضامنة لا يخشى عليها من شيء.

كان النبع يشق الصخور بماء بارد زلال فيندفع ويشكل بُركة من ماء ازرق رقراق قبل أن ينسرح بين الصخور متدفقاً إلى كل مكان تاركاً فيها عطراً غريباً جذبه من مسافاتٍ بعيدة.

وقف صامتاً يتأمل الرائحة النفاذة التي تقترب من روحه وتلــون لحظتــه بالعجيب من العطور فكان يحث الخطى إلى النبع المحاط بأشجار الحور العملاقــة وشجيرات الكوشكات والآس والزيتون التي تغطــي دائــرة الحــوض وتبــث إخضرارها الفاقع على سطحه الأزرق فتختلج الألوان ببعضها لتكســب طيفــاً يتحرك في الحوض. يغني بمزمارٍ غير موجود فيخرج صوت غريب أسكر الجســدّ الفتي آنذاك وأوقفه خلف شجرة حور مرهف السمع.

بركَ خلف جذع شجرة حور وأنصت بخشوع لذلك الشجن الآسر الذي شحن قلبه لأول مرة بشيء لا يعرفه وهو يرى حورية بيضاء كالمرمر غاطسة إلى نصفها في الكوثر الأزرق تنادي طيفاً لا يراه، لكنه ينغرز في قلبه كلما تصادى في المكان وتردد في أروقته. كما يغمره عطر خليط من كــل شــيء لا يســتطيع استدراكه في لحظته الممغنطة.

استدارت فانفتح شلال شعرها ذهبياً غطى مساحة ظهرها العجيب وهــي تخوض في الحوض حتى استدارت بمواجهته وهي تطلق شــفتيها للغنــاء، وبــدا صدرها اكثر بياضاً واكتنازاً أحرق روحه الوحيدة الهائمة بين الجبال والوديــان وطارت من رأسه أصوات كثيرة لمزامير ونايات واشجان واشواق لا يعرف أين ذهب وكيف امتصتها لحظة الحورية العارية بكل بهائها المرمري الشاخص امــام عينيه.

زحف على بطنه مستفيداً من الأعشاب التي تخفي جسده بقلب يريــد أن ينفلت من صدره، ثم زحف إلى شجرة حور ثانية كانت أقرب اليهاً من تلــك الشجرة وأقرب إلى البُركة الزرقاء التي أغرقته بعطور غريبة ملأت روحه بــالعبير الطري.

كانت قريبة يكاد يسمع أنفاسها وهو يتملى جسدها الممشوق المتماســك ببياض لم يره من قبل وكانت عيناها لا تستقران على لونٍ واحد فأينما نظــرت تشكلت ألوان جاذبة فيها حتى تكاد تنير البُركة الزرقاء بموجاتها التي تصعد وتنزل على جسدها الناعم.

- **إذن هو حلم باذخ..!**

تروي صحائف السلف الصالح إنّ جدي الذي أربكته الحورية الفاتنة كان يبكي لحظتها ولا يدري لماذا وهو الذي لم تهز شاربه المفتول أجمل الراعيات المجهولات في القرى الجبلية من اللواتي كنّ يلاحقنه ويرسلن الطيور الزاجل وراءه ويبعثن رسائلهنّ مع الغزالات الرشيقات وعصافير الشتاء.

وقفت عارية كالرمح وهي تسحب جسدها الرشيق فتقاطرت عليه حبات الماء كأنها لؤلؤ أزرق فانعقد لسانه وتوقف قلبه لحظات واختنق لكنه ضربه بقبضته القوية فعاد ينبض بعنف.

اضطرب جسده واختلج وارتعش، فهبّت فيه قوة مضاعفة واحتشد كله في لحظة فيض عجائبية حينما نهض بقامته وخلع ثيابه وأخرج جسده العاري الذي لم يره أحدٌ من قبل ودخل الحوض الأزرق بقدمين ثابتتين وعينين تثقبان الحجر وهو يخبط متمهلاً في ماء الكوثر الشفاف.

- **وما هو الأثر الذي تركه جد الخيال؟**

يروي علم الصدر الذي توارثته الرياح جيلاً بعد جيل إنّ جدي الذي اربكته الحورية وأبكته أيضاً لجمالها الخارق وأنوثتها العظيمة حاصرها في البُركة وهو يخبُّ بالماء موتوراً وسعيداً ومتشنجاً، وصار بمواجهتها عينين بعينين وصدراً بصدر وقامةً بقامة وعرياً كاملاً بعري كامل في لحظة اعترف لاحقاً بأن قلبه توقف فيها وكفّ عن النبض، وإنّ عطراً أخاذاً بخّر رأسه وإنّ الحياة صارت بحجم البُركة الزرقاء وإن الحورية الجميلة أدهشتها جرأة هذا الراعي ممشوق الجسد ومفتول الشارب بعينيه الناريتين التي اخترقتا روحها وقلبها قبل جسدها وهو يستكين بين ذراعيه ويبثّ فيه عطراً سماوياً لم يستطع مقاومته، فغرق معها في البُركة زمناً لا يدري إن طال أم قصر وإن البُركة الزرقاء صارت حمراء اللون.

- **إنه جد حالم فعلاً..**

حورية النبع عشقت جدي من أول لحظةِ لجرأته ورجولته ووسامته، ورأت فيه ملاكاً قروياً قوياً له عطر المراعي والأعشاب والشلالات، فصارت مثله قروية وراعية تقود ذئابه وأغنامه وغزلانه ونموره وتيوسه ودببته الجبلية.

هام بها وهامت به. خطفت قلبه وخطف قلبها ذلك الجد السعيد الذي ترك وراءه سلالة لا تنتهي من الملائكة والجمال والسعادات الجبلية العظيمة.

توالدوا وأنجبوا ذرية توزعت بين الجبال والمراعي والسهول والهضاب والوديان، وكانا لا يكبران مع الزمن بل يعودان شابين كلما انقضى عقد وتعاقبت الفصول، فأصبحا خالدين قروناً طويلة مع نسلهما المتوالد كقطيع من الملائكة والبشر ولا أحد يعرف أين توزعوا بعدما ضاقت بهما الجبال والسهول والهضاب والمراعي.

اختفى جدي دهراً وعمراً مع الحورية التي انجبت سلالتنا البيضاء بدمها الأزرق الذي غرقا به اثناء تعارفهما الصامت في بُركة النبع المتدفق.

لا احد يعرف مصيره ولا مصير حوريته الفرعاء. لقد طوته السلالة النقية لكثرتها على مر الوقت والتناسل وصار الجد النقي لكل الأجيال التي أعقبته.

قيل ان حوريته خطفتها السماء لأمرٍ ما فجنّ جنونه وصار يبكي كالأطفال وأقام في النبع الأزرق ما تبقى من عمره لعلّها تعود وتحييه.

قيل انه قبل أن يموت أخذته الحورية إلى السماء كي تكون على مقربة منه.

قيل انه تحول إلى نمر أبيض وهام على وجهه، وقيل انه صار شجرة لا أحد يعرف مكانها إلى اليوم. وقيل انه صار صقراً وطار إلى السماء و لم يعد.

- **ما أجمل هذا الخيال النقي..**

نحن سلالة جدي القديم. حوريون وسماويون وخياليون لا يعنينا الواقع الا كما هو واقع. وكل العشاق الذين استناروا بجدي أصبحوا نجوماً فيما بعد. لذلك فالسماء كلها صفيحة من عشقنا الأزلي العظيم كما تراها الليلة وكل ليلة.

نحن نخلق واقعنا ونحلّق به لعلنا نمسك بخطى الجد العظيم ونرتوي من نبع حوريته الأزرق.

حور العين

خلُص خطيب الجمعة بعد ساعة مملّة بأن شهيد الإسلام له سبعون حورية في الجنة كأمثال اللؤلؤ المكنون والياقوت والمرجان. قاصرات الطرف. طاهرات من الحيض والبول والغائط.

قال وهو يبتسم إنّ لكل حورية سبعين وصيفة؛ وعندما تقبل على حوريتك وأنتما على سررٍ مصفوفة تنظر في وجهك والكأس في يد كل واحد منكما من شهد الشراب وخمر الجنة فإن سبعين سنة من سنوات الدنيا تمر من المتعة والشهوة وانت لا تحس. ثم تأتي الحورية الثانية وتناديك: يا عبدالله أليس لنا فيك نصيب؟ وحينما ترفع بصرك اليها تجدها أحلى وأجمل من الحورية الأولى فتقول لها: من أنتِ رحمك الله؟ فتجيبك: انا حوريتك في الجنة وأنا التي ذكرني الله عز وجل (ولدينا المزيد) وأنا المزيد.. وهكذا تأتي عليك حورياتك السبعون وكل حورية تقضي معها سبعين سنة. ثم يأتي دور الوصائف وكل وصيفة تقضي معها سبعين سنة ايضا..

تبسّم وهو ينظر إلى الحشد الصغير كأنما يزف لهم بشارة:

وعليك أن تحسب أيها المسلم كم من عشرات ومئات وآلاف السنوات ستقضيها في هذه النعمة التي وهبها الله لك في الجنة..

انفتحت قريحته الحافظة وشرح الكثير من جماليات الجنة وحورها وهو يتلمض معرجاً على ما شرحه ابن كثير والطبري والضحّاك وابن حجر والترمذي وابن عثيمين.

كان وجهه يحمرّ وينتصب وهو يُخرج الحديث من روحه كما لو كان يعيش الحالة الخيالية التي يرسمها في عقول الجالسين الذين لا يفهمون من العربية

الا ما يهمهم من أمرها في الحياة اليومية، لذلك كان الكثيرون يتهامسون بالكردية ويتثاءبون في وقت يمضي على أعصابهم مثل كل جمعة قسرية تقتل الأرواح وتشظيها في ساعة كأنها زمن طويل من العذاب.

ختم حديثه متوعداً وقد تبدلت سحنته وهو ينسحب من جنة الحور في خياله إلى جحيم أرضي يُصليه بعذابه الواقعي لذلك تبدلت خلقته كلها وهو يصرخ وبدا وجهه مثل وجه الذئب:

.. اليوم يا أخوة الإسلام ستشهدون قصاصاً لأحد المرتدين الأيزيديين من قرية كابارة أمسكه جنود الحسبة المؤتمنون وهو يصلي صلاة الأيزيدية ويتضرع إلى تمثال الطاووس بعدما دخل الإسلام في غزوة المجاهدين إلى ولاية الجزيرة. لذا فهو في حكم المرتد والخارج عن طاعة الله تعالى...

في الفناء؛ كما في كل مرة، احتشدنا في الساحة الصغيرة التي كانت رطبة وكانت شمس الظهيرة ساطعة.

غراب خطف على رؤوسنا بشكل واطئ وترك رفيف جناحيه على الجميع وهو ينعق ويصعد إلى المنارة ويقف عليها وعندما طار بعد لحظات طلعت بعض الرؤوس بعد طيرانه من فتحة المنارة العليا فاستقطب أنظارنا مشهد رجلين يقودان رجلاً ويوقفونه على حافة الفتحة ويداه وقدماه مكبلات بالحبال.

ربت أحدهم على كتفي في هذه اللحظة الغامضة على حافة المنارة. كان السائق "ابو يقين" بلحيته الصغيرة يبتسم بوجهي ويعانقني بشكل سريع.. **أخبروني انك سألت عني وخمّنت اني سأجدك هنا..**

كانت لحظات عصيبة تجري في الأعلى. فأمسكت بيد أبو يقين كالمستنجد به والمتشبث بعدم تركه لي بعدما نادى من الأسفل صوت ميكرفون.. إنّا لله وإنّا اليه راجعون. هذا المرتد سينال عقاب الله بعد لحظات وسيكون في جهنم وبئس المصير ويكون عِبرة لغيره ممن يرتدّون عن الإسلام العظيم..

عاد الغراب بسرعة خاطفاً رأسي رجلي المنارة وهو ينعق، ثم عاد مندفعاً بسرعة أكبر وخطفهما بجناحيه مرة ثانية، وهو ما لفت أنظارنا في وقت كان يجري فيه على أعصابنا..

ضغطت على أصابع ابو يقين بكل قوة حينما دفع الرجلان الرجل المكبّل من أعلى المنارة فهوى بثقل كبير وانلطش بكاشي الفناء مسبوقاً بصيحة اخترقت المسافة بين المنارة والأرض.

كان ارتطامه قد رج المكان كأنه عمارة انهدّت بغفلة وظلت صيحته موصولة حتى وهو يتبعثر وينفث دماء غزيرة مع شخير موصول مفزع كحيوان مذبوح.

لا أعرف إن تذكرتُ خال الحامل عفدال حينما ألقوه من أعلى السطح على طارمة البيت فغاص في الأرض ونبتت في مكان ارتطامه شجرة تين وصارت مزاراً مثل مزار لالش. لكن أبو يقين وهو يسحبني من يدي كان قد كفر بكل شيء بوجهٍ عابس.

ظلت جثة الرجل غاطسة بدماء تجري من كل أجزاء جسده وآخر ما لمحته قبل الخروج من المسجد الغراب الذي حطّ على رأس الجثة وهو ينعق نعيقاً لا أظن أحداً سينسى هذا المشهد الأخير.. كان الغراب يبكي.

خرجت من جمعة المنارة الدموية بأعصاب مشدودة مع أبو يقين إلى سوكا سري. لم نتكلم. كان المشهد فظيعاً ومؤلماً. في كل جمعة أشعر إني لست انساناً. أدخل المسجد محتاطاً لآدميتي بقليلٍ من التماسك وأخرج منها حتى بلا ثياب تستر فضيحتي وعورتي فأشعر بالعار والجبن والخوف ويعتريني ندم العودة من الجبل والغار الأعزل القريب من الله بلا بشر ولا وصايا ولا نجاسات ولا داعش ولا خوف.

حتى نشتُمان فقدتُ غريزة الاتصال بها تلقائياً في جُمعات الدم والقتل وما أشاهده في نكبة المدينة المتلاشية في باقي الأيام التعيسة كما لو إنّ ابنتي بدأت تتلاشى من ذاكرتي في جداول الدم التي أراها وأنفاق الكارثة التي تكبر كل يوم.

يخفف عني أبو يقين هذا الهلع ويقول: جئت من أجل أن أراك يا صديقي فربما لديك عودة أو طلب.. عرفتك ما إن وصفوك لي..

ثم تساءل:

– أين فتاك الشاطر..؟

قلتُ بريق جاف:

- مِن أجلهِ كنت أبحث عنك..
- خير إن شاء الله..
- انه في الموصل منذ أكثر من شهرين..

قصصتُ عليه عمله مع الشيشاني وانقطاعه عني كل هذه الفترة بسبب عدم وجود اتصالات بيننا..

- هؤلاء القادة لا مكان لهم في الموصل. يتخفّون عـــادة لاحتراســـاتٍ أمنية..
- مثلك يستطيع أن يجدهم أو يسأل عنهم..
- صعب والله.. أي سؤال عنهم مصيبة.. تعرف انت كيف يفكـــرون وكيف هي عقوباتهم..

كنت يائساً فعلاً وصورة رجل المنارة المسحوق تعذبني..

- سأترك الأمر لك. فلعلك تعثر عليه بالصدفة. أو تجد حلاً.. أي شيء ممكن أن يفتح لي خطاً مع الفتى..

مددت يدي في جيبـــي وأخرجت له بعض المال:

- عيب يا رجل. لم أفعل شيئاً بعد..
- خذ هذا يا صديقي. اعتبرِه تكليفاً أو أجرة من سنجار إلى الموصـــل.. أنت على باب الله..
- ولو.. لعل الله يوفقني وأجد الفتى عند ذاك سآخذ أجـــرة البِشـــارة.. هههههه

عانقني بمودة وذهب.

كنتُ في أتعس نهار.. أنا أتعس رجل في العالم.

كنز المطر

كلما ينهض مبكراً، ولا يدري إن كان قد نام أم لا، يجد الحامل تسبقه في البكور كأنها ساعة منضبطة لا تتأخر عقاربها عن زمنها.

عادةً ما يجدها تناعي جنينها بصوتٍ يسمعه لكن بلغة لا يفهمها. تتكلم معه كما لو خرج من بطنها.

كل الصباحات التي مرت عليه هنا يسمع الصوت المشترك بينهما بوضوح، لكنه لا يدرك اللغة عادة، فيعتقد إنه ما يزال نائماً يحلم بأكثر من صوت يتداخل فيه فيشغل رأسه بالكثير من الأصوات والفوضى. غير إنه استدرك هذا الصباح بما كان يشغله منذ بضعة أيام بعد الدوران المضني في المدينة وأرجائها. فسحب قمصلته من تحت المخدة وتلمسها قبل أن يرتديها ويمضي إلى المطبخ الصغير.

أوقفت الحامل كلامها مع شيء لم يره. إلا إنه شعر بالخجل وهو يرى أفخاذ وبطن الحامل المدورة التي سارعت لإنزال ثوبها مع بعض الحرج. فتراجع منكساً رأسه شاعراً بخجل سريع اجتاحه.

نادته الحامل باسمه.. آزاد تعال يا أخي. حيّته بوجهٍ صباحي معتدل كما في كل يوم وهي تمرّر يدها على بالون بطنها الضخم الذي يدفع بثوبها إلى الأمام كثيراً.

- هذه رَضْعتهُ الصباحية. لا اريد أن ألده فيذبحونه. إنه أمانة زوجي عندي.. **إني ألده في بطني..**

تأمل بطنها كما لو يرى جرحاً فيها لكن المرأة أكدت له:

- نتكلم انا وهو قليلاً. يشمّني طويلاً فيطمئن إلى إني بخير فيرجع إلى دفئه.

فتحت نافذة الصباح لغيوم مارّة وشمس متقطعة واكتفى آزاد بدفقة هـواء باردة شمّها بعمق كما لو يشم المدينة كلها.

... نشتُمان.. همس لنفسه. سمعته الحامل وتأففت. حملت صينية الفطـور ووضعتها أمامه.

قال آزاد بشكل مفاجئ:

- سأغيب عنك بضعة أيام لا اعرف إن تطول أو تقصر..

التفتت اليه مستفهمة فأكمل:

- أبحث عن إبرة وسط جبل من القش وعليّ أن أكون في كل مكـان.. في كل جبال القش.

خاطَ استكانة الشاي وأنصت إلى زجاجها المتصادم بالملعقة:

- شنكال كلها بيتي وأنت أخت غالية. شنكالية حميمة. شاهدة على كل شيء جرى ويجري في مدينتنا الأسيرة. انتِ معذّبة أيضاً. ربما عذابك لا نهاية له.. أنتِ إلهة تحملين شنكال في بطنك إلى الأبد.. ربمـا أنـا أخف منكِ عذاباً فلدي أمل ضعيف أن أعثر على نشتُمان.. قد اعثـر عليها وهي منكوحة وحامل و...

قالت المرأة:

- كلنا نتعذب ليس من نهاية لنا..

- سأتواجد في بيت سالار فترة من الزمن.. اولاده في وضع محزن وربما اصبحوا عمياناً.. سالار يحتسي الخمرة كثيراً في الليـل وأخشـى أن ينفلت ويسبب مشكلة لنفسه وأولاده في البئر لا يعلم بهـم جنـود الخلافة.

تحسس جيب قمصلته بارتباك:

- سأودِعُك أمانة حتى نلتقي من جديد إذا كتب لنا الله النجاة والحيـاة مرة ثانية..

أخرج من جيب قمصلته الداخلي كيساً قماشياً ملوناً متوسط الحجم مخنوقَ الرأس بوصلة قماش أخرى رفيعة ووضعه على الطاولة أمامها.

كانت الحامل تنظر اليه صامتة:

- لدي ما يكفي من المال لأعيش على هامش الحياة. لم أعد كما كنتُ سابقاً.. كنت أحب الحياة وأحب زوجتي وابنتي ووظيفتي. تبدد كل شيء وضاع كل شيء.

واصل كلامه وهو يحتسي الشاي:

- ماتت زوجتي بولادها. وابنتي مخطوفة. راحت وظيفتي. صرت هامشاً سريع الزوال في الحياة.. هذه هي الحقيقة وعلينا أن نكون واقعيين ولا ننفخ بأنفسنا أكثر من اللزوم.

نظر إلى وجهها الصامت:

- المدن التي تُحتَل لا تعود إلى سابق عهدها. لن تكون أجمل مما مضى مهما كان الماضي بسيطاً. مثل الوردة المقطوعة من غصنها لن تفلح عملية تجميلها وإعادها..

أضاف متنهداً:

- شنكال ضاعت وضعنا معها. ضاعت الجغرافية والتاريخ والدين.. كل شيء ضاع ويضيع لأننا عشنا بتاريخ اسطوري متضخم فبقينا على هامش التاريخ الملعون..

تدخلت الحامل:

- معك حق. شنكال ماتت لكنها تتنفس قليلاً. انا باقية من أجل هذا الجنين لكني غير يائسة. انا مؤمنة بقضاء الرب. مؤمنة بأن الحياة تعود وإنْ لم تكن مثل السابق لكنها ستعود ويذهب القتلة..

قال آزاد وكأنه لا يريد أن يتوسع بمثل هكذا مواضيع تجرحه وتجرحها:

- أخبرتك إن الرب أرسل لي وثيقة براءة بواسطة حمامة زاجل..

هزت رأسها..

- لكن الرب أيضا ساعدني بالحصول على كنز صغير وجدته مدفوناً في الجبل ذات يوم..

تطلعت الحامل إلى الكيس الراكد على الطاولة كأرنب محنّط ثم نظرت إلى عينيه.
أشار إلى الكيس:

- هذه قطع ذهبية ثمينة على ما أعتقد. إنها عطاء من الرب الكريم الذي ناديته من ظلمات نفسي ثمانية أشهر في الغار..

تطلعت الحامل اليه من جديد كما لو تعيد فحص وجوده وتتأكد من إنه من لحمٍ ودم وانه ليس جنياً أو نبياً متخفياً..

- هذه أمانة ووديعة لديك إن كنتِ لا تمانعين.

عَبرتْ نسائم الصباح عبر نافذة المطبخ وأحاطته ببعض البرودة. صمت قليلاً..
تطلعت إلى الكيس المخنوق بحيرة. قال آزاد:

- أحمله بجيبي كل يوم وأخشى عليه من السرقة والضياع.. بيتك آمن وأنت أخت شنكالية وسأكون بعض الوقت مع كاكه سالار.

تساءلت:

- دار سالار ليست بعيدة عن داري..
- سأكون معه في البيت والسوق نتسقط الأخبار من الفلاحين.. ابحث عن نشتُمان.. عسى الرب يهديني اليها.

وأضاف للتوضيح:

- نشتُمان أسيرة في مكان ما. هنا أو في الموصل أو الرقة أو الفلوجة أو حلب.. وهذا الكنز الصغير سيساعدني في تخليصها.

سكت قليلا وقال كمن يقرر شيئاً أكيداً:

- ساشتريها به.. ساشتري نشتُمان!

قالت الحامل وهي تعقد حاجبيها شاعرة بألم الرحل:

- اطمئن يا اخ. لن أغادر بيتي. لن ألد. لن يسرقني هؤلاء اللصوص.

قال آزاد:

- أنتِ نبيّة المكان سنجارية الروح. لن أتخلى عنكِ. سأواجه مصيري ومصير ابنتي مع الأيام بورقتي السماوية التي حولتني إلى انسان تائب وغير كافر هههه..

تمتمت الحامل:

- ستجد نشتُمان. يحرسك خودا وطاووسي ملك..

ردد بثقة:

- سأزورك بين فترة وأخرى.. سأبلغك في حال العثور على نشتمان..

نظرت في عينيه:

- إذن هذا كنز نشتُمان. أرسله الرب لك.

صفن قليلا وتمتم يعيد الرؤية بطريقته:

- في آخر المطر ظلت السيول تنحدر وهي تجرف الشجيرات والأعشاب المتشبثة بالصخور. كنت سعيداً بالمطر بالرغم من كآبتي. المطر يفتح روحي ويعطيني دفقاتٍ من شعورٍ بالحياة، لذا كنتُ خارجَ الغار أرى الطبيعة وهي تتبلل وتغرق وتلمع أشجارها وتزداد اخضراراً. وغالباً ما أمشي بعيداً من دون عصاي حتى يدركني الفتى ويعيدني إلى المكان.. يومها كنتُ أتأمل سيلاً جارفاً ينحدر من قمة صغيرة اعلى من الغار وأرى اشتباك الأغصان والأوراق المتساقطة والجذور المقلوعة وهي تكابد وتتشبث، لكن السيل كان يتدفق بعناد ويحفر في الصخر نهراً صغيراً يمر من أمامي. كنت أنتشل بعض الزهور المنجرفة وأكوّمها حتى تصبح تلاً ملوناً. ومع تزايد السيل وهو يجلب جذاذات الشجيرات والأوراق والأوراد تهادى هذا الكيس. لمحته من مسافة. كان السيل يدفعه فيتوقف عند نتوء صخري ثم يدفعه من جديد لتمسكه أذرع الأغصان المنحنية حتى استقر بين يدي..

نظرت الحامل اليه بإعجاب وقالت:

- إنه كنز من الله بعثه لأجل صبيّتك..

لحقته الحامل حتى الباب الخارجي. كانت السماء متفرقة الغيوم:

- يحرسك خودا وطاووسي ملك.

كان آزاد منشغلاً بمعصمه. فتح حزام ساعته المعدني. ثم فرش الساعة على يده وهو يمدها إلى الحامل:

- هذه ساعة موروثة في أسرتنا. انها لجنينك هدية مني. توقف عندي الزمن يا أخت. وحينما تلدينه بالسلامة اخبريه ان رجلاً مرّ من هنا وقد فقد زمنه لعل زمن ابنك يكون أفضل من هذا الزمن..

صافحها بحب:

- يمكن أن تأخذي أكثر من قطعة من هذا الكيس لبناء المعبد الصغير الذي اتفقنا عليه في بيت الخال عفدال.. انه لالش الصغير الأسير..

صقر سنجار

على غير العادة اكتظ الجامع بالمصلين في جمعة أشرقت فيها الشمس في أول الصباح ثم اختفت حينما داهمتها كتل من الغيوم قادمة من غرب المدينة فسادت عتمة نسبية ألقت ظلها على كل المدينة حتى ظهيرة الصلاة ثم فاضت بالأمطار على نحو شامل.

رأيتُ وجوهاً كثيرة وجديدة لم أرها في أية جمعة سابقة. زحام اعرف سببه واكتظاظه بهذا الحشد الذي لم يكن كما في كل جمعة بصَلاتها الموحدة أو ما بعدها إن كانت هناك أوامر وعقوبات من القاضي الشرعي تنفذ في الفناء الخارجي للجامع.

لم أكن أفقه ما يقوله خطيب المسجد. كان عصبياً وثرثاراً يتوعد الجميع بالقتل والنار والعذاب وجهنمّ وبئس المصير وكانت ساعة خطابه ثقيلة جدا وقلبي يخفق بشدّة.

فاجأني الفتى وعلى رأسه قبعة رياضية. كان يبحث عني وسط هذه الجموع. ارتمى علي كطفل وهو يقول انه جاء مع شرطة وخدم القائد وكان لا يخفي قلقه وخوفه من المصير الذي ينتظر عيدو مجنون المدينة وظريفها الوحيد الذي يملأ الحياة الصغيرة بكل شيء يخطر ولا يخطر على بال أحد.

حتى عندما كان يختفي بضعة أيام يتساءل الشنكاليون همساً عنه، فيعرفوا إن رجال الحسبة يطاردونه ويبحثون عنه لأن شتم الوالي والخليفة وبصق على عناصر الحسبة المنتشرين في كل مكان أو ضرط على رتلٍ من جنود الخليفة الذين يتظاهرون دائما في السوق ومحال بيع المواد الغذائية وبسطات السوق المكشوفة.

يقولون انه هرب إلى جبل سنجار أو ضريح شرفدين. هناك من يرى انه في بحزاني أو بعشيقة أو آمرلي، لكنه يطل من تحت بسطة أو بيت طيني مهجور أو قرية ليست في متناول جنود داعش. يهدأ بعض الوقت. يجوب المدينة طولاً وعرضاً ثم يأتي إلى السوق بأعوامه السبعين المثقلة بالتغضنات والحواجب الكثة والوجه الحجري القاسي. يشتم أهل الحسبة ومواطنيه المسلمين السنجاريين الذين صاروا معهم بلغاته الثلاث.

كنت أبتعد عنه بمسافة فجماعة الحسبة لا يؤتمنون وكانت الحامل توصيني: خذ حذرك ممن يحيطون به. يريدون من عيدو أن يكون فخاً.. وكنت أقول لها انه الضرورة التي لابد منها في وضعٍ كهذا الوضع التعيس.

أكيد هو عيدو رجل المدينة ومجنونها الظريف الذي أرهقهم حينما عبر اكثر الخطوط الحمراء بصلافة رجل لا نعرف كيف يفكر وكيف يستوعب درس الدواعش في مدينة صغيرة اكتنزت بالجمال والحقول والبساطة وبجبلها العريض الذي يفصل السماء عن الأرض.

لم أكن أنوي الحضور إلى الجامع بشعور القرف الذي ينتابني من خطبة الجمعة المخيفة كما في كل جمعة أقضي فيها ساعة من الوعيد والترهيب والخوف فأشعر دائماً وكأن رقبتي ستطير في أية لحظة..

مرة قال الفتى: اشعر وكأن ساطوراً يدور حول رقبتي اذا استمعت اليهم في خطبة الجمعة. وأحياناً أرى شبحاً في الجامع يقطع رؤوس المصلين لا على التعيين.

كنت أتساءل دائما: لماذا هو الإسلام وحده من يقترف الجمعة زمناً للخوف والرهبة في الجوامع والحسينيات؟ فتأتي الأجوبة مختلفة. إجابة تقتل أختها الإجابة. إجابة تزيد من وطأة الرهبة وأختها التالية تخفف منها. وثالثة ترى الأمر سليقة وفطرة ارتجالية وصلت الينا فاعتدناها. وتأتي الرابعة بين أحيّاها الإجابات لترى ان داعش ليست هي الإسلام وبهذه الصيغة المرعبة التي أفزعت العراق وسوريا وليبيا ومصر والأردن وغيرها ودقّت نواقيس الخطر من هذا الإسلام الفضائحي القديم. بينما ترى الخامسة انه امتحان للمؤمنين على مختلف أشكالهم

وألوانهم ولغاتهم من هذا الخطر الذي يمسك راية سوداء وبيضاء أخرجهـا مـن الكتب القديمة وسار على تعليماتها المخطوطة بدماء المسلمين وغير المسلمين. فيما ترى السادسة انه بلاء وابتلاء مصادره معروفة وغير معروفة، وتؤكد السابعة على إن داعش سياسة غربية هدفها تفتيت الإسلام وتحقيره بين الشعوب الإسلامية قبل غيرها، وترتأي الثامنة انه صناعة عالمية بفؤوس محلية إسلامية طائفيـة تتـوخى تقسيم البلدان إلى أسود وأبيض بقيادة ساستها المشبوهين.. ومن كل هذا أتساءل ببساطة وألم: وما ذنب نشتُمان وغيرها من البنات والصبايا والنساء مـن هـذه الفوضى بإجاباتها الإسلامية الفوضوية التي لا رابط لها..!

أجوبة مضنية لسؤال واحد يا إلهي. ما الذي يجري بيننا أيها الرب الكبير؟

صامتٌ وريقي جاف: عيناي محمرّتان وعصاي ترتعش لوحدها وروحـي منقبضة تذوب مع الدقائق التي يمضيها هذا الحيوان الليبـي في خطاب الوعيـد وتدمير الأعصاب والنار اللهّابة التي ستشوينا..

الفتى غير مستقر. أتحسس ارتعاشات جسده. ذهنه شارد و لم يعد هادئاً كمـا أحسب. يذهب إلى جماعته ويعود إلي كأنه طائر وحيد لا يستقر على غصن.

كانت فرصة أن أسأل عن وضعه مع الشيشاني. همس لي إنه جزار وإنـه يضع لي إشارات عند العم سالار كلما وجد نفسه في السوق وإنه رجل مخيف.

مرة قالت لي الحامل بعد إلقاء القبض عليه ان عيدو علامة من علامـات سنجار. لا يمكن تصور المدينة من دونه.

- **المجانين يضفون نكهة غريبة على المدن وعلى أيامها الكئيبة..**
- **معك حق.. لكن صعب أن ترى عيدو معلقاً ومشنوقاً بحبلٍ رخيص.**
- **ما كنتُ أتصور أني أعود لشنكال لأرى كل هذا..**
- **منقبضة روحي من أجله.. انسان بسيط وساذج ولا أهل له.. لم يقم سابقا بمثل هذه التصرفات التي يقوم بها الآن.. عاد من البصرة كما تعرف قصته حينما سرقوا منه التابوت والشهيد.. وقتها كنت صبية ورأيته أكثر من مرة ولم يشتكِ منه أحد غير ان المنظمـة الحزبيـة أشاعت انه مجنون ومخبل وفرضت عليه هذه الصفة بقسوة..**

ينتهي خطاب الرعب الذي بثه الليبـــي الملتحي في ساعة ثقيلة جداً. لكنه ختمه بالضرورة الشرعية أن نكون شهوداً على عقاب أحد المتمردين على امارة الجزيرة الإسلامية في دولة الخليفة البغدادي، كما يحدث دائماً في جمع الصـــلاة المرعبة.

التقيت بفناء الجامع بـــ سالار الذي تقمص دوراً ما بدشداشـــة بيضـــاء. أخبرني بارتياحه وهو يرى الفتى مع جماعته. كانت الباحة غرقى بالمطر المنـــهال بغزارة بعد ثلاثة ايام من إشراقات الشمس. فاحتمينا بالحائط تحت مظلة كارتونية مترنحة. وقال إنه لا يحتمل أن يشاهد عيدو معلقاً على حبل.

كان الفتى بقبعته الرياضية يتواجد بأكثر من مكان بـــين المصـــلّين الـــذين يلوذون تحت الحيطان.

زاد هطول المطر وتدفق بشكل كبير حتى تحول فناء الجـــامع إلى ســـيول وبحيرات صغيرة موصولة ببعضها جرفت الكثير مـــن الأوســـاخ واوراق الـــتين والسدر.

تساءل سالار:

- تعتقد يفعلوها..؟

قلت ببساطة:

- يفعلوها وأكثر
- قبل فترة أعدموا امرأة أيزيدية هنا لأنها لا تريد أن تكـــون مســـلمة.. اعدموها خنقاً.. تصورا

تقلصت ملامحه وهو يروي:

- خنقها أحدهم هنا في يوم جمعة أيضاً. جلس وراءها وكـــبس علـــى رقبتها وهي مربوطة اليدين إلى الخلف. ضغط عليها أكثر من عشـــر دقائق امام الناس حتى أسلمت روحها بين يديه.. كان المشهد مؤلمـــاً وقاسياً..

هرس رأسه وهو يتذكر الحادث:

- يا خودا العظيم.. لم أنم ليالي كثيرة. ظل شبحها يطاردني..

همس من جديد:

- كنت أشعر وقتها اني مسؤول عن خنقها.. كان علينا أن نفعل شيئاً لها.. لكن..

جعل آزاد عصاه الرفيعة تقيس ارتفاع منسوب المطر الذي تسلل تحت الأحذية وتسرّب إلى مدخل المحراب. غير ان خدم الجامع سارعوا لشفط المياه المتسربة ووضع أكياس جنفاص كسدود مانعة وتحويل السيول إلى الباب الخارجي.

- ماذا ننتظر..؟

- عيدو..

يسير الفتى بين المصلين المحتمين ويشرع موبايله بين فترة وأخرى ومعه فَتَيان آخران يشاطرانه المهمة.

الى حد ما هدأ المطر وخفّ إلا من رذاذ يتطاير، لكن طبقات الغيوم المتراكمة تشي بمطر أكثر غزارة، فتنقل على عجالة بعض خدم الجامع إلى الباب الخارجي وعادوا يحملون أخشاباً منقوعة وجذوعَ أشجار مفلوقة إلى أنصاف وأغصاناً كثيرة وكوموها في منتصف الباحة كما لو يريدوا أن يصنعوا موقداً كبيراً لتدفئة المصلين تحت المطر..

جاءني الفتى وهمس لي بأن أرى رافعة متوقفة وراء جدار الجامع الخارجي فلاحظت فعلاً امتداد عنقها لأول مرة، لكنه همس لي بأن كلاليبها التحتية تمسك بقفص من حديد بسعة رجل أو أكثر..

نقل خدم الجامع أكثر من تنكة نفط ورشوها على الموقد الكبير. بدا واضحاً انهم كانوا في سباق مع المطر الذي يشتد قليلاً ثم يخفّ إلى رذاذ ناعم.

همس لي سالار: ماذا تراهم يفعلون..!

كادت العصا تنكسر بيدي لشدة توتري. ضاقت الباحةُ عليّ وأنا أراقب تل الخشب يكبر ويزداد إنسكاب النفط والبنزين عليه من تنك وجلكانات عسكرية وكان من السهل أن نشم رائحة بنزين يختلط بالتل الخشبي.

ربطت الفكرة برأسي فوراً. كان ذراع الرافعة الطويل شاخصاً خارج بناية الجامع. يقبع تحت كلاليبها قفص من حديد. هنا موقد جبار ما يزال يتعالى. في

مكان ما عيدو أسير ومحبوس. الرافعة والقفص وعيدو. المطر كان عائقا. لكن اكتملت عناصر المحرقة الان. لم تبقَ سوى شرارة صغيرة تحرق التل المتعاظم وتحرق المطر حتى لو اشتد.. يا خودا العظيم ماذا يفعلون بنا.. هذا انسان..!

هرع الفتى مرتبكاً وقال: هناك حرس كثيرون في الباب الخارجي وهمرات تأتي تباعاً..

قال انه حريص على تصوير كل شيء قبل أن ينفد شحن الموبايل..

- وماذا سيحصل؟
- **سيحرقون العم عيدو..**

اضطرب نبضي واختلج بدني لكني تساءلت: هل سمعتَ هذا..؟

- سمعتُ هذا وأنا متأكد. كانت هذه أوامر القائد وكنت أعرفها منذ ليلة أمس.. قال الفتى بتأكيد.

حدثت جلبة في بوابة الجامع وهي تنفتح وبدا محرك الرافعة يشخر وينفث دخاناً غليظاً ظل يتعالى من خلف حائط الجامع وذراعها العملاقة ترتفع بعمود فضي يخرج من بدنها.

دخلت مجموعة من قيادة الولاية لم أعرف أحداً منهم، وبدا سالار يسمي لي أسماءهم.. المجدور السعودي ابو عائشة وهو الوحيد الذي عرفته في أول ايام العودة حينما كان ضمن فريق جلادي الفتيات العاريات.. الوالي.. القاضي الشرعي.. الليبي.. التونسي.. الكردي الخاتوني السنجاري.. السوري..

تقدم أحدهم بسرواله الأسود وقد عقد على رأسه غترة سوداء وغطت جسده قمصلة سوداء أيضا وكانت لحيته مبللة..

قال لي سالار: هذا ابو سفيان وكيل قاضي ولاية سنجار..

طلب القاضي من الجميع الإقتراب من الموقد العظيم ليقرأ الحكم الشرعي وعندما تزاحم المصلون على مضض يخوضون ببركٍ صغيرة وقد شكلوا قوساً مهيباً حول الموقد. نطق القاضي وهو يتلو قراره:

بسم الله الرحمن الرحيم

ولاية سنجار

"وأعِدّوا لهمْ من قُوّةٍ ومنْ رِباطِ الخيلِ تُرهبونَ بهِ عدوَّ اللهِ وعَدوّكُم" صدق الله العظيم

م/ حكم شرعي

بعد التشاور لهيأة الرأي والمحلفين في جريمة المدعو عيدو رشّو السنجاري الذي قتل عمداً المجاهد الأفغاني الحاج خان مسؤول ديوان الحسبة في ولاية الجزيرة – قضاء سنجار قضت المحكمة الشرعية لولاية سنجار إعدام المجرم المارق الأيزيدي الكافر عيدو رشّو السنجاري حرقاً بالنار بعد صلاة الجمعة وأمام شهود من المصلين ليكون عِبرةً لغيره ممن يخالفون أحكام الشريعة الإسلامية السمحاء ويتطاولون على المجاهدين المسلمين الذين يأتون من كل فج عميق لنصرة الله في أرضه الواسعة.

لهذا اتخذنا أقصى العقوبات بحقه وأن لا شفاعة له ولا توبة كونه أيزيدياً كافراً لا يؤمن بالله ورسوله المصطفى أشرف الخلق أجمعين ولا بخلافتنا الراشدة التي نصرها الله تعالى.

القاضي الشرعي لولاية سنجار

كان الرذاذ يتحول إلى مطر خفيف والغيوم أكثر دكنة والصمت يحيط بالمصلين الذين تنازعتهم مشاعر مضطربة. فعيدو ابن المدينة الذي يعرفه الجميع وإن قتله للأفغاني حدث مثلما حدث وقتها بسبب انفعالي غير منضبط وغير متقصد لأن عيدو لا يعرف القتل وهو مسالم بالرغم من وضعه اليومي البائس الا إن تجنبه وعدم استثارته يفهمه أهل الحسبة لاسيما من الشنكاليين.

همس الفتى وهو يرتعش: أنا خائف..

همس سالار: سأختنق..

تماسكتُ وأنا ارى الرافعة تعلو حائط الجامع ببطء ثم يظهر قفص حديدي معلق بين كلاليبها وكانت الرافعة تمد عنقها باتجاه الفناء وتقرّب القفص الحديدي

الذي يشبه أقفاص حديقة الحيوانات التي تحتجز الأسود والنمور الوحشية. فبدا عيدو المحبوس فيه كإنه كائن برتقالي متوحش تم اصطياده قبل لحظات.

كان ينظر إلى رؤوس المصلين وهو يبتسم كما لو إنه في أحد الألعاب الهوائية.

اقترب القفص في الفضاء البارد وهو يتوسط الموقد ثم هبط إلى مسافة محدودة فبان عيدو بملابس برتقالية شعّت عليه فبدا أكبر سناً مما كان عليه بملابسه الرثة.

نظر إلى الجميع وهو يدور حول القفص الذي توقف فيما كان بعض العاملين يفتحون بعض الكوى الصغيرة في الحطب المتراكم ويغذونه بالبنزين والنفط للتغلب على رطوبة الخشب الناقع بالمطر فاختلطت الروائح وبدا ان امراً جللاً سيقع بعد لحظات.

قال سالار وصوته مختنق بنشيج مكتوم:

- نهاية ليست معقولة لرجل ساذج ومجنون.
- كل شيء هنا يصبح معقولاً يا أخي.

ثم قلت بحماسة:

- لكن سيموت عيدو كرجل. مجنون بآمر في ديوان الحسبة وهذا شرفه.
- لكنها ميتة بشعة..

قلت بحماسة زائدة وقلبي يرتعش:

- الشجعان هكذا يموتون..

يدور عيدو في القفص الذي عكست بدلته البرتقالية عتمة النهار المثقل بالغيوم فبدا كلوحة شاخصة في سماء تتحرك ببطء وهو ينظر للجميع من دون أن يرى المحرقة تحته قبل أن تشتعل.

كان يلوّح بعصاه مبتسماً ويحاول من أن يمد رأسه من فتحات القفص الضيقة.

كان الفتى يقتنص عيدو المحلّق في القفص ويوجه عدسة موبايله اليه ويقرّب شكله البرتقالي الجديد وهو يريني بين فترة وأخرى الوجه المحفور بالزمن والمغطى

بلحية قديمة منذ معركة نهر جاسم وحتى اليوم. ثلاثون سنة في طاحونة الحياة المريرة.

دبّت حركة نشيطة أحاطت بالمحرقة مثلما اشتد المطر المتوقع، وبدا الهم يسارعون لإيقاد تل الخشب والجذوع بعدما أغرقوه بالنفط والبنزين، فتقدم أكثر من شخص يحملون المشاعل الطويلة. فأوقدوا رؤوسها المخروطية بمقادح أشعلتها على الفور. وكبروا ثلاث تكبيرات وهم يرمون المشاعل على التل الخشبي العالي، فأشتعلت النيران فيه فجأة كما لو كانت مختبئة في داخله.

انهمر المطر غزيراً ودنت غيوم داكنة شكّلت طبقة ماطرة بقوة، غير ان النار تعالت وانبعث منها صرير مخيف وهي تفتح أجنحتها على اتساع المحرقة، فيما بدأت الرافعة تُنْزل القفص ببطء إلى قمة التل الخشبي الذي تكافح ألْسنتهُ تدفق المطر الهاطل فتلتوي كثيراً ثم تنبعث وتلتوي، لكن ظل القفص العاري ينزل ببطء قاتل من ذراع الرافعة.

صدرت اصوات لا إرادية وحسرات حارقة وهامس الحشد وانبعثت استغفارات وهسهسات وجمل مبتورة، فيما كان عيدو يدور في القفص وهو ينظر إلى الجميع من كل اتجاه ويرى وجوههم المحدقة به، ومن تحته تماماً بدأ يتحسس النار التي وقف القفص فوقها تماماً. لكنه ظل ينظر إلى القوس البشري الواقف تحت مطر غزير بملامحه التي يعرفونها من دون أن تصدر منه ردة فعل.

احتمى الفتي بـي تساءل وهو يجهش: سيحرقونه..!

لم تبق مسافة بين أسياخ القفص السفلى وبين النار التي تكافح المطر المنهمر، وكان عيدو الذي هبط كثيراً بقفصه على رأس النيران المتأججة مبللا بالكامل يتكلم مع الآخرين لكن لم يسمعه أحد تحت وطأة اللحظة الفظيعة التي ستأكل النار فيها ملابسه من قدميه وتصعد. كما لو كان يستعيد ذاكرته وهو يرى الوجوه التي فقدت ملامحها وروحها وشخصيتها في هذه اللحظات المربكة التي نسجت موتنا جميعا بطريقة النار.

كان يشير الينا بأصابع يده اليسرى إشارات لا نفهمها وكنا نرى ابتسامة ليست ميتة على كل حال ترتسم على وجهه الذي حافظ على ملامح عيدو التي

نعرفها والتي كنا نبتعد عنها لأسباب بدت الآن واضحة في تشكيل الرجل الأخير في القفص.

بدأت النار تتسلقه من تحت قدميه حينما نزل ذراع الرافعة كثيراً في محاولة الإنتصار على فيض المطر الذي لم تشهده المدينة منذ ايـــام. وفي اللحظـــة الـــتي اختلجت فيها أرواحنا وارتعشت القلوب لهول ما سيحدث واصـــطكت فيهـــا أسناننا وهي تعض على لحظة زمنية مهولة لم نسمع بها من قبل، وفي لحظة مسك النار بأذيال عيدو من تحت القفص وقبل أن تشب في بدلته البرتقالية كلها، شقّ صقرٌ ضخم بلون القهوة يختلط على ريشه بياض ساطع ويقسم ظهره اخضـــرار رمادي، شقّ كتل الغيوم الماطرة وهبط بشكل شاقولي قاطعاً المســـافة بســـرعة صاروخية بينه وبين القفص الذي بدأت النار تحاصره، وفي لحظة توقيت غريبة لا تحدث الا في خيال الموت، وأثناء إمساك النار بأقدام عيدو الواقف وهو يتأمل ما يجري حوله، انفتح القفص من الأعلى وانفتح باب الحديد من فوق رأس عيـــدو وتساقطت اسياخه الصلبة في الموقد.

وبلمح البصر تعلق عيدو بأقدام الصقر الهائج وهو يخطف علـــى رأســـه، فكانت لحظة لا يمكن نسيانها وهي تستغرقنا في عجائبيتها الرهيبة حينمـــا طـــار عيدو وبأذياله نار صغيرة كما لو طرنا معه وطارت سنجار بأسرها إلى السماء.

انسحب عيدو إلى أعلى بقوة صقر مهيب خطفه إلى الســـماء واختـــرق طبقات الغيوم. لحظتها ازدحمت السماء ببروقٍ كثيرة وصخبٍ ورَعـــدٍ أربـــكَ المكان ونحن نتفرق عنه، فيما ظل المطر الغزير ينهمر على قفصٍ فارغ ويتســـرب مندفعاً إلى الموقد الجبار حتى أطفأه تماماً..

كآبة الشرطي

يضيق الليل بي وأتوتر وينهار شكلٌ يومي كنتُ أبنيه بمهارة كلما يدخل الليل إلى مساماتي وينفرش أمامي وأنا أتوجه إلى دار الطين القديمة التي اسميها داري ليعود اسمي دلشاد الأيزيدي مثلما هو قبل خمسة وثلاثين عاماً من الطين.

كما تضيق بي بدلة الشرطة العريضة التي قتلتْ روحي من الداخل وأهانتني على مدار الشهور الطويلة التي مضتْ. لكنها بدلة التقيّة التي حولتني بمرور الوقت إلى كائن آخر أسماه المقبور الأفغاني عبدالحافظ والذي صار شرطياً في ديوان الحسبة في دولة الخلافة.

عندما أدخل دار الطين كأني أدخل فضاء مفتوحاً لكن بعلبة سردين مكبوسة بمهارة. رائحة مضغوطة وزيوت خاثرة وأسرار حدودها الشهيق والزفير؛ لكنه فضاء مفتوح إلى حد ما، أستطيع أن أصرخ به وأبكي ثم أنام نومة طفل مذنب دللته بروشي كثيراً وأحاطته بذراعيها الناعمتين.

النهار يُنسيني الكائن الآخر المتلبس بي والليل يصرخ بالكائن عبدالحافظ المتورط به أن يخرج من جلدي ويتوارى ويموت فلا قدرة لي بعد على تحمل اسمين ودينين وشخصيتين في حضنٍ صغير وضعوا تحته جمراً وأطبقوا عليه من كل اتجاه.

- أنا محاصر. صرت كائنين لا أستطيع أن أستمر يا بروشي. سأفقد عقلي لكل ما أراه ولا أستطيع أن أفعل شيئاً سوى انني محسوب على دولة الخرافة الإسلامية والشنكاليون يعتبروني خائناً لدينهم وأيزيديتهم..

تطمئنني بروشي من إنني أبالغ كثيراً وان هذه الحساسية مفرطة بشكل كبير ولا لزوم لها والشنكاليون يعرفون مَن خانهم في هذه المحنة.. فأصدّقها وأبكي على صدرها البنفسجي.

- يتصورون اننا كائنات نعيش في المكان الخطِأ والزمان الخطأ ونحن زمرة من القرباشية.
- دعهم يتصورون. انهم مجموعات من عصابات استغفلت البلاد في ظرف طائفي صعب.
- بل لديهم شعور إننا بشر نعيش بالغلط على مر التاريخ.
- ولِمَ تزعج نفسك حبيبي.. هذه تصوراتهم ولن تستطيع تغييرها.. انهم مجموعة أوهام لن تصدق حتى نفسها في النهاية.

سكت قليلا وهو يمسك فروة لحيته فيما كانت بروشي تعيد تنظيم نبضها متمهلة وهي تبتسم له:

- أصبحنا مثل الهنود الحمر. إبادة بشتى الطرق والوسائل.. إعتناق دين بالإكراه. قتل جماعي. اغتصاب النساء وبيعهن وإيجارهنّ.. ربما لم تسمعي بدرب الدموع المروّع حينما هجّروا قبائلهم في رحلة طويلة شاقة توفي خلالها الآلاف مرضاً وجوعاً وبرداً.. ألا يشبه واقعنا حينما جعلونا نسلك دروبا من الدموع خارج وداخل الوطن.
- ذلك زمن وظروف.. الحال تغيرت..
- تعرفي ان الأمريكان كانوا يقيمون حفلات تمثيل لسلخ جلود الهنود وجدع انوفهم وآذانهم وان الرئيس الأمريكي القديم كان من عشاق السلخ والتمثيل بالجثث وكان يعرف أعداد القتلى بعدد أنوفهم المقطوعة.. تعرفي ان الاسبان جعلوا الأطفال طعاماً لكلابهم والأمريكان يحرقون الهنود أحياءً ويشوونهم على نار خافتة مثلما حصل لـ عيدو!

كانت صامتة وهي تعرف كآبات دلشاد الليلية:

- بل إن الأمر وصل إلى حد التمثيل بفروج النساء ويتباهى الرجل بكثرة فروج النساء التي تزين قبعته..

اقشعرّت ولوت عنقها مشمئزة:

- تعرفي انهم جعلوا من الأعضاء الذكرية للهنود أكياساً للتبغ!

مطت شفتيها وهي لا تتخيل الصورة التي يرسمها دلشاد بحرقة قلب:

حاولت إيقاف تداعياته وامتصاص مرارته:

- هذا قدر يتكرر بين الشعوب المسالمة..
- إنه أكبر من قدر يا عزيزتي..
- لأنهم ربما لم يكونوا على دين.. كانوا شعوباً بدائية.
- كانوا قبائل بسيطة ثيابهم من الشجر.. شعب طيب وبسيط وبدائي ومسالم يشتغل بالزراعة والحصاد.. حتى بيوتهم كانت من أوراق الموز وجلود الحيوانات. كانوا مثلنا عشائر وقبائل متضامنة يعملون ليومهم ولا يفكرون بالغد.. ألا يحق لهم العيش على هذه الأرض وإن كانوا بدائيين؟ وماذا نحن.. ألسنا على دين ونعبد الرب الواحد ولسنا مشركين؟ أليست داعش هي تركيبة تاريخية من الأمريكان والإنكليز والمتطرفين وغوغاء الدين؟

تفتح عطر البنفسج الليلي على رقبتها وتقترب منه وتضمه لتشعر برفيف قلبه يدق في صدرها العاري. يختلج كثيراً ويرتعش جسده فينفر من لحظته البنفسجية التي لا تعرف بروشي غيرها لتوازن أحد الاسمين في قلبها وتغطّي على الآخر الذي لابد منه في ظرف مختلط وعصيب.

- انهم مجموعة لصوص مرضى لا يعرفون شيئاً من التاريخ ولا الجغرافيا ولا الدين.

يجرده الليل من روحه ويعريه كما في كل مرة فيخطف وميضُ بياضِ الحياة التي كانت فيختلط فجأة بسواد الحياة التي جاءت ويذوب البنفسج في ليلة أخرى مثل الثلج، فتذوب بروشي وهي تعالج الليل الطويل الذي يهابه دلشاد كما لو تَبدّل التاريخ الذي درسه وابتكر فيه روح المدينة وهو يعالج شخصيتها ذات يوم ويستقدم في حفريات الكتب تاريخاً قديماً طوته القرون، ليكون فيها فيما بعد شرطياً تابعاً لعجوز لا يعرف من الدنيا غير القتل والتكفير والنيك والمال والرصاص.

- منذ أن أحرقوا عيدو بتلك الطريقة المهينة أحسست إني أحترق معه وروحي تحولت إلى رماد.. أحسست إني خائن وجبان وضعيف.. لست شنكالياً أصيلاً يا بروشي.. أنا قرباشي صغير لا حول لي ولا قوة.. لستُ إنساناً.. إني أندثر يا بروشي.

في كل مرة تدفع له الولدين الصغيرين لكي يتبدد الوقت بالطفولة حتى لحظة البنفسج المثيرة، لكنه بدأ يختار آخر الليل منذ أيام ويقبض على نفسه بطريقة مؤذية، فتفيض بروشي بالرعب وتنتابها شكوك وأسئلة ووساوس، لكنها تضخ الكثير من البنفسج على عنقها وصدرها وتغيّر الأثواب الشفافة وألوانها وتفتح الليل بشهوة الأنثى التي تعالج دلشادها المتوزع بين حالتين واسمين ومدينة واحدة من الطين على مر تاريخها..

أشعر بالكآبة يا بروشي. حزين وضعيف يا زوجتي العزيزة.. شنكال في قبضة هؤلاء وكل يوم يعصرونها مثل البرتقالة حتى نشفت. لم تبق غير قشرتها الصفراء تكابد الوقت ودورة فصول الغبار عليها.

أشبال الخليفة

يبالغ في غضبه دائماً بسبب اللغة ويتحول إلى كائن غريب يترجم كل شيء بالفوضى والقسوة والصياح. وكلما يجد نفسه محاصراً وينعقد لسانه يتحول إلى قاتل ببساطة فهو الحالة الأكثر سهولة في ضبط اللغة بداخله.

يرتبك الفتى.

يراقب غرابته كثيراً حينما يلجأ إلى الصمت المطبق في احيان كثيرة لكن بنتيجة متشابهة في تحوله إلى قاتل أيضاً.

يكلم الفتى نفسه.

في مصادفات أكثر يكون لسانُه رصاصَ بندقيته حينما يجد لسانه أعجمياً عاجزاً عن أن ينطق إلا بلغته التي لا يفهمها أحد غيره؛ فيلجأ إلى حافظته القرآنية التي لا يفهمها الاخرون كثيراً في جو محموم يفترعه الغضب والألم والمجهول.

الفتى لا يحلل هذه الشخصية لكن العم سربست قال مرة الهم مرضى دِين وهم أكثر خطورة من المجانين بل وحتى أكثر خطورة من القتلة..!

بهاجس فطري يتجنبه في غالبية الوقت. تعلم ذلك مصادفة قبل أن يكون خادماً في بيوته الكثيرة ويكون قريباً منه ومن مزاجه المتقلب. ربما علمته الصدمة الأولى أن يتجنب ذلك. فالشيشاني هو أحد أقطاب المأساة والصدمة في مدينته والذي سمع عن قسوته الكثير التي تفوق قسوة الوالي ابراهيم كرمان المقتول بغارة جوية ووعد السلامي ومرعيد غضوي وحجي خان الأفغاني والسهودي الذبّاح والغزاوي الفلسطيني وأبو سفيان وغيرهم.

جئناكم بالذبح.. يرددها الشيشاني بعربية قرآنية سليمة لا غبار عليها بل ويغنيها احياناً ويترنم بها..!

يعرف ايضا: أنتم كفرة..

مرة طمأن العم سالار وهو يتسوق منه صناديق الفاكهة: كَوني خادماً عنده فلا أسأل ولا أفعل إلا ما يأمرنا به نحن مجموعة الخدم الشخصي أو حينما يأمرنا مساعده المصري الذي يبالغ في غضبه أيضاً مع اننا نفهم ما يقول.

فيرد عليه العم سالار ببساطة: هذه طريقة المنتصر الخسران يا ابني. انه يحول الانتصار الكاذب إلى فوضى وموت وقتل ودماء لأنه يعرف إنه سيخرج مهما طال الزمن بهم.. لكن كن حذراً وشجاعاً..

يروي الفتى:

مساعده المصري الذي يحشر نفسه عادة؛ مستغلاً ضعف قائده اللغوي؛ ينوب عنه في الشرح والتأويل والتخويف وكثيراً ما وجدناه نسخة مطابقة للشيشاني لكن بشكل عربي ولهجة سمعناها في الأفلام المصرية. بل أحياناً يكون أكثر قسوة من هذا فيبدو بلحيته المسترسلة التي تهتز مع وجهه وشاربه المحفوف كأنه حشرة كبيرة.

مرة قلت له أنا مسلم. فرد بعصبية لكنك 18 سنة عشت وأهلك مع الكفّار.. فأسكت لأنه لا يريد أن يفهم اننا مسلمون ووجودنا في سنجار وجود طبيعي في الوطن منذ زمن طويل.

أمس ركبنا مبكرين في سيارة بيك آب وتبعنا سيارته في جو بارد ومياه تملأ الشوارع إلى مدرسة أشبال الخليفة التي كنت أسمع بها وكنت أخشاها بصراحة ولم أقل للعم آزاد حتى لا ينشغل باله ويحد من حركتي في سنجار لكني اطمأننت حينما عرفت ان عمري أكبر من هؤلاء الأشبال ولا يمكن تسويقي اليها، وهي مدرسة مخصصة للأعمار الصغيرة من الأولاد الذين خطفوهم في اول أيام الغزو أو فرقوهم عن آبائهم وأمهاتهم.

خرجنا من المدينة باتجاه الجنوب وكانت البيوتات المهجورة تتراجع خلفنا حتى اقتفت السيارة آثار طين وبلل ومستنقعات صغيرة ثم عبرت شوارع فرعية واستقامت في نهاية الأمر امام خلاء يقع خلف المدينة. مساحة جرداء تقريباً مغطاة بأشواك العاقول اليابسة.

سألت أحد الخدم الذين معي وهو عراقي من الموصل:

- اتعرف شيئاً عن المكان الذي نحن ذاهبون اليه؟
- جئت قبل شهر إلى هنا.. اعتقد اليوم يوم التطبيق الإسلامي..
- لم أفهم.
- ستفهم بعد قليل.
- لا تخليها لغز.. ماذا سيحدث؟

ترجل من سيارته الرباعية السوداء فاستقبله مجاهدون لا اعرفهم ولم أسمع بهم. وكانوا كلهم يرتدون الثياب العسكرية الخاكية.

ساحة مكشوفة في الخلاء لكنها مطوقة بسواتر حربية واكياس جنفاص ونقاط رصد من جهاتها الأربع.

- ما أخبارك يا أخ الإسلام؟
- كل شيء على مايرام.. وهؤلاء الأشبال أتموا دورتهم القتالية بدرجة جيدة.

قال الفلسطيني بثقة واعتداد وهو يشير إلى مجموعات من الصغار منتظمين في مربعات مفتوحة، واقفين بطريقة عسكرية واضحة. يرتدون الزي الأسود كلهم وجباههم ملفوفة بقطع سوداء مكتوب عليها بالأبيض: لا إله الا الله محمد رسول الله..

قال الغزاوي:

- طبعا اتموا دورتهم التعليمية وتعرفوا على الإسلام الصحيح.. تلقين جيد واستيعاب جيد..
- هل تعلموا القتال والرمي والجهاد في سبيل الله؟

تساءل الشيشاني..

- اليوم يوم التطبيق العملي الحي على القتل وسترى بعينك يا مجاهد..

أعطى الفلسطيني إلى مساعديه العلامة بتهيئة الأشبال للتطبيق الذي تمرنوا عليه خلال الفترة الماضية بإشارته إلى ميدان الرمي المبلل بالماء.

مشت صفوف الصغار إلى جهة وراءها فراغ وصمت وأقعوا في الطين مثل الأرانب الصغيرة التي تنتظر مروضها..

تحركت إحدى السيارات المظللة التي كانت واقفة واقتربت من موضع الرمي وتوقفت..

نزل منها شخصان يقودان أسيراً مقيد اليدين إلى الوراء، كبير السن، انغرزت في وجهه لحية بيضاء وبدا عجوزاً نحيلاً اكثر من اللازم.

كانت نظراته شاردة وهو يحدق بالصغار الجالسين. اقتاده الشخصان إلى مكان مرتفع نسبياً تقف عليه لوحتان متوازيتان. فربطوا كل يد بلوحة مثلما ربطوا ساقيه في نهايتي اللوحتين، فأفردوا جسده وبدا كمن هو مستعد للتحليق.

اصطف القادة إلى يمين ويسار الشيشاني ينتظرون أوامر الفلسطيني الذي طلب من الأشبال الوقوف والاقتراب من العجوز..

هيأ نفسه للكلام:

بسم الله الرحمن الرحيم..

"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المصير"

يا أشبال الإسلام.. قلنا لكم في الأيام الماضية إنّ مَن يرتد عن دين الله فهو كافر وشرحنا لكم كيف هو غضب الله سبحانه وتعالى على مثل هؤلاء المشركين وشرحنا لكم إنّ جزاء الكافر والمشرك بالله تعالى هو الصلب والقتل وطبقنا هذا بشكل سريع أمامكم على أحد الخارجين عن شرع الله.

قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم: من بدل دينه فاقتلوه... وهذه إجازة صريحة لا تتحمل التأويل ولا التفكير بغير هذه العقوبة المحمدية المستوحاة من الله سبحانه وتعالى.

نظر إلى وجوه الصغار التي تطالعه بصمت وأكمل:

- هذا حكم المرتد عند جمهور المسلمين، فمن ثبتت ردته عن الإسلام وتمت إدانته بإعلانه بالردة فقد أصبح عضواً فاسداً يجب بتره من جسم المجتمع..

نظر إلى العجوز المصلوب على عارضته وقال بصوت عال:

- هذا الأيزيدي المرتد دخل الإسلام العظيم وشهد ان لا إله إلا الله وإنّ محمداً رسول الله.. غير إن مجاهدينا من سرايا الحسبة راقبوه بعد إسلامه فوجدوه مرتداً عن الدين الإسلامي. فقد كان يمارس الشرك بالله ويعبد الشمس والطاووس ويشتم خليفتنا ابو بكر البغدادي رضي الله عنه.

ركز في أنظار الصغار وقال بثبات:

- لذا استحق العقاب الإلهي هذا الأيزيدي المرتد المشرك الكافر.. وهو القتل حتى لا يفسد المجتمع بكفره وشركه..

اعطى اوامره للأشبال الصغار فنهضت مجاميعهم الصغيرة ووقفت ممتثلة وكل العيون الصغيرة تحدق بالعجوز المستسلم على لوحته:

- مَن يقتل هذا المرتد يا أشبال الإسلام؟

ارتفعت الأكف والأصابع كلها كأعلام صغيرة ترفرف فوق الرؤوس.

- سنختار من كل سرية واحداً منكم.. على أن تأتي أدوار البقية إلى كفرة آخرين..

تم اختيار ستة أشبال بأطوال متساوية تقريباً. هبّوا إلى العارضة ووقفوا أمام العجوز بخط ينحني طرفاه عليه وعيونهم مستقرة. كانوا صغاراً جداً بالكاد يسحبون أجسادهم المثقلة بالملابس القتالية.

وزع عليهم الغزاوي ست مسدسات مسحوبة الطلقات وطلب منهم توجيهها إلى العجوز بانتظار الإشارة.

وكتنظيم احترازي وقف وراء الأشبال بعض المقاتلين لتوجيههم وأعطوا لكل واحد تصويبة هدف على جزء من جسد العجوز المحلّق على عارضته فامتدت أيديهم مستقيمة باتجاه الهدف الصامت حتى أعلن الغزاوي:

- الله أكبر.. أطلق النار..

دوّت خمس رصاصات فيما تلكأت واحدة بيد شبل لكن المقاتل الذي خلفه عالج الحالة بشكل سريع فانطلقت الرصاصة السادسة على جسد مات قبل لحظات فنفرت دماء قليلة من جبهته حتى قدميه الحافيتين ثم ترسب مستنقع صغير من دم اسودّ بعد لحظات.

هفيدار

عبرت الطارمة وهي تفتح الباب لآزاد بعد إن عرفت طرقته الخفيفة.

- أهلا أخي آزاد افتقدتك يا رجل.
- انت امرأة لا تُنسى.
- ربــــي يحفظك.

دخل إلى دفء البيت وشم رائحته التي اعتادها.

كانت الحامل تتحرك بين المطبخ والصالة وغرفة النـــوم. سمعهـــا تحـــادث العجوز ثم تجلب لها بعض الطعام والماء ثم تسحبها إلى الحمّام وتقضي معها وقتا غير قصير وتعيدها بثوب أبيض جديد إلى غرفة نومها.

انسدلت العتمة على الصالة وكان آزاد يسترخي وفي رأسه طنين كل يومٍ ورؤى ما يجري في المدينة شبه الفارغة. وكان يستعيد بعض الوجوه التي يصادفها ويقزّها في مخيلته، ثم يبعدها ويأتي بوجوهٍ ملبّدة بالشر يراها في رجـــال الحســـبة والمصلين ومن الذين يتخاطفون في الشوارع والأزقة والسوق من مسلمي الخلايا التي كانت نائمة؛ فأيقن ان اسمه القديم نُسي وإن صورة الرجل الأربعـــيني الـــتي كانت تتخاطر في شنكال ضاعت مع الصور الكثيرة لرجال دُفنوا احياءً أو موتى في كل مكان وقرية. ومَن بقي تغير شكله ولونه وطعمه ورائحته وعقله وقلبـــه وفصيلة دمه.

ربما كان عيدو رجل الضراط الهامشي وحده من بقي في المشهد الأخـــير متصالحاً مع ذاته كما هو منذ إن عاد من البصرة بنصف عقل. لكنه ظل يحارب هؤلاء بطريقته الغامضة وربما المكشوفة حتى أحرقوه حينما تـــوارى الآخـــرون منسحبين إلى بؤس الحال والحالة بشكلها العام..

خرقت الصمتَ طرقتان خفيفتان على الباب فتحركت الحامل تحت ستار عتمة كاملة تدبّ على مهلها متفادية أي شيء قد تدوسه وهي متجهة إلى الطارمة.

سمع آزاد صوت الشرطي دلشاد وهو يعتذر عن المجيء في غير موعد وفي وقت الليل.

أدخل معه باقة من الحطب من قطع أخشاب وأغصان تين يابسة ومساطر خشبية لصناديق فاكهة.

- كنت أعرف انكم بلا حطب.

شكرته الحامل واستقبله آزاد بلطف وقلق أيضاً فرائحة الشرطة تقرفه وتبعث فيه التوجس. غير ان لدلشاد الغامض وضعه الخاص على ما يبدو.. جاء بدشداشة بيضاء ويغلف جسده بسترة صوفية فظهر كائن آخر أكثر مقبولية من ملابس النهار التي يتحول بها:

جلس على البساط وهو يقول:

- بحثت في السوق عن شموع لكنها شحيحة جداً. قال لي أحد الباعة أنت تبحث عن معجزة.. قلت له ولو شمعة واحدة يا عم.. قال لي أعطيك أصابعي تشعلها ولا تسألني عن ربع شمعة..

ضحك وبدا كأنه بلحية اصطناعية كما فكر آزاد.

أدخل آزاد بعض قطع الأخشاب وكومها على بعضها بطريقة مثلثة ودس فيها بعض أوراق المنشأ المقصوصة التي كانت تغلف الأخشاب وأشعلها تحت الخشب الخفيف فانبجس دخان ثم نفخ اسفل جذر الدخان فأخذت نارٌ صغيرة تولد من تحت الكومة، وانكشفت الوجوه الثلاثة وتحركت عليها الظلال منعكسة على الصالة التي توردت بالإضاءة القلقة.

ظل آزاد يديم النظر اليها صافناً، فيما نهضت المرأة إلى المطبخ ومد دلشاد يديه على لهبها.

- كيف حال الأولاد؟

تساءل آزاد وهو يمعن عينيه في النار التي شبّت في الأخشاب الصغيرة وهي تطقطق ناثرة شراراً صغيراً بين لحظة وأخرى.

- محاصرون في البيت وأمهم تتعب معهم. اطفال لا يعرفون ما نحن فيه..

عادت المرأة بصينية صغيرة عليها شاي وكمشة نعناع وجلست على كرسي قريب من الموقد الصغير.

قالت الحامل وهي ترفع كوب الشاي:

- شرفتنا يا أخ دلشاد.. كيف حال بروشي؟
- بخير. مسجونة في البيت وبالكاد تشم الهواء.
- لو بيدهم لسرقوا حتى الهواء..

قالت الحامل ممتعضة.

هز دلشاد رأسه وسأل. آزاد:

- ما هي أخبار الفتى..؟
- لا شيء. لا اعرف عنه شيئاً.

قال دلشاد بثقة:

- أخبار القائد الشيشاني راح إلى حلب وبقي الفتى مع جماعة الحماية في الموصل.. لا شك ان الأوامر اقتضت بقاءهم هناك.. ربما يعود القائد للموصل وربما يطلبهم إلى حلب.. انهم خلية نحل يتحركون بنشاط فظيع.
- واضح انهم يتحركون بهمّة.. منظّمون بطريقة عسكرية لا جدال فيها.

مد دلشاد يده إلى جيبه وهو يقول:

- هفيدار.. انتحرت اليوم!

التفت اليه آزاد. وتساءلت الحامل:

- منو هفيدار..!
- شابة اسيرة من كوجو... هربت وجابوها
- كيف انتحرت!
- صوّرها وهي معلقة على شبّاك الدار..

ظل آزاد يديم النظر إلى النار الصغيرة المنبثقة من الحطب فيما فتح دلشاد موبايله فأنار وجهه وعرض الصور على آزاد الذي نزع نظارته وبدأ يقلّبها فرفّ قلبه وهو يرى الضحية معلقة من رقبتها كما لو قذفت نفسها من الشباك فسحبها الحبلُ من رقبتها وأبقاها متدلية.

الصور تتكرر بلقطة ثابتة ومن زوايا كثيرة وصور أخرى لجمهرة ناس يحدقون بالفتاة المشنوقة.

اختلج قلبه وهو يقرّب احدى الصور كما لو يريد ان يرى ملامح الفتاة المخنوقة بحبلها. كانت صغيرة بثوب ابيض تراءى له كفناً غطاها في لحظة الموت المعلّق.

كانت الحامل تتساءل من جديد.. ما اسمها؟

وكان دلشاد يتهجى اسمها: هفيـــ داااار..

اقتربت الحامل أكثر من آزاد الذي وضع شاشة الموبايل أمام عينيه ثم كبّر اللقطة للفتاة المشنوقة. كانت عيناها ثابتتين على الصورة وهي تفحص اللقطة باهتمام حتى بدا وكأنه تجمد للحظات قبل أن تنطق:

- مسكينة هفيدار. يرحمك خودا ويغفر لك..
- تعرفينها..!
- اعرفها. هربت أكثر من مرة وقبضوا عليها.

أعادت النظر إلى الصور الأخرى وتأكدت:

- انها هي.. بقيت عندي بضعة أيام متخفية مع سيدة وبنت.. ثم خرجن في ليلة باردة وقلن سيهربن إلى الجبل ويلتحقن بالمخيمات..

تحول الموقد إلى جمر وخفتت روح النار فيه. غير أن الحامل كانت تخرج إلى الطارمة الباردة بين فترة وأخرى لتجلب بعض الأخشاب وتلقم الموقد فتنبعث الحياة فيه لتعود الإضاءة من جديد على الوجوه الثلاثة وتلتقي الأيدي على اللهب الحار.

مطت الحامل شفتيها:

- كانت خائفة كل الأيام. بنت مسكينة. حكت لي عن اغتصابها بمرارة من قبل أمير شيشاني. كان هروبها صعبا حتى ألقي القبض عليها لكنها هربت مرة ثانية ومسكوها من جديد..

تساءل آزاد وهو يسحب يديه من اللهب المتصاعد:

- أتذكرين اسم السيدة التي معها..؟

نظرت الحامل إلى عينيه:

- اذكر اسم الفتاة الثانية التي كانت معها.. اسمها هينار.. اما السيدة فكانت ذات وجه نوراني أبيض.. لم أسألها عن اسمها.. كانت مصابة.. كانت تتألم كثيراً..

عاد اليه الجبل بجوه الماطر ويوم اللقاء الصعب الذي بثّ فيه كل تحولاته وانقلاباته وقناعاته السابقة.. أنت تكفر يا أخي..

قال آزاد:

- أظن عذبوها أكثر مما يجب...

عاودت النظر اليه وأكملت:

- .. وأي عذاب...!

هز رأسه وما يزال مطر الجبل يصطفق بذاكرته:

- ختنوها رغماً عنها بطريقة بدائية متوحشة..

قال دلشاد:

- من أجل هذا جئت. اظنكما تعرفالها.. مسكينة..

شبكت الحامل عينيها بعيني آزاد وتساءلت:

- أتعرف تلك السيدة؟

هز رأسه وتأفف:

- هفيدار لا أعرفها.. أما السيدة ذات الوجه النوراني الأبيض فأعرفها حق المعرفة..

صمت قليلاً. نظر دلشاد اليه. نظرت الحامل اليه.

قال آزاد بألم:

- انها الراهبة نالين.. أخت الآخرة..[1]

(1) اخت الآخرة / أخ الآخرة وتسمى الأخت الأبدية / الأخ الأبدي هي فرض من الفرائض الحقيقية الخمس عند الأيزيديين (شيخ وبير وهوستا ومرابـــي وبرا أو خوشكا اخرتي) أي يجب أن يكون لكل شخص أيزيدي الفــرائض الخمـــس المذكورة.
الأخ/ت الأبدي/ة يجب ان يكونوا من طبقة الشيخ وأحياناً البير أي لا يجوز أن يكونوا من طبقة المريد.. وهذه الفريضة تعني أن هذا الشخص الذي هو اخ/ت هو الشفيع عند الله أي من يحمل الذنوب ويحاول طلب المغفرة في الآخرة.
لا يجوز لأخت الآخرة أن تتزوج أخ الآخرة وبالعكس وأوجب العرف أن تكون الأخت الأبدية حاضرة عند تغسيل من اختارها عند وفاته وتقوم بقراءة الأدعية والصلوات.
أما الراهبات من النساء فهو عمل تطوعي لخدمة معبد الشيخ عدي بن مسافر مع البابا جاويش، وهؤلاء النسوة يحرم عليهن الزواج أو الزينة، ويقمن بخدمة المعبد والبابا جاويش والمساهمة في جني الزيتون وخزنه كما يقمن بعمل فتائل المصابيح الزيتية التي تضيء المعبد المقدس ويشرفن على اشعاله وإطفائه، ويمكـــن اعتبـــار النسوة المتفرغات لهذا العمل من الزاهدات والمتصوفات ممن تركن خدمة الـــدنيا وهن أشبه بالراهبات في الأديرة المسيحية.

أنا الراهبة نالين..
أخت الآخِرة

إسراء ومعراج

عندما تنتهي هذه الحرب
سأخبر أمي:
بأنني أحببتُ إمرأةٍ في المخيمِ
كانت تصنع من هائل الحزنِ
ابتسامة،
ومنِ الألمِ قصيدةً،
إمرأة لم تكتب الشعرَ يوماً، لكنها شاعرة!

سرمد سليم - شاعر ايزيدي

قبلَ ساعةٍ عاد يجرُّ جسده المتهالك من مركز المهجّرين في "دهوك" ببقايا أمل صغير يعتمل في روحه كان أشبه بالحمل الكاذب. لكنه فتح له أفقاً جديداً من الانتظار الطويل وطمْأنَ فيه أبوّةً تتلاشى في كل لحظة، ليقف من جديد على انتظارات أخرى تسحقه كشيء منسي في المخيم الشمعي أو على الجبل الذي يطلّ على الحياة الهاربة ببرده اللاذع.

توكّأ على الفتى بيساره وهو يهمّ بالنزول من الجبل وكانت عصاه السوداء الرفيعة تتقدم خطواته البطيئة بيمينه تنقر الصخور المعشبة وتفرم السراخس الزاحفة أمامه، فيما كان رأسه منشغلاً بالحدث الجلل الذي شاع بين أهالي المخيم.

تساءل وهو في ذروة القلق: تعتقد نشتُمان معهنّ..؟

يمسك الفتى بيد الرجل وهو يهبط معه سفحاً تغطيه أعشاب الخرنوف ووُريدات ملونة تريد أن تخرج من بين فجوات الصخور.

بلهجة حائرة ينطق الفتى:

- ان شاء الله..

عاد بأملٍ محتضر بعدما تخيّل فتيات العار منقبضات في القاعة ببطونٍ منتفخة وعيون يملأها الخجل والذل والذعر. والناس من حولهنّ تحمل العصي والسكاكين والبنادق المسروقة من الجيش الهارب. فيما قبعت صغيرته في ركنٍ معتم تنتظره، مذعورة، مستسلمة لحُبّ عمره أربع عشرة سنة قضى أن يكون في نهاية الأمر حباً خارج الحياة شوهته ثمانية شهور من العُري والاغتصاب.

لم يرَ صبايا الحمل اللواتي أعادهنّ دولة الخلافة في صفقةٍ غير مفهومة له. قرأ القائمة عشرات المرات من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى؛ فاختلطت الشكوك عليه في عصفٍ من صداعٍ كاد يطيح به في قاعة الانتظار، وفي داخله تناقض متداخل كالذي يسقي شفتيه من سراب ويرتوي ثم يمضي باطمئنان. لكنه، مع السراب المحتمل، ظلّ منقاداً وراء هاجس غامض من إنّ صغيرته في مكانِ ما لا يستطيع أن يتخيله بالضبط، سوى أن يتخيلها تناديه في كل لحظة وتبكي.. بابو

بالكاد حملته عصاه الرفيعة وساعده الفتى الذي لا يفارقه على الجبل في عزلته الرمادية بعد إن بكُر صباحاً منكمش القلب إلى مركز المدينة، تاركاً المكان المطل على **مخيم إيسيان** عابراً المرتفع المتعرج الأجرد الطويل حتى الشارع العام في نزول طويل ارهقه، وقلبه لا يكف عن الإضطراب حتى خُيّل له إنه سيتوقف في أية لحظة.

ليست الأخبار بعيدة عنه، فالصبيان والفتيان الكثيرون يتجولون على الجبل كل النهار. يصطادون طيور السمّان والقبج ويبحثون عن بيوضها بين أعشاب الخرنوف والأخاديد التي كونتها الامطار والنياسم المغمورة بزواحف الأعشاب الكثيفة، والفتى معهم يطرد من ذاكرته فقدان أهله في الصيد السريع وتتبع آثار الطرائد من الطيور الصغيرة والفراشات التي تشبه الأزهار الطائرة.

أخبره الفتى إنّ داعش أطلقت سراح بعض الأسيرات الصغيرات وهنّ حوامل في شهرهنّ الأخير وإن الأهالي هرعوا لتفقد صبيّاهم المخطوفات منذ ثمانية أشهر مهما كان العار الذي يجلبنه معهن مثلما سمع في الكمب.

حمله جسده النحيف إلى المدينة، وبين الجموع الباكية والمتلهفة كانت روحه تنبض بخوف. ينكمش جسده مع الأجساد المتزاحمة في قاعة المركز والفتى يثبّت قامته ويرجوه أن يهدأ..

وجد نفسه في اللحظة الحرجة التي لا يتوقعها. لحظة الموت البطيء على شرفة الأمل الأخير.. وحيدتي الصغيرة هل اغتصبوك.. أية لعنة وضعوكَ فيها يا سربست. أي قدر أسود أنتَ فيه. يا خودا ارحمني.

لا يستطيع أن ينحشر مع الناس المتزاحمين الذين هبّوا من مخيمات شاريا وباعذرا وإيسيان وخانكي وسرسنك. روائح متشابهة لأنفاس لاهثة وبرد واحد يشلُّ الأوصال وذهول مشترَك وهمهمات مخيفة تشعره بكآبة الحياة وغدرها في منظر فيلمي لا يريد أن يستوعبه في الحال، غير إنّ عليه أن يكون ضمن الجوقة التائهة في فيلم الضياع الكبير.

رجال الأسايش يفرضون النظام ويوجّهون تعليماتهم للأمهات والآباء ويطالبون بالهدوء لحين ظهور قوائم الأسيرات العائدات.. رجل بزي كردي رسمي يدخل القاعة ناظراً إلى الجموع الملتمّة على بعضها والمحشورة في علبة القاعة التي لم تعد تستوعب كل هذا الألم.. ربما عرفه الكثيرون فهو رجل تلفزيوني معروف في كردستان يظهر في هكذا مناسبات كإنه المنقذ الأخير..

تمكن الرجل التلفزيوني من ضبط الفوضى وهو يخاطب الأهالي مباشرة: داعش أطلقت سراح عدداً من البنات الأيزيديات بهدف مقصود عليكم أن تعرفونه أولا.. القصد منه زيادة معاناتكم وإشعاركم بنجاسته ووحشيته.. كلاب داعش تريد إذلالكم وإذلالنا نحن الكرد بهذه الفعلة التي لا يرضاها خُودا ولا أنبياؤه ورسله ولا كتبه المقدسة..

حينما استتب الصمت إلى حد معين عاد رجل التلفزيون يواصل حديثه:

البنات تحت الرقابة الطبية والعناية النفسية لبعض الوقت. علينا تأهيلهنّ قبل أن تروهنّ.. سنضع قائمة بأسماء بناتكم العائدات من الأسر وعليكم التريث في كل شيء فهذا هو القدر..

يقدّر الرجل التلفزيوني حزن العيون التي تطالعه ويرى بكاءها الصامت ولوعتها:

الهدوء رجاء.. البكاء لا ينفع بشيء.. للأسف نبلغكم بأن كلاب داعش اغتصبوا الصبايا وجعلوهنّ زوجات متعة بالقسر وأدخلوهنّ الإسلام بالقوة ومارسوا معهنّ الوحشية بكل أنواعها وأرجَعوهنّ بتوقيت مقصود ليضعنَ أطفالهنّ أمام أعينكم..

توقف لحظة وهو يستقبل ردود الأفعال الصامتة التي يستشعرها بحس أمني:

- هي حرب نفسية صعبة عليكم وعليهنّ وعلينا.. تقبّلوا الحقيقة المريرة.. كل العائدات من الأسر هنّ حوامل.. البنات لا ذنب لهنّ.. البنات خائفات ومذعورات من العواقب.. كونوا على قدر الكارثة لكن هوّنوا منها.. هذا قدر وامتحان من الله فهو الرحمن بكم والرحيم بهنّ..

شعر رجل التلفزيون إنه غير قادر أن يوصِل أفكاره أكثر مما قاله بوضوح. فالموقف أشعره بفداحة الخسارة النفسية والأخلاقية وهو يتملّى الوجوه المحفورة بالألم، لكنه أعاد إن عناصر دولة الخلافة مجرمون لا علاقة لهم بالإسلام وإن البنات الأسيرات العائدات هنّ تحت المعاينة النفسية والطبية وإنّ بعضهنّ سيخضعن للعلاج خارج الإقليم وإن المسؤولين سيضعون قائمة مستنسخة في أركان القاعة، ثم طالب بالهدوء عادّاً هذا قضاءً وقدراً لكن ما حصل ترفضه السماء والشرائع والأخلاق والأديان.. وشدّد على إنّ الصبايا حوامل وسيضعن أطفالهن في نهاية الشهر ولا مجال لإجهاضهنّ.

مع كل كلمة كانت تنفرط فيه نبضة أمل ويتراخى جسده على عكازته الرفيعة وتذوب روحه كشمعة تتآكل بصمت وهو يستمع إلى خطاب التهدئة من رجل التلفزيون الشهير، فيزداد نبضه اشتعالاً ويرتعد جسده الضامر، فيما الفتى تدمع عيناه وهو يريد أن يستوعب فداحة الأمر وحجم الرعب الذي فيه صبايا مدينته وجاراته ومدرسته.

حامل؟ إنها صغيرة وجميلة مثل الدمية، كيف تحمل الدمية؟ انتصروا عليّ بكِ. أذلّوني إلى النهاية... أعادوكِ حاملاً... ههه!

في المركز التقى وجوهاً كئيبة بعيون باكية ونفوس محطمة صارخة تزدحم على قوائم ورقية ملصقة على سبورات تحوي اسماء اكثر من خمس وعشرين صبية في طور الولادة. فيما كانت عناصر من الأسايش تطوق المكان فتضفي عليه هيبة رسمية محاوِلَة أن توقِف اللغط والفوضى المستشرية بين الأهالي الذين اكتظ المركز بهم بعد سماع الخطاب التلفزيوني برجله الكردي. فيما توالى وصول شخصيات بأزياء عسكرية ومدنية أخرى بما يعظّم الحالة ويعطيها أهمية قصوى، وهو الأمر الذي أخذ يحزُّ فيه ويشرخ توازنه ويعيد الكثير من صورها في رأسه.

يتخيلها أماً صغيرة ببطن منتفخة تنوء بحملها. يتخيلها شاحبة وجائعة وتبكي. يتخيلها تتنفس بصعوبة تحت حيوان داعشي يبرك بكرشه عليها فتشمئز من رائحته العفنة. يتخيلها مفرطة بالسمنة بسبب لقيط مجهول الأب. لعنة الله عليكم يا أولاد الزنا وابناء العاهرات.. يتمتم بلا صوت وترتجف شفتاه على مدار الوقت كعجوز يتهيأ للفظ أنفاسه الأخيرة.

عادت صبايانا حوامل بأطفال داعشيين... أية أجيال لقيطة ستنشأ يا خودا! أي دين يتحمل مثل هذا العار الجماعي يا ملك طاووس! يا خودا ماذا فعلتَ بنا...!

يتلقف من اللغط الدائر حوله كلاماً مرتبكاً كثيراً:

- مع شهر الولادة أطلق الكلاب سراحَهنّ..
- هل هذا صحيح!
- قصدهم أن نرى العار أمامنا
- ابناء قحاب. اسلام سز.. الله ينتقم منهم.
- خودا ينتقم منهم.. ومن الحكومة العميلة.
- المالكي باعنا بسعرٍ رخيص..
- مجلس النواب كله عملاء من اليمين واليسار..
- النائبة فيان بكت في التلفزيون امام العالم لهذه المصيبة.
- كأننا لسنا في وطننا العراق.
- هذه اول مرة أشعر إني لست في وطني.

توقف الزمن في روحه واصطكّ رأسه بصداع عنيف وتحلّب في ريقه سائلٌ مُر أشعره بالغثيان وهو يتداخل مع الأهالي لقراءة أسماء الصبايا الأسيرات العائدات على لوحة سوداء غطتها الرؤوس المحشورة لنساء ورجال وفتيان..

ساعده رجل أمن بتقريبه إلى اللوحة وساعده على قراءة الأسماء..

- ما اسم ابنتك؟
- نشتُمان.. نشتُمان سربست.. من سنجار.

قرأ الشرطي الأسماء بصوت مسموع.. بهار.. خناف.. نافين.. منجي.. تعلي.. پوري.. باران.. گوري.. عايدة.. بريفان.. نرجس..

- لا يوجد اسم ابنتك!
- ها..

فزّ بمشاعر مختلطة شابتها الدهشة والاضطراب.. وين نشتُمان!

- لا يوجد اسم ابنتك..
- نشتُمان وين..!
- ابنتك ما تزال في الأسر..
- يعني مو حامل!

دمعت عيناه من جديد. نشتُمان مو حامل.. لكن وين هي الآن؟

خفق قلب الفتى هو أيضاً. ولم يمسك دموعه ويده تشدُّ يد الرجل المنهار. لحظتها شعر إنّ الكارثة كبيرة بحجم السماء ولم يستطع في جو الإنفعال الجماعي أن يفكر كثيرا بمثل هكذا أمور، لكنه يعرف إنه نجا من داعش حينما حاصرته سيارات مكشوفة تطلق النار عشوائياً فتقتل المارّة؛ فهرع إلى الجبل في رحلة ثلاثة ايام حتى أنقذته طائرة هيليكوبتر حينما دسّ نفسه مع الصاعدين ولم يهدأ حتى جمعه المخيم ببعض الجيران وعرف ان اهله قتلوا جميعاً، لاسيما العم سربست الذي آواه ليبدّد معه الوحدة الكبيرة في المخيم.

- **كيف راحت نشتُمان.**
- **لم تستطع الهرب.**
- **لكنني هربت..**

- **انت ولد وهي بنت.**
- **ليش تركتها عمو!**

ينظر للصبـــي بمشاعر فيها كراهية وغضب. كما لو وصلت اليه شـــفرة ضعفه في لحظة خاطفة لم يعرف كيف يتصرف حيالها عندما سحبته أمواج البشر الفارّين إلى الجبل و لم يكن معه غير هاتف أوصله بالعمة شيرين.. ثم افترق كـــل شيء عنه.

انسحب إلى زاوية اخرى من القاعة وتوصل إلى نسخة من قائمة لأسيرات الحوامل وأعاد قراءة الأسماء من جديد. ثبّت نظارته ليستوعب الأسماء على مهله يساعده الصبـــي في القراءة والإعادة والتركيز على الأسماء أكثر من مرة..

- لا يوجد اسم نشتمان.. الحمد لك يا رب..

لا يدري لماذا قال ذلك!

بابو

بيتكرون الأخلاق في لحظة العار المخزية

سربست

يطوي الورقة الرطبة التي وجدها عالقةً بين أغصان شجيرة تكابد الهواء البارد اللاذع. يمزقها ببطء ويرميها من اعلى المرتفع، متأملاً نثارها المتطاير كفراشات مقتولة حتى تتوارى في هبوطها، فتبقى عيناه شاخصتين للأسفل تعيدان سيرةَ يوم كئيب لا يختلف عن الأيام التي أكلتْ من روحه. ثم يضحك على نفسه ضحكة قصيرة جافة ههههه وهو يتلو السطور التي كتبها فيسمع صداه الجاف بطيئاً كأنه يفتّت قلبه الجريح.

أنا ابن الذّل التاريخي. رجل من أقصى الطبيعة. مهندس الجمال. ابن شجرة التين المباركة التي خصّها خُودا بالقَسَم في كتاب المسلمين.. أنا ابن شنكال المهزومة الأسيرة. مهندس العطور في المدينة وباعث الرحيق في قلوب الناس. خالق الازهار والاشجار في شنكال.. ابن الجوزة الصماء والتينة المحروقة والمعبد الخائف.. ابن التاريخ والفرمانات المتعاقبة.. ابن الذبح والخطف والأسر والضياع على مرّ التاريخ.

بدا المخيم من أعلى الجبل كموقع شبحي يظلله الغيم المار كما لو يظلل وجوده الهارب المتستر في مظلات متشابهة تراصفت حتى بدت كقِباب من الشمع.

فكّر إنه وحيد. فكر بعدها إن الجميع مضطهدون بعزلةٍ في سهلٍ ما يزال أجردَ لم ينبت الربيع في روحه كثيراً.. كلهم في كابوس ومحنة مشتركة. هاربون من فتنة الزمن الأسود الذي خلط الأوراق بطريقة سهلة لكنها عجيبة.

العائدون من فضيحة دهوك عادوا بعارهم ولم يروا صباياهم. طوق أمني أخلاقي لحمايتهنّ.. هههه.. يتكرون الأخلاق في لحظة العار المخزية.. السياسيون بارعون في الكذب والدجل واللاشرف.. وأكثر منهم رجال الدين.. لم يقل أحد منهم شيئاً منذ استباحة شنكال وهتك أعراض النساء وسبيهنّ وبيعهن في أسواق الموصل والرقة والفلوجة وحلب.. الآن يخلقون الشرف لصبايا مسكينات امتلأت بطونهنّ بنفايات ووساخات الغزاة.. لم يخرج البير ولا شيوخ الدين ليقولوا شيئاً عن أطفال المستقبل الداعشيين.. لا مراجع دين ولا معممون ملأوا الفضائيات بتفاهات طائفية.. لم نسمع من رجل دين شيعي ولا سني ولا مسيحي فتوى أو رأياً..

هل هؤلاء اللقطاء مسلمون أم ايزيديون؟ هل هم نبتة صالحة في أرض شنكال؟ هل يرثوا لالش النوراني وقدسيته أم هم لقطاء بيننا ومعنا سنتقبلهم مرغمين؟ هل هذا عار يا طاووسي مَلك؟ أم إنه قضاء وقدر يا خودا؟ هل نعمدهم بماء زمزم أم بماء المطر؟

ارتابَ من قصص المخيم التي أطارت صوابه، وأذهلته قدرة الآخرين على البقاء أحياء من دون أن يفعلوا شيئا. لكنه يعود ليرى إنّ القدر أكبر من المخيم والناس والمحنة ذاتها. قدر بحجم خودا البعيد. غير إنه كلما ينظر إلى فجيعته يصطفق قلبه بالمرارة ويصرخ: من سرق ابني؟.. فيعود له الصدى بصرخة أطول وأمضّ وأكثر مرارة ليشعره إنه وحيد مع هذه الجموع المتناثرة في المخيم التي فقدت الكثير من حياتها ووجودها وإنسانيتها، مثلما يرى روحه قد تشظّت وفقدت بريق الحياة وتاهت بين المخيم والأيام في شهور طويلة انتقمت منه بطريقتها القاسية.

لُعِنت أديانكم وخرافاتكم وهذياناتكم؛ يكتب من جديد على قصاصة رطبة؛ لُعن زمن الدين حيثما كان وأينما كان ومتى ما كان. اللعنة على الحياة الضارية كأنها مفرمة.

شعر إنّ المواسمَ تقتسمه وتمر على فجيعته الشخصية. وبينهما جرتْ وتجري حياةٌ غريبة الأطوار مثل دخان يتشكّل على أشجار التين المباركة، ويترك رماداً

على أوراقها الخضراء. يتراكم في كل لحظة ليصبح أوراماً مخيفة على أشجار التين. وفي كل موسم يتعاظم الدخان وتكبر تلول الرماد في قلبه متضخمة إلى الحد الذي تقطع فيه أنفاسه.

يرمي الكثير من القصاصات الورقية التي تجلبها الرياح الباردة فتعلق بين الاغصان الصغيرة، بعد إن يبصم عليها كلمات ينساها سريعاً، لكنه يتعلق بهاتفه كإنه روحُها الصغيرة.

سأملأ الجبل بكِ وبالخديعة التي كنتُ فيها. سأملأ الحياة باسمك حتى تعرفك. انتِ الحب الجميل الذي ورثته من أمك العظيمة وأنتِ الدين الوحيد على الأرض.

يرى الصورَ المتعاقبة تبتسم له فتطفر أكثر من دمعة هي من بقايا حوضٍ ساخنٍ من الدموع لا يريد أن ينفد مثلما لا يريد هو أنْ يجعل من القدر المفاجئ نسياناً لذاكرته الأبوية المجروحة التي تباطأت في لحظة خوف غريزي فحصل الذي حصل وخُطفت درّته الوحيدة وعصفورته الأنيسة.

يستعرض بلا ملل وجهها الذي يشبه فلقة التينة الناضجة على الشاشة المستكينة في باطن كفه.. وين أنتِ؟

ربما أنقذه الإله الزاجل في لحظة غريبة يشهد عليها الفتى بعد إن تحوّل من موسم الأزهار إلى موسم الرعب والدم والخوف والكآبة القوية. لكن بقي شيء في أقصى روحه الميتة ينبض نبضاً كإنه الإحتضار.

لا يفارقه اليوم الصيفي الأسود الذي اجتاح سنجار وحجزه عن بيته. يعيد الفيلم الأسود في رأسه ألف مرة ومرة ولا يصدق. عجلات بيض وأعلام سود تمرق في الشارع الرئيسي وترمي بعشوائية.

تتقاطر المشاهد مفاجئة وقاسية برصاص أرعن يطال المدينة الرابضة تحت حرارة آب بلا رحمة وصوت واحد تناقله الهاربون المفزوعون: **اهربوا إلى الجبل.. داعش وصلت.. نحن كفّار..**

شيرين الوضع متأزم وهؤلاء يقتلون بعشوائية. اعطيني نشتمان أكلمها.. بابو وين أنت؟

لا تخافي.. عمتك شيرين معاك..

بابو رمي كثير ورصاص وقصف أنا خايفة..

من لحظة "بابو" الأخيرة المستنجدة أدرك رجل الجمال إن الحياة تبدلت تماماً وإنّ الخلاص أمرٌ صعبٌ في حلقات الدخان المتصاعدة من المدينة وتراشق الرصاص الفوضوي، لكنه أدرك بيقين ما إنه سيفلت من عقابٍ لا يعرف سببه وإنه سينجرف بعيداً عن بيته نحو الجبل مع الجموع التي تركت بيوتها وأموالها وفرّت لا تعرف لماذا وكيف أفلحت غريزة الحياة أن تؤجل شهوة الموت إلى حين.

شيرين انتم وين. ما اقدر اصل للبيت. شنو صار شيرين. ديري بالك على نشتمان.. اختفت سنجار. رمي كثير ومسلحون يقتلون الناس. انا محاصر بين البيوت..

من باب الأمل المسحوق تحت الرايات السود سيتآلف مع اسمه الجديد؛ آزاد، حسب وثيقة المهجرين الصادرة من السماء كونه أحد المهجرين من قضاء سنجار لكنه تاب عن دينه ودنياه فاستحق وثيقة البراءة العظيمة، ليكون هذا الاسم هو بداية الرجل الأربعيني للتحول الكلي بدلا من أن يتحول إلى حشرة قميئة تسحقها الأيام.

هذا الاسم الذي استخرجه بصعوبة بعد تفكير غير قصير في شهور المخيم الكئيبة والعزلة الصوفية التي انفرضت عليه بغياب وحيدته وأسْرها، وحينما وصل إلى نقطة اللاعودة في تكييف وضعه البشري الجدي بأن لا يكون المهندس الزراعي القديم. الهادئ. الطيب. الأب المثالي. فاقد أجمل زوجة سنجارية في ولادة قيصرية مريرة انبثقت عنها نبتة صغيرة رعاها 14 عاماً بحب لا يشبهه حب.. نشتمان ذات العينين المزهرتين بالأزرق العظيم والوجه المدور كالقمر والعينين الواسعتين بكحل رباني والشعر الذهبي المنسدل كسنابل الحقول والقامة الرشيقة التي ورثتها من أم لفظت أنفاسها بعد إن قذفتها من رحمها إلى الحياة.

كما لو إنّ وثيقة السماء قررت إنّ الرجل الأربعيني الذي كان بعينين واسعتين تستقطبان الأنظار وقامة طويلة لافتة سيتغير ويتحول إلى رجل بعينين

سوداوين ذابلتين ليس فيهما أي بريق تعلوهما نظارة قد تمسك شيئا من الدموع التي تنتابه كل لحظة، والى قامة نحيفة تآكلت بفعل مرارة الشهور التي نهشت في روحه وأحالته إلى كائن صامت، يأكل الندم قلبه وجسده ويستبيحه مع كل لحظة تمر على يومه المفعم بالأسى والحزن القاتم. يسندها بعصا سوداء رفيعة كأفعى تشبه أفعى حائط معبده الأثير لالش.

ربما أيضاً عليه أن يتحول إلى كائن آخر؛ إلى فكرة مغايرة سيطرح منها 40 سنة ماتت في زحام الحياة وقسوة السبي وضغط الدين وآليته المتعبة، ليولد من جديد بفكرة أن يكون كائناً آخر يخرج من روحه المعذّبة أولا، ويخلع جلده القديم كمهندس زراعي له بصمته في تجميل سنجار كلها، ثم يتكون كجنين ينمو ببطء مع الأيام والشهور، من رحم المخيم، بلا عينين واسعتين. انطفأ فيهما بريق المعنى القديم.

آخر صلاة كانت في خيمته. دفع وجهه باتجاه الشمس وقرأ دعاء الصلاة وبكى. ثم صرخ. سمعه صغار المخيم فاستنجدوا بالآباء والأمهات.. جُنّ رجل الورود والحدائق. اختنق بصلاته رجل الأزهار والعطور.

هرب من الناس ونساه الآخرون في خضم الفجائع التي تنقلها وسائل الإعلام والناجون والناجيات من الأسر. الهاربون والهاربات من الآسرين الملتحين. ترك خيمته الصغيرة وصعد إلى التل مستنجداً بوحدته كإنه نبي سيستقبل وحيَهُ الصغير.

الرياح تجلب له قصاصات ورق وصحف فيكتب عليها ثم يمزقها فتطير إلى القاع كأنها فراشات مقتولة.

أنا الكائن الوحيد المباع على الأرض. ابن المؤامرة والخيانة والأرض المسلوبة والنساء المسبيات. ابن السبي الذي لا ينتهي على مدار الحياة. 74 سبيا في تاريخي الطويل. أنا المُهان أريد صغيرتي ووحيدتي لأهرب من هذه الأرض المسعورة. أرض الدم والبلاء والأديان القاتلة.

يرمي حصاة صغيرة من أعلى المرتفع ويراقبها تتدحرج حتى تختفي بين الصخور والأعشاب المتجمدة الطالعة من بين الصخور. تسابق الفراشات المقتولة

والحروف المقصوصة فيها ثم يرمي حصاة ثانية ويرقب نطنطتها المترنحة وهي تهوي وتختفي، ليمتلئ الوادي كله بصورة واحدة لا تتغير.

يكلمها في شاشة الهاتف النقال فتبتسم صورتها.. انت بابو. ويرن على هاتف مات منذ شهور. يستعيد آخر لحظة. شيرين خلي بالك من نشتمان انا لا اقدر اصل البيت.. داعش يقتلون الناس بعشوائية.. هناك خيانة بيننا.. باعونا شيرين..

يكلّم الصورة المفروشة على واجهة هاتفه النقال أو تكلمه:

- نمشي غدا إلى معبد لالش[1] نتعمد بالعين البيضاء
- وامشي حافية للمعبد..
- سنلتقط صورا كثيرة.
- سأكون اميرة في لالش.
- سأطلب من طاووس ملك اشياء كثيرة
- طاووس ملك يسمعك ويقبل بطلباتك
- سأطلب منه أن أكون حلوة مثله
- انت حلوة كالملك طاووس
- لا. بعد اكثر.. المعلمة تقول لي انت حلوة ونظيفة وشطورة
- انت حلوة ونظيفة وشطورة..

يبكي رجل الزهور والعطور على المرتفع كما في كل يوم ورأسه مفرّغ من كل شيء إلا من روح معذبة تستوطنه. تلك الروح الصغيرة التي لم تنضج كتفاحة بعد لكنها كانت بطور الربيع الرابع عشر، طور الدم الأبيض النقي كما همست له الأخت شيرين ذات ليلة. وهو طور التفاحة التي ستستقبل احمرارها الأول بخجل.

---

(1) معبد لالش النوراني موقع مقدس لدى الأيزيديين يقع في منطقة جبلية قرب عين سفني حوالي 60كم شمال غرب مدينة الموصل في شمال العراق، وقدسيته تنبع من وجود ضريح وقبر الشيخ عدي بن مسافر المقدس لدى أتباع الديانة كما انه مقر المجلس الروحاني للديانة الأيزيدية في العالم.

يستدرك الرجل ما فاته. كان ضعيفاً ومهاناً وهو مربوط كالحمل الصغير.

بابو.. آخر نداء اخترق الرصاص المتكاثف فباعده عن كل شيء.. آخر صوت ذاب في لجة الغبار والبكاء والصراخ فانقاد كالآخرين مربوطاً بحبل، منغمراً بإحساس لم يستطع تفسيره بداية، كإنه في فيلم غريب يجري في قريته مع بشر هبطوا بمظلات غير مرئية واجتاحوا المكان بطريقة فيلمية سبق وإن شاهد مثلها في تلفزيونات ما قبل الفضائيات.

عطر لالش

وعندما يركع للصلاة تصدر من رأسه ضجّة
كأنما عقله يصطدم بجمجمته،
كما الضجة التي يُحدثها الحصى داخل يقطينة يابسة

دسّت جسدها تحت المعطف الثقيل وأحكمت أزراره العريضة وهي تخطو على السفح المعشب الصاعد بممراته المتعرجة، لكنها لم تستطع إخفاء برد يرتجف في قلبها وهي تسير بحذر وتصبو إلى المكان الذي يبتعد ويقترب كلما انتهت من صعود سفح وأنزلها انحدار وصعد بها آخر؛ حيث السماء الغائمة المتداخلة على لون رمادي يزداد عتمة كلما ارتقت السفح وصارت قريبة من الشكل المخروطي ببياضه الذي تعشقه.

يسبقها الفتى من دون أن يقول شيئاً وهو يقودها من المخيم إلى معبد لالش الذي فارقته شهوراً طويلة على غير عادتها.

ما يزال بخور المعبد يتضوع في أنفها بنكهةٍ قديمة مضت مثلما تغمرها روائح الأشجار المتعانقة بسقائف مشتبكة على جو تعرفه وتأنس اليه بعد أشهر مريرة من الفراق القسري. وقبل أن تصل حدود المعبد كانت تشم كل شيء.. مطر سيأتي وعبق يطير في الهواء من الدفلى والنرجس، وزفيف أشجار التوت وطيور تغزل في لحظتها المرتبكة أشياء كثيرة بعد العودة من شبح الماضي الكاسح.

هي محنة.. كيف سألتقي به..!

يصفع الهواء البارد وجهها فتشم روائح أثيرة وهي تقترب من مثلث المعبد المستقر في روحها بين غابة شجرية تسير فيها صعوداً وهبوطاً كما لو تولد في

كل مسافة صغيرة تقطعها وتسحق كل لحظة عصيبة، متتبعة أثر الفتى الذي يشغل نفسه بالتقاط ثمرات البلوط ويطارد عصافير النعناع، ليبتعد عنها مسافة ثم يعود ويقدم لها تفاحة صغيرة التقطها من غصن يعترضه.

امسكت كتف الفتى:

- منذ متى لم تزر المعبد!
- منذ غزو سنجار وهروبنا.. لكن سابقاً كنت أزوره مع أهلي.

واضاف للتأكيد:

- في الأعياد كلها كنا نأتي من سنجار إلى هنا مع الجيران ونزور قبر الشيخ عدي.

ثم أضاف:

- أمي وأبي يتباركون به. يقولون انه ولي صالح.

كفّت عن السؤال في نقطة وجدت إنها ستفتح جرح الفتى الوحيد.. لكنها قالت بصوت خالطته حشرجة مكتومة:

- الله يرحمنا جميعاً. المظلومون في الجنة يا ابني.

رأت في رأسها ما لا تريد أن تراه في كل لحظة بعد الإنعتاق الأسطوري الفريد بالرغم من خسارتها المخجلة التي تحملها.

حصرت وجودها في المخيم الكئيب ورؤى المعبد والشوق لسربست الذي كثرت الشائعات حوله وأقاويل الآخرين التي تربكها.

سألها الفتى بشكل مفاجئ:

- كيف هربتِ يا عمة!

ارتبكت كما لو فتح الفتى جرحها السري الكبير. لكنها تشبثت بكتفه الآخر وهي تصعد منحدراً جانبياً اكتظ بالأعشاب والحجارة الناتئة. غير انها، لكي تتفادى سؤاله، تساءلت:

- هل العم سربست بصحة جيدة؟

رد الفتى بثقة:

- زين..

ثم استدرك:

- لكنه وحيد..

فهمت الإشارة على نحوٍ واضح. فأكمل:

- يبكي كثيراً ويحكي كثيراً..
- مع منو يحكي!
- مع نفسه.. واحياناً معي بكلام لا افهمه لكن تعودت عليه.
- مثل شنو يحكي...!
- يحكي مع صور نشتُمان بالموبايل.. بالغار يِحْكي كثير..

وكما لو يريد إخبارها بحقيقة:

- عمو سربست تغير هواي.. عنده الآن لحية طويلة وعصا سوداء. عنده نظارات..

ثم أضاف:

- يحكي مع الشجر والطيورِ والمطر والغيم والشلالات والحجر.. ههه يمكن ما تصدقين!
- سمعتُ مثل هذا في المخيم..

اغمضت عينيها وهي تتشبث بكتفي الفتى كما لو عادت صور الأمس القريب تبدد سكونها واطمئنان روحها وهي تتجه إلى لالش مركز روحها وأسطورتها الأخيرة..

عاد الفتى يتساءل:

- ما قلتي لي كيف هربت من داعش..!
- سأحكي لسربسْت كل شيء. وستعرف كيف هربت منهم.

بحملٍ كاذب وأيام مريرة وجدتُ فيها كم هو الإنسان ضعيف وقوي في اللحظة ذاتها حينما يصل إلى خيارات بعضها يعلقه من رقبته في لحظة القرار الخطأ أو المصادفة الخطأ أو الحظ الخطأ. هربتُ من الأسر حاملاً بخِرَق كوّرتها تحت بطني فتفاديتُ مواقف كثيرة بين رجال دولة الخلافة الوحشية كوني حاملاً. ما اقذرهم.. بطني أنقذتني.. لكن بعد إن.. اوووف يا خودا ارحمني. ارحمنا كلنا.

تمتعض وهي تعيد شطحات من سيرهم كأنما لا تريد أن تتوقف في الذي حصل لها حينما بتروا لحمتها الصغيرة؛ فتحثّها على اجتياز الجبل والخلاص من العذاب. صعدت سفوحه الصعبة كي تقف في الجانب الآخر من الحياة؛ فيما تعثرت الفتاتان وسرقهما الغزاة.

قالت انهما كانتا ضعيفتين أكثر مما يجب. كانتا خائفتين على حياة لم يبق فيها غير العار بين هؤلاء الخنازير. كانتا جميلتين يا عيني عليهما.. اوووف هينار يا صبية الجمال وين انت الآن. وانت يا هفيدار يا عيني عليك يا جمّارة الصبيات.. شيرين يا أخيّتي الشجاعة رحمك الله. لولاك لكان مصيري في مكان آخر.

أعادها الفتى إلى المنظر المنفتح على أصوات طيور ومطر ناعم وأغصان كثيرة تشتبك وتتشابك ومنحدر أخير سيلتف بهما إلى حافة المعبد من مدخله المباشر.

- أتعبتكَ..
- بعد زيارة المعبد وراءنا صعود طويل إلى الغار والعم الذي سيفرح كثيراً بزيارتك.

في المخيم بحثت عن الأب التعيس بنشتُمانته المسروقة المتفتحة بأربعة عشر ربيعاً. كل انسان له فجيعته. كل امرأة طاردها العار فنجتْ هنا. وكل رجل فقد هيبته حتى كاد يضمحل في هذا اللجوء القسري وشنكال أسيرة ومذبوحة. يا عيني عليك يا شنكال.

قال الفتى بشعور إنه يريد توضيح الكثير عن الرجل:

- العم حزين ويبكي على نشتُمان ليل نهار
- يا عيني عليه..
- صعد فوق الجبل.. ندمان كثير على اللي صار
- ما بيده شيء.. كلنا عزّل يا ابني..

كان الهواء بارداً أكثر مما يجب وهي تحث خطاها على المسافة الصاعدة إلى المعبد ويدها على بطنها كما لو تخشى في خيالها أن يسقط من بطنها شيء في غير

مكانه. وبدت كأنما تستعجل أمراً قبل أن ينفلت من ذلك البياض المخروطي الذي يجلّل المكان ويضفي عليه إشراقاتٍ روحية تستشري في لحظة الصعود المباركة إلى المعبد ومرقد الشيخ القديم بين الجبال الثلاثة **عرفات** من شمال القلب **وحزرني** من غربه **ومشتي** من جنوبه أما شرقه فهو تمام الخميرة التي تتشكل في روحها المؤمنة الصاعدة إلى هناك.. الا لالش النوراني كونها في الطريق إلى الكهنوتية لتخدم المعبد وزواره ما تبقى لها من الحياة.

خلعت حذاءها وأركنته إلى جوار شجرة مبتلّة تتلامع على أوراقها شمس وأضواء لا تعرف مصدرها، ومع إن النهار تراه أبيض كالمعبد إلا إنها تحاول أن تطرد كآبة لازمتها شهوراً طويلة وهي تفترق عن هذا المكان قسراً في ظرفٍ كان قاسياً عليها. كابوس اجتاحها شهوراً سوداء وأنقذتها حيلة بدائية.

خلطت نفسها مع النساء وقد أدهشتها الألوان الخافقة على أجساد الصبايا والفتيات لكنها لاحظت كآبات متعددة في الوجوه الحائرة وهي تزور المعبد. كلهم ناجون من المجزرة. كلهم فقدوا ناسهم هناك. طوبى لكنّ يا إيزيديات الزمن الجاحد الغادر الكئيب. يا بنات الشمس الجميلات. يا حفيدات التاريخ والدين القديم. ايتها السومريات العظيمات.. 74 خرابا وسبيا على مر التاريخ و لم يقطعوا نسلكنّ ولا دينكنّ العفيف.. توسلنَ عند شيخادي إنه رَحْمنا البعيد فقد يسمعه خودا في لحظة ما ويسعدكم بعودة الغائبات والأسيرات..

فاتها أن تزور شجرة الكوجكين[1] للمتعبدين، فالطريق اليها معكوس للمعبد، لكنها تباركت بشجرة القلندر المعمرة؛ شجرة الفقهاء؛ فما تزال كما هي شامخة وباسقة منذ زمنها القديم يوازي وجودها شجرة القوّالين التي تحتفظ برؤى المعبد منذ عشرات السنين.

وجدت في خيالها المضطرب ان صورتها محفورة على هذه الأشجار المباركة كما لو بدأت تراها الآن وهي تنكشف بالتدريج أمام بهاء المعبد.

---

(1) شجرة تقع في الطريق المؤدي إلى معبد لالش وقيمتها الاعتبارية برمزيتها للزهد والتبرك وهي ذات قيمة معنوية لزوار معبد لالش كونها تقع في منتصف الطريق بين قضاء الشيخان والمعبد.

تتحسس بطنها، وهي عادة لازمتها منذ ليلة الشيشاني العصيبة التي اخترقت فيها المطر مع فتاتيها، غير إنها أزاحت يدها مغمورة بإحساس آمن وهي تتخطى الأفعى السوداء الشاخصة بشكل عمودي على حائط المعبد، ومن ثم تدخله حافية مستأنسة لروائح عطرة طوقتها من كل جانب وأشعرتها بدفء المكان وحميميته فغمرها إحساسُ مَن دخلتْ رحم أمٍّ. انغمرت عيناها بدموع. صلّت وبكت وشكت بصمت.

تركت بُركة الماء خلفها التي تتوسط الباحة وعيناها تعدّان الأعمدة السبعة كما لو كانت تخشى في غيابها أن ينقص أحدها.. إذن ما زال الملائكة السبعة يحرسون الحياة وما تزال أيام الأسبوع سبعة وما يزال كل شيء في مكانه الصحيح في لالش.

تخطت عتبة الضريح فغمرتها عتمة خفيفة. لكنها استكانت إلى هذا البطن المفتوح وعيناها غارقتان بالدموع ولفّها حضور مهيب وهي تدور حول ضريح شيخادي اكثر من مرة ناشجة منسكبة الدموع بطريقة لم تتوقعها كإنما تزيح طينا لزجاً من صدرها وروحها.. **غدرونا وباعونا يا شيخادي.. غدروني في لحظة ضعف كنت شجاعة فيها يا شيخادي لكنهم أقوياء ومتجبرون وقساة. ليسوا آدميين مثلنا.**

اخرجت قماشة بيضاء عريضة. بللتها بدموعها وربطتها مع تل من الأقمشة الملونة وهي تتلو دعاء تطلب فيه الرحمة والعذر والخلاص والنسيان مما وقعت فيه من ألم. وفي آخر دورة انقادت إلى غرفة كثيرة الظلام والدخان. ستتذكر كثيراً انها غرفة جِرار زيت الزيتون المرصوفة إلى بعضها والتي توقَد فيها كل يوم المشاعل المقَدسة فترى قلبها المعتم يُنار قليلاً في ضجة روحها المستلبة، و لم يكن ضريح الشيخ بعيداً عنها. فتمتمت ناشجة وهي تقرأ دعاء البقاء والخلاص والنسيان وتتحسس ما بين فخذيها بألم.

في بئر زمزم رأت انعكاس وجهها في مائه. لم تستطع أن تكلم وجهها المكتئب لكنها قالت شيئاً وعادت أدراجها إلى باحة المعبد وهي تشعر بسخونة في جسدها وحكّة أسفل بطنها.

اريد أن استحم وأغتسل بمياهك يا زمزم[1] لأتطهر وأعود كما كنت. انا الراهبة نالين. أنين الروح المكتظة بالإيمان والزهو لهذا المكان المقدس الذي يشعرني من جديد بأنني نالين ولستُ غيري التي كنتَها في شنكال أسيرة ومعذبة ومهانة وذليلة بين وحوش لا يعرفون الله ولا أنبياءه.

دلفت من شق مدور إلى مكان الخلاص الأخير تقع فيه الجنة والنار برمزيتهما الغامضة؛ فغمرها دخان كثيف وبدت موجودات المكان غائمة في عتمة سميكة من الروائح والأبخرة الثقيلة. لكنها احتملت العتمة الثقيلة ورأت ناراً صغيرة تتوهج على صخرة ولم تر رمزية الجنّة الا في دموعها الأخيرة وهي تخرج إلى الشمس من جديد شاعرة بخفّة وراحة غريبة متطامنة مع روحها القلقة، كما لو ألقت وساخة الحمل الكاذب في بئر مهجور وخرجت إلى الحياة بِطلّةٍ أخرى. فقادها الفتى إلى الشطر الآخر من المعبد والى الحوضين المتبقيين على مسافة صعود سفح صغير.

كانت السماء تمطر والبروق تتخاطف بين الأشجار العالية وهي تصعد دكّاتٍ حجرية إلى رحبة أخرى من توابع المعبد التي فارقتها شهوراً مريرة.

عمّديني يا أخت من جديد. أريد أن أعود صغيرة. طفلة بريئة. لقد خرجت الآن من رحم ومن كابوس ومن ليل ثقيل. اريدك أن تعمديني بيديك الطاهرتين من ماء العين البيضاء اسقيني من هذه العين مطراً بارداً لأطفئ جمرات روحي الملتهبة بالعار..

أشعرها المكان بكيانها الخفيف فيها وهي تفتح ابتسامة نقية لفتيات صغيرات يتسابقنَ بخفّة للوصول إلى باحة العين البيضاء تحت مطر يشتد مع كل لحظة.

تلمست الحجر القديم وقبّلته. طلبت من الفتى أن يطقطق لها صوراً مع الصبايا. ابتسمت بينهنّ ابتسامة غير كاملة بقلب تتمناه مفتوحاً إلى الأبد.

---

(1) بئر زمزم – يوجد داخل معبد لالش وهو عين ماء تنبع من الجبل وتصب في المعبد ويقصدها الأيزيديون للتبرك بمائها. والعين البيضاء بركة ماء تقع في معبد لالش ويتعمد بها كل أيزيدي..

ألقت النظرة الأخيرة على المعبد من باحة **العين البيضاء** كان كل شيء يمطر في لحظتها الناقصة كما تشعر.. لم أتطهر بعد.. وقبل أن تهبط قالت للفتى بما يشبه الهمس:

- لست واثقة من طهارتي.. بي ألم واثم ووجع..!

ظل الفتى يديم النظر في عينيها المجعدتين بالبكاء. لفّت وجهها بالشال الأبيض من جديد وهبطت إلى الشارع الفاصل بين بناء الضريح وبئر العين البيضاء يتبعها الفتى منحدراً معها إلى بداية المشوار والى طابوق حجري رفعت عينيها المبللتين وقرأت:

عين البيضاء – طاووس ملك – كاني سبي

انا ملك الدموم

سميت سبعة اسوم

اسم مكتوب في الدر باب عين البيضاء

حي القيوم

مقدمة العين البيضاء تشعرها بالوقت والزمن الراكض بالاسم المنحوت في العين السماوية الربانية للحي القيوم الذي أنقذها في نهاية الأمر من ضنك وموت..

تناولت صخرة صغيرة كشفها المطر ووضعت لها مسافة وهمية بينها وبين صخرة في مرتفع حجري صاعد. تركت حقيبتها ومعطفها عند الفتى. والتقفت الحجر الصغير الذي كان ينظر اليها بعدما أزاح عنه المطر الغبار.. وركضت صاعدة المرتفع بخفة ورشاقة..

- سأغسل ذنوبي بطريقتي.. يوماً ما قرأت عن امرأة كانت حياتها عاراً وإثماً فتطهرت بطريقتها..

قبضت على الحجر الأبيض الصغير وركضت باتجاه نقطة في رأسها بخفة ورشاقة أثارت انتباه الفتى المحتمي خلف الجدار. كان يراها كتلة بيضاء شفافة وهي تحلق صاعدة كحمامة حتى وصولها إلى حجر كبير وتضع عليه حجرها الصغير ثم تعود راكضة منحدرة مثل السهم مدفوعة بقوة غريبة حتى تقف عنده،

لتعاود الصعود الراكض من جديد حتى نقطة الحجر في أعلى المرتفع بالخفة ذاتها، ثم تهبط كسيل مع المطر المشتد، لتعود ثالثة بذات السرعة الفائقة حتى تستقر بانحدارها الأخير امام الفتى وهي تلهث مبللة وابتسامة جديدة تحيا على وجهها المغسول

وضع الفتى معطفها على رأسها وهو يشعر بالدهشة لهذا الطقس الذي لم يره أو يسمع به. كانت تلهث وهي تجلس على دكة حجرية في باب العين البيضاء. مبللة كإنها خرجت من حمام.. ومن فمها تطلع أبخرة غزيرة.

- الآن ارتحت..

همهمت وهي تتدثر بالمعطف وتعيد ربط الشال الأبيض على رأسها.

- غسلت ذنوبي في آخر لحظة.. على الإنسان أن يتطهر من ذنوبه[1]

لم يقل الفتى شيئا. تركتها تجتر أنفاسها وأبخرتها تتصاعد من بين شفتيها.

- يا خودا العظيم. يا طاووسي ملك. يا شيخادي.. ارحموني وطهروني من العار.

هدأت قليلاً ولمح الفتى على وجهها ابتسامة غامضة كأنما انبجست منها شعلة نور كشفت ملامحها البيضاء من جديد.

وهي تقف بهدوء أحكمت شالها الأبيض على رأسها.. هيا يا فتى.. خرج من قلبي ترابٌ وطين.. لنمضِ إلى سربست..

---

(1) هذا الطقس مبتكر..كما روته لي إحدى الصديقات الأيزيديات وهو اجتهاد شخصي زيادة في التطهر الروحي وقتل رغبات وشهوات الجسد..

صعود الراهبة

في أعماق قلبي لا يوجد إلهٌ سواي

عدي بن مسافر

يسبقها الفتى بخفة في الصعود إلى الغار ومع كل بضع خطوات يحثها على السرعة قبل أن يكون المطر أكثر غزارة.

كانت الغيوم تهبط على الجبل داكنة رمادية ووميضٌ يتخاطف بين لحظةٍ وأخرى يعقبه رعدٌ صاخب، غير إن الفتى تباطأ قليلاً حينما تمكّنت فراشة ملونة من أن تقف على سبّابته بعد إن وجدها تحوم حوله وتتبع أثره وتلوذ به كلما اصطخبت السماء بالرعد وتقاطعت البروق في الفضاء.

- سآخذكِ إلى فوق.. قال لها

اطمأنت الفراشة بعد إن حامت حوله بشكل حلزوني، ووقفت على اصبعه الممدود. فأمكنه أن يرى بياض أجنحتها الثلجية المخططة بلون أزرق قديفي جاذب يتوزع على أجزاء جناحيها الرقيقين بخطوط مستقيمة ولكن بدرجات أخف.

شكرته الفراشة بلطف وقالت له:

- أنت فتى طيب.

شعر بها منهكة وهي تبرر تعبها:

- الجبل عالٍ. أخشى المطر احملني معك يا فتى.

قال بفرح:

- تمسكي وسنصعد معاً..

رفرفت ثم استكانت على إظفر سبابته فوازنَ جسده تبعاً لاستقامة يده الممدودة، وكان يراها أمامه كشراع صغير من القديفة الزرقاء المخططة.

استدارت اليه متسائلة:

- انت فتى شاب تستطيع صعود ونزول الجبل مرتين.

التفت إلى المرأة التي تدبّ وراءه بين الصخور:

- لو كنتُ وحدي لطرتُ.. لكنّ السيدة لا تقوى على الصعود السريع.

نالين التي لحقته كانت تشعر بأنها تبذل جهداً مضاعفاً في الصعود كما لو نسيت الجبل والعشب البرّاق تحت المطر وأشجار الجوز والتوت والتين وأزهار نيسان المتوردة بين الصخور وطيور الربيع المتخاطفة.

رفّت عيناها من تحت نظارتها السوداء العريضة، فاختلجت وجنتاها. كانت مثقلة بهواجس اللقاء، بما يجعل منها أسيرة شكوك كثيرة، بعدما سمعت من مهجّري مخيم إيسيان ما لا تحب أن تسمعه عن الرجل المهاجر والمهجور في مغارته الجبلية العالية. أخ الأبدية الذي كان يجتهد لتجميل الحياة في شنكال كمهندس زراعي تخرج من جامعة الموصل.

ظلت الهواجس تتفاقم كلما صعد بها الجبل بهوائه البارد ورذاذه الخفيف المنتشر على الأغصان المتعاضدة في سقائف خضراء تتخللها أزهار وثمار ملونة كثيرة. ستقول له ما جرى بالضبط وستجعله يرتاح عندما تؤكد له إن نشتُمان بخير.. لكنها.. لكنها لا تعرف ماذا جرى بعد هربها من شبّاك بيت الأمير الشيشاني..

دبّت الفراشة على إصبع الفتى وقطعت مسافة أخرى على كفّه وساعِده لتقترب من وجهه أكثر وسألته:

- هل يمكنني مساعدتكما!

قال الفتى وهو يتسلق بعض الصخور التي اعترضت مساره:

- شكرا يا فراشة. عمّي هناك وحيد ولابد أن نلتحق به.

ثم أضاف وهو يلتفت إلى الوراء:

- الراهبة لم تره منذ زمنٍ طويل.

تساءلت الفراشة بفضول:

- هل كانت السيدة مسافرة؟

ردت نالين بهدوء وهي تلحق بالفتى بعد إن عبرت صخرة وهي تتوكأ على ساق صنوبرة مائلة:

- لا. لم أسافر. كنتُ أسيرة عند داعش في شنكال.. لكني هربتُ بعد ستة شهور من الأسر..

تنهدت الفراشة وهي تقرض مسافة أخرى من ساعد الفتى:

- يا عيني عليكِ. الحمد لله على سلامتك.
- الله يسلمك خالتو...

تسلقت الفراشة الملونة كل يد الفتى ثم كتفه واقتربت من وجه نالين التي تدبّ خلفه:

- إذن الرجل الذي فوق هو أخُ الآخرة!

هزت نالين رأسها وقالت وهي تعبر فجوة بين صخرتين:

- نعم. هو أخي الأبدي. أخُ الآخرة..

قالت الفراشة وهي تفتح جناحيها لتتوازن مع حركات الفتى الذي أخذ يطفر بعض الفجوات بين الصخور الحادة:

- منذ شهور وأنا أراه في مغارة صغيرة. لا يخرج الا قليلاً. مرة يغني ومرة يبكي ومرة يصلي ومرة يتكلم بكلام غريب.. يكتب في قُصاصات ويمزقها.. يجتذبه صوت نايات الرعاة فيتألم كثيراً..

قالت نالين وهي ترفع نظارتها السوداء على رأسها المحاط بالشال الأبيض:

- ايضا هو نجا من الأسر.. لكنه فقدَ ابنته في ظرفٍ صعب.. أسَرها الدواعش و لم يكن بإمكانه أن ينجدها وقتها..

هزّت الفراشة رأسها وحكّت رأسها بلوامسها الناعمة، كما لو تريد أن تتذكر شيئاً:

- أكثر من مرة رأيتُ على شاشة موبايله صورة صبية حلوة.. كان يناغيها ويتكلم معها.. ويغني لها ويبكي..

اكتفت نالين بالصمت. حاولت بأصابعها أن توقِف رفيف عصب عينها اليسرى. بينما الفتى يحبو في شق ضيق ليتفادى تسننين صخرة منفرشة تضغط

على الشق من الجانبين وتنشر أغصاناً كثيفة لشجرة الحور وكانت الفراشة ترفرف بجناحيها وتمسك بأرجلها كتف الفتى كي لا تسقط، فيما حَبَتْ نالين وراءه.

واصلت الفراشة:

- إذن هذا الرجل المسكين فقد ابنته.. لعن الله داعش ومَن جاء بهم.. هؤلاء خنازير.. سمعت في المخيم قصصاً مروعة عنهم..

استقامت قامة الفتى بعد الشق ووراءه استقامت نالين فوجدت الفراشة انها بوضع مستريح. فأكملت وهي تنظر إلى نالين من على كتف الفتى:

- مرة اخذني الفضول لأرى ماذا في شاشة الموبايل فحططتُ على كتفه دون أن يشعر.. رأيت صبية جميلة والله. عيناها واسعتان. بيضاء كالقمر. ملاك صغير ينظر اليه بعينين سعيدتين بشعر ذهبي براق.. سبحان الخالق.

تنهدت نالين وأخذ الفتى يهمهم بأغنية شعبية، وكان المرتفع يصعد بهما بين شجيرات الشّمْشَموكي وشقائق النعمان. فيما ناغاه على مقربة طائر التين الصغير ونظر اليه.

ارتبكت الفراشة وهي تحني رأسها من سنونوات مسرعات يتخاطفن بسرعة مذهلة:

- الخشّافات.. اخاف من خطفهنّ الفظيع. مرة قُتلت فراشة من أقاربي. صدمتها خشّافة مستهترة لكن الخشافات مباركات. جالبات الحظ السعيد على كل حال..

انتاب الفتى فضول وهو يستمع إلى الفراشة:

- الخشّافة هي التي أطفأت النار التي أحرقت نبينا ابراهيم عليه السلام.

أصغى الفتى:

- أحرقه قومه الذين كانوا يعبدون الأصنام. وكان أبو بريص ينفخ ليزيد من اشتعال النار وكان ابراهيم يقول له: نفختك لا تزيد ناري لكنها تحرق قلبي.. وكانت هناك خشّافة تنقل قطرات من الماء بمنقارها

لتطفئ النار الرهيبة المشتعلة على ابراهيم. فقال لها ابراهيم: ماؤك لا يطفئ ناري لكنه يبرّد قلبي.. لكن الخشّافة استمرت بنقل قطرات الماء حتى أطفأت النار. لذا فهي مباركة تجلب الحظ السعيد..

تساءل الفتى وهو يتخيل شكل النار والسنونوة التي تحمل الماء بمنقارها الصغير:

- يا لها من خشّافة عظيمة أطفأت النار عن سيدنا ابراهيم..

لأول مرة يغمره شعور بالمتعة وهو يرى تخاطف الخشّافات على سفح الجبل برفيفها السريع وذيلها الذي كإنما يشطرها شطرين متساويين من الأسود والأبيض.

تساءلت نالين:

- ما كنت أتصور المرتفع بهذا الإتساع..
- إنه جبل يا عمتي.. كل يوم أصعد وأنزل مرة أو مرتين..

قالت الفراشة:

- أنت ولد شاطر.. كنت مثلك أصعد الجبل مرات ومرات في اليوم وأتنقل بين النرجس والياسمين والجوري. لكني تعبت وهرمت يا فتى.. بالكاد أصعده مرة في اليوم أو أكتفي بأن أصل لمنتصفه..

تدخلت نالين:

- ولكنك ما زلتِ شابّة خالتو الفراشة.. وأنيقة وحلوة..

تأففت الفراشة وهي تطير من كتف الفتى وتحط على كتف المرأة:

- العمر ينقضي بين ربيع وربيع يا ابنتي..
- وهذا ربيعك الجميل خالتو.. من زمن لم أر فراشات.. كنت في شنكال أسيرة ومعذبة ومسبية وخادمة.. وأنا التي كنت أتمنى أن أكون كاهنة في لالش حتى موتي.

تأففت الفراشة من جديد:

- الرب لن ينسى شنكال ولا بنات شنكال ولا شباب شنكال. اللعنة على أهل الفتنة وعلى الدنيا السلام.

تحشرج صوتها وهي تضيف:

- كنت أرعى أسفل هذا الجبل كل الربيع.. لكن منذ امتلأ بالمهجّرين الشنكاليين والبعشيقيين والبحزانيين تفتت قلبي وأنا أستمع لقصصهم المأساوية كل يوم.. لكني ابتعدت. لم يعد قلبي يتحمل المراثي والشكاوى والآلام. كل الكمب يشكو من فقدان أحبّتهم.. يا ويلي من هذا الزمن الملعون..

تنهدت الفراشة وأكملتْ:

- في اعلى الجبل صدمني الرجل الوحيد. خفتُ منه.. بدا كإنه نبي في جبل مهجور.. ولما عرفتُ إنه يناجي صبية على شاشة الموبايل قلت إنه.. وعفواً للكلمة يا أخت.. إنه مجنون.. وهذا ما سمعته في الكمب..!

أوضحت المرأة وهي تحادث الفراشة:

- حتى هذا الفتى فقد أهله. قتلوهم كلهم وهم مسلمون. تمكن من الهرب مع الناس بعد إن كان في المدرسة هو وبعض الفتيان استطاعوا النجاة بطائرة هليكوبتر بعد أيام من الهرب في جبل سنجار..

تأففت الفراشة:

- ربي يحميه. انه فتى شاطر..

أكملت نالين:

- كلنا هاربون يا خالتو الفراشة.

توقف الفتى عند عش يختفي بين أعشاب الحَسَك الزاحفة. التقط من حفرة مموهة بالعشب أربع بيضات مرقطات ودحسها في جيبه وهو يقول بفرح:

- هذه وجبة عمو.. هههه.. مع إنه لا يأكل لكني سأسلقها له..

قالت الفراشة للفتى:

- هذه بيضات السّمّان. يأكلها الرعاة والمهرّبون الذين تنقطع بهم سبل الوصول إلى ما يريدون..

سقطت قطرات متفرقة بللت الأغصان واكتسى الفضاء بغيوم أكثر رمادية وسواداً. فتجنب الفتى نياسم الجبل المكشوفة وقال للمرأة:

- عمو له مغارة جميلة لا يدخلها المطر..

أوضحت الفراشة:

- كانت المغارة مهجورة وكان الرعاة يتجنبونها ويقولون إن الجنّ يسكنها ليلاً والذئاب تسكنها نهاراً.. سمعت قصصاً كثيرة عنها حتى كنت اخاف من المرور أمامها.

ما تزال اصداء كثيرة تمور في رأسها حينما تتخيل شكل اللقاء. لم تضع صورة أخيرة لسربست، لكن شكله القديم يتراءى أمامها بوسامته وطوله الفارع وهدوئه وحبه لزوجته التي توفيت في عسر ولادتها بنشتُمان.

نشتُمان الصغيرة مسلوبة الإرادة.. ماذا سيسألني عنها.. ماذا أقول له.. هل الأسر قادنا جميعا إلى بيت الشيشاني القذر! نعم. هذا ما حصل.. مصادفة وشهادة وموت وفرار وألم.

شيرين صرخت صرخةَ موت أخيرة ونحن نهرب من النافذة تحت ترتيل قرآني.. يا خودا.. كم هي الحياة مخادعة.. نشتُمان وحيدته التي يموت في حبها.. شبيهة أمها الراحلة في الوسامة والجمال والرقة.. يا رب كم نحن تعساء.. لن أكذب. عليه أن يعرف إن نشتُمان كانت عند داعشي شيشاني مجرم وقاتل وسفّاح.

توقف الفتى على مسطح مفروش بالقفار المتوّج بأزهار بنفسجية والصنوبر الأخضر. جلس ممتثلاً لنداء نالين للراحة.

ثمة غناء بعيد لناي يعبر بين الغيوم، فيما تخاطفت خشّافات الربيع التي أطفأت محرقة النبي ابراهيم.. إنها جالبة الحظ السعيد كما أوضحت الخالة الفراشة. وانتشرت مع انفتاح اول المطر الخفيف روائح البطم والاقحوان والبنفسج البري.

كان الفتى يقطف الخبّيز ويمضغه بمتعة.. التفت إلى الفراشة وتساءل:

- ماذا تأكلين يا خالتي الفراشة!

ضحكت الفراشة ضحكة ناعمة:

- لست مثلكم أكتفي بالرحيق.. أشم الأزهار والورود فأشبع.. هيءهيء

كما لو نبهتها الفراشة إلى شيء مفقود فشمّت نالين الروائح بكل قوّة وملأت صدرها بأطياف الريحان والبيبون، وحينما هطل مطر خفيف تفتق الجبل عن روائح أخرى من التوت واللوتس والخرنوف والأرض المبللة والجبل المثقل بعطور السليسال والنعناع. وصوّت آكل العسل مندسّاً بين الأغصان المشتبكة.

جلست تحت شجرة السنيكا التي تفرش أغصانها الكثيفة شاعرة إن ركبتيها متعبتان وجسدها يتعرق بالرغم من برودة الجو.

جلس أمامها الفتى وتمدد على فراش من عشب طري وهو ينظر إلى سماء ملبّدة بغيوم رمادية وعلى مقربة منه حطّ طائر القونزركي بمؤخرته الصفراء المبللة وبدأ أحدهما ينظر للآخر..

تحول الرذاذ إلى رائحة عشبية. طارت الفراشة وتوقفت على شجيرة هندباء بيضاء.. بينما انحدرت الغيوم كثيرا حتى كأنها بدأت تلامس القمم القريبة واكتسب الفضاء لوناً داكناً.

ترى كيف سيراني؟

التفتت إلى الفتى المتمدد على العشب وهو يقلّب البيضات المرقطة بين أصابعه:

- أيتذكرني عمك؟

لم يقل الفتى شيئاً لكن الفراشة الواقفة على وردة الربيع البنفسجية قالت:

- سأمضي عنكما أحبائي. اشعر بمطر غزير سيأتي ولا أقوى على زخاته.. هرمتُ ولا رومانسية بقيت في القلب.. هيء هيء هيء

كانت نالين تتخيل مشاهد كثيرة رأتها ومرّت بها وكان قلبها يعتصر من شدّة الرعب الذي استحضرته الآن وهي تدنو من عرين أخ الآخرة..

- عمك يقيم أبعد من الغيوم..!

رد الفتى وهو يلملم بيضاته المرقطة:

- عند تلك الغيمة الأخيرة.. أرى عمو من هنا جالساً كإنه الله ينظر الينا.. ههههه

التفتت نالين وراءها فرأت المخيم وقد تصاغر كثيراً وبانت ملامحة غاطسة في ظل الغيوم الكثيفة. وللحظةٍ شعرت إن كل شيء يتصاغر ويتوارى كلما

صارت فوقه، بينما تبقى المسافة وجهة نظر؛ فالمسافة التي قطعتها صاعدة هي المسافة ذاتها التي بقيت وراءها، لكن الحجوم تتغير بين المسافتين.

التفتت نالين إلى الفراشة:

- يا خالتو أنت أيزيدية..؟

لوت الفراشة رأسها وابتسمت:

- أنا مسيحية من القوش.. لكني هاجرتُ منذ زمن بعيد.. أتنقل في هذه المراعي فهي مريحة لي.. العمر له أحكام سيدتي. عندما تكبرين مثلي ستحتاجين الطبيعة لأنها تمدّ بعمرك..

- آه. صح.. انت حكيمة خالتو..

طارت الفراشة ورفرفت قريبة من وجه نالين. طبعت قُبلة ناعمة على شفتها السفلى. وحيّت الفتى وابتعدت..

مراثي النبي

نحن أقلية أرانب في غابة ضباع

لن أسير بعد اليوم الا وعصايَ معي

سربست

عبرا من على قنطرة حجرية آخر شلالٍ صغير اكتظ بالماء الوفير حيث تتزاحم أغصان وأوراق خضراء بحجم الأكفّ وأزهار ملونة وطيور الكولي والسوسرك المصوّتة.

كالعادة سبقها الفتى وفرش بيضاته أمام العم الجالس في باب كهف متربعاً كبوذي.

لم تتبينه نالين أول الأمر. رفّت عيناها بطريقة متلاحقة لم تستطع فيها إيقاف تداعيات هذا الرفيف.

- العمة نالين منذ ساعتين وهي تصعد الجبل معي..
- مَن؟ نالين..!
- عمتي نالين تعبت من الصعود..

فزّ الرجل كأنما انتبه إلى وجوده الشخصي المبعثر.

تلفت إلى كل اتجاه بلحظةٍ واحدة لكنه استكان باللحظة ذاتها كمن يهدأ بعد لسعةٍ مفاجئة..

تمتم بشيء فيما انصرف الفتى إلى وضع بيضات السمّان في شق تشرف عليه أعشاب الحَسَك.

اختلجت عيناها وحاولت أن تضع ابتسامة على وجهها لكن حزناً مفاجئاً غمرها وهي تنظر إلى هيكل سربست الشبحي بلحيته غير المناسبة التي أضفت

عليه عمراً فوضوياً، وتلمح عصاه السوداء في حضنه.

التقت عيناها بعينيه.. سربست أخي.. كانت لحيته سوداء يخالطها شيب مبكر يتوزع بلا انتظام على وجهه المسحوق..

تباطأ في النهوض لكنها سارعت لوضع يديها على كتفيه وبركت وأجهشت بالبكاء. لم تتمالك دموعها كما لو تحولت إلى طفلة مذنبة أمامه.

حطّ أكثر من طائر ملون على شجيرات العَرن اليابسة وهدلت طيور تسارع للإختباء تحت الأغصان والأوراق بعدما هطل المطر.

اقتربت نالين منه وهي تغطي رأسها بشال أبيض شاعرة بأن البرد على الجبل اكثر مضاءً في جسدها والمطر أكثر وقعاً عليها.

- سلامتك أخي سربست..

كانت لحظة صعبة عليها ما كانت تريدها غير إن الأمر تفاقم فيها منذ إنْ هربت من شبّاك البيت وآخر ما سمعته هو صرخة العمة شيرين. انقادت في ليلٍ مظلم وممطر تسحب وراءها فتاتين بصعوبة وعناد..

- أنا نالين.. أردتُ أن أخبركَ بهذا.. هربتُ من داعش أخيراً..

كانت تعصر بيديها ووجهها محتقن وهي تنظر إلى الرجل بقلق.

وجدتْ إنّ الكلام يختنق بين شفتيها ورعشة برد تتسلل إلى روحها.

قبل أن تصعد إلى آخر غيمة كانت الهواجس المركّبة فيها تتداخل وتصطدم بحقائق شنكال المختطفة.

كانت في القعر الشنكالي الأسير وهربت بحملٍ كاذب، وحينما أخبرت الآخرين بفقدان من فقدوه على قدر درايتها وما رأته من أهوال؛ لم تنس سربست ولا نشتُمانته الجميلة.. كنّا ضعيفات. ذبحوا أيزيديا في غرفة الاستقبال. اتهموه بأنه يتجسس عليهم وينقل أخبارهم إلى رجال المقاومة في شرفدين.. ذبحه الأمير وجاء برأسه الينا. العمة شيرين تحمي نشتُمان التي كانت تلهج باسمك ليل نهار. يا عيني. قلنا لها نحن في حرب. لم تعرف سواك.

شنو الحرب عمة شيرين.

نحن اسرى يا بنتي..

شنو أسرى..

يعني محبوسين هنا إلى أن خودا يحلها..

وين بابو؟

العمة شيرين صاحبة القلب الكبير خرقت بطنها سكينة وقلبت أحشاءها فوق جسد نشتُمان.. هذه هي الحرب أن نموت بسهولة كما يقولون.

بحثت عنه لتقول له ان طفلته هناك وعمتها شيرين ماتت وهي تحميها في آخر لحظة. إنه قدر ولا بد أن نتحمله ونحافظ على مَن بقي من أيزيديي الدين بعدما عرفت إن سربست يعتكف هنا منذ شهور وإنه تحول إلى كائن آخر وإنه أصبح مخبولا كما يردد أهل المخيم، أو فاقد الذاكرة، أو انساناً فقد الكثير من اسمه القديم كمهندس زراعي وأب مثالي اختطف الموتُ زوجته الجميلة وأبقاه مع صبيته التي أخذت من أمها ملاحة الوجه ورشاقة الجسم ووسامة الأنثى اللافتة بشعرها الذهبي وعينيها الزرقاوين.

تتردد قليلا.. تجثو امامه وعيناها تكتظان بالدموع.. كيف حالك.. تتماسك اكثر وهي تضغط على شفتيها وتحبس نبضها المتسارع..

- انا نالين. عرفتني؟

تغالب دموعها.. نشتُـ.. نشتُمان تركتها بخير.. العمة شيرين.. قتلوها.. قتلها شيشاني وسخ.. البقاء لخُودا الذي لا يموت وطاووس ملك حامي الأرض.. أنت تقتل نفسك بالعزلة.. خدعونا كلهم.. باعتنا الحكومة وباعتنا البيشمركة.. انا فقدت اهلي كلهم. هربت بعد ان كنت أسيرة في البيت الذي فيه نشتُمان والعمة شيرين.. عدت وحدي إلى المخيم.. ضاع كل شيء مني ومنك ومن الأيزيديين الفقراء كلهم.. الرحمة يا رب.

تموت الكلمات فيها. بدا هيكلا جامدا لا روح فيه.. أحسّت انها ستتلاشى وتتبخر كما لو ان طاقة سوداء تتسرب اليها.

- هل الحياة خطأ إلى هذه الدرجة؟
- خطأ إلى هذه الدرجة.
- وكيف نصححها؟

- لا نقدر. هو قدر.
- وكيف نعيش في هذه الغابة الخطأ؟
- مثلما عاش مَن قبلنا..
- بالخوف والذعر والسبـــي؟؟
- هذه هي الحقيقة. نحن أقلية أرانب في غابة ضباع.
- وما الحل؟
- نبقى...
- 74 مرة.. هل قرأتِ التاريخ ايتها الراهبة؟
- قرأته.. وحفظته عن ظهر قلبـــي..
- نحن مظلومون حتى ما بعد يوم القيامة.
- شيخادي ذات يوم صعد إلى السماء وأكل خبزاً وبَصلاً مع الله وتكلم معه بالكردية، وفي يوم القيامة سيحمل الشيخ طبقاً فوق رأسه ليحمل الأمة الأيزيدية ويدخلها الجنّة بغير حساب. شيخادي شـــفيعنا أمـــام الرب الرحمن الرحيم العادل العظيم. الرب ينظر الينا ويمتحن صـــبرنا وإيماننا كما اختبر طاووس ملك من قبل.

ظل نظره يمسح الوادي البعيد وهو يتساءل بخفوت كأنمـــا يكلّـــم صـــوتاً بعيداً:

- وبقيت نشتُمان وحدها..!

خمّنت إنه يتحدث اليها. تلكأت وهي تعصر بيديها وعيناها ترفّان:

- ستكون بخير يا أخي..
- وشيرين قتلوها..؟

ارتبكتْ وطردتْ من رأسها مشاهد متفرقة لا يمكن نسيانها، لكنها حاولت أن تتماسك وتتشجع:

- كانت أختاً عظيمة. حَمَتنا حتى آخر لحظة..

استدار بجسده اليها كما لو يراها لأول مرة والتقت عيناه الذابلتان بعينيها الحزينتين:

- فقدتُ روحي.. حوّلوني إلى كائن سلبـــي. كنت مهندس الـــورود في شنكال وأصبحتُ عبئاً عليها اليوم.. لا اعرف من الورود حتى اسماءها.. شنكال صارت ذكرى وحلماً كما لو لم تكن موجودة ذات يوم..

قالت وهي ترى عينيه الذابلتين وترتبك لصوته المتهدج:

- كان القدر أسرع من أن نتلافاه.

هرسَ وردة صفراء صغيرة قطفها من شجيرة تتكوم بين رجليه:

- .. قتلوا كل شيء عظيم في داخلي.. زوجتي ماتت واختي قُتلت وابنتي اسيرة. ماذا تبقى لي في هذه الحياة..!

كما لو وجدت إنها غير مهيأة للمراثي المباشرة دمعت عيناها وهي تتملّـــى ذبول الأب فيه وترى كائناً آخر فعلاً فقد الكثير من وسامته وشخصيته وروحه.

أربكتها العصا السوداء المستلقية في حضنه حتى تخيلته مقصوص الساقين.

قالت بصوت يختلج في حنجرتها:

- **الحياة هي ما تبقّى.. ونشتُمان ستعود بإذن الله.**

قال بشكل مباشر:

- **وأخيراً فهمتُ إن الدّينَ أحد أسباب آلام البشرية..**

فوجئت لكنها عدّته عذراً من أخٍ مفجوع:

- **لم يكن الدين سبباً بمأساتنا.. ظلمَنا التاريخ..**

- التاريخ لا يَقتل بل تضخيم التاريخ هو الذي يقتلنا كل يوم وداعـــش أحد أسباب التاريخ الدموي..

اختبرت صوتها من جديد:

- ليست شنكال وحدها التي قتلوها وقتلونا فيها..
- شنكال موضع الألم وجمرة القسوة التي سبوها واستباحوها بهمجيـــة. وشنكال حضن نما فيها طويلا من دون أن ننتبه إلى ما يجري حولنا..
- كنا بأمان..
- لا.. كنا نتوهم الأمان. كان علينا أن نتخلص من أعباء تاريخية رافقتنا طويلا حتى خدّرتنا يا أختي الراهبة.

أركن عصاه إلى جانبه. فاطمأنت إلى إن ساقيه ليستا مقصوصتين. قطفَ وردة صفراء فتّتها بين اصابعه وقال:

- الدين الذي يهرب في الحرب دين بلا هوية لا معنى له وليست لي علاقة به.

- الأديان لا تحارب يا أخي. الأديان مفاهيم أخلاقية وليست حربية.

رأت ذبول عينيه ووجهه وقرأت في نحافته حجم الألم الذي هو فيه:

- الدين الذي لم يحمِ ابنتي دين هوائي كما التاريخ.. حبرٌ على ورق.

همست بخفوت كأنها غير واثقة مما تقول:

- لا تيأس اكثر من اللازم..

استدار بجسده اليها. نظر إلى الوجه المؤطر بشالٍ أبيض ولم يقوَ على ابتسامة أرادها أن ترحب بالمرأة التي تحيطها هالة من الحزن:

- **اجلسي أيتها الأخت الراهبة نالين عليّ أن أصارحكِ بالكثير..**

لمت ساقيها وجلست مرتبكة، تاركةَ فاصلاً عشبياً بينهما وهي تحيط بوجه الرجل الذي يتقطر حزناً.. **سربست الوسيم وقد تحول إلى كتلة حزن.. يا خودا.. صعقته الحرب وأهانته داعش في صميم روحه..**

دعاها أن تقترب أكثر فزحفت قليلاً وعيناها تكثران من الرفيف؛ وهي عادة عصبية لازمتها منذ ان كانت في الأسر بعدما قصّوا لحمتها الصغيرة وحينما عادت إلى المخيم بأعجوبة كانت ترى الحياة عبارة عن صور متلاحقة لا تقف عند صورة واحدة.

رفع عصاه السوداء ورسم دائرة حولهما. ابتدأت من حافات قدميه ودارت بشكل سريع حول هيأة المرأة وعادت تلتقي في نقطة البداية. فأضفى هذا الدوران عليها شعوراً بالألفة أكثر فاستكان شيء من روحها المعذبة.

عاود النظر اليها من جديد:

- أفكر بدينَيْن أحدهما سرق ابنتي والآخر لم يحمِ ابنتي.

انشدّت اليه مستمعة وعلامات غموض بانت على رفيف عينيها:

- أي دين اخي سربست!

- الدين الذي اغتصب ابنتي والدين الذي لم يحمِ ابنتي..
شبكت اصابعها على ركبتيها ونظر إلى وجهها الذي يكتسي بغلالة حزينة. كان الشال الأبيض يرسم حدود وجهها الأبيض. كانت محظوظة كما يراها أمامه:
- أقسم لكِ اليوم إن صورة كل الأديان توضحت أمامي.. توضحت كما لو تتوضح من قبل.. كنتُ جاهلاً. أعمى. ابنتي يغتصبها اليوم كلاب الجاهلية في إسلام عصري استقدم راية الأمس على نحوٍ فظيع وأنتِ شاهدة وشهيدة..
صمتت وهي تنظر إلى الأفق الغائم.
خرج الفتى من فوهة كهف. لم تتبين ملامح المكان بشكل جيد، غير إنها تيقنت إنه نفق اختاره سربست ليبتعد عن ألم الجماعة ويستقل بألمه الشخصي..
تمتم:
- لا يوجد أحد يفهم المصيبة الا من داخله. مصيبتكِ كانت فردية كمصيبتي.. الجماعة مصائب فردية.. لذا فالحلول فردية يا أخت..!
قالت بأسى وعيناها ترفّان:
- الجميع في محنة. كلنا مسبيون نساء ورجالاً. ضاع كل شيء بلحظة غبية لم نكن قادرين على فعل شيء أمامها.
ضرب الشجيرة بعصاه فتساقطت حبات ماء وتناثرت الأوراق الصفر:
- كل البشر الذين يملأون مخيمات النازحين من شنكال وبعشيقة وبحزاني هم بمصائب فردية وكل واحد يفكر بمن فقده وتوطنت فيه حكمة أخيرة أمام هذه الوحشية. لا أحد ينظر إلى القضية بشكلها الجماعي.. جماعية المأساة تجعلنا في يأس وألم.. هذه هي الحقيقة. الآخرون ليست لهم علاقة بابنتي. فلديهم بنات وزوجات مخطوفات وأسيرات ومغتصبات وربما الآن حوامل..!
لا تعرف إن كان عليها أن تدافع أو توافق لكي لا تثير مواجعه:
- لا تنس. نحن أقلية صغيرة ودين محدود لا يتعدى الجبل. طائفة محكومة بالتقاليد والأعراف..

لم تتوقع أن يكون هذا هو الحديث بينهما منذ إن عرفت إنه يعتزل كمب المهجرين ويقيم على الجبل منذ شهور طويلة:

- وما حكمة هذا الإنغلاق!
- نحافظ على نقاء دمنا الأيزيدي..
- وهل هذه حكمة؟
- هذا بعضها. دين لا يسمح أن يتلاقح مع الآخرين. لا يأخذ ولا يعطي. هذه حكمته.

وجدتْ إنها محرجة ولا تستطيع الخوض في تفصيلات معروفة، لكن في داخلها تعذره لمصابه بفقدان صغيرته اليتيمة. فربما شوّش هذا على ذاكرته ووضعه النفسي المحطم.

- بماذا تفكر الآن. ولِمَ أنت منسحب عن الآخرين.. انت تقسو على نفسك.

تطلّع بعينين غائرتين إلى مكان بعيد:

- وُلدنا بلا خيارات. ولدنا أيزيديين بالفطرة بلا نبي. ولدنا بدين كهنته جهلة وشيوخه لا يعرفون ما يدور حولهم. نساؤه لا يعشقنَ ورجاله لا يختارون زوجاتهم بإرادتهم. ابتعدنا عن الحياة كثيراً وضاعت الفرص أمامنا على مدار الزمن..[1]

تأملت وجهه الذابل، قرأت قسوة الشهور عليه:

- التاريخ ظلمنا كثيرا والدين لا علاقة له بما جرى
- الدين أحد اسباب التاريخ الأسود فينا.

علتْ نبرة صوتها قليلاً:

---

(1) لا يسمح للمرأة في الدين الأيزيدي أن تتزوج من غير دينها بل وحتى من غير طبقتها. وما حصل مع داعش خرق نطاق هذه التعليمات واقعياً حينما اغتصبوا البنات الأيزيديات باعتبارهن سبايا لدولة الخلافة، ولابد بعد مرور هذه الفترة حدث حمل بالإكراه وولادات متعددة. وهذه مشكلة أخلاقية واجتماعية ودينية ونفسية سيعاني منها الأيزيديون مستقبلاً.

- أنت تكفر يا أخي.
- إن كانت الحقيقة هي الكفر فأنا أكفر.
- ولِمَ تفكر بهذه السلبية يا أخي؟

وقفت أمامهما قُبّرة رمادية. صوتت قليلاً وطارت. تاركة بينهما صدىً من رفيف..

- الدين الذي سلب ابنتي هو الدين الذي سيرجعها لي. الدين الذي يفتح جرحاً هو نفس الدين الذي سيغلق الجرح.. لكن بعد خسارات لا حصرَ لها..

ودّت لو ينقطع الحديث.. وجدت فيه إصراراً على شيءٍ غامض:

- لم أفهمك أخي الطيب..
- يا أختي المتدينة.. سرقوا طفلتي باسم الدين جواحش الإسلام وزبالة التاريخ.. ربما الآن اغتصبوها بطريقة وحشية..

هدأ وجهها قليلاً كما لو تتضامن معه:

- التاريخ رهيب. قتلونا في التاريخ واغتصبونا مراراً. ندفع حماقات التاريخ.. ندفع حماقات الأديان التي ضحكتْ علينا..

كأختٍ متدينة قالت بهدوء:

- ما عهدت فيك القسوة بهذا الشكل.. خلّ إيمانك كبيراً بخودا وطاووس ملك.

دَعَكَ الكثير من الأوراد الصفر الزاحفة أمامه بحركات لا تخلو من العصبية:

- نحن ضحايا الفتاوى الجاهلية.. 74 غزوا في تاريخه.. أي دين تعرض لمثل هذا العدد من الغزو..!

صفنت قليلاً كأنما تتذكر شيئا ما وهمهمت:

- نعم. والمصدر واحد.
- اذن تتفقين معي إن نشتُمان استلبوها على مر العصور.. نشتُمان الحلوة التي اغتصبوها على مر التاريخ.. أنفسهم هم دواعش التاريخ يتكررون اليوم بغطاء جديد..

تنفس قليلا:

- لكن بنفس الشعارات المخيفة..

واضاف كما لو أمسك بشيء:

- نشتُمان تغتصب في كل العصور باسم الدين.. الدين نفسه اغتصبها 74 مرة يا أختي..

- هؤلاء شذاذ الدين. خالطتُ المسلمين والمسلمات من سنوات و لم يكونوا على هذه الشاكلة من الدين أبداً..

أصرّ بعناد:

- هذا الدين له قدرة على إحياء الماضي والتاريخ بطريقة عجيبة.. دين مطاطي يفسرونه وقتما يشاؤون..

- ألا ترى إن الناس تكرههم حتى من الدين ذاته.. هؤلاء ليسوا دينا حتى لو مسكوا راية الله بالأسود والأبيض..

يوصلني إلى السؤال المضني الذي لا جواب له:

- وكيف اعثر على صبيتي الوحيدة!

- ستعود إن شاء الله. خودا عظيم ولن ينسانا..

يختلج الكلام بصدره وتطفر أكثر من دمعة بعينيه فتشاطره الدموع بصمت.

تحكم الشال الأبيض على رأسها بعد نسمة جبلية باردة نثرت حبّات المطر على الشجيرات المستكينة حولهما.

- طوّل بالك أخي.. الحياة أجمل من هذا بكثير..

تتحرك وتختلج دموعها. تنهض باكية و لم تستطع أن تتماسك امام شجن الأب الآسر.

تحضر صورة نشتُمان الأخيرة أمامها. طفلة مفزوعة يحيطها الرعب والقتل والغموض فتتشبث بالعمة شيرين وتلقي عليها طفولتها اليتيمة..

- على مر التاريخ كنّا وقوداً للأديان. نحن النقطة الأضعف في التاريخ الديني كله.

عادت المرأة وجلست على عشب حاسرة فخذيها وهي تكفكف دموعها:

- 74 غزواً! يا للعنة التاريخ.. لماذا يحدث كل هذا بنا؟

رفّ قلبها بطريقة مزعجة واصفرّ وجهها وهي تكابد في هذا الحوار الذي لم تكن مهيأة له..

طاف رأسها حول معبد لالش للحظات وشمّت رائحة الستين والتوت والزعتر والبخور..

- زرت لالش قبل أن آتيك. تباركت بضريح **شيخادي**. دخلت المعبد ثقيلة بأعبائي التي أحملها وخرجتُ خفيفة مثل الريشة وجئت اليك.

همهم بخفوت:

- منذ فجيعتنا لم أدخل لالش و لم أزر أي معبد أو خاس[1]. نسيتُ كل شيء.. لكن لا ألومكِ. الانسان ضعيف.. كنت أفعل هذا سابقا واحرص عليه..

كظمت غيظها وفي داخلها تبرر مثل هذه النزعة الارتدادية لرجل فقد وحيدته الصغيرة بظرف وحشي مُهلك..

- نحن في لعنة التاريخ.
- التاريخ لا ذنب له.
- كلما أقرأه أخاف.
- نحن غنائم التاريخ السهلة وقنطرة العبور إلى اللذة الجنسية الاسلامية كما يبدو.. نساؤنا فاتنات وخيرنا وفير وهواؤنا عليل ومكاننا جبال.. لكن ديننا غامض..

اجتزأت بعض قوله لتؤكده:

- اتفق معك.. نحن غنائم التاريخ السهلة..

ارتجّت السماء برعد خلّف وراءه بروقاً متقاطعة أنارت للحظاتٍ مشهد المكان الصاعد ثم تفتقت الغيوم عن مطر ثقيل.

نهضت وهي تهب لمساعدة الرجل لكنه وقف ونظر إلى السماء عبر سقائف الأشجار المتكاتفة فوقه.

---

(1) الخاس هو أي ضريح لأي ولي صالح..

- نحن طائفة صغيرة منغلقة على وهم قديم.. شعب يسير إلى المجهـــول.. في كل عصر نتعرض للسبـــي والغزو.. كل دين له نبـــي وكتاب إلا نحن..

ظل سربست واقفاً يتأمل المكان لكن نالين تدخلت وهي تشعر بإيمان قوي يختلط بقلبها:

- بقيت الأيزيدية في بقعتها الخلاقة. فرقنا عن الأديان القديمة تلك إننـــا نعبد خودا. الرب الوحيد الذي خلق الليل والنهار وخلـــق الشـــمس قِبلتنا. لم نعبد مظاهر الطبيعة مثل غيرناحتى لو لم يكن لنا نبـــي. بقي الدين لأنه يؤمن بالله الواحد. لا فرق بيننـــا والإســـلام إلا بوجـــود نبـــي.. نحن أبناء التاريخ القديم.. ابناء طاووس الملاك الجميل الذي لم يسجد لغير الله.

كأنما لم يعد مهتما لِما تقول:

- نحن أبناء الخطأ في التاريخ. حتى الحيوانات تعبد الله وتخشاه بطريقتها. فلا نبـــي عندها ولا كتاب..

أرادت أن تخفف وطأة الخراب في داخله:

- افهم تشاؤمك وافهم انك تتكلم بردة الفعل العنيفـــة.. معـــك حـــق كبير.. لكن المقدس شيء نظامي عليك أن لا تخرقه..

كان الفتى قد جلب قدحي شاي من داخل المغارة. وضع الأول بيد المـــرأة الحائرة وترك الآخر على دكّة صخرية قريبة من العم الواقف..

- انفتح رأسي اخيراً بعدما كان مغلقا كصندوق العجوز. نحن عجـــائز الأرشيف التاريخي المزمن.

- لا تنس إننا بقينا كطائفة حافظت على موروثها الديني آلاف الســـنين ولم تنفع معها فتاوى وفرمانات الكراهية من أن تثنيها عن دينها.. لا داعش ولا ماعش ولا غيرها تقتل روح هذا الدين..

- وما فائدة البقاء الأعمى! نحن عميان بوصايا عمياء أكل الدهر عليهـــا وشرب.. الحياة تتطور والحضارات تتلاقح ونحن نطرد ونتخلى عـــن

البنت الأيزيدية التي تعشق من غير دينها. بل حتى عندما تعشق من غير طبقتها!

هزّت رأسها وهي ترد:

- لا أناقشك بأمور أنت خير مَن يعرفها.. هذه شروط الدين.. مثلما للإسلام والمسيحية شروطها وقوانينها هذه شروط الدين الأيزيدي أن نحافظ على نقاوة دمنا من الإختلاط بالآخرين..

صاح بعناد:

- جهلة.. لا قراءة ولا كتابة ولا معرفة ولا تحضّر.. بقينا رهائن الأضرحة هنا وهناك..

احتدّت المرأة وهي تضرب كفا بكف:

- واو.. انت تكفر يا أخي..

بنفس العناد رد وهو يمسك قدح الشاي بيده:

- بعض الكفر مطلوب أكفر بكل شيء ما دامت ابنتي ضاعت ويغتصبها حثالات البشر من مسلمين وغير مسلمين. كانت نشتُمان دمية حلوة وصغيرة ومدللة لكنها الآن.. لا أعرف.. لا اتصورها إلا بأنها دمية حلوة تلعب ببراءة..

اختلجت امامها آخر رؤية.

هذه هي نقطة الضعف التي لا تقوى عليها.. العمة شيرين وصراخ نشتُمان والرأس المقطوع وفزع البنات في المطبخ.. ارفعي من صوت الشيخ حسن العجمي.. هذا الخنزير سيذبحنا.. كنتُ خادمته وهربت حاملاً بخِرق بالية.. كنت ثلاثة أيام اركض بين السفوح والجبال حتى لا يغتصبوني يا أخي.. هينار تعبت واعتلّت صحتها وأسرت وهفيدار أخذوها من جديد. اغتصبوها.. وأنا....!

نظرت إلى عينيه الباكيتين..

كانت تقول إن دموع الرجل ثمينة وإذا بكى الرجل بكت معه الملائكة.. هوّن على نفسك يا أخي.. شوف المخيم.. كل أسرة ولها مصيبتها في بناتها

الأسيرات المخطوفات.. هناك زوجات تعرفهنّ وقعن في فخ داعش المجــرمين.. اغتصبوا حتى المتزوجات..

انتبهت إلى تقادم الوقت. كان المرتفع المطل على المخيم بــارداً والســماء تكتظ بالغيوم والمطر يخف ويشتد والعصافير تخرق الأغصان مصوّتة بإلحاح..

سألتْ وضيق ينتاب روحها كأنما عادت اليها ايام الأسر السوداء:

- وماذا ستفعل يا أخي...
- يبدو إن خلوتي انتهت.. اكتسبتِ التأمل الكافي لأن أكون كما اشاء.. أريد أن أكون نبياً أو وشيخاً بطريقتي.. أريد أن أخرج للناس بوصايا أخلاقية ثمينة شأني شأن غيري لكن أولا أريد العثــور علــى ابــنتي وحيدتي..

بهتت نالين وانفتحت عيناها على وسعهما.. لكنه استطرد:

- نبــي؟؟ هل جننت يا رجل؟
- سأكونه وبجدارة.. سنؤسس أنا وابنتي بعدما اجدها دينــاً جديــدا.. كتبت كتابه ووزعته مع الرياح ومع القصاصات الصغيرة التي يأكلها الطير والمطر والطين والفراشات.. دين انساني جديد.. لا يعرف إراقة الدماء ولا استباحة الناس وهتك أعراضهم.

أعادت نالين أحاديث أهل المخيم على نحو سريع.. سربست ليس طبيعيا.. جن الرجل.. ابنته غالية عليه.. يسكن فوق مع الأشباح.. صار جنياً ومخبولاً.

أكمل سربست:

- أحمل بداخلي 74 غزواً.. إنه تاريخ طويل من الفزع والرعب والخوف والمجهول.. فرمانات عثمانية وفارسية وصفوية لا نهايــة لهــا. كــل الأيزيديات المسبيات والمغتصبات هنّ بناتي وصغيراتي على طول التاريخ وعرضه.. اليوم أحمل هذا العبء الثقيل بعدما وصلت النار إلى بــيتي وابنتي.. نعم. المصيبة فردية والرعب جماعي لكــن الجماعــة فكــرة سائبة كما في المخيمات التعيسة.. الجماعة المهزومة لا تنتصر طــول تاريخها..

أشار بعصاه إلى الكتلة السفلى من الوادي حيث يقبع المخيم الشمعي الذي تخفيه الغيوم.

وجدتْ إنها غير قادرة على أن تقول حكمة سوى أن تضع دفاعاتها الجاهزة:

- هذه هزيمة من الداخل وهم يريدونك أن تفكر هكذا.. يريدون من كل المهزومين أن يفكروا مثلك لتزداد الهزيمة وينفرط الدين.

قال بثبات:

- الانسان هو الدين كتاب مقدس لوحده. علينا أن نجمع الإنسانية بكتاب واحد وإلهٍ واحد بدل هذا الإستقواء باسم دين واحد.

قالت بإصرار:

- لكن هؤلاء وحوش وشتات ومجرمون وهم ليسوا الدين لماذا تريد خلط الأوراق..؟
- لا احتاج لوصايا السلف بعد. الحياة تتغير ولابد أن يتغير الدين أو نستغني عنه. لا أُخْضع نفسي بعد اليوم لأي دين سوى دين نشتُمان.. لا أمتثل لوصايا وفتاوى.. خذلني ديني الصغير الغامض السرّاني الذي لم يقدم لي السلام والأمن..

نظر اليها بعيون ذابلة:

- لنعترف إنه دين ضعيف يا راهبة.. بلا مكابرة..
- ما توقعتُ أن تصل إلى هذه الدرجة من الكفر. ابنتك ليست نهاية الدين.
- هذا كفر الضرورة عند اكتشاف الحقيقة المريرة التي لا تتقبلونها. أريد أن أجد نفسي في عصر غروب الأديان..

نظرت إلى عتمة المغارة:

- لكنك تعذب نفسك وتخرج من الطائفة وتصبح غريباً..
- ههههه.. لا أريد طائفة تتكرر عليها المصائب وتؤرخها فقط.
- هذه ضريبة نَسَب الدم ونقاؤه..

كان صوته حاداً وقاسياً يفترعه غضبٌ تدركه المرأة المحاطة بالقلق:

- لا اريد دماً تلوثه الحروب والغزوات واللقطاء.. سيكرر التاريخ المقبل مثل هذه الغزوات لأننا المنطقة الرخوة بين الأديان..

تغيرت ملامحها وهي تزيد من الشرح:

- انت مختلط عندك الخوف بالخيال.. عليك أن تصفن مع نفسك من جديد وتتأمل وصايا القديس شيخادي الذي سيُدخلنا الجنة على طبق من دون حساب لأننا أمته الصغيرة التي كابدت وعانت. نحن أمته الصغيرة. أيزيديو الزمن الطويل. ايزيديو دين حاولوا إلغاءه منذ أول فرمان يوم كانت الحياة حميراً وخبزاً وبصلاً قبل قرون طويلة وحتى داعش في عصر الاتصالات والميديا الحديثة بأسلحة فتاكة ونزوع للشر لا مثيل له.. تأمل شيخادي وهو يتوسل إلى خودا لإنقاذ امته الباقية ودينه الصغير ليدخل بهم الجنّة من دون حساب.. سيتكلم خودا مع شيخادي بالكردية لأنها لساننا الأصيل. سيترك خودا العلي القدير كل اللغات ويتكلم بالكردية مع شيخنا..

رأت في وجهه استخفافات لكنه ظل صافناً بعض الوقت قبل أن يقول:

- سيأكل هذا الدين نفسه بنفسه في المستقبل القريب. هذه حتمية التاريخ. الناس دخلت عصراً جديداً من الحياة وما الدين الا معوق لا يصلح كثيراً في هذا الزمن.. هذا الغزو الداعشي قضى على كل أمل بأن نمضي في خرافة الدين لتوفير بعض الاطمئنان الروحي. باقون على هامش الحياة طائفة صغيرة تتناسل فيما بينها ويتحكم بها الزمن والسلطات المتعاقبة.. تكفير متلاحق وسبي متلاحق.. من أجل ماذا..؟

وجدت نفسها محتقنة وهي تعيد بين لحظة وأخرى تحولات الرجل الفكرية.

لم تتوقع أن يخرج كل هذا من رأسه المعذّب..

قال بعد إن أخرج نفساً عميقاً من صدره:

- الأيزيدية ديانة شعبية ومُتحفية وعلى الآثاريين أن يحصونا قبل أن ننقرض. نحن متحف حي حتى الآن وليس بالضرورة أن نستمر.

حينما أشاح بوجهه عنها استطرد بحماسة:

- نحن متحف شرقي بامتياز. أكراد باللغة. مسلمون بالصوم والختان. شمسيون كالزرادشتيين وصابئيون ومسيحيون بالتعميد وصوفيون بالتجليات. خرافيون وأسطوريون وشمسيون.. نحن دين بلا نبي وليس مهماً أن يبقى هذا الدين في الحياة.

حدقت في الأفق المظلل بطبقات من الغيوم التي تغطي قمم الجبال البعيدة. وجدت انها غير قادرة أن تسعف الرجل.

أفكار كثيرة تناوبت في داخلها وصور أكثر تداخلت من شنكال حتى الجبل وهربها والمخيم. وجوه هينار وهفيدار ونشتُمان والعمة شيرين لا تفارقها.. أفكار سربست داهمتها على غير ما تتوقع.. الدين في محنة.. كلّمتْ نفسها.. وأخ الآخرة يهذي كثيراً.. خرج عن طوره وبتُّ أخاف عليه من نفسه..

- هل تنوي الخروج من الدين؟
- عندي حلم أخير هو نشتُمان. هي ديني الوحيد فإن عجز الدين عن جلبها لن أعجز كأب مهما طال بي الوقت والشهور والسنوات.
- لكنك ترتكب معصية يا أخي.
- هذا ما جناه عليّ الدين.. علي أن اسارع للبحث عن ابنتي. سيكون معي هذا الفتى الذي قتلوا أهله المسلمين وبقي نقطة سوداء في الحياة. علمتُهُ أن لا دين يشفع له ما لم يصارع الحياة ويخرج من كل شيء وأن يكون حراً..

طفرت دموعها كأنما وصلت إلى لحظة اليأس لكنها حاولت:

- الى أين تريد أن تصل؟ الحل الفردي سيقتلك يا أخي. كل الكوارث البشرية ليست لها حلول فردية. انت تفهم هذا أفضل مني. ستضيع وتضيع ابنتك بهذا التهور.
- عقلي يتحرك منذ شهور. وهذا الشهر الأخير من حمل نشتُمان لو كانت حاملاً.. تصوري.. هذه الدمية الحلوة ستلد لقيطاً من أكثر من خنزير..

إنها النقطة الحرجة في التداعيات تؤذيها وتُربك روحها.

لكنه استرسل:

- عقلي لا يستجيب لأي دين أو فكاهة أو خرافة. عشت أربعين سنة في وهم وضياع وأسر وتعاليم لم أجدها نافعة..
- لو فكر الجميع مثلك ما بقيت للدين حُرمة.
- الجميع يفكرون لكنهم يخافون روحياً.. علينا أن نكون شجعاناً ونواجه الحلول بيقظة وعقول مستنيرة. حزين من إن داعش هي الحقيقة الكبرى التي استباحت نساءنا وأموالنا وبيوتنا وأحلامنا.

نهضت وأفردت قامتها واحكمت الشال على رأسها. عاودت السماء مطرها الثقيل واكتست الجبال بغيوم داكنة:

- فرصتك أن تكون الآن في لالش. تعال نتبارك بضريح شيخادي. قل يا رب وتعال معي. القِ همومك عند الضريح واشرب من ماء زمزم.. تعال تعمّد من جديد يا أخي المهموم.. هذا دينك الأخير وخلاصك الأخير.

احتمت وراء شجرة صنوبر عالية.. اقترب منها سربست ويده تمسك بعصاه السوداء ولاذ الفتى بينهما مستمتعاً بصوت المطر الذي يطرق الأوراق والأغصان. وأخذ يصور العصافير المحتمية والفراشات الهاربة.

- الدين هو أشعر إنني إنسان وفي مأمن من الضواري وهمجية الحياة. الدين الذي يشبه رجلاً بعينين كلتاهما من اليسار أو اليمين يشبه ساحراً متنفذاً يجعلني خائفاً على مدار الوقت.
- أنت غير متوازن وأعطيك بعض الحق لكن لن أقبل أفكارك.. انت تهدم الدين من داخله..
- لا وصايا على الإنسان إلا وصايا الرب.. الرب هو الحقيقة الأخيرة..
- وما هي الخلاصة يا أخي المعذّب.. صارحني بوضوح.
- فهمت بعد هذه المصيبة أن لا خفايا في صدور رجال ديننا كما تعلمنا منذ الصغر وانهم لا يبوحون بها الينا نحن المساكين. هذه فرية لنبقى

على صلة بالغامض والسري من الـدين. لمـاذا توجـد أسـرار في الدين.. كيف تريدون للناس أن تمتلك إيماناً بدين نصفه سر ونصفه ممنوعات!

- هذه هي الصيغة العملية للحفاظ على الدين أمام التاريخ وإلا كيف استمر..!

التفت اليها بعينين ذابلتين غارقتين بماء مترجرج:

- سأقول لك شيئاً بدأت أتذكره في الأشهر الأخيرة بعد غزو دولة الخرافة لسنجار..

انتبهت اليه:

- شيءٌ قديم عاد لي. تذكرتُ نبوءة مضت عليها سنوات قالها لي كوجك[1] عجوز كريه المنظر..

انتبهت نالين:

- كان ذلك قبل زواجي. كنت عاشقاً وقتها.

التفت إلى نالين:

- كنت شاباً في سنتي الدراسية الجامعية الأولى يوم التقيت مع شلّة أصدقاء بكوجك كان قد جاء لزيارة الموصل لأمرٍ خاص به.. قال لي وقتها.. انك يا فتى ستعيش حياة كدِرة مثل السمكة التي تسبح بالماء الخابط.. كنت اضحك في سري عليه.. وسيقتلك ماءٌ من ظهرك.. وكنتُ أزداد ضحكاً وأنا أرثي له..

حدقت نالين بوجهه وهو يتقمص الماضي فوَجدتْه أكثر تغضناً وألماً:

- كرر عليّ القول ثلاث مرات كأنما ليغيظني. ربما عرف إني أضحك عليه.. كنت أرى في وجهه كآبات الدنيا و لم أكنْ مهيأً لأن أكون كئيباً وقتها وأنا العاشق الشاب.. ولعله فوجئ انني لا أحترم نبوءته والكوجك رجل دين في مقامه الأول كما تعرفي..

---

(1) الكوجك: من معانيه انه المتنبئ والخبير في علم الغيب ومفسر الأحلام والرؤى والمنجّم.

جلس أمامها وأكمل:

- كان شكله قبيحاً. أسنانه بارزة كأسنان الحصان وعيناه جاحظتان كعيون الأبقار المريضة ولحيته وسخة وشاربه مفتول كشوارب رجال التاريخ العثماني..

سكت قليلاً وأضاف:

- على غير عادة الكواجك والسحرة وقرّاء الغيب كان الرجل حاقداً عليّ. ينظر لي بارتياب وكنت أضحك بخفّة. ابتسم وأرثي له وهو يعيد قراءته كما لو يراها..

انتبه الفتى للحوار من طرف العم فجلس يصغي:

- اتذكر الآن إنّ إصراره أزعجني قليلاً.. ستعيش حياة كدِرة مثل السمكة التي تسبح بالماء الخابط.. استفزني على نحوٍ ما.. وسيقتلك ماءٌ من ظهرك.. لم أفهم ماذا كان يقصد. بينما كان يقول لأصدقائي ما يسرّهم ويسعدهم. إلا أنا.. غادرنا وهو ينظر لي بكراهية. بينما ازددت ضحكاً ورثاء له..

جرّ نفساً عميقا:

- مضت أربع سنوات مع أجمل طالبة. تخرجنا معاً. وعدنا إلى شنكال مهندسَيْن زراعيين، ثم تزوجنا حتى أنجبنا نشتُمان.. لم أعد أتذكر من حياتي سوى هذه البنت الوحيدة بعد وفاة زوجتي بعسر الولادة وأنت تعرفين القصة..

تهدج صوته قليلا لكنه تماسك:

- عشت مع نشتُمان أجمل قصة حب في حياتي. قصة حب لن تتكرر. أختي شيرين من أجلها لم تفكر بالزواج. صارت أمها. تكفلت برعايتها حتى بتُّ لا أميز أمها الراحلة من أختي التي تحولت إلى أم عظيمة من أجل نشتُمان التي ظلت تكبر 14 سنة وكانت تفيض علي بالحب كالإلهة الصغيرة وتتجمل كل يوم. شاطرة ومليحة وعصفورة. كانت تشبه الله بجمالها..

تأفف وهو يشيح ببصره إلى المطر المتقاطر:

- لما هربتُ.. نعم هربتُ كأي واحد ضـــعيف أراد أن ينجـــو بنفســـه تذكرتُ ذلك الكوجك النبـــي. خطر على بالي هنا منذ إن تركـــت المخيم.. تذكرت اسنان الحصان في فمه وعيـــون البقـــر في وجهـــه وإصراره على إني أسبح في ماء خابط.. تذكرت عناده معي وكُرهـــه لي.. أعدتُ القصة برأسي مراتٍ ومرات ومـــرات.. كـــان ذلـــك الكوجك إلهاً لكن بهيئة نبـــي وسخ..

وقف تحت المطر:

- تحققت نبوءة ذلك النبـــي الحصان. تحققت نبوءة الكوجك.. لا يغادر رأسي. حلّ فيه.. بتُّ استحضره بلا إرادة مني.. الماء الخابط والمـــاء القاتل من صلبـــي.. نعم هذا صحيح..

فتحت عينيها على وسعهما وقلبها يرفّ:

- كان الكوجك على حق.. انا الآن مثل السمكة أتنفس بصعوبة وقـــد قتلتني ابنتي في صميم روحي أيتها الأخت الراهبة المتدينة.

أجهشت نالين وهي تتحدث وتتساءل بضيق:

- أية روحٍ تقمصّتك يا أخي.. هذه روح بشعة تلك التي حلّت فيـــك وغيرت نقاءك وصفاء سريرتك.
- هي روحي ذاتها لكنها استفاقت. كانت في سُباتٍ طويل فأيقظتـــها محنتها الشخصية.. إنها روحي وأنا حر فيها. أريد أن أحرّرها مني أولا حتى أفكّر بشكل صحيح.
- لكنك تعذب نفسك وتتمرد على الدين.
- اعذّب نفسي لأكفّر عن بعض الذنب الذي اقترفته بحق صغيرتي حين تركتها ونجوتُ بنفسي إلى الجبل. اكفّر عن هفوة كلفـــتني عمـــري وحياتي وبنتي الوحيدة.
- انت تبالغ في الذنب يا أخي. فيك روح غريبـــة وأفكـــارك هدّامـــة تلبستك روحٌ شريرة يا اخي الطيب. سأدعو لك كثيراً في صلاتي.

- لا توجد أكثر من هذه الروح التي أحملها فإن كانت سيئة فهي روحي وقدري. لكنها في الأحوال كلها لن تكون روح قديس بعد اليوم..
- أنت مريض يا أخي.
- أربعون سنة كنت في غيبوبة.. منذ أشهر صحوت واستردت وعيي بشكل صحيح.. هذي عصاي التي سأنادي بها نشتُمان.. سألوّح لها بها لتراني. تعالي يا ابنتي. لا تخافي سأكون الرب وأغفر لك. هذا ما جناه عليكِ الدّين. انت بريئة أيتها النطفة البيضاء. انت عذراء سنجار وعصفورها ووردة روحي المعذبة... تعالي يا نشتُمانتي.. هذي عصاي أتوكأ بها كي أحميك. لن أسير بعد اليوم الا وعصايَ معي..

كانت الدموع تترقرق في عينيها وقلبها يخفق وهي ترى انسحاقه السهل. تحول إلى كتلة هائلة من الرماد. رأته يحترق واقفاً:

- ربما ستزول أسباب الألم لكن يبقى الألم. يبقى الأثر..

مسّد لحيته وجرّها بعصبية كما لو يريد اقتلاعها.

دخل الغار يجرّ عصاه السوداء وراءه وهو يحدث نفسه. نهضت نالين وهي في دوامة ورأسها لم يعد يستوعب الكثير من حماقات الأخ المضطرب.. اختلّ عقل سربست.. لم يعد طبيعياً.

نقطة الحياء

قتلونا من نقاط حيائنا وشرفنا

نالين

نطّ الفتى من بين الشجيرات التي تشكّل سقائف متعانقة وهو يحمل بعض ثمار الجوز الصغيرة المغسولة بالمطر..

رفع من أمامها قدح الشاي البارد وظلت عيناها مفتوحتين على الأفق الغائم. كتلٌ متداخلة وأمطار غزيرة تضاعف من وحدة الجبل.

التفتت أكثر من مرة إلى مدخل الغار.

انخفض صوتها وهي تهمس:

- الألم يمضي لكنه يبقى حتى بزوال أسبابه.. نعم الألم يبقى.. هذا صحيح.. زالت الأسباب وبقي العار. اللعنة يا نالين على هذا الزمن الكافر. قتلونا من نقاط حيائنا وشرفنا.. انت محق في هذا..

نظرت إلى شبكات الأمطار المفروشة على سقائف الأشجار. نفس المطر ونفس الغيوم. نفس الرعد ونفس البرق. كنتُ هناك واليوم هنا. أسروني وهربت في ليلة كان البرد فيها يشلّ الأوصال وأسروني ثانية وقضوا عليّ بالعار لكني هربت. كنتُ مؤمنة وأبقى.

كانت تنظر إلى فتحة الغار المعتمة وشبكة الأمطار تطوف الجبل.

سألت الفتى المبلل بالمطر:

- هل يبقى في الغار طويلا..!
- احياناً يبقى يوما كاملا أو يومين أو أكثر..
- ألا تعرف ماذا يفعل..!

- يبكي.. أو يهذي..

تساءلت المرأة بفضول:

- الا تتذكر بماذا يهذي..!

كان الفتى يكسّر ثمرة الجوز برشقها على صخرة صلبة ويلتقط ثمارها:

- دائماً أنصت له.. فلا أفهم شيئاً..

شدّت المرأة وشاح رأسها الأبيض وهي تتقي المطر المنفلت من بين الأغصان.. وأخذت تلتقط لُبّ الجوز الساقط على العشب..

- ألا تعرف ماذا سيفعل سربست!

قدّم الفتى للمرأة لُبّة جوز كاملة تشبه الدماغ:

- سيعود إلى شنكال!

- شنو..؟

فزّت نالين وهي تمضغ اللبّة:

- سيعود إلى شنكال بعدما أرسل له الله وثيقة عبور!

تساءلت المرأة والدهشة تعقد حاجبيها:

- ماذا يحصل يا ولد.. اية وثيقة.. خودا.. خودا كيف يرسل وثيقة عبور لسربست؟

قال الفتى بجدية وهو يشرح أمراً:

- صدقيني يا عمة.. أنا جلبتها له حينما سقطت من السماء..

رفع وجهه إلى سقائف الأشجار وأمال جسد قليلا كي يرى السماء:

- أرسلها بواسطة حمامة زاجل مرت من هنا وأسقطت الوثيقة.

حار الفتى وهو يروي:

- انها في جيب عمو سربست تسمح له بدخول سنجار وكل الولايات الإسلامية.. حتى صورته موجودة..

ثم أضاف كمن يستذكر:

- دارت حمامة الزاجل على هذا المكان أكثر من مرة.. ثم.. ثم أسقطت الوثيقة.. سقطت هنا..

أشار إلى موضع قريب تكسوه أعشاب السرخس.

ظلت نالين تنظر للفتى بشك وكان يهرب من عينيها اللتين أخذتا ترفّــان بعجالة:

- أنت وعمك غامضان يا ولد..

قال الفتى وكأنه يطلب منها تبرير وشايته:

- لا ادري إن كان عمو يسمح لي بأن أقول لك هذا لكنه وقع فعـــلاً.. الحمامة كانت قريبة ورأيتها وهي ترسل الوثيقة من الله للعم سربست ليدخل سنجار بإسم آخر..

كسّر الجوزة الأخيرة بعد إن نزع غطاءها السميك:

- سأذهب معه لنخلّص نشتُمان من الأسر..

ضغطت المرأة على وجنتيها لتوقف الرفيف المتسارع في عصب عينيها:

- يعني الرب ترك مشاكل الكون ومشاكل شنكال ومشـــاكل النـــاس والتفت إلى سربست.. استغفرك يا خودا وأتوب اليك.. انت القـــادر على كل شيء.. سامحني يا خودا.. لا أصدّق هذا التخريف أن تُرسل وثيقة عبور لسربست حتى يدخل شنكال؟؟ لالا.. في الأمـــر وهـــم وخرافة..

لا أصدّق يا خودا.. سامحني..

حربة الشيشاني

تُحدّث الفتى بشيء أو بأشياء ثم تصغي لصوتها المترنح الذي يتقاذفه الصدى في روحها المشققة.

تستعيد كُفر سربست فيقشعرّ جسدها، لكنها في زوايا صغيرة أو كـبيرة تعطيه العذر أو الصمت غير إنها تلعن أفكاره المريبة وتحولاتـه الصـريحة الـتي فاجأتها.

انه مجنون هذا السربست الكافر. نشتُمان ليست نهاية العالَم. شأنها شـأن كل الأيزيديات المختطفات والمباعات في سوق الرق.. لكن.. اووووه يا نالين.. هذه ابنته الوحيدة..

تعيد للفتى حكاية هربها الأول. تقول له خرجت انا والبنات من الشبّاك.. لكن لا تجد الدراما المطلوبة في قصة هرب شاقة تركت فيها نشتُمان تواجه المصير الغامض.

تقول له آخر لقطة سمعت فيها صرخة شيرين ورأيت الشيشاني يغرز حربته في بطنها...

لالالا..

أول مرة ذبح الأسير المذعور. فصل رأسه وجاء به إلى نشـتُمان الـتي لا تدري ما كان يدور حولها..

لالالا

على مهلك يا فتى.

استمع جيداً. ليس هكذا. اني مرتبكة. سأغمض عينيّ وأعيد المشهد المؤلم لشيرين ونشتُمان فقد كان مشهداً مؤلماً لكنه مشهد خلّصني من الأسر.

هربت من الشباك مع هينار وهفيدار.

البيع جاء بـــي إلى دار الشيشاني كسلعة. باعني أحدهم لأنه لم ينل مني فأنا خمسينية لا روح في داخلي ولا أهوى الرجل وأخجل من نفسي كثيراً.. أتفهـــم يا فتى؟ أنا راهبة ولا شأن لي بالرجال..

وجدتُ هينار وهفيدار وشيرين ونشتُمان وكنت أشجّع الفتاتين على الهرب لكن كنت أخشى أن يلمسني ذلك المعتوه لذلك قضيت أياماً طويلة في المطـــبخ والحمّام ولا أراه..

يا عيني يا هفيدار. كانت حلوة مثل نشتُمان والشيشاني عقله بين ســاقيه وهينار القروية لا تقل جمالاً وشباباً، متفتحة مثل الجورية..

كنتُ أرى وأسمع من المطبخ ومعي الفتاتان ترتعشان من الخوف. صــبيتان جميلتان أسيرتان معي وكانت شيرين في يومها الصعب الذي ماتت فيـــه وهـــي تحمي نشتُمان من فورة الشيشاني القاتل.

حاولت تهدئة الفتاتين حينما دخل بعض الجنود ومعهم أسير أيزيدي تركوه في الصالة جاثياً على ركبتيه ممتثلاً وطائعاً والخوف يتطاير من جسده وعينيه ولا نعرف ماذا فعل. فَقَدَ ملامحه كلياً وبات أشبه بكائن متلبس بأمرٍ خطير.

بدا الذعر على وجهه وهو يحملق في الأمير الملتحي كما لو يستفهم عـــبر عينيه المفتوحتين على وسعهما ببياضٍ يسيل منه هلعاً. فيما كان الأمـــير يـــذرع الصالة وهو يتحدث عبر الهاتف النقال ولا يكف لحظة عن شزر الرجل المكتوف وبيده عصا يتدلى منها حزام جلدي قديم.

تتوقف ارتعاشات عينيها وهي تتكئ على جذع شجرة حـــور عملاقـــة تحجب أغصانها السميكة تساقط المطر.

تغمض عينيها وتستدعي يوماً يشبه هذا اليوم منذ سنة.. الجو المصطفق بالبرق المتخاطف على النافذة والرعد المدوّي والمطر الهاطل ولذعات البرد التي تعتري أوصاله كانت تزيد في رعبه وتشلّ وجوده الأسير في ليلة غامضة عليه، معتمة وثقيلة. ومـــع إن الرجال الذين جلبوه من بيته بقسوة خرجوا بعد إن سلّموه لهـــذا الملتحـــي ذي السروال المنفوخ، إلا إن الذعر أوجع قلبه وأرعش مفاصله وأفقده النطق تماماً.

قال الملتحي المنفوخ عبر الهاتف: نعم. فهمت.

ووقف امام الرجل المكتوف كعملاق وهو يستدرك: هذا أمرٌ هيّن. سأذبحه هذا الجاسوس على وفق شرعنا المحمدي..

في المطبخ هدّأت العمة شيرين من روعنا وطلبت بشكلٍ حاسم الإمتثال لسماع القرآن وإعلاء مؤشر صوت مسجل الهاتف إلى آخره وهي لا تخفي قلقها علينا، بينما كان قلبها يرفُّ فزعاً على العروس الصغيرة التي عليها أن تجهّزها. نشتمان وديعتها الصغيرة التي تقضي أيامها معها بفزع ودموع واضطراب وخوف.

عانقتني وكنت أتماسك بصعوبة. الأمر صار حرجاً مع هذا الحمار.. ارفعي الصوت واهربن من الشبّاك..

لكن كيف أتركك شيرين..

اهربي مع البنات أو نموت كلنا..

كنتُ اسمعك تلهجين وصوتك يرتفع خوفاً وغضباً امام ذلك الكائن الذي لا يعرف العربية..

تنصت نالين لأرواح كانت تعيش معها في بيت كله بارود ومني وذعر..

لكنها صغيرة يا أمير.. لم تحِضْ بعد.. انها ابنة اخي وديعة عندي.. امها ماتت في ولادها وابوها لا أخبار عنه وأنا عمتها يا أمير.. لا تتحمل الزواج.. انها طفلة..!

بين المطبخ وغرفة الصبية نشتمان وصالة الأسير كانت شيرين تحسب ذرات الهواء المتاحة لها وتتنفس بصعوبة مرتبكة لا تقوى على فعل شيء يجنّب الصغيرة رغبة الملتحي الجامحة أن تكون عروسته.. لن تأخذ نشتمان يا قذر.. لن تكون عروسك يا خنزير.. لكنها تمسك عن الكلام وتكبت القهر الجاثم فيها وتسترق السمع في ضجة البيت بقلبٍ يريد أن يثبت بصعوبة.. فتأتي الينا مطعونة بقلبها. حائرة وهي تحثنا على الهرب.. مثل هذه الفرصة لا تتكرر كل يوم..

خطوات الملتحي في الصالة تدق في قلبها وروحها وغرفة نشتُمان مشرعة بباب لا يسمح بإغلاقه، والساعات ثقيلة تلوي شجاعتها أن تكون العمة الأم الجناحَ الكبير في أسر الشهور المعتمة التي أطبقت على الحياة من الجهات كلها..

سربست أخي وينك.. تبكي وهي تقطع مسافات البيت لا تستقر على حال لكنها تدخل على نشتُمان وتضمها بحنان، فيما الصغيرة تتشبث بها..

تذرف دموعها حينما ترى وجه الفتاة يشعُّ بالجمال وشعرها الذهبي ما يزال منسدلاً بالرغم من تقبيح وجهها القسري بالسخام والحفر بالإبرة والأظافر. ترى وجهها البض محفوراً بالندب..

كوني بعينه قبيحة.. اخمشي وجهك بأظافركِ.. لا تتعطري.. لا تغتسلي كم يوم.. احفري وجهك بإبرة.. شطّبيه.. انت حلوة وهذا خنزير.. لا تكوني حلوة نشتُمان. الحلوات فرائس الوحوش البسي اكثر من ثوب.. خلي رائحتك كريهة.. اصرخي.. صيري مو حلوة..

وفي المطبخ يحتدم الصوت القرآني بصوت الرعد وهطول المطر وأصوات متناثرة ولخبطة في الصالة ورنين هاتف وصرخة مكتومة أول الأمر مبعثها الصالة، ثم صرخة طويلة من غرفة نشتمان كانت تكفي لملء ليل المكان الحالك بالصدى الطفولي المفزوع وتكفي لخلق ليلٍ آخر عنيف في الدار الصغيرة التي كانت رابضة تحت وطأة مطر غزير لم ينقطع منذ يومين ورجل أشعث تتدلى لحيته كالخرقة المشققة تحت ضوء مثلج، ينبعث من ثلاثة مصابيح موزعة في زوايا الدار تطوّق الصالة والغرفة الوحيدة..

صرخة وحيدة دوّت أمام وجه الرجل الخمسيني المشعث ذي السروال الأسود العريض وهو يكمش رأس الأسير من فروته تاركاً خريطة دم عشوائية قائمة على سرواله المتهدل، متقدماً باتجاه الفتاة ذات الصرخة المهيبة، ويده اليمنى تلوّح بحربة مدماة غطّتها شطحة غامقة من الدم. بينما يتضخم ظله وينتفخ سرواله على الحائط المواجهِ، كما لو كان يتقصد استعراض ملامحه عبر الظل في هذا النفخ الضوئي البطيء.

تمكنت نشتمان أن تستخرجَ كل الفزع الذي امتلأت به بصرخة هائلة أفزعت العمة شيرين التي هبّت راكضة تدمدم فاقدة الأعصاب، وبنتا المطبخ اللواتي كانتا تستمعان مع نالين إلى تسجيل هاتفي قرآني ويخطّطنَ للخروج من الشباك الواطيء، كنّ حريصات على أن لا ينكشف أمرهنّ الليلة فهذه الفرصة الأخيرة كما قالت شيرين..

تبدد كل شيء بلحظة سريعة وتغير المكان إلى فوضى مع الرجل الذي ظل يتقدم بثبات إلى الفتاة المسكونة بالرعب كحيوان آلي يسير إلى هدف معين، حاملا رأس رجل الصالة بفرح غريب، وعلى وجهه ابتسامة جامدة لا تتغير كما لو كان يؤدي لقطة مرسومة في فيلم رعب وعليه أن يتقن هذه اللحظة الصعبة باسترخاءٍ سادي نادر.

كانت زخات من الدم تتقاطر أمامه كما لو يوحي في مشهد التصوير البطيء القاتل إنه يعصر فروة الرأس المقصوص بقوة ليُسرّع من القطرات البطيئة فتكسو المشهد لحظات انتصار غريبة تعطيه زخماً من الإصرار على أن يكون ابن لحظته الغامضة، وهو يمضي إلى السرير المبعثر، حيث فتاة الصرخة منكمشة على صرختها الوحيدة وقد غطّت وجهها بيديها الصغيرتين، فيما كانت العمة الخمسينية شيرين تهرع منقادة وراء صرخة الرعب، تنتابها شكوك كثيرة ومخاوف اكثر جعل منها كتلة عصبية تحجز بين الصبية وبين حامل الرأس الخمسيني الأشعث..

- يا كلب.. يا خنزير...

لحظتها تأكدت إنها نسيت كل كلمة شتيمة أخرى وهي تكرر المفردتين بقوة نمرة مستثارة، مندفعة صوب الرجل المشعث لتقتل روح اللقطة الفيلمية في وجهه المخيف وهو يتجه نحو سرير نشتمان المكتفية بصرخة الطفولة المكبوتة. فيما صوت القرآن يتعالى من المطبخ بفتاتيه عبر نافذة المطبخ إلى المجهول الشنكالي مستغلات التلاوة الشجية وفوضى الأشعث الطارئ والرعب الذي زرعه في نفوسهن بذبح رجل الصالة وصراخ العمة شيرين وشتائمها اللاذعة التي تتدفق هستيريا وصراعها مع رجل الدم ذي الابتسامة الفيلمية الجامدة، حامل الرأس المذبوح وحامل السكينة المدمّاة الذي لم يتورع، بلحظة خاطفة، من فتح بطن العمة شيرين بحربته الحادّة ليسكت بذاءة لسانها.. يا كلب.. يا خنزير.. وهي تسقط بآهةٍ سريعة كجناح أخير يحمي نشتمان المذعورة. وربما لم يقَدّر لها أن تسمع بعد انغراز الحربة الحادة في بطنها صوت الخرقة الجاف: الله أكبر.. كافرة وزنديقة.. إلى جهنم أيتها الإيزيدية الكافرة.. تفووووو

قتلها تحت صوت القرآن الآسر بهدوء وبرودة أعصاب ذلـــك الأشـــعث الشيشاني الوسخ.

ربما كان صوت شيخ الموبايل يغطي على فوضى ارتجالية ودم ينزف من بين كلماته ذات الشجن الآسر، لكنه كان ساتراً صوتياً؛ فيما بقيت نشتمان وحدها فاقدة الوعي بوجهٍ اصفر وجسد منكمش ملطخ بأحشاء العمة شيرين ودم الاسير مع الخمسيني الملتحي الأشعث ذي السروال الأسود المنتفخ كبالون حتى خمـــدت بطارية الموبايل وتلاشى الصوت القرآني فيما بقي المطر ينزف طول الليل.

حلم وكلب

يأتيها الماضي القريب الحي كأنه ما يزال يحدث حتى اللحظة. تجرفها سيول كثيرة في الذاكرة المدماة وهي تصغي لشريط فيلمي طويل وقصير وتسمع أصواته المتوجسة..

بعد النافذة التصقت نالين بفتاتيها بحميمية مفرطة تغطيهنّ عباءات سود وعلى وجوههنّ أنقبة نازلة بَدوْنَ فيها كأشباح تائهات يبحثن عن أرواحهنّ الهاربة في عاصفة المطر.

واحدة تجرُّ الأخرى من يدها المرتعشة بحذر تحت مطرٍ غزير وبرد لاذع، جعل من الليل أكثر ريبةً ووحشة في خطوات مرتبكة وقلوبٍ لاهثة بالفزع وأجساد متقلصة تحت الثياب الشبحية التي فرضها الأشعث كسوادٍ مغشوش.

همست هفيدار: أنا خايفة..

الرصاصة الوحيدة التي انطلقت من مكان قريب تركتهن أكثر التصاقاً ورعباً تحت حائط رطب. بَركْنَ على السيول المنحدرة متقطعات الأنفاس في لغة صمت أخيرة تعني لهنّ الحياة التي هي في الجبل.

ما أقصر المسافة وما أقل الحيلة.. تتمتم نالين وهي تحاذر أن تفتح ساقيها أكثر من اللازم كما لو تخشى أن يسقط من تحتها شيء ما أو يكون عرضة لأن يراه الآخرون من جديد. مع إن الظلام الكاسح والممطر المنهمر قد أغرق المدينة وغيّبَ كل شيء حي.

هفيدار الأفتى التي تتعثر تسحبها نالين بقوة مشروطة بحذر في أقصى درجاته إلى زقاق تعرف ملامحه في ذاكرة لا تفارقها، لهذا وجدتْ الفتاتان الأخريان إن الطريق إلى الجبل يمر عبرها.

نباح الكلاب ليس قريباً. إنه في مكان ما من القرية. همست نالين مع نفسها. كلاب القرية تعرفني. كانت توطّد الشجاعة في داخلها.. بحق طاووس ملك يا خودا خلصنا.. لن يمسكوا بي من جديد. سأنتحر هذه المرة. أنا أيزيدية مؤمنة بالرب وطاؤوسي ملك. مؤمنة بالساعة وقيامها. مؤمنة بتناسخ الأرواح التي ستحل في أرواح أخرى بعد موتها.

بركنَ تحت جدار تقف امامه شجرة وتنحدر منه سيول مائية صغيرة. عقدن حلقة دائرية بأذرعهنّ وتماسكنَ بشكل حميم بالرغم من ارتعاشات الخوف والبرد وسوء المجهول لكن عزيمة نالين تشد من أزرهنّ.

تمكنت نالين قبل مرور سيارة شرطة الحسبة أن تغطي رأسَي الفتاتين بعباءتها فبدون كشبح واحد جامد بين الحائط والشجرة. فيما خطفت السيارة ناثرة من الجانبين شلالاتٍ من الماء هادرة وسريعة لم تتبين النساء أي شيء منها سوى الضوء الخاطف وصوت محركها المتضخم في ليل مجهول لا يكف عن المطر.

همست هفيدار وصوتها ينخفض كمن فقدت الكلام: خايفة..

كلبٌ يقترب ويمضي. تترك أقدامه بقبقة مائية سريعة. وفي البُعد ما بعد الظلام ثمة سهلٌ وجبل. وفي اللحظة هذه تنشغل الفتيات همساً بترتيب الهرب من المكان واللحاق بجبل سنجار وهنّ يرتعشنَ من البرد والخوف الذي جفّف ألسنتهنَ، غير إن نالين تبدو عنيدة مع نفسها مع إن الوجع بين فخذيها يذكّرها بالعار، لكن هذه إرادتك يا خودا. تمتحن صبري وبلواي. ليقصّوا حتى أصابعي ولساني فلن أكف عن أيزيديتي وديني ووطني وعراقيتي.

يستكين الليل بقبّة نسائية متكورة تحت انفاس موحدة وأبخرة برد تجتاح الأوصال النحيفة لهنّ فتطلب نالين منهنّ الكف عن الشكوى والنشيج وأن يبقين على ذمة الخلافة مما حفظنه من وصايا وأقوال نبوية وسور قرآنية حتى الوصول إلى جبل سنجار، وفي رأسها أكثر من فكرة معقدة وأكثر من صرخة وأكثر من بكاء..

من يغيّر دينه هو الملحد والكافر والزنديق. خُلِق الإنسان كما يجب أن يكون لا كما يريدونه أن يكون. تلك قناعتي. احج كل سنة إلى لالش وأشرب من العين البيضاء وأشم من ماء زمزم. لن أكون منهم ولا مثلهم، فما فعلوه بي

يكفيني أن أبقى على طهارتي ونقائي كأختٍ مؤمنة تعترف بخودا إلهاً عظيماً وطاووسي ملك شفيعاً ليس كمثله شفيع وشيخادي أيزيدياً مؤمناً حتى النخاع.

كالدجاجة كانت تفرش جسدها على جسد الفتاتين المرتجفتين. هفيدار التي سلبوها من قرية كوجو والمتعلقة بأمها. وهينار الطالبة من قرية كَرسي التي بدأت تشق حياتها الدراسية بفرح.

قبل الفجر كفّ المطر عن الهطول لكن ما تزال السماء ملبّدة بغيوم سوداء وصوت الحياة المستكينة على كل شيء سيء يتنفس إلى حد ما. سيارات تتخاطف في البُرك متمهلة تحمل في أحواضها منصات لرشاشات طويلة ورجال الحسبة يملأون الصباح بين المحال والبيوت والشوارع بزيهم الأسود الكئيب.

تفرقت القبة الرابضة منذ ليلة أمس عن النساء الثلاث المتجمدات وعيونهنّ مستفزة فقد كشف الفجر طريق المرور. لملمت نالين نفسها وهفيدار بدت أكثر طفولة وهي مشدوهة النظرات في فجر معتم ونزعت هينار ثوبها الأسود على عجل وفعلت الفتاتان الأخريان مثلها، فتغيرت ملامحهن بسرعة كبيرة لكنهنّ حرصنَ على وضع النقابات على وجوههنّ فهذا يساعد في قطع مسافة أخرى ويوقظ أملاً ما فيهنّ.

- وين نروح..

في غفوة الفجر حلمت نالين وكأنها حامل. وهو حلم يتكرر بين فترة وأخرى منذ إن تم ختانها قبل شهرين مع نساء القرى الأسيرات وما تزال حكة دموية تجري بين أفخاذها كأسراب نمل تخرج وتدخل فتقرص مهبلها المشعر.

حلمتُ كأن كلباً قد ضاجعني أكثر من مرة وكانت أصرخ بلوعة مجللة بالعار أنا الراهبة المؤمنة التي تزيد دائماً من حَجّها إلى لالش وشرفدين وووو وكان الكلب يزيد من مضاجعتي كلما صرخت، ناشباً أظفاره على جسدي حتى أنهار غير إنه كان كابوساً كما في كل مرة منذ إن اقتطعوا لحمتي حتى لا أرتكب المعصية.. **أنا راهبة مؤمنة بخودا وطاووسي ملك وشيخادي.. هههههه انتِ كافرة. أيزيدية شيطانة لينفعكِ طاووسك وشيخك يا وجه البومة.. أنتِ أم المعاصي ولابد من ختانك يا كافرة..**

أستغفرك يا خودا العظيم. مَن هؤلاء!

حلم الكلب المتكرر كان كابوساً مخلّصاً مع الفجر الغائم ومع دبيب أول الحياة في انفتاحها المجهول. وهو ما جعل نالين تطيل التأمل في كلب شرس يقتحم رحمها النظيف ويترك فيه النجاسة. حلم يتكرر ببطن تنتفخ في كل مرة.. بعض الأحلام تدلنا على طريق ما وتهدينا إلى خلاص أخير. ما معنى أن ينفخ بطني كلب! يا خودا ارحمني. انت تعرف اني عفيفة وأنا مريمك البيضاء. أقضي عمري بالإيمان والمعابد والأضرحة. اتطلع لأن أكون راهبة فالحياة قصيرة ووسخة ومؤلمة. يا خودي العظيم الجبار. يا ملاكي طاووس الخالد.

اهتدت إلى فكرة عاجلة وهي تلملم ثياب الفتيات السود التي هربن بها من نافذة المطبخ.

- هفيدار.. هينار. اسمعوا يا بنات. أنا حامل!

وقبل أن تنعقد الدهشة في وجهي الفتاتين كانت نالين ترتّب الثياب المتراكمة عليها وتطويها على شكل مخدة صغيرة مفلطحة نسبياً.

تسترت بحذر وراء الشجرة وفتحت قميصها المشجر وأنزلت بيجامتها الكحلية قليلا ودحست المخدة المطوية بعناية على بطنها. ثم رفعت البيجاما وأحكمت شدها وزررت القميص على عجل فبدت بطنها أكثر انتفاخا وبدت للفتاتين كما لو إنها حامل بشهرها الرابع أو الخامس.

- سنمضي إلى الجبل ونلتحق بالناس. انا اعرف الطريق.. كانت نالين تهدّيء من روع الفتاتين، لكن هفيدار الشابة تردد: أنا خايفة.. فتربك رفيقتيها في مثل هذه اللحظات التي انتشر فيها الصباح.

بوسعها في كل لحظة أن تطمئن الفتاتين الغريبتين عن المكان وهنّ يحثثن الخطى المتسارعة عبر الأزقة الفارغة ويتحاشين قدر الإمكان النظر إلى الرجال المنتشرين في كل مكان؛ فيما كنّ يرهفن أسماعهنّ إلى دوي القذائف البعيدة ويحددن مسارهنّ بمغايرة الأصوات التي تحمل معها قدرها.

لستُ قحبة.. أنا الراهبة نالين

لا تكشفوا ثوبي.. انا استحي من الله

نالين

- تعال يا فتى اسمع مني واقصص رؤيا العار على رجل الغار حينما يخرج.. قل له نقطة واحدة بيننا تجعلني متشبثة بإيماني وتجعلك أخاً خارجاً عن المِلَة والدين لو عاندت التاريخ والواقع.

جلس الفتى وعلى رأسه جلد خروف جعله مظلة لتفادي بعض الزخات التي تسببها الأغصان في انزياحاتها الهوائية فيما استتبت عينا نالين على رؤى كثيرة بعدما توقف رفيفهما وغمر المطر روحها الريفية.

رأت الأشياء بوضوح أكثر كما لو حدثت قبل قليل. **لم أكن ضعيفة. كنتُ قوية لكنهم كانوا أقوى. لم يكونوا بشراً بل كانوا ثيراناً يبحثون عن النساء كالرعيان القادمين من صحراء قاحلة.. كانوا مجموعات من نسلٍ قذر لا أدري لِمَ خلقهم خودا ولأي سبب.. ها.. استغفرك ايها الرب.. هذه حكمتك.. لكن يا فتى قل لأخي سربست انها نقطة لا أكثر بيني وبينه. بين الغار والعار نقطة صغيرة واحدة.**

تصنّع الفتى الانتباه وهو يتقرفص أكثر وكان المطر النازف كثيراً يحرر روحها من أطيان وخِرق وهي تعيد شريطاً قصيرا وطويلا يحفر فيها، لكنها تتشبث بقدرة الرب وحكمته ككاهنة أمنيتها أن تكون خادمة في معبد لالش وضريح شيخادي..

الحياة ومضة وسعادتها صناعة شخصية لا غير اما ألمها فهو ما يقع بشكل حقيقي ويحفر حفرة بوسع العمر كله.. انها النقطة الفاصلة بيننا يا فتى. نقطة الحياة والموت التي اجتزتها بفضلٍ من الرب ورعاية طاووسي ملك.

تتسرب جداول صغيرة من المياه وتمر بين الصخور مسحوبة بسيول ناعمة تجري وتريد أن تكبر لكن الصخور تحاصرها من الجانبين فتندفع أكثر جارفة معها أعواداً وأوراقاً وبقايا أغصان مقصوصة فترى صورها القديمة هناك بشكل ما يزال واضحاً في الأسرين والحالين؛ حاملاً بثياب لفّتها كيفما اتفق ومقصوصة العروة في حالة أخرى أكثر بشاعة مما كانت تتصور يوم وجدت نفسها عارية مفتوحة الساقين على وسعهما حتى كادا أن ينخلعا..

لك أن تتصور ذلك يا فتى. لك أن تحكي لعمك الرعب الذي كنتُ اعيشه.. كل ذلك حدث سريعاً لأني انتصرتُ لامرأة قروية اسيرة ومسكينة..

كل يوم يأتون بأسيرات من كل القرى التي تحيط بشنكال. يفعلون بهنّ ما يشاءون. لم تسلم حتى المتزوجات. غزو جنسي غريب من نوعه.

ينسفح رذاذٌ ناعم على وجهها. كانت تشهق وهي ترى أسفل الجبل مغموراً بالأمطار النازلة. عطر حقول وزرع وأشجار وماء وطيور.

رائحة مضادّة تفترع ذاكرتها كلها وجوه وأجساد وثياب وقرى وطين وأبو معاوية. رائحة نساء متزاحمات كالبطاريق بجلابيبهنّ البيضاء الطويلة وعمائمهنّ المستديرة تختلط برائحة أنفاس متتالية تخرج من صدور مخنوقة، بدموعٍ بعضها مسفوح حتى اللحظة وبعضها جفّفه هواء الطريق. وبصراخٍ بضعة أطفال انتابهم الخوف الغريزي مع النساء الباكيات؛ تكون الصالة الدائرية مكتظة بالفوضى وعدم الانضباط، وهو أمر معتاد لهؤلاء الذين يغمرهم شعور بالذكورة والانتصار في اللحظة التي أفرغوا فيها قرية **بلستان** من النساء بعدما قتلوا الرجال وجمعوهم في مقبرة بالطريقة العشوائية التي بات يعرفها الجميع.

يحيط بهذه البطاريق المفزوعة أكثر من عشرة ملتحين متشابهي الأزياء الملطخة بالطين تفوح منهم زنخة كزنخة الآباط المتعرقة في يوم ساخن. فيضفي على المكان هيبة افتراس وحشية يمكن أن تتلمسها عيون النساء المختلجة ويشعرها الصغار اللائذون بأمهاتهم.

في عموم الجو يمكن أن تعرف النساء القرويات الغريبات عن المدينة إن هذه دائرة رسمية بطابقيها الفسيحين وغرفها المتعددة التي اتخذها هؤلاء وكراً من أوكارهم.

يتضخم الفزع تلقائياً وهو ما يضخّمه صراخ الأطفال الذي لا يكـفّ في هذه الفوضى الجديدة، مصحوباً ببربرةٍ اختلطت فيها اللغات بعشـوائية بعـدما أدخلوا عدداً غير قليل من النساء إلى الصالة الصغيرة.

تعيد الحالة ببطء مضطرة والفتى متقرفص يلم جسده وهو يعبث بأغصـان تتساقط ويجرفها المجرى الصغير.

لم يستطع الملتحون ضبط الفوضى أول الأمر، وهو ما اعتادوا عليه في جلب السبايا تحت شعورٍ مَن يحقق انتصاراً نفسيا ويتلذذ بهـذه الفوضـى والصـراخ والتوسلات، غير إن الأمير أبو معاوية فرض الصمت وضاعف من الذعر بطريقته العصبية حينما اطلق رصاصة واحدة على السقف اخترقته ونثرت غباراً وشظايا جص وطابوق، فعمّ صراخٌ مفاجئ لأكثر من امرأة، ثم تلاه هدوء بعدما انجلـت غيمة الغبار وسكتت انفاس البطاريق بأزيائهنّ الملونة وعمائمهنّ البيضاء وجلسنَ متراصفات الأكتاف يحتمينَ ببعضهنّ بشعور جماعي واحد يفترعـه الغمـوض والخوف وما في دواخلهنّ من فزع عن هؤلاء الملتحين أخذ يكبر حينما وجـدنَ أنفسهنَ في عزلةٍ مشبوهة يسمونها الأسر.

صعد أبو معاوية درجاً جانبياً يتبعه شخص واحد؛ فيما بقـي الآخـرون يحيطون بالنساء من كل جانب ورائحة غريبة تستولي على المكان أشبه برائحـة البصل المفروم في جو حار.

حينما وصل الأمير ابو معاوية إلى أعلى الدرج صاح:

- كلٌ من تسبب ضجة من هذه الكافرات اقتلوها. وكل صغير لا يكف عن البكاء الطشوه بالحائطِ.. فرّقوا الصبايا عن العجائز وارسلوهنَ إلى دار الخليفة والمجاهدين والمقاتلين في ولاية الموصل.

همس بإذن مرافقه ثم صاح بصوت غليظ:

- اخْصوا الأطفال حتى لا يكبروا على معصية الله فهم عبيدكم، واخصوا النساء اللواتي لا أمل فيهنَ حتى لا يقربنَ الفواحش. وزعوا غنـائمكم بحسب الشريعة وارسلوا مَن تبقى إلى مكاتبنا لسـوق النخاسـة في ولايات الرقة وحلب والموصل والفلوجة.

كل الإشارات فهمها رجاله لذلك رفعوا بنادقهم بوجوه النساء المتراصفات بخوف وفي وجوههم احتفالية يمكن للنسوة أن يرينها بوضوح وهو ما كان يمعن في استفزازهنّ ويثير فيهنّ شعور النهاية المرتقبة الغامضة.

بعد لحظات موتورة تنامت فيها رائحة البصل المفروم انقسمت النساء إلى ثلاث مجموعات، صفّوهنّ بطوابيرَ متباعدة وأخذ أحدهم يسجل الأسماء في دفتر صغير.

هبط من السلّم رجل يجرُّ وراءه سرواله المتطيّن وأطال النظر في الطابور الأول وهو لمجموعة صبايا وشابّات فيهنّ حلاوة وملاحة لا تخطئوها العين، كما لو كان ذو السروال يجري عدّاً صامتاً لهنّ. لكن بريق عينيه المكحولتين يخيف الصبايا المرتعشات ويبث اليهنّ شفرات مقلقة.

أشار إلى ثلاث فتيات صغيرات من الطابور، فأخرجهنّ ملتحٍ آخر وصعد بهنّ السلّم، بينما بقي يجرّد أجساد الباقيات من الصبايا بنظراته الثاقبة، فعزل منهنّ خمساً أيضاً، وأشار إلى الآخرين بأخذ من تبقّت في الطابور. وعلى التناوب كان يأتي غيره فيعزل الأكبر عمراً، ويأتي غيره فيعزل الثلاثينيات الجميلات عن غيرهنّ؛ حتى تشتت الطوابير الثلاثة إلى مجموعات أصغر تناقصت بالتدريج حينما أخذ الجنود يسحبون مَن تبقت إلى خارج الصالة.

لم تصبر إحداهن وهي تنادي بلوعة: ابنتي.. إلى وين تأخذونها.. يا جحوش... فتلقت ركلة في بطنها قذفتها بعيداً فارتطمت بالحائط. شهقت ثم صمتت.

ركضتْ اليها مدفوعة بغريزة حمايتها. انتزعتها من الطابور واحاطتها بذراعين ترتعشان وهي تحاول أن تتماسك بينما كانت تدردم وتشتم بالكردية.. خودا على الظالم.. يلعنكم الله يا انجاس هذه امرأة مؤمنة بالله وبطاووسي ملك.

لم تُفاجَأ المرأة بأحدهم يشتمها بالكردية ويجرها من عمامتها البيضاء وينثر شعرها بطريقة هستيرية، لكنها حاولت أن تتملص من قبضته فبصقت عليه وهو ما اثار رد الفعل بين المجموعة المكلفة بالحراسة التي سارعت لتقييد المرأة وسحلها من شعرها إلى خارج القاعة؛ فعمّ صمتٌ كبير بين النساء المتبقيات وابتلع الصغار بكاءهم منزوين تحت آباط أمهاتهم المذعورات مستسلمين بهلع. لاسيما حينما

انطلقت رصاصة سريعة من بندقية أحدهم وقضت على الأنين الأخير للمرأة التي نادت بابنتها قبل لحظات..

كان وجهها محتدماً وعيناها مبللتين وبدا الإرهاق واضحاً على وجهها. نظرت إلى الفتى:

- هل فهمت..!
- لا..
- هل كنتُ أتكلّم!
- اي.. لالا
- هل سمعت شيئاً؟
- لكن لم أفهم..

قالت بقهر لم تستطع إخفاءه:

- قل لعمك ان الفرق بين الغار والعار نقطة صغيرة بحجم رأس الدبوس.

هز الفتى رأسه ممتثلاً لغموض اللحظات التي يعيشها في هذيانات العمة نالين التي بدت مجهدة وحزينة ووحيدة تحت مطر ترشّ رذاذه الأغصان المتشابكة لشجر الحور.

- مسكني أحدهم من شعري وجرّني مثل النعجة.. تعالي يا قحبة.. حدث هذا في أسري الأول. التقطني شنكالي مسلم جبان من جماعة الحسبة في زقاق كنت أسرع السير فيه للوصول إلى بيتٍ آمن. لكن الكلب اصطادني.. انت شنكالي وأنا أختك لماذا صرتَ معهم.. كان قاسياً. سحبني إلى دار الوالي. وبعد التدقيق باسمي عرفوا اني مُباعة إلى الأمير الشيشاني ذي اللحية القذرة واني هاربة منه منذ أسابيع، فأودعوني في غرفة بدائرة رسمية صارت سجناً من طابقين حتى مجيء أسيرات كثيرات من القرى المتباعدة عن شنكال.

ترقرت عيناها بالدموع وهي تستحضر مشهداً بعقلها حاولت أن تتجاوزه، لكن روحها كانت منفتحة بلا رقابة.. **في داخلي غبار وطين ودخان.. وساخة كثيرة يا نالين.. انها لحظة حرجة ومهينة حينما جرّني أحدهم من شعري مثل النعجة..**

تعالي يا قحبة.. انتنّ الأيزيديات نجسات وكافرات.. سنطهّركنّ يا بنات الشيطان..

وقفت تحت المطر وهي تنزع شالها الأبيض وأفردته كجناح حمامة. رفرف بين اصابعها وتركته يطير قليلاً حتى استقر في مجرى مائي وانسحب مع تياره الجارف ثم أفلتت شعرها من عقاصات صغيرة كانت تشدّه فاسترسل على كتفيها كالحرير الناعم.. **قال لي أنت قحبة لأني حاولت أن أحمي قروية بائسة ومسكينة.. أنا قحبة. انا الراهبة المؤمنة على أعتاب الخمسين.. انا نالين التي لم يمسسني لا أنسٌ ولا جانٌ ولا طيرٌ ولا حجر..**

عبرت ساقية منحدرة بوسع فتحة ساقيها وصارت مقابل الفتى الذي كان ينظر اليها باستغراب. خرجتْ من تحت سقيفة الأشجار إلى المطر المتكاثر ونثرت شعرها بطريقة مثيرة.. انظر يا فتى إلى شَعر عمتك الذي لم يره بشر ولا حجر.. قال لي أنت قحبة. ايزيدية نجسة. كافرة. لكني كنت متشبثة بنور قلبي وايماني.. انت نجس يا داعشي وابن زنا.. انا المؤمنة بخودا وطاووسي ملك. انا ابنة الشمس والقمح والتين والزيتون والنهارات البيضاء على شنكال.. انت كلب وخنزير وابن حرام.

مدت ذراعيها إلى جانبيها كما لو تريد أن تطير.

غسل المطر شعرها والفتى حائر في مشهد التحرر غير المتوقع من العمة نالين الراهبة المحافظة التي هربت من داعش وزارت لالش وصعدت إلى سربست ووبخته كثيرا لأنه منقسم على نفسه ودينه.

عليكَ أن تعرف يا أيها المسلم الصغير حقيقة كل شيء يجري. لستُ نهاية العالم حينما عقروني وقصّوا لحمة أنوثتي. ولا نشتُمان هي نهاية العالم ولا اهلك المذبوحون نهاية العالم. فأنت ابن شنكال يعني وريث الكارثة ومؤرخ السبي وشاهد صغير ستكبر معك الشهادة يا ولدي. ستعود اليها يوما ما وسترى الشكل المأساوي الفادح فيها...

عبر الفتى الساقية الصغيرة متأثراً لشكل العمة الذي تغير وتناثر شعرها المبلل والتصقت ثيابها بجسدها. احتضنها وهو يجهش من دون أن يبرر لنفسه بكاءه سوى انه رأى الرعب يسيطر على العمة التي كانت طيبة حتى قبل قليل فهبّ كما لو يريد أن يوقف هستيريا المرأة التي انفلتت روحها كما كان يشعر.

ضمته إلى صدرها بأمومة.. انت فتى شنكالي كبير.. اعرف انك عرفت الكثير ولكن ستعرف الأكثر. كن أشجع وأقوى. رحم الله والديك. كانا شنكاليَين عظيمين.

تحرر الفتى وهو يعود إلى ساقيته التي تجلب الورود المقطوفة والأوراق لكنه ظل إلى مدخل الغار كأنما يستنجد بالعم الغائب هناك.

مدّت نالين يديها تستقطب المطر في قبضتيها وعيناها شاخصتان إلى الأعلى كمن تدعو السماء، ثم تغسل وجهها كله بطريقة الوضوء وكان الفتى يديم النظر اليها مرتبكا وهي همس لأحدٍ غير مرئي. ثم تعلو نبرتها وتبكي..

دخل الفتى مسرعاً إلى الغار وعاد بعد لحظات بملامح لا تفصح عن شيء بينما بقيت المرأة تهذي بصوت غريب وتتوسل شبحا يتنقل بين الأغصان وشبكات المطر..

لا تفعل هذا أرجوك أنا امرأة مؤمنة وشريفة.. أنا راهبة..

أنت أيزيدية قحبة وكافرة.. قضت عليك العقوبة أن نختنك وننقص زائدتك العاهرة.. اشكري الله جاء الأمر بعدم حرقك أو شنقك..

لا تكشفوا ثوبي انا استحي من الله..

تتحسس الحبال التي باعدت ساقيها. ما يزال الأثر في لحمها الأبيض على شكل طوق..

خافوا الله أنا راهبة..

سنقص عروتك الفاجرة حتى تتأدبي بأدب الإسلام..

تفز بصرخة مبتورة وتباعِد ساقيها تلقائيا كما لو إن ناراً صعقت مكانها السري؛ ويفز معها الفتى الحائر والمرتبك.. يا خودا العظيم لماذا حصل هذا..!

يعود الفتى إلى مدخل الغار كما لو ينادي الرجل الغائب هناك، لكنه يعود مثلما يدخل كل مرة.. يقف مشدوهاً وهو يرى العمة تقف تحت شلالات المطر المندفعة وهي تخلع ثوبها الأبيض فتكشف عريها الأبيض كاملاً متباعدة الساقين مفتوحة الذراعين منقوعة من شعرها حتى أسفلها كما لو تستقبل بياضاً لا مرئيا آخر بدموعٍ بيضٍ ايضا يراها الفتى بوضوح وهو مرتبك.

ولاية الموصل

كريستينا

في مكانٍ ما من العالم صرخت امرأةٌ صرخة مباغتة هزّت رجـل الصـالة الذي هرع يطوي المسافة بين الصالة وغرفتها مرتبكاً.

وجدها منكفئة وقد ضمّت وجهها بين كفيها كما لو كانت تتقي شـيئاً كان يهاجمها، فوضع رأسها في حضنه وطبطب على خديها وكان يناديها باسمها منفعلاً لا يدري ماذا حصل وهو في حالة تعجب.

كان محرار درجة حرارة الغرفة يشير إلى 10- تحت الصفر والليل صـامت في الخارج وجهاز اللابتوب يعرض فيلماً لم يتبين ملامحه الا انه كان يسمع صراخ أطفال جماعياً واختلاط لغات لا يفهمها..

تحركت المرأة قليلاً وفتحت عينيها. كان يرى ما يشبه الفزع على وجهها وحينما رأت انها في حضن زوجها ظلت تردد.. **فظيع**.. **فظيع**.. وعادت تضـم رأسها في حضنه..

- ماذا حصل.. ما بك؟

كان الفيلم اللابتوبـي في آخر ثوانيه يعرض أطفالاً ممدودين على ظهورهم انكشفت أجسادهم السفلى عارية ويصرخون باللحظة ذاتها. كانوا بزي أبـيض موحد كأنهم ملائكة يحتضرون.

توقف الفيلم ونهضت كريستينا إلى الحمّام وهي في حالة الفزع والارتبـاك لكن الرجل اطمأن إلى الحال فتوقع إنها كانت ترى أحد أفلام الرعب وكان ينظر إلى شاشة اللابتوب والى الفيلم الفيسبوكي المتوقف.

بفضول ضغط على إشـارة Replay وهـو متـوجس وظـل يراقـب بتوجس:

غرفة صغيرة بنافذة واحدة مغلقة.. أكثر من عشرة أطفال عـــراة مصـــطفين على ظهورهم يبكون جميعهم.. تحتهم شرشـــف واحـــد.. تبـــدو عـــوراتهم الاصبعية الصغيرة المنكمشة ووجوههم تصرخ.. في المشهد أصوات متداخلة يحجبها الصراخ المستمر للأطفال.. يتردد أكثر من رجل أمام عدسة الموبايل المرتجف بيد الذي يصوّر كما يبدو.. يقترب أحدهم ويقول بالعربية كما لـــو يصرّح: إخصاء الأطفال الأيزيديين واجب ديني وشرعي.. ثم ينسحب لكنه يعود ويدس أنفه أمام العدسة ويضيف: انهم عبيد لدولة خلافتنا..

تظهر بكرات خيوط سميكة ومقصات.. المقصّات تقطع خيوطاً بـــأطوال غـــير متساوية لكنها لا تزيد عن الشبر.. توَزّع الخيوط على أربعة أو خمسة رجـــال يروحون ويجيئون وبعضهم يضحك.. بكاء الأطفال لا يتوقف.. ينحني الرجال الأربعة على أول أربعة أطفال.. تدور عدسة الموبايل إلى الجهة الأخرى فيظهـــر وجود ثلاث نساء منقبّات يراقبن المشهد.. يبدو المصور البدائي وقد اتخذ وضعا قريبا من الرجل الأول الذي أمسك بخصية الطفـــل الأول ووضـــع الخـــيط السميك تحتها ثم لفّه عليها وربطه بقوة فتعالى صراخ الطفل بمرارة حتى كـــاد يختنق وبنفس اللحظة تعالى صراخ الأطفال الثلاثة الذين رُبِطت كـــل خصـــية منهم بخيط حتى انطبق اللحم الغض على إنشداد الخيوط..

صخب وصراخ مزعج..

صيحات الله أكبر تتكرر مع كل خصية مربوطة..

صراخ مرير لم يتوقف غطى على الأصوات المتناوبة التي تتعالى وتخفت..

تحول الرجال الأربعة إلى بقية الأطفال العراة النائمين على ظهورهم.. ربطوا خصية كل منهم بالطريقة ذاتها.. تعالى صراخهم كثيراً.. شيء أشبه بالاختناق يعقبه سعال متواصل.. يأتي الشخص الأول الذي ســـاهم بـــربط خصـــي الأطفال.. يقف امام عدسة الموبايل.. الصورة مرتجفة لكنها تكشف وجهـــه الملتحي وأنفه الطويل.. يتكلم بلغة عربية واضحة: تظل خصـــيان الأطفـــال مربوطة لعشرة أيام ثم تذوب لوحدها.. تتعفن وتتلاشى مثل الـــتين وبـــذلك يصبح الطفل الأيزيدي مخصيا حين يكبر وتنتهي فحولته من الآن ولن يعرف بلوغ الرجل مهما طال به العمر.. يصبح عبداً.. هههههه..

يتوقف الفيلم.

اقشعر الرجل وهو محاصَر ببكاء الأطفال وزعيقهم الذي يصل حد انقطاع الأنفاس، وداهمته نوبة قرف وهو يرى خصيانهم الصغيرة المشدودة بقوة.. لم أفهم كثيراً.. يردد مع نفسه.. ماذا يجري.. ولماذا.. وأين هذا!

ترك الغرفة فوجد زوجته منهارة على أريكة في الصالة. جلس ولفّ يده حول عنقها.. **لم أفهم كثيراً.. رأيت الفيلم البشع.. انهم عرب على ما يبدو.**

دسّت رأسها في صدره وهي تتمتم: نعم.. انهم عرب وإسلام..

قال لها معاتِباً: و لِمَ ترين مثل هذه الأفلام يا عزيزتي؟

هدأت قليلاً وسحبت رأسها من على صدره: مصادفة.. إحدى الصديقات قالت انهم يخصُون الأطفال.. انظري للعرب المسلمين كيف يخصون الأطفال فتصورته ختاناً لأني أسمع به و لم أره.. أرسلت لي الرابط وفتحته.. انه فضول قبيح مني وما كنت أتصور هذه البشاعة..

هدأت أنفاسها وسألت الرجل:

- لماذا يفعلون ذلك..!؟
- هدئي من روعك عزيزتي.. لا أفهم اللغة العربية.. لا أعرف لِمَ يفعلون ذلك.. لو كانت هناك تعليقات بلغة فرنسية أو انكليزية سأفهم لماذا يفعلون هكذا..

طوقها من جديد بذراعه:

- انها مشاهد مؤلمة بلا شك..!

جثث تمشي

وحدي رأيت عيدو يضحك مرة واحدة
ولم يره أحدٌ غيري
حتى تعجبت في سري وكنت أتساءل:
هل المجانين يضحكون؟!

- الفتى-

علمتَني أن لا أحلم كثيراً وأن أنظر إلى الحياة كأنها لم تكن أو كانت فمضتْ.. لكنني بقيت أحلم لأن الحياة كانت في يوم ما وكانَ فيها أمي وأبي لهذا لا استطيع نسيانها في الحلم.

أمي تبكي وأبي صامت كما هما مثل كل مرة.

مر وقتٌ غير قصير على هذا.. حلمٌ واحد لم يتغير حتى حفظته بل حتى كنت أراه قبل أن احلم به فاستبِقُهُ حتى لا أحلم به..

وحينما رأيتُ ما رأيتُ معك، ومن دونك في الموصل ظل يبتعد مع الأيام ويخفّ كثيراً. لم أقل لك ذلك. اختلطت أحلامي بما كنت أراه وما اصوره في جامع الرحمن والجامع الكبير أو في القرى القريبة وروحي تذوب والخوف يملأ قلبي لكني كنت لا أقول لك إني خائف وإن أحلامي صاغتها تلك المشاهد وان أمي وأبي تحولا إلى أطياف أراها بين فترة وأخرى.

لا أكتمك يا عم إنّ حَرْق عيدو فتّت قلبي وأخافني وجعلني أدور في حلقة تضيق على أنفاسي حتى اليوم؛ يومها خرجتُ من الجامع وجسمي يرتعش وروحي ميتة. بقيت أياماً طويلة شارد الذهن.

حلمت بعيدو المسكين أكثر من مرة.

عيدو يحبني لأني مسلم ولا ينظر لي بغير هذا وكان يوصيني بالحذر منهم. مرات كثيرة يحضنني ويبكي ويتذكر أبي وأمي. يقول أشياء ما كنت أحسبها الا من رجل مجنون يهذي ويهذر.

حدثني مرة عن البصرة وجرّب اللهجة البصراوية بطريقة مضحكة وكان يضحك. وحدي رأيت عيدو يضحك مرة واحدة ولم يره أحدٌ غيري حتى تعجبت في سري وكنت أتساءل: هل المجانين يضحكون؟!

كلما أتذكر ضحكته الوحيدة ينتابني شعور ان عيدو ليس مجنوناً. كلما يوصيني بشيء حينما يصادفني في السوق أقول ان الرجل أكثر من عاقل. لكن كلما أراه بوضعه البائس في السوق والطين والموقد بشكله الفوضوي اقول انه مجنون والرجل فقد الكثير من عقله، لكن عندما قتل حجي خان الأفغاني عاد لي احساس ان عيدو عاقل جدا ولكنه يتصرف بطريقة مجنونة!

احتفظ بفيلم حرقه كاملاً. رأيته مرة واحدة ولم أقوَ على رؤيته ثانية. شيء فظيع أن يُحرق رجل حي..!

أنا في الموصل واحلم بسنجار. أينما أمضي أحلم بمدينتي وما أراه الآن هنا فيه من الرعب أيضاً ما يوازي رعب سنجار الصغيرة لكن الموصل كبيرة يا عم ولا نرى كل فجيعة فيها عكس سنجار التي نرى كلنا فيها ضربة السوط الواحد والرصاصة الواحدة وحفيف الحبل الواحد..

قبل أيام رأيت جثثاً تنهض من قبورها. ليست جثثاً بالضبط لكن هياكل عظمية غير متكاملة بعضها صغيرة لأطفال بلا رؤوس كما رأيتُ ملابس متهرئة كثيرة تمشي لنساء ورجال، واشياء مثل هذا كثيرة خرجت من مقابر جبل سنجار وخانصور وسنوني ودوكري وقزل كند وحردان، وكانت تأتي إلي وأنا أبتعد أبحث عنك، لكنّ هاجساً يوقفني ويجعل الجثث تقترب مني كثيراً كما لو تبحث عن شيء.

رأيت أمي وأبي مثلما أراهما في كل مرة لكنني لم أرَ نشتُمان. صحت على أمي أن تُبقي نشتُمان في حضنها إذا وجدتْها معهم. لكن أمي لا تُبطل عادة البكاء وأبي يلوح لي صامتاً كعادته وآخرون من أصحابي وجيراني ما يزال صيفُ آب الدموي عالقاً في ثيابهم ووجوههم.

كانت أمي بثوبٍ ممزقٍ وكان ثوبها يمشي ويبكي ووالدي صامت بهيكله المتكسر من كل مكانٍ. قلتُ لهما ان العم آزاد أوصاني أن لا أحلم كثيراً لكنني لا أنسى مهما تركت الحلم. أوصاني أن لا أضيع كثيراً فالحياة طاحونة تسحقنا إن بقينا جبناء إلى هذا الحد.

حلمت بنشتُمان يا عم. كانت تركب على نجمة فضية وتتجول في السماء ومن حولها طوقٌ من النار. ناديتها: نشتُمااان.. أنا وبابو نبحث عنكِ.. كانت حلوة وشعرها من ذهب ينسرح على كتفيها وهي تركب النجمة. لم تسمعني. فقد شغلها طوق النيران وكان وجهها حزيناً وهي تلملم أطراف ثوبها الأبيض لئلا يحترق..

نشتُمان.. بابو يبحث عنكِ.. انت وين..!

لكن النجمة أخذتها بعيداً حتى اختفت فبقيتُ أحلم بطوق النار حتى الآن.

أحياناً هناك ما ينتشلني مما أنا فيه من وحدة وحلم. فالموصل أكبر من سنجار ويضيع الفرد فيها، لاسيما مَن كان مثلي لا أهل ولا أصدقاء له سوى ما يربطني بكائن ستيني رئيس مجموعة الحماية الصغيرة وأنا مخدومهم الصغير الذي عليّ أن أكون معه وأساعده في بعض شؤونه و.. نزواته..!

بودي أخبرك كل شيء يا عم آزاد مع الأيام، فقد فتحت لي ولاية الموصل مساحة جيدة من الحرية لم تتوفر هناك بالرغم ما أشاهده هنا من خراب وعقوبات وإعدامات كما في سنجار وإن الحياة فيها لم تكن مثل السابق. فقد صارت مدينة داعشية سوادها اكثر من بياضها وصار ناسها تحت مطرقة الخوف.

كنت أود أن أخبرك إني ذهبت على نحو سريع وغير متوقع مع حماية القائد الشيشاني للموصل لأمور لا أعرفها واننا التحقنا به في فندق" الثقلين" الذي يسكنه القادة والأمراء، مثلما تمنيت أن أخبرك ان البدلة العسكرية التي لبستها أول يوم في الموصل أظهرتني كداعشي صغير نظر الموصليون إلي باحتقار كما أعتقد فبقيتُ مختنقاً بها كل النهار حتى تخلصت منها في اليوم الثاني بوصفي أجيراً لا جندياً عند قائدي الشيشاني، ولم ينفع معي توبيخ آمر مجموعة الحماية الستيني الكويتي أبو عكاشة ذي الأسنان المثلومة والرائحة الكريهة فتملصتُ منه حتى تركني.

وددتُ لو أخبرك إنّ الحياة الموصلية وهي تجري بطريقة لا تشبه سنجار الخاوية. بشر ومحال ملابس وانترنيت وهواتف وسيارات مع ان الحركة بطيئة وتنتهي بعد الظهر الا انها أفضل حالاً من سنجار الصافرة كالأشجار اليابسة. واني اعتدت أن أجلب للشيشاني الكبّة الموصلية من مطعم "الصقّال" وكيلوغراماً من حلويات "زينة" يلفطه بعد الكبة الدسمة. وحينما راح إلى حلب تخلصت من هذا العبء كثيراً فهو كائن مخيف.

يقول لي أبو عكاشة الكويتي ونحن نتوجه إلى منطقة النبي يونس في الجانب الأيسر من المدينة:

- **اسأل يا ولد عن مكان السبايا اللي بالموصل.. أريد أشتري سبية أيزيدية "زغيرة"!**

فأتجنب رائحة فمه وأسنانه العليا المثلومة فأقول له سأسأل عن مكان السبايا وأبلغك. وكان يتحرق إلى ذلك كما لاحظته.

أخبرك أيضاً إني وجدت أكثر من محل للأنترنيت في الدواسة وباب الطوب والأندلس والحي العربي والزهور والنبي يونس في جانبي المدينة الأيسر والأيمن عندما كنت أقضي بعض أشغال الشيشاني وانت تعرف إني أحتفظ بتسجيلات كثيرة حدثت في سنجار؛ بعضها لم تره؛ حدث في أمكنة متفرقة في النواحي والقرى القريبة لأني لم أشأ أن أضيف اليك مشاهد رعب أنت خير من يعرفها وكنتُ أجنبّك القهر والحزن.

هذه فرصة أن أكشف فضائحهم عبر الانترنيت. فالموصل فيها محال كثيرة للبث ولها صلة بالعالم الخارجي بل فيها اتصالات هاتفية.. كورك وآسيا وزين تعمل والحياة فيها أكثر حركة من سنجار..

بدأت بنشر بعض الأفلام التي صورتها معك ومن دونك يا عم. أريد للعالَم أن يرى ماذا يحصل في سنجار وكيف يُهان الناس ويُقتلون ويُعذبون وتُنتهك إنسانيتهم وهم أسرى في مدينتهم. أريد أن أقضي على أحلامي التي تؤرقني.

الآن أستطيع أن أقول بثقة اني كبرتُ على عمري ووضعي الهامشي. اريد أن أكون سنجارياً حقيقياً، فسنجار مدينتي وأهلي ومسقط رأسي وأتمنى أن اقدم

للعالَم الصورة المتوحشة التي تجري هناك.

تغير حلمي يا عم آزاد. لن أبكي كثيراً بعد. أريد أن أكون ابن سنجار الذي لا يغرّهُ إسلامه بل ولن ينفعه في هذه المصيبة، والدليل ذبحوا أمي وأبي وسرقوا نشتُمان وأحرقوا المدينة وبثوا فيها الرعب فلا فرق بيننا فنحن أبناء المدينة وأنت العم الكبير الذي تعلمت منه كثيراً.

كنتُ أصوّر وفي رأسي أمل أن أتحرر من سنجار إلى مكان فيه صلة بالعالم الخارجي لأفضح هؤلاء الذين يقتلون الأيزيديين والمسلمين ويحرقونهم ويعدمونهم؛ لاسيما واني تحررت من وجود الشيشاني المكلف بمهمة إلى حلب بعد يومين من وصولنا إلى الموصل فذهب مع اثنين من الآمرين فقط وتركني في الفندق وأوصى مجموعة حمايته بقيادة الكويتي الانتظار لحين عودته.

يا عم آزاد اتحرك بحرية الآن في الموصل. عندي مال قليل وغرفة في فندق وهوية مرور إلى كل مكان.

أنا مع ذي الفم برائحته الكريهة الكويتي الستيني أبو عكاشة المراهق الباحث عن السبايا الصغيرات. لديه مال كثير ولا يعرف كيف يصرفه وهذه فرصة البحث عن نشتُمان بين السبايا في الموصل..

سأنشر أفلام الرعب التي صورتها فهي رسائل إلى العالم ليروا ما نحن فيه من رعب وكوابيس وظلم. وستصلك الأخبار لاحقاً..

اشتاقك يا عم آزاد وأشتاق العم سالار وسأخبرك بكل شيء في حال عودتي كما اشتاق للخالة الحامل وكلبها الأبيض..

لا أنسى الشرطي دلشاد الذي بفضله تحررت من كآبة سنجار ويوميات البحث عن كل شيء لا يعود كالسابق..

بالمناسبة.. الشرطي دلشاد شخصية رهيبة..!

الكافرات

تسارعت التعليقات بطريقة غير متوقعة واحتدّت واستنكرت مثـــل هـــذا الفعل الذي يشفّ عن بشاعة وانحطاط في الأخلاق والدين بعد لحظات من نشر فيديو فيلمي حي لشخص أطلق على اسمه (ابن سنجار) يبيّن فيه استعراض داعش لست صبايا عاريات يُحلَقْنَ في الهواء الطلق ويتعرضن للجلد في مكـــان عـــام، وأشار في تعليق قصير إلى تاريخ الواقعة ومكانها كمـــا أشـــار إلى انـــه يمتلـــك تسجيلات أخرى لجرائم مذهلة ارتكبتها دولة الخلافة في قضاء سنجار.

الابن السنجاري وضع التسجيل الفيديوي على صفحة فيســبوكية اسمهـــا (أهل الموصل) وجدها مصادفة تُحدّث نفسها مع الدقائق بالأخبـــار والصـــور الجديدة التي يبثها شباب وناشطون من داخل مدينة الموصل أو خارجها؛ غير انها توقفت عند هذا التسجيل يومين كاملين و لم تنشر بعده شيئاً.

انسدلت تحت هذا الشريط الحر عشرات المئات مـــن التعليقـــات وتمـــت مشاركته بأكثر من عشرة آلاف مشترك خلال ساعة واحدة.

أحد الناشطين بث هذا التسجيل الحي على شبكة الـــ You Tube بعـــد أقل من ساعة فكان صدمة كبيرة نبهت منظمات حقوق الإنسان والمجتمع المدني لهذه الخروقات الفظيعة والانتهاكات الجسدية والنفسية لفتيـــات صـــغيرات في السن لإجبارهنّ على تغيير ديانتهنّ بطريقة لا تمت لأي دين سماوي أو أرضـــي بصلة.

بكى كثيرون لهذه المشاهد الخيالية التي كانت الفتيات فيها بوضعهنّ المذل، وتحمس الكثيرون بالتعليقات للإنتقام من دولة الخرافة كما أسموهـــا، وانتابـــت النساء نوبات هستيريا لاعنات الزمن الذي يخزي النساء بهذه الطريقـــة المهينـــة

وشعرت الكثيرات منهنّ بالعار والغضب كما بينتها عشرات ومئات التعليقات التي صدمها هذا الفيلم الحي.

حقق الفيديو انتشاراً سريعاً في المواقع العربية والأجنبية وعرضته أكثر من فضائية أجنبية، مثلما حصل مع الفيلم القصير الخاص بإخصاء الأطفال الأيزيديين الذي أحدث ضجة كبيرة في الوسط الغربي حينما تسرب إلى مواقع الأنترنيت عبر صفحات الفيسبوك.

الجهاز الأمني لدولة الخلافة لم يأبه لهذه الخروقات الحقيقية لكن مواقعه الكثيرة كانت تبرر كل ما يتم نشره ليس عن طريقها وتشيد بقضاتها الشرعيين في ولاية الجزيرة وولاية سنجار.

منبر التوحيد والجهاد قال إنّ الأيزيديات كافرات تستوجب عقوبتهنّ بهذا الشكل أو غيره ما لم يدخلن الدين الإسلامي، مستشهدة بجملة من الوقائع القرآنية والرسولية والتاريخية وما رواه النووي وابن تيميه وابن لادن والزرقاوي والعريفي والسديس وغيرهم.

موقع **الصافنات** أشار بوقاحة إلى عودة الرق والعبودية لأنه من ثوابت الإسلام وإخصاء الأطفال الأيزيديين عمل جهادي إسلامي لتوفير أكبر قدر من العبيد الكفرة في مستقبل دولة الخلافة الإسلامية.

عرض إعلام الخلافة في منتديات شبكات الحسبة والنصرة الاسلامية والأفلام الجهادية ومنبر المرابطين صوراً وأفلاماً قصيرة تظهر مقاتليهم في سنجار وبعشيقة وبحزاني وسهل نينوى وهم في حالة استرخاء تام ويعرضون صور سنجار كولاية فيها حياة طبيعية وأسواق ومساجد وطرق وسيارات..

بينما عرض موقع "صوت القوقاز" صور الجهاديين القوقازيين مع زوجاتهم المنقبات في حدائق وبحيرات وفنادق مُختارة بعناية وقصد في ولايتي الموصل والجزيرة.

وقتها كان الكويتي الستيني يثرد رأسين من الباچة في مطعم "أبو مهند" في شارع حي السكّر والبلديات حينما أخبره أحد رفاقه بشيوع الشريط الفيديوي وان صورته كانت بارزة وهو يجلد صبايا سنجار العاريات، غير انه كان منشغلاً

بمصمصة الكوارع بأسنانه المثلومة وحشو بطنه بالثريد الدسم من الخبز الموصلي الطازج. لكن الفتى الذي كان جالساً معه على المائدة قال له كما لو تذكر شيئاً:

- سمعت انهم يبيعون السبايا في منطقة الغابات.
- وين هذي الغابات؟
- ليست بعيدة من هنا.. في الجانب الأيسر..
- جيد. سنذهب ونشوف.. أريد سبيّة زغيرة يا ولد..!

يهز الفتى رأسه الممتلئ بحلم اللقاء بنشتُمان عن طريق المصادفة.

يحلم قليلاً أو كثيراً فالقصة معقدة كما يفكر أحياناً..

"أهل الموصل" عاد وبث شريطاً فيديوياً آخر عن سبايا سنجار اللواتي تم استعراضهن مع أسعار بيعهنّ في سوق المدينة العام وثبّت "ابن سنجار" تاريخ الحادثة ومكانها ولم يذكر شيئا آخر سوى إنه وعد بالمزيد من الأفلام الحية التي بحوزته.. فاكتسب هذا الموقع شهرة ثانية بالصدمة الجديدة التي كشفها هذا الشريط لفتيات السبي المهانات وهنّ يُعرضنَ في السوق للبيع كأية سلع مثبتة عليها أسعارها الرسمية.



موقع غير معروف اسمه "حور العين" اشترك بالفيديو وعلّق عليه: الأيزيديات كافرات وهن سبايا المجاهدين المسلمين. نتعامل معهنّ كسلع نبيعهنّ شرعاً وقتما نشاء.. بينما اشترك موقع "دولة الخلافة" بتعليق مثير: الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر

في الوقت ذاته كانت منظمة هيومن رايتش ووش ومنظمات حقوق الإنسان الغربية تصدر بيانات متعددة في أكثر من مكان تستنكر فيه مثل هذه التصرفات التي تحط من قيمة المرأة؛ ودعت إلى تخليص السبايا بأية وسيلة ممكنة

تحفظ الكرامة الإنسانية للأيزيديات الأسيرات وعدّها جرائم ضد الإنسانية.

مواقع أيزيدية كثيرة نقلت الفيلم بتعليقات مؤلمة وهي تعرض هذا الجانب المظلم من الحياة السنجارية التي لا يعرف أحد عنها شيئاً بغياب وسائل الاتصالات بالمدينة.

ناشطون عراقيون مستقلون دعوا رجال الدين أن يتدخلوا لإنقاذ ما تبقى من الأيزيديات ولو بشرائهنّ حفاظاً على شرف العراقيات كما ظهر بتعليقات كثيرة من مواطنين آلمهم هذا المشهد الإستعراضي الذي يشفُّ عن استهتار بحياة النساء البريئات.

وعندما أخبروا الكويتي أبو عكاشة بأنه ظهر مرة أخرى في فيلم السبايا كبائع قال بوقاحة إنه يبيع ويشتري وهذا أجرُ جهاده الذي مَنَ الله بفضله عليه.

"ابن سنجار" نشر فيلما آخر لساحة إعدام مرتجلة تُظهِر جسد مقاتل شاب يتدلى من حبل مشنقة متأرجحاً في الفضاء الصغير الذي يشدّ عيون الجمهور القليل الذي كان يرى الفعلة؛ ووضع توضيحاً يفي بالغرض من أنّ هذا المقاتل اسمه **سبيدو** ومجموعة صغيرة من المقاتلين الأيزيديين في قوة حماية شنكال قدمت من مزار شرفدين بطريقة تنكرية لم يتم الإفصاح عنها وهاجمت فجراً مقر الوالي بالرشاشات والقنابل اليدوية وقتلت عدداً غير معروف من حرسه الشخصي غير إن الجميع قتلوا في مواجهة غير متكافئة وأصيب سبيدو وألقي القبض عليه وأعدم بعد قرار شكلي قرأه أحد الملتحين بعصبية بالغة بتوقيع القاضي الشرعي لسنجار.

ودعا ابن سنجار القرّاء والمتابعين في أحد التعليقات رداً على سائل كان يرى ان مثل هذه الحوادث تتكرر في المكان وإن عقوبات داعش باتت معروفة، إنه بالتشغيل المتكرر سينكشف خيطٌ من الدماء كان ينزف من أسفل المقاتل سبيدو وانه أعدم وهو ميت بعد إصابته ليبثوا الرعب بين الناس وانه حتى الميت لا يسلم من عقوباتهم.

الفتى المشغول بصور متلاحقة في رأسه يستشعر الوقت المفتوح بغياب قائده الشيشاني فيشعره بالضغط المتواصل عليه وينشط تفكيره في كل يمكن أن يتاح له من حرية مؤقتة يقدر عبرها أن يقدم شرائح مختلفة من عذابات المدينة نائياً بنفسه

عن كل ما يمكن أن يكشف وجود مكانه بحس أمني آخر استشرى فيه وتضخم بطريقة جعلته يشعر انه يقدم شيئاً لمدينته.

الكويتي الأثرم نقطة الضعف في أسره.. كان يفكر على مدار الساعة.. انه كائن يحب الأكل والجنس والصبايا..

أخبره إن الوقت مناسب لشراء البنات والصبايا في منطقة الغابات التي تقع بالجانب الأيسر للموصل، مستثمراً استشعاره بالحادثة القديمة حينما كشفه الفيلم كأحد تجار الرقيق في سنجار وفي روحه أمل أن يجد نشتُمان بالمصادفة ما دام الوقت مفتوحاً له.

ليلة أمس قلّب كل صورها على شاشة الموبايل. كانت تضحك. تطير مثل الفراشة وتتفتح كالجورية وتناغيه.. يقول لها أشياء كثيرة وتقول له أشياء أكثر..

يضغط على صورها فتنفتح عينان زرقاوان تنظران اليه وتقول له بالعربية:

- ليش ما تضحك.. ليش انت كئيب؟
- وين انتِ..؟
- موجودة.. بس ما أعرف وين..!
- أنا بالموصل أبحث عنكِ..

تختفي عيناها برهة ثم تظهر واقفة بثوب أبيض مسترسل على طولها:

- شنو أخبار المدرسة..؟
- ماكو مدرسة..
- ليش..؟
- داعش أغلقت كل المدارس.
- أتمنى أرجع للمدرسة..

تختفي وتعود بفستان وردي يقسمه شريط ابيض من الدانتيل:

- بابو وين..؟
- موجود.. ينتظركِ..
- يا عيني يا بابو.. مشتاقة أشوفه..
- بس قولي انتِ وين..

تظهر من جديد ببنطلون جينز صحراوي ووراءها جبل وأشجار سرو:

- انا موجودة.. بس ما أعرف وين..
- ما تقدرين تهربين..؟
- لا.. انا مسجونة
- وين..؟
- ما اعرف

تظهر بثوب زهري وشعرها الذهبـــي مسترسل على صدرها:

- وين مسجونة..؟
- ما اعرف..
- بالموصل..؟
- ما اعرف..

تنفتح شاشة الموبايل على عروس صغيرة تملأ الابتسامة وجهها:

- بابو مريض..؟
- لالا..
- كل يوم احلم به

تظهر بفستان أصفر تنتصفه باقة أزهار ملونة:

- بوسلي بابو.. مشتاقة له كثيييير..

تختفي وتظهر. فساتين كثيرة وورود أكثر وفراشات وعصـــافير وحقـــول وجبال وسفرات ودلال وجمال..

- سأنتظر بابو.. وانت معاه.. لا تنسَ.. لازم انت معاه..

سبايا الغابات

كل هذا الثلج
لن يطفئ
النار المستعرة
في قلب السبيّة
نواف خلف السنجاري

شرطيان محليان من دولة الخلافة يعانيان من الضجر والرتابة يقفان في باب صغير يقود إلى ثلاثة كرفانات تظللها أشجار اليوكـالبتوس والسـرو. يـدققان بهويات الداخلين على مضض وخلفهما تجري تجارة رقيق شـهدت في الفتـرة الأخيرة كساداً ملحوظاً.

مثل أبو عكاشة الكويتي بزيه الأسود الطويل ولحيته الطويلة يفسحان لـه الطريق ويجيبان على أسئلته إن سأل والكاشير الملتحي في أول كرفـان ينـهض لمعانقته: اهلا بك يا أخ الإسلام.. نورت الغابات[1] بطلّتك السّمحاء.

رائحة غريبة لم يستوثق الفتى من مصدرها غير انه التزم الصمت منقاداً مع الرجل الداخل إلى محلات شراء السبايا. رائحة عطر مخنوق في داخله أو رائحـة قلبه المضطرب في نبضه المتسارع.

- أريد أن أتقرب إلى الله أكثر يا أخ الإسلام.

يقول ابو عكاشة وهو يمسّد لحيته وعيناه تتوزعان في المكان الرطب.

يباركه المحاسب ويدعو له أن يتقرب أكثر فالإسلام ديـن الله أعـزّ بـه المسلمين من دون غيرهم من البشرية..

---

(1) منطقة معروفة في مدينة الموصل

يدني له كرسيا:

- لدينا أعمار مختلفة يا أخ الإسلام..

يقول له المحاسب وهو يقلب بسجل سميك..

- الصبايا أكثر ثواباً يا أخي. نستر عليهن في الدنيا ليستر الله علينا في الآخرة..

ينادي المحاسب: يا أم عُمير..

تخرج من باب صغير امرأة سمينة منقبة كإنها تمثل دور شبح في مسلسل تلفزيوني. لم يظهر منها شيء فبدت كدابّة تسير على قدمين.

- يا أختاه.. استدعي الصبايا كلهن من الكرفان الأخير..

جمد الفتى بمكانه وعيناه تتبعان أثر المنقبة الذاهبة إلى الكرفان.

- دعونا المجاهدين لشراء الأيزيديات وبعض المسيحيات وخفضنا الأسعار كثيراً.. انه مال للمسلمين في جهادهم العظيم ضد الكفار والروافض والنواصب.

أخرج من جارور على جهته اليمين ورقة تسعيرة جديدة وقدمها لأبي عكاشة.

أحدث مجيء الصبايا حركة واضحة طار فيها قلب الفتى وهو يرى أشباحاً بعباءات سود تتقدمها المنقبة السمينة. رصفتهنّ واحدة جنب الأخرى. تحرك الفتى وصار بمواجهة أكثر من خمس عشرة صبية منقبة لا تظهر وجوههنّ.

قدمت السمينة ورقة إلى أبي عكاشة:

- هذه أسماء الصبايا وأعمارهنّ وديانتهنّ يا أخ الإسلام.

سبقه الفتى بلمح البصر بقراءة فاتورة الأسماء فارتدّ إلى الوراء منكسراً حينما لم يجد اسم نشتُمان فظل يترقب اختيار الكويتي لسبيّته التي سيختارها فقد تكون على مقربة أو صلة بنشتُمان..

- اكشفي لي وجوههنّ يا اخت..

بدأت السمينة ترفع براقع الصبايا واحدة بعد الأخرى والكويتي يتطلع بعينين مفتوحتين، مثلما الفتى يغرز نظره فيرى الوجوه المخطوفة تحت البراقع للحظات كأنها لحظات ثمينة مسروقة من زمن سنجار.

- لو سمحتِ يا أخت.. تعيدي لي كشف الوجوه..

بدأت السمينة من جديد تكشف الوجوه من أول صبية والكويتي يراقب بتمهل الوجوه الصغيرة المتعاقبة في انخطافاتها المذلة مثلما أخذ الفتى يعيد رؤية الوجوه المحبوسة تحت البراقع الثقيلة..

- هذه..

وأشار الكويتي إلى الفتاة الثالثة التي حملت اسم نارين الأيزيدية كما قرأه الفتى في القائمة المرتعشة بين يديه وهي سنجارية المكان من مجمع سيبا شيخ خُدُر بعمر 15 سنة كما مثبّت بالمعلومات المقتضبة عنها.

دفع الكويتي 50 دولار ووقّع على استلام الصبية التي بدأت تنشج. منحه المحاسب وصل استلام ووثيقة تملك وعقد نكاح لم يقرأ منه شيئاً وقال له: **أول بيعة لنارين كانت بـ 600 دولار.. لكن السوق الآن انخفض.**

أعادت السمينة بقية الصبايا إلى الكرفان وطلبت من الكويتي بضع دقائق لتوضب الصبية أغراضها القليلة وتودع صديقاتها.

عادت الفتاة بصحبة السمينة وبيدها كيس بلاستك أسود. تمنّت السمينة للكويتي السعادة مع صبية سنجار السيباشيخدرية.

- إنها عبادة وصلاة إلى الله يا أخت.. أعمارنا قصيرة مهما طالت فلعل الله تعالى يكتبها في ميزان حسناتنا...

دردشة في "فوبيا"

حاول موقع "أهل الموصل" التعرف على "ابن سنجار" من خلال رسائل ودية في الإنبوكس بعد نشر شريط فيديوي قصير يُظهر فيه بنتاً سنجارية انتحرت بشنق نفسها وقد تدلّى جسدها على الشباك من جهته الخارجية مما يظهر تصميمها على الانتحار.

كتب ابن سنجار معلومة قصيرة: **هذه هفيدار التي شنقت نفسها بعد أسرها للمرة الثانية لأنها لم تتحمل دعارة جنود داعش في سنجار..**

ابن سنجار لم يُجِب على رسائل الموقع خوفاً من أن يُظهر مكان إرساله غير ان الموقع نبهه بودية خالصة ان مكانه قد ظهر في نشر المقطع الفيلمي لأن إرساله كان من الهاتف المحمول، فاضطر الموقع إلى حذف الشريط الفيديوي حفاظاً على سلامته ودعاه إلى إعادة الإرسال من شبكة أخرى عبر حاسبة وليس عن طريق الموبايل.

انتبه الفتى فعلاً إلى هذا الخطأ وانتابته نوبة قلق لكنه تنفس بارتياح وهو يرى الموقع قد حذف فيلمه. وبعملية سريعة، وتجنباً لأية مخاطر محتملة، غيّر كلمة سر صفحته وجعلها NASHTOMAN كما غيّر صورة البروفايل الخلفية لصفحته الشخصية التي كانت تمثل سوق سنجار إلى صورة مخيم إيسيان في دهوك وأبقى على صورته الشخصية التي تمثل شيخاً أيزيدياً طاعناً في السن.

لم يُعِد نشر الفيلم لأنه وجده في أكثر من موقع مع تعليقات كثيرة ومشاركات عديدة وواضح انه تم نسخه قبل أن يحذفه الموقع. كما وجد بيانات استنكار واسعة من منظمات دولية مختلفة عملت على ترجمتها مواقع عربية وعراقية ونشرها لمتابعيها.

وجد تعليقات لا حصر لها في مواقع مختلفة منددة تكاد تتشابه لفرط انفعالاتها وسخطها، لكن لفته سؤال لعراقي من بغداد على موقع (فوبيا) لم يسمع به من قبل وهو السؤال الذي غير كل الحوارات الدائرة وامتص انفعالات الكثيرين وجعله مساحة نقاش حرة:



البغدادي

يا جماعة الخير أنا لسه ما اعرف هل الأيزيديون كفّار ويعبدون الشيطان مثل ما نسمع.. لو شنو؟ وما هو أصلهم؟ ممكن معلومات لو سمحتم..

يتطلع إلى الأجوبة المسترسلة الكثيرة. بعضها يحيل إلى مواقع معينة عن تاريخ الأيزيدية وديانتها القديمة التي سبقت الإسلام. بعضها يشير إلى أنها ديانة ترتبط بالنبي ابراهيم؛ بعض الأجوبة تشير إلى إنسانية الإنسان مهما كان دينه ولونه.

تعليقات متداخلة أسهمت في كشف الكثير من حقائق معينة غائبة عن جمهور ثقافته سماعية شعبية.

وجد على تعليقات السائل البغدادي حوارات وإيضاحات لا حصر لها كما لو نبهته إلى أن عليه أن يستدرك الكثير من المعرفة عن دين نشتُمان التي يبحث عنها والتي عاش معها سنوات مدرسة لم يكن منتبهاً لها آنذاك..

فتح الأجوبة وبدأ يقرأ في الدردشة:



خزعل ابن الملك

هناك الكثير من الغموض في هذه الديانة فعلا.. ممكن توضحولنه شنو القصة رجاء..!


البصراوي

تعرفنا على الصابئة في المناطق الجنوبية في البصرة والعمارة والناصرية لكونهم عاشوا معناً اعماراً طويلة ونعرف علاقتهم الأزلية بالماء. لكننا نجهل حقيقة الأيزيديين. وبصراحة يسمونهم عبدة الشيطان.. هل هذا صحيح؟


سامر شفان..

الأيزيدية هي الديانة الوحيدة ربما التي تتميز بأن معتنقيها من شعب واحد وقومية واحدة وهي الكردية وأتباعها من الكورد الذين يتحدثون اللهجة الكورمانجية فهي أذا كردية بامتياز في أهلها وعاداتها ومعتقداتها ولغتها وأرضها.. لكن هذه اللهجة يختص بها الأيزيديون فقط.. ويمكن القول أن اصل اللغة الكردية هي الأيزيدية..


الياس عبدالله

مرة قرأت ان معتقداتهم ورموزهم الدينية تختلف عن الديانات السماوية الثلاث، فهم يعتبرون الله ربهم وهذا لا جدال فيه ولكنهم يؤمنون بأن الملك على الأرض هو الطاووس الذي يعتقدون بأنه يحكم الأرض.. هل ممكن أن نفهم كيف..؟


Dr. Shaman

التوحيد لدى الأيزيدية يعتبر من اهم الاسس الثابتة في فلسفة الدين الأيزيدي والإنسان في العقيدة الأيزيدية هو المسؤول عما يفعله وليس الجن أو الأرواح الشريرة. وان الله هو كله خير اما الشر فيأتي أيضا نتيجة لأفعال البشر لذا الصراع بين الخير والشر هو في الأساس صراع بين النفس والعقل.



فاكهة محرمة..

يعتقد الأيزيديون أن الله موجودٌ في كل شيء وهو الأساس والمخلوقات أجزاءٌ من الروح العليا، وهذه الظواهر جزء من الذات الإلهية وتجسيداً لقدرته الخارقة.



ايزيدخان..

كثير من الفتيات الإيزيديات اللاتي استطعن الهــرب يــتم تجــويعهن واغتصابهن وضربهن بشكل مبرح وتؤكد التقارير أن داعش عازم على محــو الشعب الأيزيدي في نفس الوقت الذي ترى فيه الحكومات الإقليمية العراقية الإيزيديين باعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية وأقل لا يستحقون مساعدات أو اهتمامًا أو إنقاذًا وسوف تستمر هذه الفظائع فالآلاف من الناس معظمهم من النساء والأطفال لا يزالون في الأسر بين أيدى جنود داعــش يتعرضــون للاغتصاب في كل حالة من قبل ما لا يقل عن خمسة رجال في وقت واحد قبل أن يتم بيعها لمجموعة مقاتلة أخرى.



Dr. Shaman

الأيزيدية هي الدين الوحيد الذي لا يوجد فيه عمليات التبشير والدعوة والتوسع، لذلك حافظوا على أقليتهم وهي ليست فرقة منشقة عــن الــدين الإسلامي أو عن المسيحية وهي ليست ديانة وثنية كالديانات القديمة لوجــود فكرة التوحيد فيها ولشمولها على العناصر السماوية التي تتلاقى مع الديانات السماوية الثلاث، ولأن أتباع الأيزيدية يؤمنون بالرسل والأنبياء جميعــاً، ولا سيما إبراهيم الخليل الذي يعتبرونه أول موحد وهــم جــاؤوا مــن بعــده، ويوحدون الله ولا يعرفون له شريكاً.



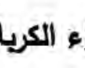
..Maria. G

أرجو من الإخوان أن يعرفوا انه لا توجد مصادر كتابية في ديننـــا بـــل كانت العقائد والطقوس والأفكار تنتقل شفاهاً بين الأجيال فيما يسمى "علم الصدر" بسبب الأمية الطاغية لأجيال متعاقبة كثيرة واستحواذ تعلم القـــراءة والكتابة على الكهنة وابنائهم.. وفي هذا شرح يطول.. لكن مع هذا حافظت الأيزيدية على قوامها وعقيدها ومبادئها إلى اليوم.. إنه دين شفاهي ســـري لا يسمح بالتبشير ولا يقبل من غير الديانات الأخرى. وهذه الفكرة تجسد معنى نقاء الدم أو نقاء النسب.



..Dr. Shamam

نتيجة للسرية التي تكتنف الدن الأيزيدي فإن هناك الكثير من المفـــاهيم الخاطئة كالقول بارتباطهم بالذيانة الزرادشتية وعبادة الشمس وبالرغم من أن أضرحتهم غالبا ما تزين برمز الشمس وأن مقابرهم تشير إلى جهة الشرق في اتجاه الشمس بل ان صلاقم تتجه إلى الشمس..



زهراء الكربلائية

كلنا أخوان في هذا الوطن ولن يفرقنا دين ولا طائفة ولا سياسة ان شاء الله. الأيزيديون اخوتنا في الهم المشترك وما وقع عليهم من ظلم كبير من قبل قطعان داعش والله يحز في النفس.. ولا نعرف أي دين هذا الـــذي يسبـــي النساء ويعرضهن للبيع والشراء في الأسواق؟ حسبنا الله ونعم الوكيل ولا إله الا الله محمد رسول الله.


Bayazid

تقوم الديانة الأيزيدية على فكرة إن الله تعالى خلق الملائكة السبعة وجعل من طاووس ملك رئيسا عليهم لأنه الملاك العابد الذي كافأه الله على عـدم تفريطه في عبادته وفي وحدانيته لله ودور رئيس الملائكـة في الفكـر الـديني الأيزيدي يختلف عنه في الأديان الأخرى اختلافا كليا، فلا وجود لفكرة الـه للشر ولا وجود لإبليس وان الله تعالى لم يغضب على رئـيس ملائكتـه ولم يطرده من الجنة وان الديانة الأيزيدية لا تعبد ابليس كما يظن الكثير.

 **باسكال الأيزيدية..**

حسب الميثولوجيا الأيزيدية فإن الشعب الأيزيدي ينحدر مـن سـلالة خاصة تختلف عن بقية البشر، فهم أبناء آدم فقط وبقيـة البشـر أبنـاء آدم وحواء، حيث تقول الرواية الأيزيدية أن آدم وحواء اختلفا حـول عائديـة النسل إلى أيٍّ منهما، فقررا وضع شهوتيهما في جرتين منفصلتين والإغـلاق عليهما والانتظار لمدةٍ من الزمن، فتحت حواء جرتها فشاهدت فيها ديـداناً وعفونةً بينما احتوت جرة آدم على طفلٍ حيٍ، فسموه شيث ابن الجـرة، ثم أرسل الله لشيث حوريةً فتزوجهـا وأنجـب منـها النسـل المعـروف الآن بالأيزيدية...

موقع ايزيدخان..

كشف تقرير للأمم المتحدة أن تنظيم "داعش" في العراق ارتكب جرائم ضد الأقلية الأيزيدية ترتقي إلى الإبادة الجماعية واعتبرت المنظمة الأمميـة في تقرير صادر عن مكتب حقوق الإنسان، أن التنظيم المتطرف ارتكب ثـلاث جرائم دولية هي الإبادة الجماعية والجرائم ضد الإنسانية وجرائم حرب.

وفي اجتماع مع المدعية العامة للمحكمة فاتو بنسودا قدمت مجموعتان من الايزيديين تقريرا يوضح تفصيلا الفظائع التي يزعمون أن عناصر تنظيم داعش في شمال العراق ارتكبوها منذ أغسطس آب 2014. ويتضمن ذلك إعدام أكثر من 700 رجل ايزيدي دون محاكمة وقتل المرضى والعجائز واغتصاب واستعباد آلاف النساء وخطف أطفالهن وإجبارهم على اعتناق الإسلام والقتال لصالح التنظيم.

وقال تنظيم داعش علنا إنه يريد القضاء على عقيدة الطائفة الايزيدية التي يؤمن أتباعها بإله واحد ويمارسون طقوسا دينية قديمة.


رامز أغا..

عدي بن مسافر هو الشخصية الأكثر محورية في الديانة الأيزيدية. إذ يعتبرونه مجدد الديانة وهو شخصية دينية فريدة وموضع توقير وتقديس لدى الطائفة..


حمو رشو..

يعتبر الملك طاووس عند الأيزيديين تجسيدا لذات الإله ولا ينفصل عنه، لذا فإن الأيزيدية تعتبر من الديانات التوحيدية.


Dr. Shaman

في البداية وقبل خلق السماء والارض كان الله "فوق البحار". وكانت هناك لؤلؤة بيضاء رمى الله اللؤلؤ في البحر فانكسرت فتشظت منها الأرض والسماء والنجوم. خلق الله بعد ذلك طاووس ملك الذي تجسدت فيه قوة وحكمة الإله وجعله قادراً على معرفة رغبات وإرادة الله وتنفيذها وأناط به مهمة إكمال بناء الكون. ثم خلق بعد ذلك ستة ملائكة لتساعده في ذلك.

بدأت الأرض تهتز بطريقة عنيفة، فأرسل الله طاووس ملك لوقف هذا الاهتزاز. فهبط في لالش متخذاً شكل طاووس عظيم ذا سبعة ألوان أساسية وثانوية، فوهب هذه الألوان للأرض بنباتاتها وحيواناتها مكسباً إياهم الجمال وصعد بعد ذلك إلى جنة عدن حيث التقى هناك بآدم وكان آدم في ذلك الوقت جسدا بلا روح ففجر طاووس ملك نفس الحياة فيه. ثم أدار آدم نحو الشمس وقال له أن هناك من خلق هذا وأن هناك شيئا أكبر من الإنسان والشمس تجب عبادته.



بغدادي في دهوك..

السيد سامر شفان في التعليق الثالث.. اعرف ان الأيزيدية يتكلمون العربية وليس الكردية كأهالي بعشيقة وبحزاني والعربية لغتهم اليومية اما الكردية فهي لغتهم الثانية.. وهذا يؤكد ان الأيزيديين ليسوا بالضرورة أكراداً كما تقول.



سمسمة الكوردية..

اسم "الأيزيدية" مشتق من الكلمة الفارسية "إيزيد" والتي تعني الملاك أو الإله وليس من يزيد بن معاوية كما يروّج البعض عن قصد أو من دون قصد.



الشنكالي خانو..

يعتبر معبد لالش من اقدس الاماكن عندنا الذي تقام فيه الطقوس الدينية والاعياد والحج ويعتبر مكاناً لحل المشاكل الكبيرة التي تحدث بين الناس، كما هو حال المعبد القديم في بلاد الرافدين، حيث كان رجال الدين يقومون بدور القضاة في المعبد.. ويقع بين ثلاثة جبال في منطقة عين سفني. أما تفسير كلمة

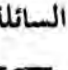
لالش فالبعض يفسرها على الها مكونة من مقطعين الاول (لال) بمعنى اخرس والمقطع الثاني (لش) بمعنى اصم فيكون المعنى الذي لا يسمع، ولا يتكلم، وذلك لكون المكان مقدساً فكل من يدخل عليه ان لا يتكلم بل يدعو ربه، ويصلي بصمت ولهذا يسمونه وادي الصمت.


Dr. Shaman

أود أن أضيف للأستاذ الشنكالي خانو ان قبر عدي بن مسافر في لالش كما يعرف وهو المعبد الديني الرئيسي والوحيد للأيزيديين ويحرص الأيزيديون على العبور حفاة الأقدام تعظيما لقدسية المكان ويحجون مرة واحدة خلال حياقم على الأقل إلى لالش حيث يستمر الحج سبعة أيام.


سمسمة الكوردية..

تسمية لالش تعني خميرة الارض حيث كانت الارض في البداية في حالتها السائلة بعد ان انزل الله فيها لالش وهي مركز الكون..


سمارة الكاظمية..

قرأت إن الكاتبة كايلا وليامز في مذكراقا عن خدمتها مع وحدة الاستخبارات في الفرقة المجوقلة 101 في الجيش الأمريكي في العراق خلال عامي 2003 و2004 ان مجموعتها قد تمركزت في شمال العراق بالقرب من الحدود السورية في منطقة يسكنها الأيزيديون وعلى الرغم من الهم يتكلمون الكردية، إلا الهم لا يعتبرون أنفسهم أكرادا. وقالت عن دينهم: أظن أن أصول دينهم قديمة جدا، ومتمحورة حول الملائكة.



وارد بدر السالم

قيض لي أن أتعرف على أصدقاء وصديقات من الطائفة الأيزيدية عبر الفيسبوك بوك وتوفرت لي فرصة سريعة لزيارة مخيم إيسيان ومخيم باعذرا ومن ثم معبد لالش الواقع بين ثلاثة جبال وفي مكان ساحر من الطبيعة الجبلية العملاقة في كردستان.

شاب أيزيدي وسيم اسمه عرفان أخذني إلى معبد لالش في عين سفني وقضيت معظم النهار هناك ومارست الطقوس الدينية اللازمة لدخول المعبد.. وقتها كنت أعدّ نفسي لكتابة رواية عن الأيزيديات المخطوفات.. وكنت احتاج إلى أن أرى ميدانياً طقوس الحياة والعبادة هناك.

لالش المكان أسطورة الدين الأيزيدي.. والأيزيديون أسطورة الدين السري الغامض الذي يمنع الإنخراط به من غير أيزيديي النسب والدم ولا يسمح لمن تركه بالعودة ثانية اليه. لذا فهو دين غير تبشيري حافظ على أنساقه الدينية والاجتماعية والأخلاقية لآلاف السنوات.

ما يميز المكان هو جماله الفريد الواقع بين ثلاثة جبال غزيرة الأشجار والزهور والفاكهة وتشكّل خيمة عملاقة على المعبد تضفي عليه سحراً فريداً..



الصورة: أنا في مدخل معبد لالش حافي القدمين طبقاً للمعتقد الأيزيدي بوصـــف المكـــان مقدساً دينياً. ومن خلفي الحية المقدسة التي أنقذت سفينة نوح من الغرق.



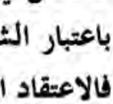
سروش البحزانية.. إلى سمسمة الكوردية

هناك تفسيرات عديدة حول تسمية هذه الديانة العريقة، فكلمة E - zi - di تعني الشخص الذي يسير على الطريق المستقيم (الذي يتبع الله) أو الروح الخيرة وغير الملوثة والذي يمشي على الطريق الصحيح، أو عبادة الله وحده... (منقول)



سبري شاريا..

يُصلي الايزيدية خمس مراتٍ في اليوم، وهذه الصلوات هي صلاة الفجر، صلاة الشروق، صلاة الظهر، صلاة العصر، صلاة الغروب. يواجه المصـــلون الشمس في جميع الصلوات ما عدا صلاة الظهر حيث يتوجهـــون إلى لالـــش باعتبار الشمس عمودية ولالش مركز الأرض. أما لماذا القِبلة هي الشـــمس فالاعتقاد الأيزيدي هو ان الشمس تعد اعظم ما خلقه الله.



جانيت شليطا المسيحية

عشت مع طالبات أيزيديات في الجامعة اربع سنوات وفهمت الكثير من العادات والتقاليد عندهم. وفهمت تمسكهم بالدين الأيزيدي بـــالرغم مـــن صرامته لأنه دين مغلق لا يقبل أحداً يدخل اليه ومن يخرج منه لن يعود اليـــه ثانية.

نساء الأيزيدية عفيفات ونظيفات وذوات أخلاق عالية وأعتقد ان للدين انعكاساته على مثل هذه التربية ورفعة الأخلاق وسموها..

كثير حزنت لما سمعت بقصص السبـــي والبيع والشراء.. يا رب ارحمهم بحق نبيك المسيح وليعم الأرض السلام..



وردة الألم السنجارية..

والد الشيخ عدي الشيخ مسافر كان زاهداً صالحاً يسكن بيت فار من أعمال بعلبك من سهل البقاع، فسلك طريق المجاهدة والسياحة وترك بيـــت فار وتنقل في بلاد هكاري، وفارق زوجته أربعين سنة وبينما كـــان نائمـــا في إحدى الليالي جاءه ملاكٌ يقول له: اذهب إلى زوجتك وواقعها فتحمل منـــك ولداً صالحاً. فغادر الشيخ مسافر مكان سكنه، وكان في منـــاطق الأيزيديـــة، فوصل منزله ليلاً. وقبل ذلك، رأت أم عدي نوراً يهبط من السماء ويـــدخل أحشائها ورأت قبةً بين جبلين يرتفع منها نورٌ وسمعت جبل المشرق ينادي جبل المغرب بأنه سيولد ولي الله الشيخ عدي وسيكون ذكره في المشرق والمغرب. وبعد أن جامعها زوجها، طلبت منه أن ينادي من فوق السطح بأعلى صـــوته بأنه جاء راكبا فرسه لكي تتخلص من كلام الناس لعلمهم بســـفر زوجهـــا الطويل..



زيري الحزينة..

أضيف اليكم إلى ان لنا كتابين مقدسين هما مصحف رش أو الكتـــاب الأسود، وكتاب الجلوة لـــ عدي بن مسافر وهذا يتحـــدث عـــن الإيمـــان والابتعاد عن ارتكاب الخطايا والعقاب والثواب، أما مصحف رش فيتحـــدث عن خلق الكون والإنسان والمحرمات.



الحزينة على شنكال

الماء والنار والتراب والهواء رموز مقدسة في ديانتنا.. النار مقدسة ونحرص على أن تبقى مشتعلة في معبد (لالش) ولا سيما يوم الأربعاء، ولا يجوز للمؤمن البصاق على النار والماء والتراب أو التبول في القنوات والترع ومصادر المياه، ويؤمن ديننا بالتقمص والتناسخ، والتقمص يعني انتقال الروح من جسد المتوفى إلى جسدٍ آخرٍ حديث الولادة. ونعتقد أن الروح أزليةٌ لا تموت ولا تتلاشى وإنما تنتقل بين الأجيال المتعاقبة.

الخيانة عمل محرم عند الأيزيدية. وكذلك لبس الثياب ذات اللون الأزرق أو استخدام الأواني والأوعية الزرقاء لأنها لون السماء فلا يجوز ذلك.

ديننا يحرم أكل الخس والقرنابيط والقرع والفاصوليا ولحوم الديكة وكذلك لحم الطاووس المقدس لأنه نظير لطاووس الملائكة، وكذلك لحوم الدجاج والسمك والغزلان ولحم الخنزير كما يحرم حلق الشوارب للرجال.



Baber ...

ان اغلبية الكتاب الشرقيين الذين لهم دراسات حول الأيزيدية وقعوا في خطأْ واحد وهو اعتبار الأيزيدية طائفة محسوبة على القومية الكردية. اما الكتبة الغربيون كالفرنسيين والانكليز والالمان وحتى الروس كانوا على دراية وعلم بان الأيزيديين هم من السكان الاصليين لبلاد ما بين النهرين وانهم أصل اللغة الكردية ويسمون الكرمانج..



وردة شنكال

يحتفل الأيزيديون في ربيع كل عام الذي يبدأ في أول أربعاء من نيسان بعيد رأس السنة الذي يمثل أحد اعيادهم الموروثة من (يوم حجتو) أي (يوم الحج) وهو عيد الربيع العراقي ايام آشور بابل، والذي اقتبسه الايرانيون باسم عيد نيروز.

ويؤمن الأيزيديون أن الملك جبريل نزل على الارض في يوم صادف أول أربعاء من نيسان حسب التقويم الشرقي، لذلك يحتفلون بعيد رأس السنة في هذا اليوم. وهذا يشبه إلى حد مطابق إلى احتفال العراقيين القدماء بيوم عودة تموز اله الخصب إلى الارض. وهنالك تشابه كبير بين اسمي (طاووس وتموز)..(منقوووووووول)



لالش النوراني.. إلى بغدادي في دهوك التعليق 15

لغة اهل بعشيقة وبحزاني لغة شامية لأن اصولهم تعود للشام ولبنان وحتى ازياؤنا سورية ولبنانية ولكن تبقى اللغة الدينية هي الكردية. فقد هاجر بعض الأقوام هربا من البطش والقتل والتنكيل باسم الدين وسكنوا بلاد الشام وتعلموا اللغة السامية لمئات السنين وعندما عادوا تغيرت لغتهم الأصلية إلى الشامية واللبنانية..



أيزيدخان..

لسنا عبدة اصنام ولسنا مشركين ولا نؤمن بتعدد الالهة ولسنا وثنيين. نؤمن بوجود الرب وهو خودا. ونؤمن بكل رسالاته السماوية. ولكن ليس لنا نبي.



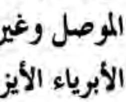
النور الخالد..

لغة الأيزيدية كردية ويذكر اسم (خودا) في الأدعية كثيراً وهـي تعـني (الله) ومعناه اللغوي هو "خو" أي ذاته – نفسه و"دا" أي الخالق – المكون – المعطي بمعنى الدلالة على أن الله خالق نفسه بنفسه، وهي تجسيدٌ بأن الله هـو خالق كل شيء ولا خالق سواه.



ابن الأيزيدية.. إلى الأخت الحزينة على شنكال

المنوعات التي ذكرتيها لا يوجد فيها نص ديني صريح لاسيما في الأطعمة ولكن أود الإشارة فيما يتعلق بتحريم أكل الخس. حيث تم في أحد حملات الإبادة التاريخية على الأيزيدية، وبينما كان الأيزيديون يشتغلون في الزراعة ذُبحوا علـى مزارعهم التي كانت تحوي على نبتة الخس ونهبت تلك المزارع وبيعت في اسواق الموصل وغيرها من المناطق فاحتل الخس اغلى الأسعار لأنه احتوى علـى دمـاء الأبرياء الأيزيديين لذلك صار من المحرم أكله على مر الزمن..



Berevan Shingalia

تعرضت الأيزيدية إلى 74 غزواً خارجيا وآخرها غزو داعش الهمجـي والكثير منها جاء بفتاوى دينية ظالمة.. منها فتوى أحمد بن حنبـل في القـرن التاسع وأبـي الليث السمرقندي والمسعودي وعبد الله الربتكي ولعل فتوى أبو سعود العمادي عام 1560وهو مفتي الدولة العثمانية في عهدي سـليمان القانوني وسليم الثاني أحد هذه الفتاوى التكفيرية بحـق الأيزيـديين وأبـاح بموجبها قتل الإيزيديين وسبـي نسائهم وذراريهم بعد أن وصفهم بأنهم "أشد كفرا من الكفار الأصليين" وعلل ذلك ببغضهم للإمام علي بن أبـي طالـب وأولاده الحسن والحسين.



Berevan Shingalia

ومن تاريخ أبعد بدأت الحملات بأيام مير جعفر الداسني أيـــام الخليفـــة العباسي المعتصم سنة 224هـــ إلى حملات القرنين السادس والسابع عشر ومن ثم حملات ولاة بغداد العثمانيين.. كحملات حسن باشا سنة 1715م وأحمـــد باشا سنة 1733م وسليمان باشا سنة 1752م ونادر شاه الفارسي بين ســـنتي 1732 و1743م وأمراء الموصل الجليليين والحملة علـــى إمـــارة الشـــيخان وإيزيدية جبل سنجار، وحملات علي باشا عام 1802م وسليمان باشا الصغير عام 1809م وإينجه بيرقدار عام 1835م ورشيد باشا عام 1836م وحافظ باشا عام 1837م ومحمد شريف باشا بين سنتيّ 1844 و1845م ومحمد باشا كريدلي أوغلو بين سنتي 1845 و1846م وطيار باشا بين سنتي 1846 و1847م وأيوب بك سنة 1891م وعمر وهبـــي باشا سنة 1892م وبكر باشا سنة 1894م.



Berevan Shingalia

وهناك حملات أمراء رواندز مثل حملة محمد باشا السوراني بـــين ســـنتي 1832 و1834م وحملة بدرخان بك سنة 1844م وحمـــلات خـــلال القـــرن العشرين بما فيها حملة تشريد الإيزيديين من قبل حزب الاتحاد والترقي إبـــان مذابح الأرمن سنة 1915م ومن ثم حملة إبراهيم باشا سنة 1918م وسنة 1935 من قبل الجيش العراقي الملكي وأخيراً.. غزوة داعش هـــي ضـــمن سلســـلة غزوات تكفيرية تريد إبادة الشعب الأيزيدي وطمس دينه وتراثه الاجتماعي..



جتان الأيزيدية

اسمحوا لي بالمشاركة عن الأعياد الأيزيدية التي لم يتطرق اليها أحد وهـــي جزء من التراث الديني والشفاهي والاجتماعي لطائفتنا وقد نقلته لكـــم مـــن مصادر مختلفة.. فأعياد الأيزيدية كثيرة وأهمها عيد السري سال أو ما يعـــرف بالأربعاء الأحمر "جار شمه سور" عيد رأس السنة أو "سري صالي" باللغة الكردية

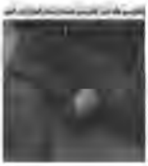
ويكون في أول أربعاء من شهر نيسان. وتعود أصول هذا الاحتفال إلى العراقيين القدماء حيث كان يحتفل به الأكديين والبابليين والآشوريين بما كان يعرف بأكيتو. ومازال هذا العيد يحتفل فيه في الوقت الحاضر بما يسمى بخا بنيسان وهو أقدس الشهور، لأنه شهر تزاوج الآلهة، لذلك يحرم زواج البشر فيه، أو حراثة الأرض والزراعة. وكان الاعتقاد بأن الآلهة تجتمع في حجرة الأقدار ببلاد سومر لرسم مصير البشر، ويقوم كبير الآلهة (مردوخ) على عرشه تحيط به بقية الآلهة وهي تسجد له، فيسلم لوحة القدر ومصير البشر إلى أبنه (نابو) الذي أقيم له معابد في كل مكان وانتشرت عبادته في بلاد سومر.



جتان الأيزيدية

وعيد أربعينية الصيف (جلى هافينه) يصادف في ذروة الصيف والحر ويتم طلب الاستعطاف والرحمة من الخالق من الحر الشديد، وعيد الحصاد يمتد سبعة أيام من \ 23 أيلول وحتى 1 تشرين الأول الكردي، حيث ينتهي الناس من جمع المحصول، ودفع قسم منه للفقراء، ويتم الحج إلى لالش والتعمد في النبع الأبيض. أما أربعينية الشتاء (عيد بلندا) ويصادف في 25 من شهر كانون الأول الكردي فهي فترة نمو الزرع وحمل الثمرة ويرافقه إشعال النار لاستجلاب حرارة الشمس الدافئة ليساعد على النمو والتكاثر. وعيد الجماعية هو الحج وهو من أهم المناسبات وأحبها لدى الأيزيدي سواء الرجال أو النساء وحتى الأطفال، حيث يجتمعون من كافة أنحاء العالم في لالش النوراني، ويزورون ضريح شيخادي وبقية الأضرحة الموجودة في لالش.

وأهم وأثمن هدية تجلب هي البَراة وهو عبارة عن حجارة صغيرة مدورة ذات لون أبيض تتشكل من الكلس الذي يحيط بمياه النبع الأبيض، ويعتقد بأنها تمنح لحاملها الغفران.




جتان الأيزيدية

عيد الصوم واجب على كل أيزيدي يتمتع بالصحة الجيدة لثلاثة أيام في أول أسبوع من شهر كانون الأول الكردي، وهناك صيام ثانية في أول أسبوع من شباط الكردي.


جتان الأيزيدية

عيد خضر الياس يصادف يوم الجمعة الأول من شهر شباط الكـــردي والصيام فيه ثلاثة أيام قبل العيد احتراما للنبـــي خضر ألياس ويُعتقد بأن أي حلم يحلمه الإنسان في ليلة العيد لا بد أن يتحقق. ويبقى عيد القربان وهـــو للنبـــي إبراهيم خليل الذي له مكانة عظيمة لدى الأيزيديين، ويُعتقـــد أنـــه ايزيدي حمل دينهم إلى أرجاء المعمورة، وتعرض لظلم الملك نمرود الذي يقرر حرقه، فنذر على أن يضحي بأغلى ما يملك أذا ما أنقذه الله من النار، وبعد أن أنقذه الله ينزل عليه ملك فرخدين وينبهه إلى النذر فيعمد إلى التضحية بولده، ثم يُنزل الله له كبشا من السماء ويأمره بذبحه.


بهار.. بهار

نحن أيزيديون. بيضٌ هي ملابسنا. مكاننا هو الجنة..

لم ير الكويتي ابو عكاشة كثيراً بعد إن اشترى سبيّته الصغيرة، لكنه مرة اتصل به من داخل غرفة الفندق وطلب منه أن يجلب له دجاجة مشوية من مطعم قريب، وظهيرة الأمس استدعاه وأعطاه ورقة صغيرة طالباً منه شراء وصفة حبوب فقرأ الفتى Cialis و لم يفهم شيئاً!

لا توجد تبليغات معينة ولا واجبات مهمة سوى التواجد الممكن بين ساعة وساعة في الفندق على أن يكون الموبايل هو الحلقة التي تربط الجميع في لحظات الطلب العاجل وأن لا يكون مشغولاً أو عاطلاً أو منتهي الشحن.

ترك الفندق وتجول في أكثر من مكان يراقب الحياة البطيئة وفي رأسه تتخاطر صور العم آزاد وعيدو وسالار والحامل وكلبها والشرطي دلشاد ونالين التي رقصت عارية تحت المطر على الجبل، وحرائق سنجار الكثيرة التي داهمتهم في الصيف الماضي حتى فلت عن طريق المصادفة وانتشلته طائرة هليكوبتر مع حشود من الناس المفزوعين.

يقول لنفسه لا شفاء من الذكرى المؤلمة ولا شفاء مما حدث. يتذكر أهله بشكل غامض ولا يعرف لماذا ودائما يطرد من رأسه صورهم الملحّة. مرة قال هذا للعم آزاد يوم كانا في الجبل لكن العم طمأنه على قلة حديثه آنذاك ان روحك واقعية ولا تريد أن تتألم أكثر مما تألمت.. وإنك ابن بار لوالديك..

لم يتذكر إن كان وقتها قد فهم أم لا. لكنه تطبّع على أن لا يتذكر أحداً منهم.. **روحي تموت لو أبقى أتذكرهم.. أمي التي لم أودّعها تأتيني في الأحلام بثياب بيضاء باكية وأبي يأتيني معها حزيناً دائماً..**

يتلمس في جيبه جهاز الموبايل المشحون 100% ويدخل محلاً للأنترنيت في باب الطوب يديره شاب يدقق كثيراً بوجوه الداخلين وأحياناً يطلب هويات

الإثبات الشخصية مبرراً ذلك بالتعليمات المشددة من قبل جهاز أمن دولة الخلافة.

ينقر الاسم السري **NASHTOMAN** فتنفتح صفحة "ابن سنجار" بالصورة الجبلية التي تملأ عينيه.

يفتح صفحة "أهل الموصل" ويلقم موبايله بإبرة سلك يرتبط بالحاسبة ويرسل بشكل سريع فيلمين قصيرين بتعليقين سريعين.

أغلق الصفحة مسرعاً بعدما تأكد إن الفيلمين نشرا على صفحة "أهل الموصل" وغادر المحل بأقل من نصف ساعة فيما تبتسم عينا صاحب المحل.. أو هكذا يخيل اليه..

يمضي إلى الفندق مشياً ويداه في جيبيه الجانبيين لا يفكر بشيء محدد سوى إنه كيف يعود إلى سنجار والعم آزاد ومكان طفولته الأثير ومحلته الطينية الممسوحة.

يستعرض وجوهاً كثيرة تمر به؛ العم الحائر والخالة ببطنها المنتفخة وسالار وأولاده الذين يغنون تحت الأرض الذين لم يرهم بعد والشرطي دلشاد مأمور الحسبة.. بيوت الطين ومدرسته المحترقة والبيوت المهجورة. حجي خان الأفغاني الذي قتله عيدو.. إعدامات الجمعة المتواصلة التي تهز روحه الصغيرة..

الشيشاني والعمة نالين وفراشة الجبل ولالش.. يوقفه وجه الشيشاني الغائب ويعيد الكثير من سيرته اليومية العصبية كما ويعيد أشكال زوجاته ومحظياته وخادماته.

هل هو الشيشاني ذاته!

يتذكر ان العمة نالين قالت انها كانت أسيرة عند أمير شيشاني حزّ رأس أسير أيزيدي وقدمه إلى نشتُمان في ليلة الهرب والمطر وهو الذي فتح بطن شيرين بحربته.. هل هذا ممكن؟

أيكون هو الشيشاني هذا الذي سرق نشتُمان؟

يتذكر روايتها بشكل تفصيلي في الجبل كما لو يسمع الآن صرخة نشتُمان الأخيرة وصرخة عمتها شيرين وهي تحميها في مقاومة عاجزة أخيرة.

تقول العمة نالين انها تمكنت من الهرب بنفس لحظة القتل مع أسيرتين شابتين ومع صوت قرآني شجي.. وكنتم خير أمة.. هكذا قالت.. بألم.

يعيد ترتيب اللقاء مع الخادمة السنجارية التي عرفته وكانت بها رغبة الهرب من بيت هذا الأمير القائد ويعيد لحظة هربه هو منها فلا يريد أن يكون موضع مراقبة أو شك أو سؤال أو عقوبة صارمة أو تعنيف... كنتُ أعرفها وفوجئت بها وكان بي إحساس ان الأسيرات يجب أن لا أعرفهنّ عدا نشتُمان. يجب أن يكنّ غريبات وإلا فالقصة مضنية ومتعبة وخطيرة..

- انت الفتى المسلم جارنا..
- ها.. لا لا
- بلي. عرفتك
- لالا
- ساعدني كي أخلص.. خودا يحميك..
- ها.. لالا
- كن شجاعاً يا ولد..
- أخاف.. لالا
- أنا **زيري** جارتكم في الزقاق اللي خلفكم..

في الفندق يمضي النهار طويلاً وبطيئاً. يسأله أحد الخدم عن أقرب جامع من الفندق. ثلاث نساء منقبات يجلسن في الصالة يحتسين القهوة ويتكلمن بصوت منخفض.

كثيرون يتخاطرون في الصالة بسراويل مهلهلة وأزياء عسكرية متشابهة. يرن هاتفه فيرى رقم الكويتي العريس.. يدعوه بعجالة أن يصعد إلى الغرفة. فظن إنّ واجباً صعباً ينتظره فصعد مسرعاً. لكن الكويتي ابو عكاشة دخل بملابسه الداخلية الطويلة بوجه متجهم وهو يطقطق بأصابعه..

- طلبني المجاهد الشيشاني في حلب وعليّ أن أغادر خلال ساعات قليلة..

انعقدت لحظة غموض في وجه الفتى وغمرته مشاعر لم يستطع تفسيرها في لحظة الارتباك العكاشية.

- طلبني مع مجموعة مجاهدين سنغادر فجراً.. ستبقى أنت واثنين من رفاقك المجاهدين لحين عودتنا..

جلس على حافة السرير وجاء له الفتى بقنينة ماء من الثلاجة الصغيرة.

- الأمر مفاجئ لكنْ نحن مجاهدون في سبيل الله في أي مكان كما تعرف.

هز الفتى رأسه وسحب كرسياً وجلس أمامه ينظر إلى ثلمة أسنانه:

- أنا حائر يا ولد..
- خير ان شاء الله؟
- سبيّتي الأيزيدية..
- ما بها..!
- لا اعرف متى أعود وقد لا أعود فأنا مجاهد وحياتي ملك الجهاد.

بدا حائراً ووجهه الملتحي يتلبد بالضيق. رأى الفتى خطوطاً وردية على وجنتيه وجبهته وأنفه تحمرُّ كلما انفعل..

- أمامي ساعات قليلة..

بدا الفتى حائراً أيضا لا يعرف ماذا يقول لكنه اقترح:

- أرجعها إلى الكرفان يا عم فقد يعيدون اليك مالك أو جزءاً منه.
- لا حاجة لي بالمال. هؤلاء يبيعون ولا يشترون. المال يذهب إلى خزينة دولة الخلافة.

نهض يذرع الغرفة بيدين مشتبكتين على صدره:

- انها صغيرة ومريضة.. ولا تفهم بأمور الزواج..

فتح الفتى عينيه وهو يتابع خطواته:

- سأهبها لك شرعاً. ولو عدتُ بعدها ستطلقها وتعيدها لي.

استدار الكويتي إلى الفتى الصامت:

- البنت ليست مهرة أصيلة يا ولد.. انها مريضة.. لكن ستتفاهم معها لحين عودتي إن كان لي في الحياة بقاء..

قال الفتى بحيرة:

- ولكن يا عم.. انا لا أريد أن أتزوج!

- الزواج مستحق عليك يا ولد كونك مسلماً..

صمت الفتى ودار رأسه قليلاً:

- انها بنت صغيرة. اسمها نارين لكني غيرته إلى عائشة..

تمتم الفتى بجدية:

- ما أعرف الزواج يا عم..!

- كثيرون يتمنون مثل هذه الفرصة. انها هبة الله اليك.. المفروض أبيعك السبيّة لكنك تستاهل الهبة لأنك مسلم وصغير ووحيد.

كان يتكلم كإنه مخذول وصوته يخرج بصعوبة..

خرج من الغرفة. سمع الفتى صرير بابه الملاصق لغرفته. بقي مذهولاً كأنما أصابه الخرس وهو يعيد الموقف في رأسه.. لكن الكويتي عاد بعد لحظات ووراءه الصبية المنقبة المجللة بالسواد مترددة.

- اجلسي..

جلست على كرسي قريب ولمّت ساقيها ورأسها يدور بين الكويتي والفتى المسحوق بوجهه النحيل.

قال الكويتي:

- سيكون هذا الفتى زوجك من هذه الليلة وعليكِ واجب طاعته وخدمته وإن اسمك عائشة المسلمة وليس نارين الأيزيدية الكافرة..

هزت رأسها ممتثلة. فأكمل الكويتي:

- ستكوني زوجته على سنّة الله ورسوله حتى أعود إن شاء الله من جبهة حلب ثم يطلقك لتعودي زوجتي.

لم يستطع الفتى إيقاف ارتعاشاته أمام حسم الكويتي الذي أمره:

- تعال..

تقدم الفتى بعض الخطوات مشلول الحواس. ينظر للكويتي المخذول.

- ضع يدك على رأسها وقل الله أكبر ثلاث مرات..

تلعثم وهو يمد يده التي لم يستطع إخفاء رجفتها. مست رأس الفتاة القابعة كتمثال وقال بارتباك: الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر..

عائشة الأيزيدية

أربكه وجود الصبية معه على هذا النحو اليومي المستمر في ليلة أخرى لم يستطع النوم فيها بشكل مريح.

تبكي كثيراً وتتذكر أختها باران التي فقدتها في الأسر..

قال لها انها ليست زوجته "لأنني لا اعرف الزواج" وإنها معه نارين الأيزيدية وليست عائشة الداعشية..

قال بثقة.. لا عليكِ. أنت أختي ولا تخافي. علينا أن نمرر اللعبة من أجلك.

حكت له عن الكويتي ووصفته بأنه بعمر جدها وقالت انه انسان حقير ونذل وانها خرمشت وجهه وأهانته لكنه.. و لم تنقطع عن البكاء وقتاً طويلاً..

كان يراها صغيرة أكثر مما كان يتصور؛ وهذه اول مرة يشعر بأنه أكبر من شخص آخر. فقدتْ الكثير من روحها وجمالها. خلعت النقاب والحجاب والكفوف والجواريب السود التي حولتها إلى قطعة قماش سميكة وثقيلة على روحها فبدت أصغر عمراً بكثير مما كانت عليه.

رآها نحيفة جدا حتى بانت عظام كتفيها. وجهها صغير بلون أصفر. انسحبت حدقاتها إلى الداخل فبرزت عيناها كبيرتين لكنهما ذابلتان.

- من أية قرية انت..؟
- سيبا شيخ خدر.

كان وجهها ذابلا كتينة متروكة.

- وأنت..؟
- من بربروش.

تساءلت بطفولة:

- هل تحررتُ من الأسر الآن؟
- تقريباً.. لكننا في الموصل..
- ها.. بالموصل..؟
- ألا تعرفي..؟

بانت الدهشة على وجهها الصغير وتضرجت قشرة الليمون بلون آخر:

- لا.. كل فترة بمكان. وزعونا في مكانات متعددة. مرة واحدة عرفت انني في حلب حينما اشتراني مجاهد من مكان لا أعرفه.. اختي باعوها في الفلوجة.. زوجونا إلى اشكال وألوان من الأغبياء.. باعونا إلى اقذر البشر.

همست لنفسها:

- والآن في الموصل؟ يا خودا الرحمة..
- وأهلك أين الآن..؟
- لا ادري.. اعتقد في الجبل..

صفنت قليلاً كأنما تستعيد الحدث بهدوء:

- حاصرونا عند حافة الجبل بالرصاص العشوائي. نحن البنات كنا نموت رعباً.. كان ذلك اليوم فظيعاً لا أنساه.. أحاطونا من كل جانب وقتلوا رجالاً كثيرين..

غرقت عيناها بالدموع فشعر الفتى انه فتح جرحها:

- لا تبكي. انا فقدت امي وأبي. ذبحوهم ووحدي نجوت بواسطة طائرة هليكوبتر..

ذهبت إلى الحمّام وظل الفتى يقلّب بموبايله غير مرتاح كثيراً إلى هذه المصادفة التي وضعها الكويتي في طريقه مع إنه يفكر أحياناً ان وجودها يشغله ويبدد الوقت معه.

كان يفكر كيف بالشيشاني اذا عاد ماذا يقول له عنها إذا تخلف الكويتي الأثرم عن المجيء لأي سبب! هل يأخذها معه إلى سنجار؟ هل تبقى هنا؟ ومع مَن؟

أعاد صورة الشيشاني من جديد في رأسه ولوعة المؤمنة نالين التي رسمت صورة الهرب من النافذة في ليلة الموت وليلة نشتمان التي كانت تصرخ كأنه

يسمعها الان ويراها ملتاعة ومحاصرة بين فكي هذا المهووس الغريب.

طالعته نشتُمان بوجهها الأبيض وشعرها الذهبي تبتسم وتطير كالعصفورة مع تتالي الصور التي تتعاقب على شاشة الموبايل بل وتتحول إلى زنبقة تتلون مع كل صورة.

ترى هل تعرفها...؟؟

عادت الفتاة وجلست في مكانها وكان الفتى يلمس فيها وجعها وحيرتها..

- هل تعرفين الصبايا الأسيرات اللي معاك؟
- ... رأيت كثيرات في كل مكان يأخذوني اليه..
- والذين باعوهنّ؟
- بنات كثيرات باعوهنّ..

صفن قليلاً بوجهها النحيل كما لو يريد إخبارها بشيء مهم:

- نشتُمان.. هل مر هذا الاسم عليك؟

ميتة.. لكني أتنفس

خرج "ابن سنجار" من محل الأنترنيت في الدّوّاسة بعد إن بث فيلما في موقع "أهل الموصل" وكرر نشره في موقع "فوبيا" عن إعدام امرأة سنجارية خنقاً باليدين في فناء جامع المدينة و لم ينتظر ردود الفعل أو يرى المشاركات ويقرأ التعليقات العاصفة كما في كل مرة، فقد كان في داخله خيط أمل معقود بدأ يحسّه يرتخي بنسبةٍ غير قادر على حسابها بشكل جيد بوجود الصبية الأسيرة عنده ومعه..

ودّ لو يكون العم آزاد معه اليوم أكثر من أي وقتٍ مضى. الأمل فكرة من الأفكار المحتملة كما كنت تقول لي في الجبل، والحياة فكرة أيضاً قابلة أن تكون أملاً كما تعلمني كل يوم وأنت تغطي على موت أهلي وذبحهم حتى أفكر بشكل هادئ ولا أنفعل وأجن.

نارين هي الفكرة يا عم. فكرة كبيرة في روح هذه الصغيرة التي تزوجوها بين سنجار وحلب والموصل والرقة في دولتهم الخرافية الملعونة حتى وصلت إلى غرفتي الفندقية.

نارين مريضة يا عم بمرض لا أعرفه. انها ليست صبية انما هيكل عظمي يتحدث بصعوبة. تختنق أحياناً من البكاء حتى تتبدل سحنتها إلى أكثر مما هي عليه الآن من ضعف وشحوب واصفرار وتفز في بعض الليالي فتوحي كأن هناك من يطاردها. تشعر انها خائفة على مدار اليوم..

لكن تصور إنّ نارين أسيرة عندي..!

أليس هذا مضحكاً يا عم..؟

أنا الأسير وعندي أسيرة.. ههههه.. كم هو مضحك هذا الواقع المقلوب الذي نحن فيه؟

البارحة قلت لها مثل هذا لأخفف عنها البكاء والذعر. ضحكت لأول مرة ولم تقل شيئاً لكنها انتبهت إلى الفكرة المعكوسة وصدقتها..

قلت لها أنا أسير مثلك لكني أشتغل عندهم وهم الذين ذبحوا أهلي وذبحوا سنجار وخطفوا نشتُمان ووضعونا في مصير مجهول.. كلنا مسبيون..

روت لي كيف تناوب على جسدها عدد من المجاهدين حتى أورثوها المرض والغربة وفقدان الذاكرة والوسواس والكوابيس والبكاء والتبول الليلي كأية طفلة.

قالت إن أختها اشتراها عراقي من الفلوجة مع صبيتين. رأته بزيه العربي يدخل الكرفان وينتقي ويشتري.. كان يرتدي الدشداشة البيضاء ويضع على رأسه العقال الأسود والغترة البيضاء وتفوح منه رائحة عطر دهن العود.

نارين يا عم رأت نشتُمان. وصفتها بدقة. شافتها بصور الموبايل. لكنها لا تدري أين رأتها. لا تتذكر في أي بيت أو أي كابوس. لا تعرف إن شافتها في سنجار أم حلب أم الرقة أم الفلوجة أم الموصل.

ليلة كاملة وهي تعيد سيرة أسرها وتمر بالتدريج على الأماكن الكثيرة التي باعوها فيها لكنها لا تدري أين رأتها وأين تركتها وأين باعوها ومن اشتراها وكيف ومتى غير إنها متأكدة من وجود نشتمان ذات يوم بين الأسيرات السنجاريات ولن تُنسى صبية مثل نشتُمان لملاحتها وحلاوتها وشعرها الذهبي وعينيها الفيروزيتين وطفولتها الرقيقة.

- تذكري جيدا.
- لا اتذكر.. عقلي جامد وروحي تتألم.. ولولا صور الموبايل لا اتذكرها أبداً..
- حاولي...
- أنا ميتة لكني أتنفس.. مرعوبة حتى الآن مما حصل.. ما اعرف شي.. أنا وسخة وبطني وسخة.. انا مريضة.. أريد أن أموت..

من مطعم الشروق يشتري الكباب السفري ويقطع نصف المسافة سيراً على الأقدام يتأمل الوجوه والمحال وشرطة المدينة والحياة المجهولة التي هو فيها.

تعيده إلى قدميه الممغنطتين على الرصيف صوت سيارة إسعاف تخترق الشارع وهي تزمّر بإلحاح بين طابور سيارات انقذفت على جانب الشارع بالتتابع. تلتها سيارة أخرى بزعيق منفر ضجّ بها الشارع وهي تكافح أن تجتاز زحمة السيارات التي توقفت على الجانب واصطفّت في طابور طويل.

الموصل ما تزال باردة ومطرها متقطع. أترك نارين لوحدها في الغرفة. أشفق عليها. لكن ماذا بوسعي العمل؟ اعتدت على بكائها. تدور مثل القطة المحاصرة في الغرفة الصغيرة كل النهار حتى أعود فتتغير نفسيتها ومزاجها إلى حد جيد.

أعرض عليها أن آخذها إلى المستشفى فترفض. تقول اني ميتة لكن أتنفس. يؤلمني هذا كثيراً. كوني شجاعة ولا تهملي نفسك.. فتقول لي إني أموت من العار ولا أريد سوى الموت.. احضنها ودمعتي تلوب بعينيّ.. طولي بالك فأنت أميرة جميلة وما حصل جرى على غيرك من الأيزيديات البريئات.. تشهق وتنشج وتتمتم.. سووني عاهرة باسم الدين.. كل يوم يدخلني جحش منهم باسم الدين والجهاد.. مصوا جسدي وزرعوا فيه السموم.. أذلوا أختي باران مثلي.. أصبحتُ عاراً على ديني وأهلي وأخوتي..

ثم تعود وتتساءل وهي غارقة بالدموع: لماذا لا يأتي الموت؟ مشتاقة إلى ربي لأقول له ما حصل وماذا فعلوا بنا.. سأقول له أشياء غريبة ومخجلة لا تعرفها يا فتى.. لماذا نحن يا خودا؟!

أغرق معها بالدموع وأضم جسدها المتخشب واهوّن عليها الأمر..

تبقين أميرة حلوة..

اللعنة عليهم.. أشعر بالخجل والعار والذل والضعف. ماذا أقول لربي حينما أنتحر؟

أشعر إنّ المصير مؤلم لكن التفكير بعد المصير أكثر ألماً كما علمتني يا عم آزاد، ونارين تشعر انها خرجت من كرفان ودخلت غرفة فندق. من مجهول إلى مجهول فتنتابها نوبات لا اعرف كيف أصفها لكنها مزيج من الكراهية والقرف والشعور بالضآلة، ومع هذا أحاول أن أكون معها أكبر قدر من الوقت. أشعر انها ضائعة كثيراً

فتغرق في الهذيانات والبكاء.. تقول انتقل من قبر إلى قبر لا يوجد لي قبر واحد اهجع فيه والى الأبد. يائسة ومسكينة وحزينة. أخشى أن تنتحر يا عم.

تحدثني عن أحلام وكوابيس متكررة فأفهم ذلك. مررت بهذا طويلاً وحلمت مثلها وبكيت وصرخت لكنّ شيئاً لم يتحقق لي ولن يتحقق لها شيء مهما حلمت وتخيلت وبكت وصرخت.

إننا الآن في غرفة مغلقة لكن في ولاية مغلقة وأمامنا مصير مغلق.

أحرّك الليل بحكايات النهار كما كنا نفعل في سنجار في بيت الحامل. أو برؤية صور نشتمان الكثيرة لعلها تتذكرها أو بالفيسبوك اعلمها كيف تستعمله وهي مندهشة لهذا العالم السحري المتحرك مع اللحظات، لكنها لم تصدق بعد إنه بالإمكان أن نرى الأشخاص ونتحدث معهم وجهاً لوجه.

تزعجها قصص النهار ومشاهده الدموية التي احكيها لها حينما تصادفني في أماكن كثيرة قريبة من الجوامع أو في ساحات عامة لاسيما في ساحة الحد الاسلامي وسط المدينة والتي تشهد عقوبات مستمرة لشباب ورجال ونساء محاميات وبرلمانيات وصحفيات. كقطع الأكف بالسواطير ورجم الزانيات بالحجارة وقطع الأعناق لأسباب مختلفة وخنق الصبيان بسبب صور الموبايلات أو وجود أغاني الكافرات اليسا وهيفاء وهبي وروبي.

مرة رأيت رمي رجلين من بناية عالية امام جمهور بهت حينما اصطدم الرجلان على الرصيف الكونكريتي وأحدثا فرقعة غريبة. أحدهما سقط على وجهه والآخر على ظهره فظهرت نفس الفرقعة المخنوقة واهتز الرصيف وتناثر الرجلان بطريقة لن ينساها من شهد تلك اللحظة المميتة.

أحاول أن أبعد نارين عن هذه المشاهد التي تصادفني في الجانبين الأيسر والأيمن من المدينة يومياً، مثلما أخفف عنها وطأة الكلام عن جرائم دولة الخلافة الكثيرة ولا أريها الأفلام التي صورتها الا فيلم حرق عيدو الذي انتشله صقر شجاع وأذيال النار متعلقة بأطراف ثوبه.

لكني مرة ذكرت لها قصة العضّاضات الداعشيات في الأسواق والتجمعات العامة لنساء من دولة الخلافة من المهاجرات العربيات والغربيات مهمتهنّ مراقبة نساء

وبنات الموصل المخالفات للشرع سواء من ناحية عدم اكتمال ارتداء الثياب الشرعية أو عدم وجود محرم معهنّ وإلا فالعقوبة هي العض.

ضحكت وهي تتخيل طريقة العقوبة التي فيها بعض الطرافة وكانت تتحسس يديها كما لو إن عضة قد تمت عليهما أو إن داعشية ستعضها بعد قليل. لكني أوضحت لها ان العض لن يكون بالأسنان إنما تؤخذ المخالفة لمكان قريب وتُعَض في غرفة بواسطة آلة حديدية تُطبَق على ساعدها وتُحدِث جرحاً وألماً وتترك أثراً..

محارق

كعادته دوّن معلومات سريعة عن تاريخ الواقعة ومكانها واعطى عنواناً صارخاً: **داعش تحرق عيدو المجنون حياً.. في سنجار..!**

امتلأت صفحة "أهل الموصل" بالنار فور نشرها هذا الفيلم وتسابقت التعليقات كما في كل مرة لإدانة هذا الفعل الصادم لحرق رجل وهو حي. واشتعلت التعليقات بلهيب هذه الكارثة التي تستهين بالإنسان لاسيما من فقد بعض شروط آدميته لهذا السبب أو ذاك، كعيدو الذي وصفه التعليق بـ المجنون.

كانت صدمة أخرى من الصدمات التي أحدثتها هذه الصفحة بجرأة "ابن سنجار" المجهول الذي قدّم وثيقة ناطقة عن إجرام دولة الخلافة الإسلامية في سنجار بحق الأسرى المحاصرين منذ أكثر من سنة.

يتسلسل الفتى بقراءة سريعة للتعليقات ويحكي لنارين قصة عيدو الذي قتل مسؤولاً داعشياً مهماً في سنجار وكيف أحرقوه حياً وكيف انتشله صقر عابر ورفعه إلى السماء والنار متعلقة في أذياله.

- كنتُ أرتعد هلعاً وأنا أرى المحرقة تشتعل. وقتها كنت حديث التعيين كخادم عند الشيشاني لكنهم أبلغونا قبل يوم أن نحضر جميعاً إلى هذه الواقعة الفظيعة لنشاهد هذا المجرم كما يطلقون عليه وهو ينال عقاب الله..

اشتطّ خيال الصبية كثيراً وهي تشاهد الفيلم بامتعاض وقلبها يتقلص وجسدها يرتعش وهي ترى نفسها وسط المحرقة تحترق وتتآكل، وكانت تحسد عيدو انه كان يضحك ويرفع يديه للناس المحيطة بالساحة.

- وحوش..

تعقب الفتى الكثير من التعليقات وهو يشعر بزهو يجتاح روحه في هذا التفاعل الحي الذي أوصله عبر افلامه التي احتفظ بها كل تلك الفترة.

قال لنارين كمن تذكر شيئاً:

- بعد حرق عيدو أغلقوا باب الجامع على كل المصلين وطلبوا منهم التبرع بالدم إجبارياً لجرحاهم في جبهة جبل سنجار.. حتى العم آزاد سحبوا منه الدم وكان في وضع نفسي مرتبك. كان حزيناً جديداً على فعلتهم لعيدو..
- لعنهم خودا ولعنهم أنبياؤه.

استرسل مع التعليقات الطويلة التي تتسارع وهي تشجب هذه الهمجية باسم الاسلام.

قرأ معظمها بدقة وهو يشرح للصبية بعض ما يريد شرحه، لاسيما تلك التعليقات التي تحيله إلى مواقع أخرى وأفلام همجية أخرى شارك بها قرّاء مجهولون وفوجئ انهم يحتفظون بالكثير من الأفلام عن الغزو والتعذيب والعقوبات الغريبة بحق الأيزيديين والمسلمين معاً والتي لم يشاهدها سابقاً.

لكن استوقفه تعليق لأحدهم وقرأه للصبية:



ابن الأنبار

من ابن الأنبار إلى ابن سنجار الشهم

أرجو فتح هذا الرابط لترى الشيء الأبشع من حرق المسكين المجنون في سنجار. فبعد حرق الطيار الأردني معاذ الكساسبة في قفص قامت داعش بعد دخولها محافظة الأنبار بحرق أب وأبنائه الأربعة بطريقة الشوي البطيء مثلما تُشوى الخراف.. وعذراً للتشبيه لكن هذا ما حدث من قبل هذه الزمر الإجرامية الوحشية.. واليكم الرابط..

https://www.youtube.com/watch?v=Yi_cxkB7nsM

تجرأ الفتى وفتح الرابط وهربت الصبية إلى البلكون المطل على الخارج وهي تصيح:

- لالا أرجوك.. لا أتحمل.. سيحرقوننا هكذا..
- علمتني سنجار كيف أتحمل الألم..

تشبثت الصبية بستارة النافذة وهي منكمشة كي تبتعد عن رؤية بشر يحترقون وهم أحياء مثلما أخبرها، وكانت شاشة الموبايل الفضية تنعكس على وجهه الصغير ثم تتلون باللون البرتقالي بعد لحظات ثم تتغير الألوان. تخفت وتشتعل على وجهه كأنما النيران تخرج من الشاشة الصغيرة.

بقيت عيناه ثابتتين وقتاً ليس قصيراً ومتغيرات الفيلم بنيرانه المحبوسة تراها الصبية تنعكس وتتموج. تخف وتتوهج. تستعر وتنطفئ. وهي بذات الانكماش على ستارة النافذة كما لو تتوقع حريقاً سيحدث بعد قليل ويشب في الغرفة.

اغلق الفتى الموبايل وهو يتأفف.. فظيع.. شيء لا يصدقه العقل.

شعر انه يتعرق وان الغرفة مكبوسة على جسده وروحه، ففتح النافذة وشمّ هواء الليل البارد.

- اننا في مثل هذه المحرقة.. يشووننا ببطء..

تمتمت الصبية وعيناها غارقتان بالدموع وما تزال منكمشة كأنما جمدت في مكانها غير ان الفتى الذي كان يشعر بضيق قال لها:

- عيدو أيزيدي من دينكم وهؤلاء الذين أحرقوهم مسلمون من ديني.. يعني أنا وأنت قابلان للحرق متى ما شاؤوا..

همهمت باستسلام:

- لا دين عندهم.. يلعنهم الله في الدنيا والآخرة..

صورة عابرة!

في ساحة الحد الإسلامي وسط المدينة التقط الفتى هذه الصورة العابرة وهو يمضي تحت مطر خفيف إلى أحد محال الانترنيت في باب الطوب، وبثها في موقع: أهل الموصل" بلحظات ومن دون تحفظ وكتب تحتها - لكنه شطب اسم الشاب:

يحدث الآن في الموصل. وما تزال جثة الشاب معلقة في ساحة الحد الإسلامي ورأسه المقطوع بين قدميه.



جسر السكارى

اجتذبته مجموعة من الصبيان وبعض الشباب في ساحة عامة يحيطون بسورها الواطئ وهواتفهم مشرعة تصور حدثاً ما في ساحة الحد الإسلامي المعروفة بعقوباتها الدموية.

اخترقت وجهه هبّة هواء ماطرة تحمل معها رائحة ما فتدثر بقمصلته وغطت بلوزته الصوفية التي حاكتها له الحامل وكان عليه أن يمضي إلا إنه تريث ليرى عقوبة أحد السكارى المقبوض عليهم.

في سنجار شهد واقعة مثلها وكانت العقوبة جلداً بجَريد النخل والنعل الإسلامية، وهنا حالة مماثلة لكن العقوبة تغيرت، فبعد الجلد بالعصي أخذوا الشاب المضمخ ظهره بالدماء بسيارة مكشوفة وأركبوا الواقفين في حوض سيارة مكشوفة نوع سكانيا مرّت مصادفة في المكان فأرغموا سائقها على التوقف لحمل ثلة الشباب والصبيان إلى الجسر الحديدي العتيق؛ وبالرغم من تردده إلا أن الفتى صعد مع الشباب والفتيان الذين تبهرهم هذه العقوبات متجسدة أمامهم بشكل حقيقي فيصورونها ويحتفظون بها لأسباب لا يعرفونها.

لم ينتبه الفتى إلى سائق السكانيا المرغم على نقلهم إلى جسر السكارى، لم ير ان الأخير لمحه وهو يصعد في حوض السيارة وتردد في الكلام اليه.

قال أحد الشباب الصغار: إلى جسر السكارى..

نظر اليه مستفهماً فأدرك الآخر انه غريب عن المكان:

- كلما يمسكون ويحد سكغان يجلدونو ويحلقونو من فوق الجسر... يعني يقلولو بيباي ياسكغان... هههههه

كل من يمسكونه سكراناً يجلدونه هنا ثم يرمونه من فوق الجسر.. يعني بيباي يا سكران هههههه

اخترقت السيارتان المكشوفتان المدينة من منتصفها تسبقهما سيارة شرطة الحسبة بصوتها الملعلع.

يرى الفتى وجوه الناس المبحلقة وهي تدبُّ على الرصيف. البعض يهز الأيدي استخفافاً واحتقاراً مثلما يرى البعض الآخر يهرب إلى جهة أخرى كأنه يتفادى شراً عظيماً، في حين يتوقف البعض على مضض ريثما يمر الموكب الصغير إلى احد جسور المدينة.

يستطيع الفتى أن يقرأ حركات الناس بشكل طبيعي فقد تمر به يومياً حالات كثيرة يعرف كيف يتصرف إزاءها في لحظته المارّة.

تنتصف سيارة الحسبة الجسر العتيق وتقف فيهبط منها ملتحيان يجران الشاب المجلود وهو مقيد اليدين إلى الخلف إلى حافة الجسر وظهره ينزف دماً وقد تشقق قميصه من الخلف.

يتأخر الفتى عن الزحام الصغير الذي تسبب به الشباب والفتيان. فيأمرهم أحد رجال الحسبة بتصوير المشهد السينمائي الذي اعتادوه بين وقت آخر.

من زاوية قريبة ومناسبة يلتقط لحظة رمي الشاب من أعلى الجسر. يقف إلى جانبه أحدهم يصور انقذاف الشاب وهو يتقلب في الهواء ثم يرتطم بوجه النهر الساكن فيترك وراءه رغوة وصوتاً غامضاً والكثير من الفقاعات التي سرعان ما يجرفها موج ناعم ليعود سطح النهر كما كان ساكناً وهادئاً.

قال له الشخص الذي يصور بجانبه:

- ألست أنت..!

التفت اليه مستفهماً فاستدرك الرجل على الفور:

- أنا ابو يقين.. اما عرفتني.. العم آزاد يسأل عنك..!

شعّت في وجه الفتى ابتسامة صغيرة وهو يتذكر رحلة دهوك الممطرة:

- صحيح.. كيفك يا عم..

- منذ وقت طويل أبحث عنك.. عمك آزاد قلق عليك.

قال أبو يقين بشكل سريع:

- اسمع.. سيرجع الشباب معي إلى باب الطوب.. وانت تبقى معي.. لا اريدهم يعرفوا اني اعرفك..

انسحب السائق إلى سيارته واحتشد الفتيان في حوضها الخلفي الواسع وكان الفتى يعيد في رأسه تشكيل صورة السائق الذي عبر به والعم آزاد سيطرات كثيرة في رحلة العودة إلى سنجار في ليلة ماطرة كان العم فيها مُسيّراً كما قال.

أعاد في رأسه صورة الحامل وجنينها الذي كلمه مرتين ولطشة الدم في الطارمة التي لا يزيلها المطر مهما اشتد، كما يعيد صورة الكلب الأبيض الذي جاء بهما إلى البيت وعلى نحو ما تذكر العجوز التي لا تتكلم.

ما لم يقلهُ الفتى

احتفيتُ بالفتى متوجهاً به إلى البيت.

فاجأني وجوده في الموصل وأفرحني كما لو إني وجدت كنزاً صغيراً كنت أبحث عنه بلا جدوى منذ أن كلفني آزاد في الجامع.

- عرفت انك هنا وطلب آزاد مني أن أبحث عنـــك.. لكـــن لم أعــدْهُ بصراحة فالجو هنا مكهرب كما تعرف..

بدا لي كما لو طالت قامته أكثر من السابق، لكنه بقي على نحافته.

سألني عن العم آزاد وسنجار ورحلاتي الأسبوعية المملة التي لا تخلو مـــن خطورة بسبب قصف طائرات التحالف الدولي.

سألته عن وضعه العام وعن كل شيء في خدمته مع الشيشاني فحكى لي عما يريد أن يحكيه.. عن السبايا الأيزيديات في كرفانات الموصل والمشهد الفاجع لشـــراء نارين بطريقة مهينة، وإنه لم يعثر بعد على نشتُمان وبدا شبه يائس من ذلك.

روى قصته مع الصبية نارين المريضة وكيف أصبحت زوجته بعد إن تبرع بها الكويتي على أن يستعيدها منه حينما يعود من حلب.

بدا انّ الأمور مختلطة عليه كما لو وقع في فخ وضعه الكويتي فيه ولا يعرف كيف يتصرف وان وماذا يفعل سوى انه بشكل أو بآخر عدّها أختـــاً صـــغيرة فقدت كل شيء مثله وتستوجب العناية والمرافقة قبل أن يأتي الوحش الكويتي أبو عكاشة الأثرم.

قال انها ربما تعرف نشتُمان لكن ذاكرتها ضعيفة ووضعها النفسي متدهور وانها يائسة وبائسة وتتمنى الموت.

- هل يئستَ من العثور على نشتُمان؟

- الأمر ليس سهلاً يا عم.. الموصل كبيرة..
- ستجد في سوق الزهور مكاناً لبيع السبايا الأيزيديات..

كنت أدلّه بطريقة مباشرة بوصفي ابن المدينة وأعرف أين ينتشرون وكيف يتصرفون بعدما أوقعوا الموصل في الفخ وأطبقوا على أنفاسها. وسمعتُ كثيراً عن هذا السوق الذي يبيح البيع للسبايا، بل إحدى المرات عرضوا بعض الأسيرات الأيزيديات والمسيحيات للبيع المباشر.

- سأقنع الكويتي أن نذهب إلى هناك..

وجدته كئيباً وحزيناً ويميل إلى الصمت والتلقي.

كنت أعذره بداخلي لأني أعرف جزءاً من وضعه المأساوي، لهذا بدأت أميل إلى مشاكسته لتغيير مزاجه قليلاً وإدخاله في جو آخر.

- تعتقد انك ستجد نشتُمان؟
- لا أدري..
- وقلبك ماذا يقول..!

ابتسم قليلاً وذكر إن الصبية الأسيرة عنده والتي أصبحت زوجته بحسب الكويتي رئيس جماعة الحماية. قال انها يمكن أن تتعرف عليها لكنها بلا ذاكرة ومريضة وأمورها الصحية تسوء يوماً بعد آخر.

- هل تحب نشتُمان؟

افترّ ثغره عن ابتسامة صغيرة ونظر لي بدهشة:

- نشتُمان جارتي ومعي في المدرسة..
- آزاد يحبك كثيرا.. ويبدو انت تحبها أيضاً ههههه صح؟

وجدت فيه خجلاً وارتباكاً.

قلت له بقصد:

- لأنك سابقاً لم تفكر بهذا لكونك مسلماً وهي أيزيدية وأعرف هذه المشكلة الدينية.. لكن الحرب والغزو والموت يجعل من الدين أمراً آخر.. المهم أن يثبت الإنسان انه ابن الانسان وأخو الانسان في مثل هذه الحالات..

هز رأسه فأكملتُ له بحماسة:

- في الحرب يتخلى الانسان عن كل شيء في سبيل وطنه، والدين يبقى حقنة ضرورية توفر لك ولي ولنشتُمان الكثير من الثبات على مبدأ الإنسانية العظيمة التي لا نتخلى عنها حتى لو تخلينا عن الذين لهذا السبب أو ذاك مثلما يحصل الآن في المناطق الأيزيدية كُرهاً.. وهذا لا يعني ان الإنسان يتخلى عن شرفه أو أهله أو جيرانه وبالتالي وطنه..

ثم أضفت:

- وكل دين يبقى في داخلنا ولن يموت بالنتيجة..

قلت بشبه يقين:

- الحرب تُخرج الكنز الإنساني فينا..

لا اعرف لماذا قلت هذا والفتى صامت يتأملني بهدوء كعادته ويهز برأسه، لكني ادرك بيقين انه يستوعب ما أقوله. رأسه مشغول بأشياء كثيرة. ربما لا يثق بي كثيراً فهؤلاء زرعوا الخوف فينا. ورحلتنا من السابقة من دهوك إلى سنجار لم تكن كافية لأن نتبادل الثقة على نحو جيد.

- متى تذهب إلى سنجار..؟
- الجمعة فجراً.. وسألتقي بآزاد في الجامع ظهراً إن شاء الله.

فهمت انه مرتبط بقائده الشيشاني وينتظر عودته وان ما يشغله الآن هو الصبية المريضة التي معه وينتظر الكويتي الذي التحق بحلب. لكننا تبادلنا أرقام الهواتف لنبقى على صلة.

كنت على يقين إنه لم يقل لي أشياء في داخله كان يود إيصالها للسيد آزاد.

قيء

صوتٌ خفيف يناغي وحدهّا كلما وجدت نفسها وحيدة على النافـــذة. يتكرر عليها منذ أيام قليلة حينما وجدت في الفتى ملاذَ أمان وسر وثقة وإنـــه لا يشبه الذين اشتروها. بل هو ابن شنكالها وقريب من قريتها وإنه أسير مثلها.

وعلى الرغم من بقائها كل هذه الأيام في غرفة واحدة، لكنها وجدت إن الحياة ممكن أن تحدث في أقل حتى من هذه المساحة لو كانت فيها حرية صـــغيرة مضمونة ولو في أقل تقدير.

الصوت الآخر بعد كل هذه العزلة في الأسر ينادي فيها الحياة التي فـــرّت منها ذات يوم غريب وأسود ويحثها على أن تكون نارين الجميلة التي خرجت من الكرفان إلى غرفةٍ ولو في فندق داعشي يتوسط الموصل؛ لكنها ترتعش حينما لا تجد غير الخيارات المريرة وليس أمرّها عودة الكويتي من حلب، فكانت تتمنى في سرها موته وقتله في حلب أو في أي مكان آخر.

نظرت إلى الحياة فوجدتها كبيرة وشائكة ومعقدة ومخيفة. انعقدت خيوطها في داخلها بشكل لا تعرف كيف تراه أو تفسره، لولا مصادفة الكـــويتي الـــذي اشتراها من كرفان الغابات واهداها إلى غرفة فيها الفتى الذي وجدته لطيفاً يفكر أفضل منها ويبتكر الحياة بطريقته ويوجِد الحلول دائماً بالرغم من انه يحمل همـــاً كبيراً ويشتغل مع قتلة وغزاة.

خفتّ البكاءُ فيها كثيراً. نظرت إلى نفسها في المرآة أكثر من مرة فوجدت نارين القديمة فقدت الكثير من بهاء طفولتها وعذريتها وأملها؛ غير إنها رأت من نافذة الغرفة حياة أوسع بكثير مما تظن، لكنها لا تستطيع أن تعـــرف مـــا هـــي وكيف تكون إلا أن تكون مع أختها المباعة في الفلوجة أو أمها التي حملت أخوتها

الصغار وفرّت إلى الجبل. لكن صورة الجدة العتيقة تلاحقها فهي الـتي ربّتـها ورعتها وكانت لا تنام الا في حضنها الدافئ.. أينك جدتي الآن!

الخارج هذا، وكانت تشير إلى حديقة فيها نافورات خارج نافذة غرفتها، قريب وبعيد يا نارين وأنت صغيرة وأسيرة، والفتى يتحمل مسؤوليتك حتى عودة المشتري الكويتي وأنت بضاعة يبيعونك ويشترونك.

أنت كافرة لكنهم أسلموك بطريقة مضحكة.. لن تعرفي الله يا كافرة حتى تكوني مسلمة.. وأمي تقول حتى الجنين في بطن أمه يعرف الله بطريقته الـتي لا نعرفها.

تتقيأ الصبية في الحمام فيهرع الفتى اليها. تكرر عليها القيء وكانت تنضب الروح فيها كما كان يفكر. يغسل وجهها ويقودها إلى الفراش ويغطيها وهـي محمومة وهو قلق ومرتبك.

يعكف كل الليل يقلّب في المواقع ويقرأ مئات التعليقات على آخر فيلم نشـره "ابن سنجار" عن المرأة الأيزيدية التي أعدموها خنقاً أمام الناس وبطريقة مروعة.

يتابع بجدية الجهات والمواقع والصفحات المشارِكة التي بلغت أكثـر مـن عشرين ألف مشارَكة، كما يقرأ ردود الأفعال من المنظمات الدولية ومنظمـات حقوق الإنسان والبيانات والإستنكارات والألم الجماعي الذي يقرأ مراراتـه في التعليقات من أناس لا يعرفهم.

تتركه نارين التي تحررت من عقدة وجود كائن غريب معهـا يتيـه مـع الصفحات التي لا تعرف ماذا فيها لكنها تعجب أن الموبايل الصغير يلهيه كـل الليل ويشغله عن كل أمر حتى عن نفسه..!

يشم الحمى التي تطوّق جسدها. ويرى هيكلها الصغير الضـعيف كأنـه هيكل دمية.

تقول له بصوت ضعيف:

- هل يمكن أن تعثر على أمي..؟

يفكر قليلاً ويسألها:

- هل عندك رقم هاتفها؟

لم تصدق. اقتربت منه وتساءلت:

- معقولة تجد أمي..؟!

- أتحفظين رقم هاتفها؟

- لا..

- أي رقم لأهلك..؟

- لا احفظ أي رقم..

- اعطيني اسم أمك بالكامل..

- زادنه خُدُر عفدال

انبعثت بارقة روح في قلبها. ضوء خافت اصطف مع صوتها الذي يحثهـا على الحياة.. يا خودا.. يا عظيم.. ارحمني برحمتك..

تتقاطر دموعها فجأة فينهرها الفتى بلطف: انها محاولة قد لا تنجح.. دعيني أناشد الأيزيديين في مخيمات دهوك والسليمانية.. قد نحصل على نتيجة الليلة أو غدا.. أو ربما لا نحصل على شيء. مجرد محاولة.

تتألم حينما تشعر إنهما ما يزالان أسيرين في هذه الحرية الصغيرة المتاحة لهما، والصوت فيها يجمّل لها الحياة في الخارج وهي تعرف ان كل شيء يقع خارج الكرفان أو هذه الغرفة هو جميل على قدر جماله في المشوار الشنكالي الطويل.

القنوات المحدودة في تلفزيون الغرفة تبعث الضجر من الدين في مسلسلات الذبح التاريخية المكررة. هالتها صباحاً مشاهد معارك وقتل وقتال وحرق وذبح لأفلام تعيدها قناة لا تعرفها، تتخللها تكبيرات وصلوات وأصوات فرحة بشكل غير معقول. فأغلقت التلفزيون وهي تشعر بخوف وتأكدت من إحكام باب الغرفة وفتحت النافذة بالرغم من الرياح الباردة حتى مجيء الفتى.

انتصف الليل بارداً وهدأت الحركة في كل مكان. حتى في الغرفة.. تمدد الفتى واستغرق في النوم وقبل أن تغفو تقيأت من جديد في الحمام وحاولت أن لا يشعر الفتى بها.

امرأة من خانَك

كما في كل مرة يجد في الإنبوكس رسائل كثيرة لا تُحصى تشيد بروحه الوطنية وهو ينشر أفلام رعب دولة الخلافة الاسلامية التي تمارَس بحق أهالي سنجار المغتصبة. رسائل كثيرة تمر عليه متشابهة في المعنى والهدف فلا يتوقف عند معظمها.

لم يرد على أية رسالة خوفاً من انتقال عنوانه إلى المرسِل فيقع في الفخ الذي يتحاشاه، لكن هذه اللحظة التي أضيفت فيها عشرات الرسائل الجديدة لفتته رسالة تقول: **أنا زادنة خدر عفدال.. منو أنت؟**

دقّ قلبه كثيرا مغموراً بمزيج من الفرح والرهبة والتعجب كما غمره دفق كبير من الفرح وهو يشعر انه يتواصل مع الحياة بطريقة فذة ولم يسيطر كثيراً على الفرح الغامر الذي اعتراه.

بدا وجهه مختلفاً وهو يذرع الغرفة أو يفتح البلكون ويطل من الشرفة على الحديقة ذات النافورات المضيئة قليلاً، وكانت الفتاة تتابع نشرة أخبار في تلفزيون الغرفة، لكنها لمحته يتحرك كثيراً وهاتفه لا يفارق يده ويتمتم مع نفسه.

تضايق حينما انتبه إلى ان الوقت ليل ولا يمكنه الخروج فانحسر جزءٌ من الفرح على وجهه. لم يشأ المغامرة ويكتب من هاتفه. دقق بجهة الإرسال فوجدها خارجية.

كانت فتاة الغرفة تلحظ تبدلات وجهه مع اللحظات وتلمس بعض القلق في وضعه وهو يتحرك كثيراً بين البلكون والسرير والمطبخ، والهاتف لا يفارق يده الصغيرة.

أعاد قراءة الرسالة عشرات المرات وترك قراءة التعليقات التي لم تنقطع، فأفرحه ان هناك من يناغيه وكأن المئات من الرسائل غير كافية لمناغاته لكنه اقترب من فتاة الغرفة وهي تتابع مسلسلاً تاريخيا مملاً:

- الدنيا المكبوسة لابد أن تتحرر..

التفتت اليه تنتظر ما سيقوله بعد ذلك. غير انه سكت وكانت ترى على وجهه حيرة يمكن لها أن تلمسها بوضوح:

- ما بك.. لستَ على بعضك منذ ساعتين؟

- لا شيء.. أفكر ان الدنيا يمكن أن تكون بخير لولا الحروب.

أدارت الفتاة رأسها إلى المسلسل فطالعها رجل بجدائل مسترسلة ووجه عبوس وقاسٍ وصاح كأنما يخاطبها مباشرة:

- الوَيلُ لكم يا...

تنفست الصعداء حينما انقطع التيار الكهربائي فجأة فتمتمت في الظلام:

- لعنكم الله في الدنيا والآخرة يا خنازير الإسلام..

أفلام الجمعة

هواء بارد يخفق على صدره وهو يقطع أكثر من شارع وزقاق تجاري في منطقة المصارف بعد إن ترك منطقة الحدباء متدثراً بقمصلته وعيناه تتخاطفان على علامات المحال التي توفر الأنترنيت في مثل هذا الوقت من الصباح.

دخل محلاً منزوياً في عطفة شارع وجلس في آخر خانة كمن يخشى أن يراقبه أحد.

يعرف التعليمات جيداً ويدرك مدى الاستفادة من الوقت.

قال لرجل المحل انه سيقضي ساعة فقط ففتح له الحاسبة وبدأ عداد الثواني يعمل على الشاشة.

فتح صفحة "ابن سنجار" وشعور يخالجه بأنه يقوم بعمل جيد ويصل ما انقطع من الحياة بطريقة ما. رافقه هذا الشعور منذ ليلة أمس حينما ظل متأرقاً وقتاً طويلاً و لم يخبر فتاة الغرفة بشيء بالرغم من محاولاتها للتعرف على ما يشغله بعد إنطفاء الكهرباء وعودتها.

بحث عن اسم المرأة في صندوق الرسائل وأعاد قراءة الرسالة بشكل سريع:

أنا زادنة خدر عفدال.. منو أنت؟

أعاد قراءة الرسالة من جديد أكثر من مرة. فكتب على الفور:

(أنا من طرف ابنتك نارين. نارين موجودة بالموصل. اكتبي لي رقم هاتفك لتتصل بك.. نارين بخير.. استعجلي رجاء..)

أنزل الصفحة إلى أسفل شاشة الحاسبة وفتح صفحة "أهل الموصل" وقرأ الكثير من التعليقات على مجمل الأفلام التي نشرها وتابع المشاركات بشكل سريع كما تابع جزءاً من الإحالات التي يقترحها مواطنون من مختلف المحافظات لتوثيق

الجرائم الداعشية بحق الأيزيديين العزّل وسوق الرقيق للسبايا الأيزيديات.

كان الوقت يمضي مسرعاً وأعصابه مشدودة لأكثر من نصف ساعة حتى جاءته الإشارة من أسفل الشاشة فرفع صفحته الشخصية..

- منو انت...؟

نفس المرأة التي ستبدد الوقت بلا معنى.. قال لنفسه وهو يكتب لها:

- نارين معي.. تريد رقم تلفونك بسرعة.
- اي منو انت...؟
- الوقت سريع يا خاله.. حطي لي رقمك بسرعة..
- يجوز انت داعشي..
- ماكو وقت يا خالة للشرح.. نارين بخير.. حطي رقمك.. راح أطلع..

أغلق الصفحة بتوتر وتشنجت أعصابه. أطفأ الحاسبة ونقد صاحب المحل أجرة الساعة الواحدة وخرج وهو يهمهم لنفسه.. خوف.. خوف.. الكل تخاف من الكل.. انعدمت الثقة.. ألهذا الحد أصبحت داعش تخيف حتى البعيدين عنها؟

خرج إلى الهواء البارد متسرباً بين الأزقة بلا هدف. شغله الشيشاني الذي غاب كثيراً وشغله الكويتي برائحته الكريهة وتمنى عدم عودته. كلب يشتري صبايا بقد بناته.. تفوووو..

يستحضر صورة العم آزاد.. كم اشتاقك يا عم.. فيشعر بالحزن لهذا البُعد الإجباري.. تعود له سنجار بكل دفقها المؤلم.. عيدو.. الحامل.. العم سالار.. سورا سكي.. سورا بني.. السور الروماني.. المدرسة.. السيدة زينب.. سوق المنارة.. كنيسة مريم العذراء.. باب الخان... وعندما يصل إلى يوم الجمعة ينفر ويوخزه وجع يعرف سببه ومصدره لكنه يشعر بشيء من الغبطة والفرح الصغير إنه احتفظ بالأفلام التي صورها وبثها من الموصل وشاعت بين الناس خارج الدنيا كلها..

أمك غبية.. غبية.. دمرت أعصابي.. تسأل أنا منو وتريد تحقيق والوقت يحاصرني..

في الجانب الأيسر من المدينة الكبيرة مر على أنقاض مرقد النبي يونس فكبح رغبة تصوير خرائب المكان فابتعد داخلاً سوقاً شعبيا قضى فيه أكثر من ساعة يتجول محشوراً بين الناس شاعراً بدفء المكان وحميمية الناس.

الغائبات

لاحظتْ فتاة الغرفة قلقه وهو يتقلب مع موبايله منذ إن حلّ المساء لكنه في لحظة مباغتة قفز من السرير وتورد وجهه ونظر إلى الفتاة بانتصار:

- امك دمرت أعصابـــي. تريد تفتح تحقيق معي.. منو أنـــت؟ وشـــنو انت؟ ويمكن انت داعشي؟

بهتت وهي تفتح عينيها بوسعهما فهرعت إلى الموبايل كما لو تريد القبض على أمها..

- إهدأي.. وصلنا إلى الحل الأخير..

ترك الفتى موبايله على السرير وتقدم اليها وهي ترتعش. جثا أمامها كولدٍ صغير:

- اسمعي.. أي خطأ يؤدي بنا إلى الكارثة.. اهدأي فقط وستتكلمين مع أمك بعد قليل..

نشجت الفتاة ولاحت على وجهها الباكي علامـــات فـــرح لم تســـتطع إخفاءها

- إذا بقيتِ على هذه الحالة لن يحصل الاتصال.. كوني أهدأ..

عاد إلى السرير وفتح الصفحة وقبل أن يقرأ قال لها:

- أمك اسمها بالفيسبوك "الغائبات" ربما تقصدك انت وأختك.

ثم بدأ يقرأ:

- ألو.. انت منو.. نارين وين؟ معقولة نارين عندك؟ ليش ما تجـــاوب؟ من يقول انت مو داعشي؟ نارين بنتي وين؟ أختها باران وين؟
- ألو.. ألو.. ألو.. انت منو؟ نارين عندك؟

- ألو.. ألو.. تريد رقم تلفوني؟ ليش ما تحكي؟

- ألو.. أبوها يقول اعطيه رقم التلفون.. وهذا رقمي 075... أرجوك خليها تتصل......

تمسك فمها كي لا تصرخ. تنظر بعينين مشدوهتين إلى الفتى بشقاوته وهو يقرأ رسائل والدها. ثم يوصيها كأي معلم:

- كوني هادئة. بلا بكاء بلا صراخ بلا أي شيء يفضحنا.. قولي لها أنا بخير وبالموصل.. واتركي البقية عليّ.. أنا اكلمها بالفيسبوك..

أخذت دموعها تنهمر أكثر وتفرك بأصابعها وجسدها يرتعش. اختنق الكلام فيها وصغُر وجهها أكثر مكتسياً بطيف فرح لم يحجبه اصفرار وجهها والفتى ينظر إلى الموبايل ويكتب فيه شيئاً..

- وين أمي..؟

خرج الكلام متعثراً منها و لم يجبها الفتى الذي ظل منشغلاً بالنقر على الموبايل بإصبعه.

- لا وقت لدينا.. يكفي هذا.. أخبرت أمك بأنك ستتحدثين معها وطلبت منها عدم الاتصال برقمي.. فهمتْ جزءاً من كلامي كما هو واضح.. تشجعي.. الوقت قصير جداً ومجازفة أيضاً..

هزت رأسها بالإيجاب ومسحت دموعها بيديها واستعدت.

نقر الفتى على الأرقام التي أمامه وهو لا يخفي ارتعاشَه أيضا..

فتح ايقونة الصوت وطلب منها أن تتقدم قليلاً وتضع فمها قريبا من الموبايل.. كانت لحظات موتورة ومفجوعة بدا الفتى يشعر في سريرته انه يقدم شيئاً لا لفتاة الغرفة.. لكن لا يعرف لمن..

- ألو.. ألو.. نارين ماما.... **جاء صوت من بعيد**

- ألو.. ماما انا نارين...

كان الفتى يرتعش وهو يغلق النافذة ويُسدل ستارتها.. والصوت القادم من مخيم خانك بدأ يختنق فتختنق الصبية معه..

- نارين بنتي..
- ماما.. أنا نارين..

حشرجة أصوات في الطرف الآخر من المخيم. صوت رجل ينادي أيضا.. نارين.. نارين..

وشوشة وتدافع أصوات غير مفهومة والصبية تخرس وتنظـــر إلى الجهـــاز وتسمع الأصوات المتدافعة ولا تنطق بشيء.. نارين.. نارين..

أنا نارين وهذه أختي باران

تحدثت مع أمها مرة ثانية أقل من نصف دقيقة بعد منتصف الليل وكانت أكثر هدوءاً بالرغم من بكائها ونشيجها المتقطع.

سألتُها عن أختها باران وجدتها فاقدة الذاكرة.. كانت تروي لي حكايات عجائبية لا تُصدّق..

تورد وجه الصبية وهي تكفكف دموعها ونظرت إلى الفتى بامتنان مغمورة بشعور سعادة غير قليلة وهي تنظر إلى فتى الخلاص، فتراه أكبر من عمره الفتي كأنما دبّت فيها روح الحياة المطمورة في الأسر وزواجات المجاهدين وبدأت تقارن الحياتين بطريقة التداعي الذي يفترس روحها في الكرفانات المتنقلة.

قال لها الفتى كما لو يقرأ ما في رأسها:

- لا تنسي انا وأنتِ ما زلنا في الأسر..

وكمن تذكر شيئاً:

- هل جدتك مفقودة ايضاً؟
- لا أدري أين هي..

تأففت وهو يقلب في "ستوديو" الصور في موبايله:

- شوفي نشتُمان ربما تتذكرينها الآن..

أعادت الصبية رؤية متمهلة ناظرة إلى الهالة الذهبية التي تغطي وجه الصبية الأخرى وتبرق عيناها الفيروزيتان ويشع وجهها الطفولي كأنما أخذ يضفي على وجهها نوراً أبيض حينما تنعكس أضواء الشاشة الصغيرة وهي تستدرج الصور بالأثواب المتعددة التي تطالعها.

- وجهها ليس غريباً عليّ.. رأيتها.. لكن أين!

- ركزي..

مددت جسدها على السرير وتركت الموبايل على صدرها وأخذت تعيد مشاهدة الصور ببطء، فتخرج نشتُمان في كل مرة كفراشة ملونة تكاد تطير لفرط طفولتها وملاحتها.

- حتى نضبط الذاكرة احكيلي منذ أول يوم أسروك فيه ومن ثم تذكري على مهلك أين أخذوكم وماذا فعلوا ومَن مِن البنات معكم.. احكي باسترخاء..

ابتسمت نشتُمان لها فبانت أسنانها مصفوفتين بانتظام وانشغل وجهها بطيف وردي جلّل الصورة وأحاطها من كل جانب، وبزغ وراءها غصن أخضر حاول أن يخترق الطيف الوردي لكنه توقف وراءها وتضبب قليلاً في عينيها، ثم غمره طيفٌ أبيض تقادم من خلف المشهد وظل الوجه الساحر يبتسم بالرغم من كتلة الضباب التي طوقت الوجه المضيء.

استرخى كل شيء في برودة وردية انتقلت اليها وهي تغمض عينيها في استرخاء نادر أعاد لها الكثير من الرؤى الحية التي كانتها في أمكنة لا تعرف أين حدثت لكنها الآن تراها كما لو إن فيلماً بدأ يبث رائحته في ذاكرتها منذ أول لحظة جبلية لا تنساها قطعاً وظلت ماثلة في روحها حينما ضاق جبل سنجار الفسيح عليها وشُلّت ساقاها الناعمتان، فبركت كحمامة جريحة تنادي باران التي تصغرها بسنة واحدة كأنها توأمها حينما بركت هي أيضاً بانتظار صياد ساحر يلقي عليهما شبكته ويعود بهما إلى المدينة المحترقة، فلاحظت ان الجبل يحترق والثياب الملونة تطير وتفترعها شرارات ملتهبة وثمة صراخ تسمعه ولا تسمعه واجساد تتهاوى وأخرى تركض ورصاص يقتل أشجار التين.

كانت تشعر بالعطش في صيف الجبل وهي تزحف إلى **باران** التي جفت شفتاها الصغيرتان حتى وقف عليهما ضبعٌ أسود وسحلهما من ضفائرهما بين الصخور الحارّة واشواك الجبل الكثيرة التي شرخت ثوبيهما وجسديهما الغضين..

- انا نارين وهذه أختي باران..
- أنتما أيزيديتان كافرتان..

- إننا نحب خودا ونخافه ولا نعمل سوءاً.

في غرفةٍ جمعونا. أكثر من خمسين صبية وبنت وسيدة. كانوا ملتحين مثل التيوس ولهم رائحة البارود ومن أفواههم تخرج نار ومن عيونهم شر. لا يتكلمون مثلنا بل يصرخون ويرمون بالرصاص ويشربون الدم مع الماء ويجرّون النساء من ضفائرهنّ ويلطشون الأولاد الصغار بالحيطان.

شددت طرف ثوبي بثوب باران. قلت لها ننتحر معاً أو نذهب معاً إلى المجهول. كانت باران صغيرة جداً ومدللة أبي حتى كنت أغار منها كثيراً، لكنها الآن معي مشلولة من الكلام. مفزوعة مثل قطة محاصَرة.

عزلونا نحن الصبايا إلى غرفة ثانية وكنا أكثر من ثلاثين. نعرف ولا نعرف بعضنا. جمعونا من القرى والأقضية والنواحي منذ الصباح وحتى المساء. وجلسنا متراصفات نرتعش ونبكي ونصرخ ونسكت معاً.

مرة واحدة قالت لي **باران** وهي ترتعش.. أبول على نفسي.. ثم صمتت على خوفها ربما إلى اليوم وهي تبول على فخذيها من الرعب والخوف.. لكني كنت أشد طرف ثوبها بثوبي بقوة ولن أتركها بخوفها. كنت أشعر اني كبيرة معها وهي باران التي تصغرني بسنة واحدة ومدللة أبي.

عندما أشار لي واحد منهم وطلب مني أن أقف وقفتْ معي باران. سحبها ثوبي فوقفتْ. أشار إلى أختي أن تجلس فسحبني ثوبها وأجلسني معها. وعندما لم يفهم ذلك التيس سر الجذب بيني وبين باران. أعاد الطلب مرة ثانية فوقنا ثم جلسنا بنفس اللحظة عندها تقدم خطوتين وكان ينظر بعصبية الينا فقلت له:

- هذه أختي باران وعقدنا ثوبينا لنموت معاً أو نحيا معاً.

وحينما عرفت انه لم يدرك لغتي الكردية أخرجت له العقدة بين ثوبينا فاندهش وضحك بسخافة فأخرَجنا من بين النساء وكلّم أحدهم بلغة لا أفهمها، فقادنا هذا إلى غرفة جانبية عبر ممر كنت أسمع عبره صراخ رجال وتوسلات ورصاص وقتل وأشم رائحة بارود وتراب وصيف خانق وعرق يسيل من كل مكان.

دخل أحدهم بعمرٍ خمسيني تقريباً أملط بلا شوارب مثل البقية وكلمنا بكردية واضحة:

- أنتما أسيرتان يتوجب أن تعلنا إسلامكما ويتزوجكما مجاهدان من مجاهدينا أو نقطع رأسيكما..

شهقت باران وتقيأت سائلاً أصفر فركلها الكلب على بطنها وقذفها على الحائط فانقذفت معها؛ وبحركة عصبية استل من خاصرته حربة وانحنى على موضع سقوطنا. مسك العقدة التي تربط ثوبينا وبترها بلمح البصر.

- انت كردي يا عم..

وكنتُ أقصد الإستغاثة به كونه كردياً ويتكلم لغتي.

- أنا مجاهد يا وقحة..

صرنا مسلمتين بعد يومين ووزعونا على المجاهدين مع بقية الصبايا، فكنت من حصة واحد بعمرٍ كبير لا اعرف لغته وكانت باران من حصة فلسطيني بعمر والدي، وهكذا توزعت الصبايا بين المجاهدين وتفرقنا ولا أتذكر الوقت إن طال أو قصر لأننا كنا على تنقل مستمر بين البيوت المهجورة التي ما تزال رائحة الحياة فيها، وكانت لحظة صعبة أن افارق فيها باران وأفترق عنها بالرغم من بكائنا وعياطنا المشترك غير إنهم فرقونا في النهاية وتزوجونا في ليلة خانقة سال فيها العرق والدمع الغزير و.. الدم أيضاً.

سيدة النكاح

توخى الفتى الحذر فأطفأ المصباح الكبير الذي ينير الغرفة وترك مصباحاً صغيراً يلقي ضوءاً خافتاً. التقط الموبايل النائم على صدرها، وسحب الغطاء علـــى جســـد الصبية التي تطير وتحط في يقظة نائمة، وهي تهمهم وتنفعل ملامحها قلـــيلاً ثم تهـــدأ وتحرك أصابعها ويتخلخل جسدها الصغير، فتنقلب على جهة أخرى بشخير خفيف وأنفاس تتسارع فتظهر بعض الأصوات التي لا معنى لها. ثم تكف مستغرقة في حلـــم بعيد تستقدم فيه أياماً ضائعة في بطون البيوت الشنكالية المهجورة، وبين يوم وآخـــر تبتعد المسافة مع باران صبية الدلال الأخيرة وتفرقها صـــولات المجاهـــدين الـــذين يجاهدون بلا شوارب، بلحى كالمكانيس من سنجار إلى بيجي وتكريـــت وديـــالى والفلوجة وربما إلى بغداد، وهذا يرطن ويرفع يديه إلى السماء ولا يعرف غـــير: الله وأكبر.. جئناكم بالذبح.. ويصلي بحذائه ولا يغتسل كل يوم ويستبدل البيت كلمـــا وجد آخر مهجوراً أكثر سعة منه فتطالعني وجوه شنكالية في الصور المعلقـــة علـــى الحيطان لعوائل كانت سعيدة حتى قبل وقت قصير، فأحسدها لأنها نجت منهم، غير انه يرطن كلما يراني أنظر للصور فيكسرها بإطاراتها ويحرق الثيـــاب المتروكـــة في الخزانات المتواضعة ويلغي كل ما هو شخصي في البيت الذي ينزل فيه.

أقول له انها ممتلكات بشر سيعودون.. فلا يفهم. متوتر. عقله بين فخذيه. دائما يلقيني على الأرض وينزع ثيابـــي بقوة ويخنقني برائحته وثقله ويقول بعـــد إن ينتهي مني: الله أكبر..

ألجأ إلى البكاء والنشيج طيلة النهار، وحينما يغادر المنـــزل يغلـــق البـــاب الخارجي ومعه المفتاح فأفكر كيف أهرب.. لكن إلى أين والمدينة كلـــها هُـــم. أسيرة ومنكوبة وأسلمت بكراهية.

أذكر أول من فعلها بـي أحدهم.. لا أدري من كان الأول.. نسيته.. كان يقول بسم الله ويجر لباسي ويفتح فخذيّ ولا يهمه اني اخجل وأصرخ واخرمشه كالقطة الشائطة.. صعب أن يرانا غريب هكذا.. عيب لشخص يرى عربي أكاد أموت من العيب والخجل يا ربـي.. استحي.. امي كانت تقول البنت التي يرى الغريب منطقة الحياء فيها بنت عاهرة وليست على الدين الأيزيدي.... سيدخلها الرب إلى نار جهنم...

في أول مرة فعلها بـي تسربت رطوبة أو سائل أو دم فصرخت مذعورة: لالالا لكن الـ لا ضاعت في شهوته المدمرة وفحيحه الساخن الذي حولني من نارين إلى صبية ثانية سرقوا منها الحياء كثيراً وسال بين فخذيها دم أصفر التصق بالفراش وقتاً طويلاً.

ما زلت أتألم من تلك اللحظة. وكنت أتصور بعدها انه لم يزل بكارتي فقط بل أزال حيائي إلى الأبد.. لكن عندما حدث ثانية مع الجزائري كنت أكثر خجلا وحياءً وكنت أصرخ أكثر من المرة الأولى أتشبث ببكارة وضعتها في عقلي وليس.. هناك.

لا أعرف شيئاً عن باران منذ إن افترقنا، لكني أعرف الليل من النهار والوحدة والبكاء. أمي وأبـي لا أعرف أين لكن كلما أفكر الهما في الجبل أرتاح قليلاً، غير إن اختفاء باران يعذبني منذ إن فك عقدتنا الكردي محفوف الشوارب.

قال لي ذات ظهيرة حارة شيئاً ما وأعاده أكثر من مرة، لكـني لم ألتقط سوى (باجي) لأنه كررها أكثر من مرة ففهمت انه سيذهب إلى بيجي، قلت له بوضوح اذهب وعسى الله أن يخلع قلبك وروحك يا ابن الكلاب.

ترك معي امرأة تكبرني بعشرين سنة. موتورة دائماً. تقول الها مجاهدة نكاح تغذي المقاتلين بالجنس كل ساعتين وحسب جدول وضعوه لها، لهذا كنت أشهد كل ساعتين طرقاً على الباب فتخرج وتُدخل أحدهم معها غرفة النوم وتخرج منتشية وتردد الحمد لله على نصره..!

غاب عني أياماً ليست كثيرة وكنت أسيرة البيت أفكر بالهرب لكن دائما أقول أين اهرب والجبل أصبح بعيداً وهؤلاء كلاب وخنازير.

في صباح مبكر كنت في المطبخ ورأيت من النافذة سيارة عسكرية تقف في باب البيت نزل منها رجلان. طرق أحدهما الباب فخرجت سيدة النكاح منقبة كأنها في آخر الحياء والحشمة.

كلمها أحدهم بلهجة عربية أفهم الكثير منها: يا أخت الإسلام نحن من استخبارات وزارة الحرب.. نريد أن نكلم السيدة زوجة المجاهد..

- ما الأمر يا أخ الإسلام..!
- علينا أن نبلغ السيدة شرعاً..

كنت استمع من النافذة فنادتني سيدة النكاح بصوت منخفض. لففت وجهي بنقاب جاهز ووقفت وراء ظلفة الباب..

قالت سيدة النكاح: السيدة زوجته تستمع اليكم يا أخوة الإسلام المجاهدين..

قال الرجل نفسه وقد رفع صوته قليلاً: إذن نخبرك ونبلغكِ يا سيدة بل ونهنئك يا أخت الإسلام باستشهاد زوجك البطل في بيجي ليلة أمس عسى الله أن يكتب له الجنة مع الحور العين وإنّا لله وإنّا اليه راجعون.

انفتح قلبي وطارت روحي سعيدة لهذا الخبر المفاجئ وكنت أردد إلى جهنم وبئس المصير وكادت سيدة النكاح المجاهدة أن تلطمني على وجهي بعد انصراف السيارة ومن فيها وبعد إن وقّعتُ على ورقة لا اعرف مضمونها.

غير ان الفرح لم يدم كثيراً إذ أخذوني لاحقاً إلى دار الضيافة عند احد الأمراء كوني ارملة صغيرة ولا يجوز للأرامل أن يبقين عزباوات بعد انتهاء العدّة الشرعية كما أفهمتني سيدة النكاح.

يتناقص كل يوم عدد الأرامل الصغيرات والكبيرات فالمجاهدون يحتاجون النساء دائماً. هناك وجدت الكثيرات في بيت كبير أظنه دائرة رسمية يتوزعن على عدد غير قليل من الغرف تشرف علينا مجاهدات نكاح كما فهمت من النساء وهن سوريات وتونسيات وواحدة فرنسية طويلة تحك مؤخرتها طيلة الوقت.

السورية الأربعينية هي التي تدير المكان بأسلوب صارم. وهي التي تضع جداول النكاح لمجاهدات النكاح لهذا يتنرفزن من وجودنا كوننا صغيرات ومنافسات مثلما يعتقدن.

كثيراً ما نسمع اننا؛ الأرامل الصغيرات؛ يجب أن لا نبقى عزباوات فقد يفتننا بديننا الجديد الشيطان الرجيم مع انه لا وجود لشياطين بيننا إلا هم.

وعلى هذا تم تزويجي إلى أحد المجاهدين السعوديين وهو رجل طويل بلحية طويلة محفوف الشوارب أيضاً سيترقى إلى أمير لمجرد أن يذبح العدد المطلوب منه من الأيزيديين أو الروافض أو النواصب.

وهذا السعودي وجدت معه زوجتين واحدة من الرمادي وأخرى سورية من الرقة مجاهدة مثله تنطوي على لغة فظّة، لكنها جميلة ويرابط في قرية **قني**.

ولكوني بكّاءة وصغيرة ولا أفهم شيئاً في السرير وأميل إلى الخرمشة والعض والصراخ فقد ارتأت الحلبية بيعي إلى مجاهد سوداني دميم الخلقة رث في كل شيء وهذا لم ينل مني غير مرة واحدة ربطني من كل مكان واغتصبني فيها واحدث جرحاً بليغا في...

يا رب أخجل... ما زلت استحي منك يا رب. كم مرة رأيتني عارية؟ اعذرني يا خودا.. أنت أرحم من أن تعرف أمي أو أبي أو أخوتي.. انت رحيم وعظيم.. انا صبية ضعيفة وأسيرة وهؤلاء وحوش كاسرة..

السعودي ضجر مني لاحقاً فباعني إلى صديقه العراقي المجاهد أبو يمامة وهو قذر اللغة والتصرف لديه عدد من الصبايا يصل عددهن إلى 12 صبية اسيرة من مختلف قرى شنكال وأقضيتها، عرفت انه أحد لصوص البنك الوحيد في المدينة وكان تاجر رقيق باعنا جميعاً إلى تاجر عراقي بصفقة جيدة وأخذنا الأخير إلى الموصل كما عرفت منك.. وهناك وجدت باران مع صبايا أخريات حتى جاء هذا الكويتي واشتراني.. ليفرقني عن أختي المدللة باران.

النعاس الأخير

أيتها الأيزيدية الحزينة
يا ابنة الشمس والتين
أتركي الأرض الملوثة بهم
وضعي مبسمكِ على فوهة البندقية
ثم طيري مبتسمة.. مثل الغيمة
حتى آخر السماء
لكن..
أتركي قطرة دم واحدة
لأنها عارنا الأخير

يمكن للفتى أن يلمح دموعاً بيضاء تتسلل من عيني الفتاة وهي تهمهم وتهذي وتحدث نفسها بهدوء مرة وبغضب مراتٍ كثيرة. يتعالى شخيرها وينخفض. ينتظم تنفسها ثم يشهق ويعود ينتظم.

كان منتصف الليل قد عبر المدينة بأكثر من ساعة وانتشر في الغرفة تيار بارد أحكم الفتى على جسده بطانية مخططة بالأسود والأبيض وهو يغالب نعاسه.

تتعبه متابعة "أهل الموصل" بالتعليقات والمشاركات الجديدة فيلجأ إلى صور نشتُمان التي تتعاقب عليه ببطء، وكما في كل مرة تبتسم له وتناديه وتسأله عن بابو وتطلب منه أن يأتي اليها.. أين أنت؟ ما أعرف.. ولا واحدة منا تعرف أين هي بعد البيع والشراء. الطرق طويلة بين الجبال وأحياناً صحارى جرداء واحياناً نتنقل في مدن حيّة نسمع أصوات الناس ولا نراهم..

بزمن قصير اعتدنا أن نكون سلعاً. اعتدنا أن نكون زوجات جاهزات لأزواج يتبدلون في يوم واحد. منهم من يُقتل ومنهم من يجد صبايا ونساء جاهزات كغنائم حرب فيضيفهنّ إلى رصيده. منهم من يبيع الفائض عنده منّا

ليجمع المال. شيء غريب يجري وغموض يحيط بأيامنا. لا نفهــم تماماً الا أن نكون زوجات صغيرات يلاعبون حلماتنا ويعضونها بنهم ويبولون بين أفخاذنا بعد إن يرفعونها إلى حد السقف.

مجاهدات النكاح غيورات. أذكر هذا كثيراً. جئن بنهود وصدور وفروج من دول كثيرة حتى يفتحن سيقانهنّ تحت الغبار والبارود. لا يشبعن من المضاجعات.. **انه واجب شرعي. فالمجاهدون يقدمون ارواحهم فداءً إلى الخالق وجهاداً في سبيل نصرة الحق ضد الباطل فما بالنا لا نقدم اجسادنا لهم..**

أذكر صبية من قرية كوجو انتحرت عندما عرفت إنها صارت من حصة أحد الأمراء كغنيمة حرب. خنقت نفسها بشجاعة ورباطة جأش وهي جالسة بمكانها حتى همدت. حتى هم تعجبوا لطريقة الانتحار الصامتة.

في المضيف نساء مجردات من كل شيء. حلوات على الأغلب. استطيع أن اقول كلهن حلوات بلا استثناء وهذا يعني الاختيار مرهون بهدف، والمضيف منتجع اختيار الجميلات إلى الأمراء والقادة.

هل تبحث عن نشتُمان؟

ستجدها هناك. عند أحد الأمراء أو قادة الجيش فمثل هذا الجمال لن يفرطوا به ولن يبيعونه. انهم مجموعة ذئاب شرسة لا يعرفون الله ولا نبيه..

نشتُمان بهذه الطلعة كما رأيتُها في الصور ستجدها عند ابو بكر البغدادي فهو كبيرهم الذي علّمهم الجهاد الدموي ومعلمهم الأكبر الذي علمهم كيف يستبيحون البنات والصبايا والأطفال باسم الله ونبيه.

لا تتعب نفسك بالبحث عنها فهذه ليست سلعة مثلنا. إنها في مقام آخر أيها الفتى الطيب. اذهب إلى دار الضيافة وكن شاطراً. هناك نشتُمان المسروقة.

دعني أتذكرها جيداً. رأسي يصفو الان في آخر لحظاته..

أرى نشتُمان الآن صبية حلوة مثل الوردة. أجمل صبية رأيتها بين المخطوفات.. تذكرها يا فتى. تذكرت تلك الوردة التي تفوقنا جذباً وجمالاً وعبيراً. انها بيضاء وزرقاء ووردية.. صبية معطرة أشمها من كل مكان الآن...

أراها بكاملها الآن.. بشعرها الذهبـــي وعينيها الزرقاوين وطولها الفـــارع وحلاوتها الطفولية..

تأتيني الآن.. تعالي يا اختي نشتُمان يا جميلة الصبيات.. تعالي يـــا عـــذراء سنجار وأميرة الأميرات..

ها هي نشتُمان الحلوة الأميرة تقترب مني فيسبقها عطر فواح..

ترتدي ثوباً أبيض مثل ثياب الحوريات. تطير وتحط بجناحين من نور.

الله الله.. ما أحلاها.

اشعر بالنعاس يا فتى.. لا توقظني أبداً.

ولاية سنجار

الجنين الأبدي

فوجئ بالحامل وهي تدخل السوق بعد غياب ببطنها المدورة وثوبها الأسود المسترسل حتى قدميها فبدت كأنها فقمة بسواد العباءة الفضفاضة الـذي يحـيط بجسدها من كل جانب. يتبعها الكلب الأبيض ويقف إلى جانبها كالحارس.

لم ير سوى عينين سوداوين تتلامعان في شمس الصباح وكانت بطنها تُبعِد جسدها عنها ويدها تمسك بحقيبة سوداء متوسطة الحجم.

حيّته بصوت فيه بقايا انفلونزا.

- خطوة مباركة يا أخت..

خفضت من صوتها وهي تتساءل:

- أولاً أسألك عن ولدك كيف أصبح..
- ليس بصحة تامة.. سيتحسن إن شاء الله.
- وهل عاد للغناء..؟
- سيعود.. لكن وضعه مضطرب حتى الآن.
- خودا يحميه ويحفظه.

ملأ لها كيسين من الرمان والتين ثم سألها من باب المجاملة:

- حملكِ طال يا أخت هههه
- وسيطول يا أخي حتى يخرج الخيط الأبيض من الخيط الأسود.

ضحك ورأى في عينيها التماعة ما. لكنها عادت تسأل:

- أسأل عن الأخ آزاد.. وعن الفتى.. أما عاد من الموصل؟
- الفتى لم يعد ولا توجد أخبار عنه وآزاد يقضي نهاره يتقصى الأخبار عن السبايا وعن ابنته وفي الليل يكون معي..

يزدحم السوق في مثل هذا الوقت من الصباح. نصفه من جماعة الحسبة في بطالتهم اليومية والنصف الآخر هجين من السنجاريات المعبّآت مثلها بأكياس من القماش الأسود والغرباء وجنود الخلافة والخدم والغرباء ومسلمات الأحياء القريبة بلغطهن البدوي. وجوه مختلفة تطالعها من وراء النقاب تراوح في السوق المسقف.

- سلّم لي على الأخ آزاد..

استأذنت الحامل وتمنّت للرجل يوماً سعيداً وانصرفت يحجل وراءها الكلب الأبيض.

شمّت هواء المدينة وهي تخرج من السوق إلى الشارع العام. كانت المحال مغلقة منذ شهور. رأت حرائق قديمة فيها كما رأت أبوابَ معظمها مخلّعة ومن البعيد كانت منارة جامع الرحمن نابتة في الفضاء المكتحل بالغيوم المارّة.

المدرسة القريبة التي مرت من جانبها سكنها جنود الخلافة. رأت الحارس المتشح بالسواد ببندقية طويلة على ظهرة. و لم يظهر أطفال أمامها مثلما كانت تأمل وهي تنهي الشارع الطويل وتدلف إلى زقاق ترابي فيه بقايا أمطار وروائح مختلطة من طين وعفن.

الأزقة صامتة والعصافير قليلة والسكون يحيط بكل شيء من حولها، ولولا حركة السوق البسيطة لتخيلت انها وحدها في المدينة.

في السماء ثمة صقر يدور بهدوء ويتعقبها. وحدها تسمع صوت الوتر العازف منه، والكلب بين لحظةٍ وأخرى يرفع رأسه اليه وينبح مغتبطاً فيما الجنين يزيد من رفسه على جانبي بطنها.

الزقاق الذي يقودها يلتف بها شمالاً إلى زقاق اقل اتساعاً فتجد البيوت المتقابلة مفرغة من كل شيء وأبوابها مفتوحة أو مخلوعة وهي تدرج ببطء مستطيبة صباح المدينة على وحشته وخوائه فتشعر انها وحيدة في روح مدينة ميتة.

يرفسها الجنين فتمنعه بيدها، لكنه يعاود الرفس فتقف وتحدثه من تحت النقاب فيهدأ ثم تقطع الزقاق فتلتقي بشارع فرعي تتكوم عليه الاطيان ومستنقعات المطر الصغيرة.

الجنين يعاود الحركة ويرفس خاصرتها من الجهة اليسرى بقـــوة.. فتقــف وتحدثه من تحت النقاب وتطمئنه إلى إنها ستفعل حالاً.

في الزقاق الأخير يسبقها الكلب وتطالعها شجرة تين وقد عَلَــت كــثيراً. انجذبت إلى رائحة أثيرة وهي تخطو على مهلها وعيناها تمتلآن باخضرار الشجرة البارزة في الزقاق، والصقر يهبط كثيراً على المكان.

تقف أمام بيت الخال عفدال بشجرة التين التي ما يزال ندى الصباح يترقرق على أوراقها وهي تشعر بالغبطة حينما رأت الباب مفتوحاً، فدلّها ذلك على أن هناك مَن في المدينة يزورون البيت خلسة.

سكن الجنين تماماً وخفّت بطنها المندفعة كما لو ذابت وهي تدفع البـــاب برفق. تمد رأسها بحذر ثم تدخل كتلتها إلى الطارمة حيث تستدق شجرة الــتين الوارفة ويغمرها عطر وبخور وشذىً.

ترفع نقابها الثقيل عن وجهها وتقبّل جذع الشجرة منغمرة بشــعور مـــن الهدوء الذي دخل روحها من كل مكان، ويحط الصقر على الشـــجرة الناميـــة ويفتح جناحيه وعيناه تنغرزان في عيني الحامل فترى فيهما مساحة من الفـــرح لا تعرف سرها حتى اليوم.

تنعقد في قلبها لحظات من الهدوء وتشد خرقة بيضاء نظيفة على شـــجرة التين المباركة وهي تلهج بمحبة الله وتدعو لرحمة زوجها المذبوح وفك أسر المدينة وعودة المخطوفات والناس واسترجاع الحياة كما كانت.

- مبارك لك هذا الوقت في حضرة الشهيد..

يحدثها صوت تعرفه كما لو انبثق من قلبها.

أصغت إلى همس الشجرة. ثم إلى همس الضـــريح. ثم إلى صـــمت البيـــت المهجور.

- مباركة لحظتك البيضاء يا امرأة الحمل الطويل.. لا تلدي هذا الجـــنين الا بعد انحسار طوفان النار في شنكال.
- كأنه صوتك..
- إنه صوتي.. أفتقدكِ كل الشهور التي مضت..

- دمك لا يزال على طارمة البيت لا يجف.
- هذا دم كل سنجار حبيبتي لن يجف حتى تجف كل سنجار من روائحهم وزنختهم..
- أحلم بك دائماً..
- ما زلت أحبك.. لكن بيننا سماء عالية وأرض غاطسة بالدم..

تطفر من عينها دمعة صغيرة وهي تخرج يتقدمها الصقر طائراً على علوٍ منخفض ويسبقها إلى الدار.

يقف على شجرته في البيت المهجور رافعاً جناحية إلى الجانبين فترسل له الحامل قُبلة هوائية حميمة جداً.

زواج التين والزيتون

بشكل غير متوقع خطفت طائرة حربية في سماء المدينة بارتفاع واطئ فأحدثت صوتاً عالياً رجّ البيوت والمحال. تبعتها اطلاقات نارية من كل مكان وتطاير رصاص مذنب في مسارات مختلفة واحتشد الفضاء بأصوات دوشكات مختلفة العيارات لمقاومة الطائرات؛ فالتجأ المارّة إلى الحيطان وفرغت الشوارع لبعض الوقت من السابلة.

وقتها كان سالار وآزاد في محكمة الولاية الشرعية كشاهدين شرعيين لزواج الشابين كولي البعشيقية وفرهاد السنجاري الذين اضطرا لإعلان التوبة بوقتٍ سابق بوثيقة صادرة عن محكمة الولاية الشرعية، ومع إن آزاد كان متضايقاً من أن يرد اسمه في مركز شرطة الولاية أو أن ينتبه لوجوده أحد، إلا أن سالار أقنعه أن يكون شاهداً، فكولي وفرهاد شابان متحابان ونجيا بالمصادفة من كل أحداث المدينة التي عصفت بها وهذا اقل ما نفعله لهما.

همس له ان زواجهما هو نوع من المقاومة للحفاظ على نقاء الدم الأيزيدي حتى وإن كان بوثيقة داعشية فهي وثيقة مزيفة لا قيمة لها.

احسّ إن دافعاً آخر لا يعرفه أرغمه على قبول أن يكون شاهداً لزواج شابين لم يهربا وأصرّا على الزواج بالرغم من الظروف التعيسة المحيطة بهما والمجهول الذي ينتظرهما.

انتشرت رائحة البارود في فضاء المدينة وظل المارة وقتاً غير قصير يتوجسون من عودة الطائرة، فيما اعتلى سطوح المباني جنود الخلافة يراقبون السماء وهم على استعداد استثنائي، فساد شعور آني بأن شيئاً ما سيحدث بالرغم من بُعد المدينة عن جبهات القتال الشرقية والغربية والشمالية وقبل أن يتبخر بارود

الدوشكات خرقت طائرة أخرى بعد ربع ساعة حاجز الصوت بسرعة مدهشة وألقت متفجرات ضخمة خارج حزام المدينة، ففرغ السوق من المتبضعين وخلت الشوارع من المارة وظلت الدوشكات ترمي وقتاً غير قصير ومذنبات إطلاقاتها الحمراء يراه سكان المدينة.

كان آزاد وسالار والعروسان يحتميان في مبنى المحكمة الشرعية كل الوقت بشعور مشترك لن يستطيع الشرطي الخمسيني الشامي الواقف قريبا منهما أن يفهمه. لذلك بدا في أكثر من مرة بطمأنتهم على ان هذه ألعاب سخيفة تجريها حكومة الروافض في بغداد وتقصد منها ملأ فراغ عسكري شكلي، مثلما ذكّرهم بأن الحكومة سلّمت الموصل وتكريت وسنجار من دون قتال للمجاهدين المسلمين لتتوسع دولتهم من الرقة وحلب إلى الموصل وتكريت والفلوجة وستصل إلى بغداد والخليج العربي وتدمر صنمية الكعبة في السعودية وتنتشر راية الإسلام من جديد وتعبر المحيطات والقارات.

كان يتكلم بنشوة ويرسم أملاً عريضاً لا حدود له ولحيته تخفق بين أصابعه، فيترك شعوراً بالقرف والكراهية لا يستشعره وهو يتكلم بطريقة الأحلام كما لو ان كل شيء سيحصل بعد ساعات، غير إنه ارتد إلى الوراء واصطفق جسده بالحائط إثر قصف لم يكن بعيداً نفذته طائرة بعدما خرقت محيط المدينة مرة أخرى بعصف صوتي هز البنايات كلها وتطاير زجاج من إحدى غرف المحكمة وساد هلع بين الحاضرين القليلين.

احتضن فرهاد عروسته التي همهمت بشيء له، سمعه سالار الذي جلس على الأرض وابتسم وظل آزاد يحكم النظر إلى خارج البناية فيرى الشارع مقفراً وفي رأسه صور متلاحقة عن كل شيء انتابه مع هذا الوقت القصير الذي شغلته الطائرات القاصفة.

هدأ الجو إلى حد ما ووقف الخمسيني الشامي من جديد وهو يتمتم بأن نصر الله قادم لا محالة وان الملائكة ستسقط هذه الطائرات بإذنه تعالى. ثم وجّه كلامه إلى آزاد من دون مقدمات:

- أنت أيزيدي تائب يا زلمه..؟

ابتلع آزاد السؤال وهو ينظر للرجل. رأى في عينيه وقاحة أو هكذا خُيل اليه..

فسأله آزاد وهو يضغط على الكلمات لتشتيت ما في رأسه من نوايا وكلام قد يجرحه:

- هل أنت مسلم..؟
- الحمد لله أنا مسلم وأفتخر اني الآن في دولة الخلافة التي أعزها الله بنصره الكبير....
- يعني انت إنسان...!
- لله الحمد. عقل ومخ وإيمان وجهاد في سبيل الله، وما الحياة إلا لعِبٌ ولهوٌ..
- أنا مثلك إنسان. وخلقني الله تعالى مثلما خلقك وجعل في رأسي عقلاً مثلك ومخاً وإيماناً وأعصاباً ونظراً ورؤيا وخيالاً.. وصبراً..

وحتى يقطع عليه الطريق لكي لا يُدخله في متاهات كلامية يفقد فيها أعصابه أكمل:

- أنا وأنت نعبد الله الخالق الواحد. نصلي له ونمتثل لشرعه ونطيعه ونعبده ونشكو له ونتضرع اليه ونسبّح بحمده ونلجأ اليه في صغائر الأمور وكبائرها.. هل فهمت؟

خرج الشرطي دلشاد من غرفة جانبية يسير وراء القائد العراقي الجديد بديلاً لحجي خان الأفغاني المقتول. حيا العروسين وتمنى لهما السعادة تحت ظل راية دولة الخلافة الإسلامية التي يقودها الخليفة أبو بكر البغدادي؛ ثم غمز إلى سالار: **تين بعشيقة أكثر طراوة من تين شنكال هههه**

كفّت الدوشكات عن الرمي من على سطوح البنايات وتخاطفت سيارات مسرعة في الشارع العام ودبّت الحركة في المحكمة الشرعية من موظفات قليلات مخنوقات بالبراقع وموظفين ملتحين خرجوا من أمكنة متفرقة من بناية المحكمة يتطلعون إلى الفضاء الساكن لكن الشرطي الخمسيني السوري منعهم من الخروج حفاظاً على سلامتهم؛ غير ان آزاد وسالار والعروسين خرجوا في صمت المدينة وبارودها الذي غطى على رائحة المدينة في هذه اللحظات.

قبرٌ أعمى

أخبرني أحدهم في السوق إنّ الشرطي دلشاد يبحث عني.

لم أعد غامضاً كثيراً في السوق التحتاني ولا الفوقاني. صرتُ وجهاً مألوفاً في هذا المجتمع الصغير بعصاي الرفيعة التي تشبه حيّة جدار لالش. لكــــي فـــوق شبهات جنود الخلافة ومخبريهم العلنيين والسريين وعناصر حسبتهم الذين نصفهم من مسلمي المدينة وقراها المجاورة مسلمة والنصف الآخر لملوم مـــن جنســـيات عربية وآسيوية مختلفة.

لم أجد سالار في بسطته وهو الذي سبقني مبكراً إلى هنا فجلستُ مكانـــه يعتريني بعض القلق و لم يطرأ على بالي شيء سوى الفتى لكنه في الموصل الآن.

لم يكن السوق مزدحماً مثل كل يوم. بعض النساء يتبضعن الفاكهة الذابلة بأسعار مناسبة لكن غياب سالار عن بسطته كل هذا الوقت أقلقني بعض الشيء.

سألت البائع العجوز المجاور لبسطته فرد بعصبية انه لا يعرف.

اشترت امرأة يغطيها سروال أسود كيلوين من الـــتين. شـــكرتني وهـــي تقول: - **تين شنكال متعفن لكننا نشتريه لأنه تين شنكال ولا تين بعده.**

أقلق كثيراً من هذه الرسائل المحفّرة أو هكذا أحسب، ومع ان المرأة قالتـــها بحرقة لكني استعدت جملتها أكثر من مرة كما لو أفحص المعنى المدفون فيها.

أطل الشرطي دلشاد بشكل مفاجئ ووجهه جاف. حياني وسحب تنكــه وجلس إلى جانبــــي.

همس لي بألم:

- توفي أحد أبناء سالار قبل ساعة..

- ماذا...؟

- توفي ابنه المصاب بالجَرَب..

أذهلتني المفاجأة فعلاً. صباحا خرجنا معاً و لم يكن هناك ما يوحي إلى ذلك.

- لا استطيع مساعدته.. أنا الشرطي عبدالحافظ كما تعرف.. وأبناؤه يعيشون في بئر ولا أحد يعرف بذلك سوانا.. سواك أعني!

اشتبكتْ في رأسي المعلومات مرة واحدة. تحول دلشاد الشرطي أمامي إلى كائن آخر يعرف كل شيء يجري في المدينة. كان وجهه متأثراً على ما يبدو. لست متأكداً من ذلك. رأيت فجأة أكثر من دور له.

قال بوثوق:

- أنا شرطي الاضطرار وعبدالحافظ الاضطرار.. نبقى أبناء شنكال مهما كانت أسماؤنا وصفاتنا.. نحن بشر يا أخ سربست. أخبرتك لأنك على صلة يومية به.. اذهب لمساعدته أرجوك.

نهض متوتراً وقال انه سيبعث لي أحدهم يساعدني على تعزيلة البسطة.

كنت في حالة ذهول وصدمة أكيدة. إنها مفاجأة غير سارة في وقت ملغوم بكل شيء.

كيف ستكون حال سالار الذي أخفى أولاده عن عيون الشرطة في البئر منذ عدة أشهر وكيف سيتصرف في هذا الموقف الصعب..!

وضعت الكثير من الحلول في رأسي وأنا أستعيد كل شيء في علاقتي مع أولاد الغناء والبئر وسالار المغامر بحياة أولاده من أجل أن يحافظ عليهم حتى لا يكونوا لقمة سهلة في هذه الولاية التي تحولت إلى كابوس.

كنت أسأله لماذا تخاف عليهم إلى هذا الحد فكان يبرر أن أعمارهم تسمح لمسؤول التجنيد أن يجندهم في فصائل أشبال الخليفة وربما يجعل منهم انتحاريين مع مرور الزمن.

كنت بحالةٍ عصبية. ترتعش العصا بيدي وجسمي يختض لهذا الموقف الغريب الذي وضع سالار نفسه فيه وكنت أحسب اللحظات السريعة التي تمرُّ وأنا جالس في بسطته كأني أجلس على جمرٍ حتى جاء رجل خمسيني ومن دون أن يتكلم غطى صناديق الفاكهة ولملم المتناثر منها وأغلق البسطة معي.

كان يوماً صعباً وحرجاً في بيت سالار الذي تحول إلى كائن مغدور.

تحول الغناء في البئر إلى بكاء طفولي يخرج من قعر لا نراه. كنتُ مع رجلين لا أعرفهما وشاب متحمس هيئ لدفن الولد الذي مات هذا الصباح.

ومع ان الشرطي دلشاد فاجأني قبل ساعة بالخبر إلا انني أعددت نفسي لكل مفاجأة ممكن أن تحدث مع الأيام. لهذا لم أسأل عن الرجلين والشاب وكنتُ على قناعة انهما لم يسألا عني؛ فالحياة هنا تجري بصمت وسرية، وكنت على يقين أن كثيرين هنا مختبئون تحت الأرض أو حتى بين الغيوم لكنهم لم يفقدوا الصلة بالحياة كثيرا.

كان سالار يجهش وهو يروي من بين دموعه المسترسلة:

- أطعمتهم في الصباح مثل كل يوم.. لكن مات الصغير الذي أحبه..

دخل سالار في البئر منذ ساعة يبكي مع أولاده الذين لا أعرف عددهم حتى اللحظة. كان الصدى مؤلماً لبكاء يأتينا بشجن حزين جداً..

تحول الغناء إلى بكاء مرير في لحظات مشحونة بالحزن حتى خلتُ اني لا أفهم اللغة التي تخرج من البئر مشحونة بالبكاء وصراخ الأولاد وذعرهم.

تشاورتُ مع الرجلين في كيفية دفن الصغير قبل أن يعرف جماعة الحسبة ويكشفوا سر البئر.. فصار الاتفاق بشكل سريع أن نحفر القبر في الفسحة التي تقع خلف البيت قريباً من البئر من دون مراسيم ولا دف ولا ناي ولا حضور كوجك فالأمر معقد وصعب ومخيف ايضاً في مثل هذه الظروف.

لا يوجد أي رجل دين في المدينة. ذبحوا من قبضوا عليه وهرب من حالفه الحظ وقت الغزو.. هذا ما كنتُ على يقين منه.

لا يمكن حفر القبر دون أن يضرب الكوجك أواحد أحفاده الضربات الثلاث الأولى على الأرض.. يا أيزي، يا خودي، ياطاووس ملك[1] لكننا اللحظة في وضع ملتبس. علينا أن ننسى كل شيء. شجعتهم أن يقرأوا شيئاً مما يحفظونه في مثل هذه الحالات.. فنحن في خطر أيضاً.

---

(1) معناها (يا الله، يا الخالق، يا نور الخالق)

حفر الشاب في المكان المقرر وساعدته أنا وأحد الرجلين، فيما كان الرجل الآخر يهيئ في المطبخ الصغير مكاناً لغسل الجثة.

وجدت في نفسي طاقة للحفر كأنما أحفر ظلي الساقط في القبر الذي يتوسع بالتدريج ويهوي به.

تم كل شيء بسرية وهدوء. أخرجنا الولد الميت بصعوبة. كان أخوته من قعر البئر متشبثين به. كان صغيراً في العاشرة من عمره أو أكثر بقليل. رأيت وجهه محفوراً بندب سوداء تغطي كل وجهه كأنما عثة قد أكلته فضاعت معالمه تقريباً. عيناه مأكولتان بالجذام.. دود اسود ناعم وحشرات بيضاء أصغر من النمل كانت تخرج من جروح وثآليل في وجهه وجسده وعينيه.

انه مرضٌ غير الجَرَب كما أعتقد..

الحروب تنتج أمراضاً لا يعرفها الطب ولا الأطباء..

لم أحتمل أن أراه عارياً حينما غسله الرجل وكفنه بقميص وتم دفنه وإهالة التراب عليه وتسوية القبر بشكل لا يلفت الأنظار..

كان سالار مذهولاً وهو جالس امام القبر وكانت جروحي الكثيرة تتفتح أمام الموت والغياب.

خمرة داعش

فزّت المدينة على أصوات إطلاقات نارية بدأت منفردة ومتفرقة ثم تكاثفت مع إطلاقات الدوشكات المتتالية واشتعل الفجر البارد بمذنبات المقذوفات المتطايرة من كل مكان فأحدثت ضجة كبيرة ضخّمها الفجر الصامت والحياة الساكنة، وظل الصدى يعيد الأصوات بشكل بطيء كما لو إنّ معركة تجري في مكان ما.

لم يكن بوسع أحد معرفة ما يحصل حتى أطلّ الصباح وأمكن من السطوح مشاهدة جنود الخلافة يمسكون الشوارع الرئيسية بسيطرات راجلة، فيما تتوزع سيارات عسكرية وهمرات على مفترق الطرق بما يوحي إن شيئاً ما حدث مع انبثاق الفجر وقبل طلوع الصباح.

خفّ إطلاق الرصاص كثيراً الا من إطلاقات منفردة بعيدة بين دقيقة وأخرى ثم عاد الهدوء إلى الصباح نسبياً.

لم يكن سالار نائماً كما أحسب، فمنذ وفاة ابنه أصابه الأرق فامتزج ليله بنهاره يكتنفه الحزن والخوف وبقي أولاده الآخرون يتناوبون في البكاء بدلاً من الغناء الذي اعتدته كل ليلة تقريباً. فكان يغيب في البئر وقتاً أطول بينهم ثم يخرج عابس الوجه متجهماً وأكثر من دمعة عالقة على لحيته.

منذ اسبوع وأنا أفتح بسطته في السوق ينتابني غموض كما لو اني فقدت سحر الوثيقة الزاجلية السماوية التي أكرمني بها الرب ذات يوم في الجبل. اشعر بالنحس منذ غياب الفتى الذي طال كثيراً. وبدأت نشتُمان لا تظهر كثيراً في رأسي. وعلى نحو ما خطرت ببالي الراهبة نالين التي فقدت ربما ايمانها في لحظة الجبل الأخيرة، فتعرّت في الساقية المندفعة ولا أعرف ماذا حصل بعدها.

كلما أطرد شبح الرجل الذي أسقطوه من المنارة وفتتوا رأسه يعود المشهد لي ليلاً فيؤرقني ويشعرني اني ضعيف أكثر مما يجب.

لا يفارقني عيدو أبداً. أراه في السوق والشارع والأزقة ومواقده المتنقلة في المكان. تفجعني نهايته فتعود لي رائحة شواء كريهة تطوف في روحي قبل أن تطوف في المدينة وأزقتها.

سالار المصدوم بولده تحول في بحر أسبوع إلى كائن لا يشبه سالار الأول. صار رجلاً من كآبة. منفوش الشعر واللحية. يحتسي الخمر بإفراط ويكلّم نفسه كثيراً في الليل وفي النهار يجلس أمام القبر خلف البيت ويبكي حتى يستدعيه بقية الأولاد ويبكون معاً في قعر البئر ساعاتٍ طويلة.

تركت البيت بعد ساعة من الرمي حينما هدأت المدينة وأخرجت الشمس بعض الناس إلى أعمالهم هنا وهناك. ومثلما توقعت كانت السوق شبه فارغة وجنود الخلافة المكلفون بحماية مركز المدينة ينتشرون في كل مكان والسيطرات المتقاربة تدقق بهويات المارّة القليلين.

دخلت السوق وفي رأسي ألف قصة ملتبسة وألف سؤال لا حلّ له في هذا المكان المنسي.

أقول لنفسي: سنجار تحتاج إلى بناء جديد بعد داعش. بناء الإنسان المفصول عن روحه وذاته وطريقته في الحياة. كلنا نحتاج إلى جدولة أخرى وترميم آخر وجذر جديد ينبت على أرضٍ صالحة للإنبات؛ فهذه الأرض أصبحت مدنسة. مزروعة بالدماء ولن ينبت فيها شيء صالح بعد الآن.

تينُها أضحى عفناً وخبزها لا تأكل منه الطير وبصلها مُر وهواؤها عليل ومطرها سموم وناسها حلّ الخرابُ بهم.

ينفتح الصباح مع الشمس التي تخرج كل يوم فتكشف المدينة المتراخية والناس الأسرى الذين فقدوا الصلة في الحياة بطريقة فوضوية ثم استتابوا وانتظموا تحت راية غريبة بداياتها رعب ونهاياتها دم ولا فاصلة وسطية بين الرعب والدم في الإنسان الرخيص عندهم.

يسألني العجوز العصبي المجاور عن غياب سالار لبسطته منذ أيام فأقول

له ذهب لزيارة أمه المريضة في قرية زورافا، ويأتي جنود يتشممون المكان مثل الكلاب ويبحثون عن اشياء وهمية في سوق تعيس وناس أتعس حالاً منه ويمضون بين البسطات ينقبون ربما عن النفط الذي فسد في أرض الوطن.

يمثل الشرطي دلشاد دور الخبير بكل شيء ولا يلتفت لي ويتبع جماعته، لكنه يعود يقلّب في التين الذابل ويتكلم مع تينة في يده بصوت منخفض:

- مجموعات من أيزيدخان نزلت من جبهة شرفدين واقتحمت مقر القيادة وقتلت عدداً لا أعرفه بالضبط وهربوا بسيارات عسكرية مشابهة لسيارات الجماعة.

يعض التينة ثم يرميها ويمضي. لكنه يستدير من دون أن ينظر لي ويقضم تينة أخرى:

- بين القتلى قائد مصري ملعون..

يبتلع التينة ويمضي.

عصا سنجار

سألني عن العصا وهذه أول مرة يسأل عنها.

كانت مركونة في زاوية المطبخ كأي شيء لا يشغلني وجوده كثيراً.

كان قد جلبها إلى البيت قبل حرق عيدو ببضعة أيام ولم يقل شيئاً سوى انه قال احتفظي بها فقد أحتاجها فيما بعد.

احتسى دلشاد قليلاً من الويسكي علامة الحصان الأسود، وهو ضمن المخبوءات والمدفونات الحرام التي تعاقب عليها دولة الخلافة، لكن آزاد شرطي في ديوان الحسبة لا يصل الشك اليه لذا فهو في مأمن من المداهمات المفاجئة.

لديه من يجلب له الويسكي وعرق بعشيقة والجن الأبيض والبيرة الهولندية والعرق اللبناني بين فترة وأخرى فيكبسها تحت الأرض في آخر البيت.

جلبت له العصا القديمة الغليظة ووضعتها إلى جانبه. كانت رائحة ما تحيط بها وقد تقشرت واكتسبت اكثر من لون حائل.

تحيط بها كتابات ورسومات بدائية ورموز وشخابيط ناعمة وفوضوية وأقواس ودوائر كاملة أو ناقصة وعلامات غير مفهومة وكتابة فوق كتابة.

لم أكن قلقة من شيء وأنا أهيء له المزة وأحاول التنويع فيها. كنت أريده أن ينسى ما هو فيه من تعنيف روحي يمارسه كل ليلة فينشطر إلى دلشاد وعبدالحافظ وتبدأ نغمة العذاب الذي أعرفه يشرخ روحي في هذا الجو الأسير المحاط بالخوف والحذر.

تناول العصا وأخذ يتفحصها بعناية.

كانت طويلة نسبياً ولها رأس مفلطح ينتهي بقمة مدببة.

شمّه دلشاد وقال:

- في رأسها رائحة موت حجي خان الأفغاني.

ثم قرّبها لي كثيراً:

- شوفي.. هذه بقايا دمه اليابس لعنه خودا..

انصرفت لشؤون الولدين قبل أن يناما وكان الجو أكثر برودة الليلة وتركت دلشاد مع عصاه وخمرته التي يتناولها في أيامٍ متباعدة.

وجدته أكثر من مرة يدقق بالرسوم والكتابات والرموز الكثيرة التي عليها وينقلها إلى ورقة صغيرة وهو شديد الاهتمام بكل شيء صغير عليها.

خطر ببالي ان اختصاصه هو التاريخ فقد يجد شيئاً ما لكني صرفت النظر عن هذا فعصا عيدو لا تاريخ فيها سوى انها عصا ليست أثرية أو فيها شيء مثير وأعرف ان دلشاد جلبها من السجن وأودعها في البيت حتى من دون أن يوصيني بالاهتمام الكبير بها سوى أن أحتفظ بها.

- بروشي.. هذه عصا سحرية وأثرية!

ضحكتُ وعددتُ الأمر بفعل الخمرة التي مضتْ في جسد دلشاد، لكني كنت سعيدة الليلة انه لم يعنّف نفسه ولم ينقسم إلى شخصين يمارسان أدواراً مضادة مع بعضهما لذلك كنت أسأله:

- ماذا وجدتَ فيها؟

- لم أجد شيئاً بعد.. لكني سأجد.. انها عصا فيها تواريخ وأحداث.

- ماذا يدور في رأسك..؟

- عيدو مات لكنّ عصاه لم تمت.

كان يديرها من كل جانب ويريني النقوش المتقاطعة عليها والحروف والكلمات المبهمة باللغات العربية والكردية والتركمانية وبعضها بالإنكليزية وهو قليل.

قربتها أكثر بدءاً من رأسها المفلطح الذي يشبه خيارة دبدوبة تنتهي بنتوء مدبب.

ثمة أشياء ممسوحة وكُتبت عليها أشياء أحدث ورسوم ليست واضحة تماماً..

- ثلاثون سنة من الكتابة يا بروشي على هذه المساحة البسيطة.

- فعلاً.. عيدو مثير كله..
- انها طبقات من الكتابة لأكثر من ثلاثة عقود بدأت من استخبارات البصرة وحتى حرقه..

عبّ دلشاد كأساً أخيراً من ويسكي الحصان الأسود وكان ينظر لي ووجهه يتفتح.

- سأجد فيها ما يمكن أن أجده فعيدو رجل ليس طارئاً على حياتنا..

كان ينظر إلى العصا باهتمام بالغ:

- ستكون هذه وثيقة من وثائق الحروب التي مرت على البلاد والعباد.. أعدك بروشي الحبيبة اني سأجد ما لا يخطر على بالك..

ترك العصا امامه ونظر لي نظرة حميمة بعينين فيهما رغبة قصوى:

- تعالي بروشي..

وكنتُ أتفتح معه مثل زهرة عطشى لمطر غزير..

صقر الحب

نبح الكلب رافعاً رأسه إلى الأعلى متقافزاً في الطارمة كمن يريد أن يطـير فعرفت الحامل ان الصقر يجوب في الفضاء حول السطح بينما كان الجنين يستيقظ ويرفس بطنها بين لحظة وأخرى..

دخل الكلب مسرعاً وقفز سلالم الدرج مرفوع الذيل وكانت الحامل في المطبخ تسمع طبطبة حوافره الراقصة وهو لا يكف عن النباح.

تفقدت العجوز النائمة وهرعت إلى السطح بفرح طفلة تسابق الدرجات وهي تشد من ثوبها الأبيض العريض.

هبط الصقر على الشجرة القريبة من السطح وملأ حضوره الفضاء الصغير المحيط بها..

- .. افتقدتكَ.

هبط قليلا بعض الأغصان رافعاً جناحيه وحيا الحامل وعيناه الواسعتان تنظران اليها بشغف.

- كنت قريباً من جبل سنجار أراقب الأجواء الموتورة فيأخذني الوقت أو يؤخرني القصف..

- احذر من الأماكن التي فيها قتال يا صقر..

- اتذكر وصيتك دائماً..

هبط بضعة أغصان برشاقة وصار اقرب إلى السطح والكلب ينظر اليه ويهز ذيله:

- لم أنسكِ كل الأيام التي فاتت..

كشفت ابتسامتها اسناناً بيضاء مصفوفة بعناية:

- انت صقري الجميل واخشى عليك..

لوى رقبته وتأمل وجهها بعينيها الواسعتين ورموشهما الوارفة فعاد الجنين يرفس بخاصرتها فمسكت بطنها بقوة..

- انت جميلة..

شدّت على بطنها أكثر وأوقفت حركة الجنين:

- وانت جميل ووسيم يا صقر..

ثم اعترفت بهدوء:

- معك أشعر بالحرية والجمال والشباب.. انت صقر أيزيدي رائع.
- أشعر بأن روحي خفيفة معك.. انت مَن تشدّيني إلى المكان.. ومن أجلك لا أغادر شنگال..

ضمت يديها على صدرها واقتربت اكثر من حافة السياج فرأت ألوان جسده وريشه الناصع وعينيه العميقتين كأنما غطاهما كحل من السماء:

- أنت حريتي المفقودة يا صقر.

كانت السماء بنصف غيوم ونصف شمس تظهر وتختفي..

اقترب أكثر فاتحاً جناحيه للعناق فوجدت قلبها ينبض أكثر وهي تغمض عينيها..

شجرة الدين

للدين مائة روح

ديورانت (دروس التاريخ)

وجد المزار منظماً حينما دخل الزقاق المهجور قبل أن يحل الغروب.

كانت شجرة التين الشاخصة خلف الحائط مغطاة بالخرق الملونة المعقودة على جذعها واغصانها كتعاويذ ونذور وشتْ بالأعداد التي تزورها سراً بطريقة فاجأته وجعلته يفكر إنّ في المدينة بشراً أحراراً في هذا الأسر الجماعي الذي يعيشه.

أنعشته الروائح المختلطة في المكان ولفتته أعداد الشموع الذائبة حول الشجرة التي شكلت جداراً من بياض زُرعت حواليه بعض الأغصان المقطوفة والورود التي لم تذبل بعد، مثلما لفتته بعض الكتابات الرمزية والحروف المقطوعة والجمل السرية على جذع الشجرة.

لا يدري لماذا وضع يده على جذعها فتلمس قشورها الباردة كما لمس معظم الخرق المنتشرة بين أغصانها وأوراقها الخضراء ومرّت يده على الكتابات المتعاقبة والحروف المتناثرة ومرموزات الرسوم الصغيرة.

ستثمر شجرة التين بعدما كبرت.. قال لنفسه وهو يتفحص المكان ويرى المساحة الترابية حول الشجرة التي بدا إنّ هناك مَن يهتم بها ويسوّرها بشكل بسيط وبطابوق قديم وبلوك وصفائح معدنية وبقايا اخشاب تحدد مساحتها الصغيرة، فوجد في عقله ان المكان أصبح مزاراً في هذا الظرف الصعب الذي تأسره دولة الخلافة بكل ثقلها اليومي الكابوسي المخيف.

إنه لالش الأسير.. سيصبح هذا المكان معبداً للشنكاليين بعد عودتهم.. هذا دم القتلى والشهداء سيصبح مزاراً ومحجةً وهذه شجرة التين التي نبتت

من دم رجل فقير ومجهول أعدموه بطريقة متوحشة.

فلّ أكثر من عقدة قماش وربطها وهو يتمتم:

هذا لالش الذي وُلِد في الأسر والدم والرصاص والخوف والموت.. إنه بيت الفقير الذي سيكون علامة من علامات البقاء التي تشد الأيزيديين لبعضهم في أخطر محنة بقاء تهددهم.. إنه الضريح الرمزي للأيزيدية أثناء الغزو والاحتلال.. لالش الأسير.. هذا الضريح الحق يا سربست.. هنا نتبارك بدم عفدال الأيزيدي الذي ثبت على دينه لأنه يؤمن بالرب وروح الرب الباقية إلى يوم الدين..

سأنتمي اليك يا عفدال لأنك الحقيقة الجميلة التي ستبقى وتكبر وتجذب الفقراء اليك. يترحمون على روحك الطاهرة وتضحيتك الغالية لأنك ابن الدين الشجاع ولم تنقسم شخصيتك ولم تهتز في هذا الفيضان الداعشي الناري الذي سحق الأرض والعرض وعاث فساداً في الأرحام الطاهرة وأنبت فيها كل نجاسة الأرض وفسادها وعفونتها..

أنت عكسي يا شهيد.. قتلني الحب ففقدت الإيمان بكل شيء وسأفقد كل شيء في نهاية الأمر لكني أعاند نفسي من أجل نشتُمان عذراء سنجار وأميرتها الصغيرة.. عرفتُ الآن ان الإيمان هو الحب والحب هو الإيمان..

التجأت عصافير كثيرة وهي تتزاحم مع آخر الغروب البارد ورفيف أجنحتها يحرّك أغصان وأوراق الشجرة.

لم تكن سابقاً تتوفر بهذه الكثرة يوم أطل على البيت ورأى نمو الشجرة التي تحدثت عنها الحامل..

المدن المهاجرة تهاجر عنها العصافير كما يعرف هذا. العصافير لا تعيش في المناطق المهجورة أبداً. تشعر بوحشة المكان وتخاف. إنها كائنات اجتماعية توجد حيثما يوجد الناس.

استكانت العصافير بين الأوراق وهدأت قليلاً وهو ينظر إلى الفضاء الغائم الذي ينذر بالمطر.

هل هذه دلالة على وجود شنكاليين في المدينة وقد دفنوا أنفسهم في الآبار خشية من الموت والإنقراض؟

انحنى وجلس واتكأ على جذع التينة المتماسك.

جمع بعض التراب بقبضته وعصره، وبيده الأخرى سكب قطرات من مياه المطر المنتشرة حوله فعجنه ودوّره واستخرج طينة صغيرة مدورة بحجم حبة العنب قلّبها بين راحتي يديه لتدويرها.

- **هذه بَراتي[1] الجديدة..**

وكان يتذكر بشكل خاطف انه رمى بُراته الأولى ذات يوم من الجبل في لحظة يأس ولم يعد يتذكرها..

احتضن شجرة التين كمن يبكي قبل أن يحط صقر على أعلى غصن في الشجرة وظل ينظر اليه..

- ما أطيب عطر هذا القبر.. قال الصقر
- هكذا تكون قبور الفقراء. دماؤهم تصير أشجاراً وأضرحةً ومزارات..

هبط الصقر بضعة أغصان واقترب منه:

- سأبلغ الشنكاليين بأن قبر عفدال صار ضريحاً..
- من اين قدمت يا صقر..!
- من جبل سنجار يا عم.
- وماذا هناك..؟
- مهجّرون ومقاتلون وشهداء وفقراء.. و.. وكل شيء يا عم..
- أبلغهم أن ضريح عفدال هو الشاهد على الجريمة وهو الضريح الأكثر قدسية من أي ضريح...
- سأبلغهم..

---

(1) البَراة: عبارة عن تراب من كهف يسمى كهف براة موجود في لالش يُخمّر في ماء العين البيضاء مع قليل من اللّبن لتكون طينة على شكل كرة صغيرة، ويحملها كل أيزيدي كرمزية لدلالات ومعاني اجتماعية مشيرة إلى المؤاخاة والصداقة وفض النزاعات. ويعتقد انها تجلب الغفران والبركة.
الذي يقوم بصنعها هم بابا چاويش (كالراهب) وداي فقراي (الراهبة) والذين يصنعونها يسمونهم شكستيين لالش وتعني المكسورين.

- أبلغ أهل سنجار إن كل أعيادهم يجب أن تمر من هنا.. هنـا لالـش الأسير الذي كبر بدم الفقير عفدال.. قل لهم هنا حجّكم وسعيكم إلى الرب.. طريق الرب لابد أن يمر بالفقراء والمظلومين والشهداء.
- سأبلغهم..
- أبلغهم ان على كل أيزيدي أن يأخذ بُراته من هذا المكان فهذه تربـة شهيد مقدس.
- سأبلغهم.
- أبلغهم ان الدماء التي تتحول إلى مزارات في ظروف الحرب والقتـل والخوف والسبـي هي الدماء الأكثر نقاءً عند الله الرحمن الرحيم.
- سأبلغهم..
- أبلغهم ان هذا الضريح الذي شيده؛ سراً؛ أسرى شنكال من شـجرة تين سقاها دم الشهيد عفدال وفي بيتٍ متواضع نصفه طين هو الـدين الجديد.
- سأبلغهم..
- أبلغهم أن شجرة التين هي شجرة الدين..
- سأبلغهم..
- وسنكتب التاريخ من جديد بعد زوال الغمّة ابتداء من تـاريخ هـذه الشجرة المباركة..
- سأبلغهم.
- وابلغهم أن نشتُمان هي عذراء الأيزيدية كلها.

انسدل المساء بعباءة معتمة كما يراها في الخارج، غير ان المكان ظل يفقّس ضوءاً شفافاً لا لون له وتتورد الشجرة بألوان متعددة خفيفة عكسـت ظلالها الساكنة.

- أنت ابن التين والدين يا سربست..

كان يتلمس طريقه بعد طارمة البيت حينما سمع صوتاً هادئاً يخاطبه.

التفت إلى أكثر من جهة.

كان البيت صامتاً الا من رفيف أوراق الشجرة..

طار الصقر وترك صوته الوتري الذي كان يسمعه في صباحات الحامل..!

- انت ابن التين والدين يا سربست.

عاد الصوت الهادئ يخاطب شيئاً في داخله:

- نعم.. انا ابن التين..

- أنا عفدال.. قتلوني ببشاعة لأني ابن هذا وذاك..

- أهلا يا خال.. مبارك عليك كل شيء..

- لا تفقد واحداً منهما يا سربست..

- أنا...!

- نشتُمان هي الضحية ايضا.. قد لا تجدها.. لكن تبقى نشتُمان هي الفكرة التي ستقوّيك يا سربست وتبعث فيك الإيمان من جديد.. لأنها أمل..

- انها أملي.. نشتُمانتي الصغيرة..

- الفكرة أمل ولكنها تحتاج إلى إيمان كبير ولهذا يجب عليك أن تبقى ابن التين والدين.. ولا تفرّط بواحدٍ منهما..

- أنا..؟

- أنتَ.

2015/1/1

2016/1/1

بغداد

أصدقاء الرواية:

لم يكن لهذه الرواية أن تتكامل ويتعاضد سردها لولا مؤازرة رائعة من صديقات وأصدقاء أيزيديين ربطتني علاقة إنسانية حميمة بهم، فكانوا قلماً آخر فيّاضاً بالمعلومات العامة في التاريخ والجغرافية والدين، ساهم بكتابة هذه المخطوطة عبر وقتٍ طويلٍ من التواصل الفعّال.

شكري ومحبتي إلى الشابة الأيزيدية رهام الشمساني التي كانت تنتابها نوبات (غضب) وهي تقرأ مسودة الرواية فتحتج بانفعال على أفكار شخصية الرواية الرئيسية "سَرْبَسْت" بما يشي بتعصب ديني أتفهمه جيداً، فسربست الذي يناقش الدين ويعترض ويتألم ويكتشف وينفعل ويتراجع ويقترح ويضيف ويحذف ويؤسس هو حالة صحية في مسار السرد وليس خطأ فلا ثوابت في هذا الرأي أو ذاك.

شكري إلى الصديق الأيزيدي الأستاذ كمال الياس الذي ساعدني على ترميم الكثير من المعلومات الدينية فيما يخص الدين الأيزيدي وتواصل معي بشكل يكاد يكون يومياً..

شكري إلى الصديق القاص الأيزيدي نواف خلف السنجاري الذي ساعدني مبكراً بمعلومات تاريخية عن الأيزيدية ومنطقة سنجار.

شكري إلى الشاعر الأيزيدي ميسر الأداني الذي التقيته وقتاً قصيراً في مخيم باعذرا للمهجرين..

شكري إلى الشاعر الأيزيدي آزاد خضر في موقف تضامني حينما منعني أمن محافظة دهوك من دخول المحافظة بدعوى اني "لا أملك موافقة أمنية"!

شكري إلى الشاب الأيزيدي عرفان بوزو الذي مكّنني من زيارة معبد لالش في موقف كنت فيه لا أحسَد عليه.

فرمانات ضد الأيزيدية:

ولاية سنجار

1- أرامل الرواية
2- سربست
3- دائرة الذئب
4- التائب
5- وصايا حجي خان الأفغاني
6- عاريات في صباح الولاية
7- ما تبقى من أرض التين
8- لحية المجنون
9- أجمل السبايا
10- نحن البطن الفاسد
11- جمهورية الطين
12- عرق بعشيقة
13- حية المعبد
14- شهادة غير كافر
15- نجمة شنكال
16- أولادي يغنون تحت الأرض
17- عيدو
18- رفسات الجنين
19- جني يهودي
20- غناء مخنوق
21- قائد ومجنون
22- أمي لا تتكلم وأبـــي يبكي

أنا الراهبة نالين.. أخت الآخِرة

ولاية الموصل

ولاية سنجار

صدر للمؤلف:

(الروايات)

1- شبيه الخنزير (رواية) الطبعة الثالثة - دار سطور - بغداد 2015
الطبعة الثانية 2009 - دار فضاءات - عمّان -
الطبعة الأولى 2004 - دار الحضارة العربية - مصر
2- تجميع الأسد (رواية) الدار العربية للعلوم - ناشرون - بيروت - 2014
3- عجائب بغداد (رواية) الدار العربية للعلوم - ناشرون - بيروت - 2012
4- مولد غراب (رواية) دار الحضارة العربية - القاهرة (الطبعة الرابعة) 2004، ط1 ط2 ط3 بغداد
5- طيور الغاق (رواية) دار الشؤون الثقافية - بغداد - 2000

(القصص)

1- البار الأمريكي (الطبعة الثانية) دار سطور - بغداد 2015
الطبعة الأولى - دبي - 2007
حازت على المرتبة الأولى في مسابقة دبي الثقافية
2- المعدان (الطبعة الثالثة) دار سطور - بغداد 2015
3- عكس المقص - دمشق - 2000
4- بيتنا - 1990 - بغداد - دار الشؤون الثقافية
5- جذوع في العراء - 1988 - دار الشؤون الثقافية
6- اصابع الصفصاف - 1987 - دار الشؤون الثقافية
7- ذلك البكاء الجميل 1983 - دار الشؤون الثقافية

كتب أخرى:

1- جماليات الكتابة - دار ميزوبوتاميا - بغداد - 2015
2- دليل العاشقات - نصوص - دار نينوى - دمشق 2015- طبعة أولى

دار سطور – بغداد – 2015 – طبعة ثانية

3- برلمان تحت الصفر (سياسة) – بغداد – دار الجواهري – 2014

4- أصابع السرد – دار ميزوبوتاميا – بغداد – 2013

5- الهندوس يطرقون باب السماء (ادب رحلات) – طبعتان في أبو ظبـــي

ودمشق – 2010 و2011

حاز على جائزة ابن بطوطة لأدب الرحلات 2010

6- انفجار قلب – بغداد 20007

7- فصول الحصار- بغداد 2000

8- انفجار دمعة – طبعة ثانية – دار عشتار – القاهرة – 1998

طبعة أولى – بغداد- 1994